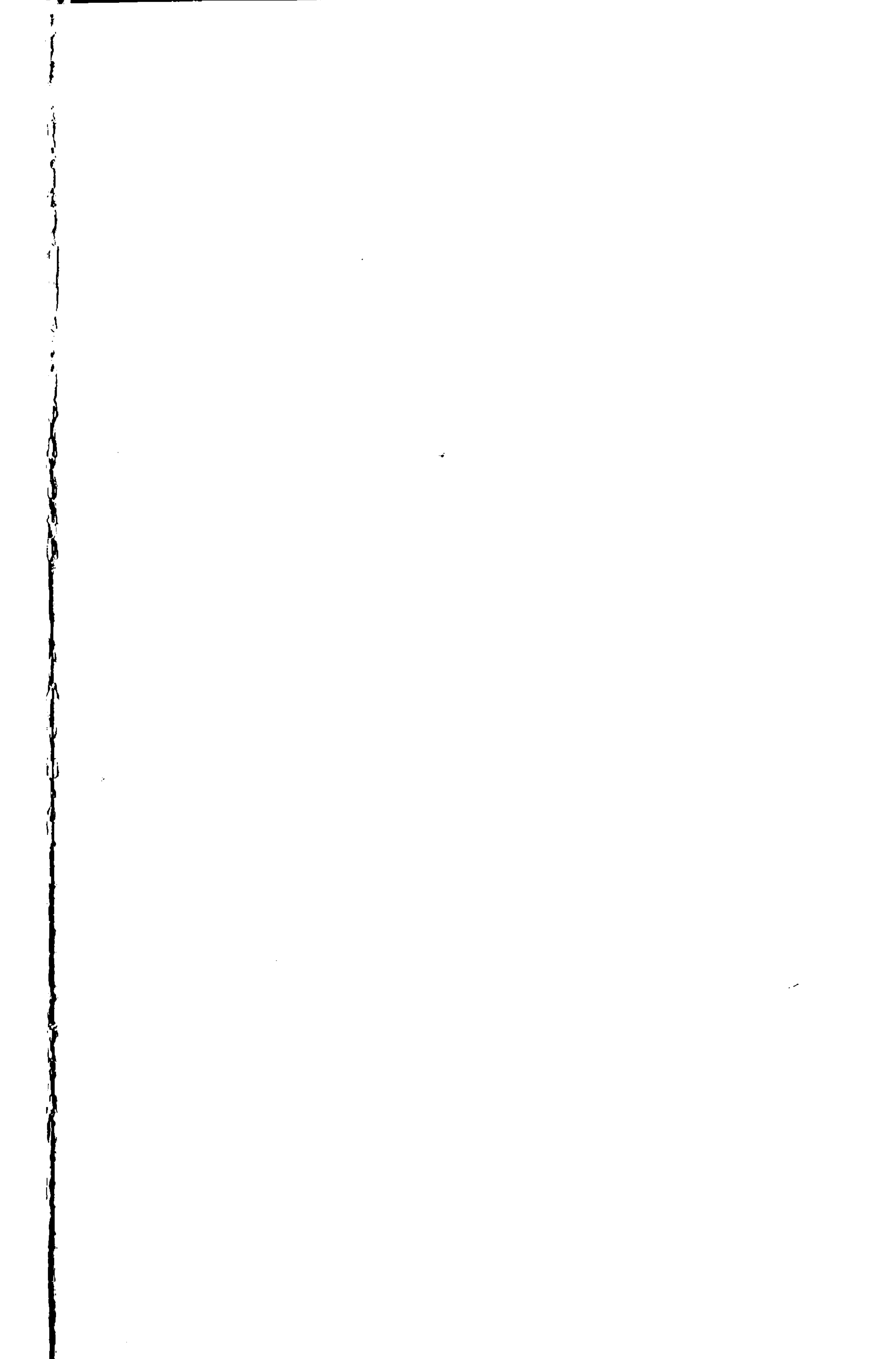
حنان علي علي الشرشني

أسرار فتاة قطرية

من واقع الحياة

الطبعة السادسة
قطر 2015



أَسرار فَتاة قَطرِيَّة

مِنْ وَاقع الحيَاة



حنان علي علي الشرشني



أَسرار فَتاة قطرِيَّة

مِنْ وَاقِع الحيَاة

بقلم:

حنان علي علي الشرشني

صورة الغلاف:

محمد نيروز

الطبعَة السَادسَة

قطـــر ٢٠١٥

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

2011 / 240

الرقم الدولي (ردمك)

978-9953-542-68-3

الـ E-mail الخاص بالمؤلفة:
hayaredrose@gmail.com

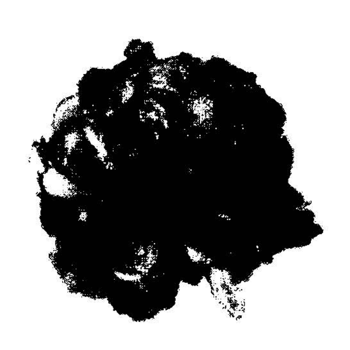
...إهداء...

إلى كل عين سكبت دمعتها في راحة كفي ..

إلى كل قلب باح بسره المكتوم وأستأمنني عليه..

إلى كل روح قوية ضعفت وسلمت نفسها إليّ ..

أبي العزيز أهديك ثمرة تعبك معي..



البداية

عندما كنتُ في الرابعة عشرة من عمري .. كنتُ أحبُ كثيراً حصة التربية البدنية .. فقد كنتُ متميزة جداً في القفز .. كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا ألمس بمشط قدمي القطعة الخشبية التي تدفعني عالياً نحو السماء .. فأجد نفسي أعانقها وأتنفس السعادة للحظات فتغمرني وقتها نشوة عارمة أتمنى حينها أن أظل في الهواء فترة أطول .. ولكن ما أن تطأ قدماي الأرض كنت أتمنى إعادة القفز مرة أخرى .. حينها اكتشفت مدرستي أن قفزاتي في كل مرة تصبح أبعد وأطول وخطواتي تكون أقوى وأصلب من كل مرة .. كان ذلك يبعث السرور في نفسها ويخطف إعجاب زميلاتي وتصفيقهن .. لم تكن تدري مدرستي أنني في كل مرة أحلق فيها أكون في فضاء خاص بي بعيدة عن عالمهن .. أغمض عينيّ وأجلس في وسط غيمة قطنية بيضاء صافية كصفاء قلبي الطفولي .. اجتمع بأحلامي .. أسافر معها دون أن أتدارك الوقت وفي ثوانٍ معدودة.. أكون قد عدتُ إلى الأرض يقيناً مني أنها ستحتضن جسدي في قلبها يوماً ما..

لم أدرك سر تلك القفزات وما تأثيرها على حياتي المقبلة آن ذاك .. لم أعرف أنني سوف أبعد في كل مرة لفترات أطول وأرجع أكثر صلابة وقوة عن ذي قبل.. لم أتخيل أنني أستطيع فعلها ووحدي.. لكنني فعلتها رغم ضعفي وخجلي .. كنت ككل قطرية خجولة.. أخشى النظر في عين ناظري .. أطأطئ رأسي في حياء..

الحياء.. هو السمة التي تربينا عليها كقطريات سواء في المدرسة أو في البيت يردد على أسماعنا هذه الجملة دائماً «التزمن بالحياء» (فالحياء قطرة إن ذهبت .. ذهب معها كل شيء).. تمسكن به وربين بناتكن عليه .. وبعدما كبرت وأنا الآن في نهايات العقد الثاني من عمري..أدركت مدى جمالية امتزاج الحياء بالقوة .. والعلم بالجمال فتشبثت بها أكثر وزرعتها فيمن حولي .. لعل ما حفرته السنون في ذاكرتي يستفيد منه غيري من البشر..

في كتابي هذا أحببتُ أن أبوح بشيء من أسراري .. المدفونة في محيط سحيق داخل أعماق بعيدة .. كحبة لؤلؤة وسط محارة ضئيلة تعيش بين طياتها..منذ زمن ليس بقريب.. وصعبٌ جداً الوصول إليها ، ذلك المكان هو قلبي ..

وأيضاً مخافتي من أن يأتي يوم ، يتوقف فيه قلبي عن النبض.. وتموت معه أزهار حكاياتي.. فآثرتُ مشاركة شذا عطرها معكم .. فكثيرون ممن حولي يصفونني بشهرزاد.. فحكاياتي

وأسراري لاتنضب أبداً ومن يدري إن توسدت التراب يوماً ستكون لأسراري بقية..

هل ستكون أسراري أحافير باقية من زمن جميل ، كانت تعيش في ثنايا الأمس .. وها هي الآن ستغنيكم عن تذوق مرارة الألم ، الذي قد أكون عايشته في إحدى حكاياتي .. وتمهد لكم السبيل في استشعار حلاوة الحياة عندما نجعل الله نصب أعيننا، راضين بما قسمه لنا.. متيقنين من حصولنا على هدية من هداياه يوماً ما.. حتى وأن كان ذلك اليوم هو آخر يوم في عمرنا .. فسيغمرنا الله فيه بالسعادة ..

قد نُقش على جبيني أن أرى وأعيش أحداثاً.. جميلةً.. لذيذةً .. أليمةً .. مخيفةً وغريبةً في بعض الأحيان .. تلك هي الحياة .. فيلم طويل .. وأحداث متنوعة بألوان الطيف.. سرها السرمدي أنها بلا نهاية ..

ومن هنا أود أن أفشي لكم بعضاً من أسراري وقد تكون أسراراً لأناس أحبوا أن يودعوها في قلبي عندما وجدوا الأمان والحنان فيه، سأسردها كما خاطتها أنامل القدر، بلا بهرجة أو زيف.. متمنية أن تعيش في وجدانكم مخلدة كحكايات شهرزاد ذات الألف ليلة..



حكاية الزهرة الأولى

(أنا امرأة ولدتُ وفي فمي تذكرة سفر) هذه مقولة للأديبة غـادة السـمـان .. كـثـيـراً مـا أرددهـا وكـثـيـراً مـا تـنـطـبـق عـلـيّ .. فالسفرعشقي الأزلي .. حتى وإن خيروني بين أمورعدة وتذكرة سفر.. سيقع اختياري على الأخيرة بلا أدنى شك .. ربما كان لقرب منزلنا من أرض المطاردوراً رئيسي في ازدياد هذا الحب اللا محدود.. كنتُ دائماً أتحين الفرص عندما يكون الجو لطيفاً لـمـذاكـرة دروسي فـوق سـطـح الـمـنـزل وكلي استمتاع ونشوة بمشاهدة الطائرات وهي تحلق وتهبط على مدرج المطار القريب جداً منا .. فكنتُ أُمني نفسي يوماً بأن أكون بداخلها .. كان كل من حولي يدرك مدى شغفي لخوض مغامرة السفر وحدي .. كـنـت جـادة فـي الأمـر .. ولـكـن كـل مـن حـولـي لـم يـأخـذوا الموضوع على محمل الجد فهوبالنسبة لهم مجرد أحلام أو فقاعات بلورية هشة تتطاير في الهواء وستنجلي ما أن تصطدم بأرض الواقع .. وسأنساها مع مرور الوقت ..

لم يدركوا أنني في بعض الأحيان أتعايش مع حلمي وأتخيل نفسي قابعة في أرض المطار ومن حولي حقائب كثيرة وفي يدي

أجندة بها مواعيد لرحلات شتى، أجوب بها دول العالم من الشرق إلى الغرب ، أعبر فيها القارات من بلد لآخر .. كان ذلك الحلم ضرباً من الجنون ولكن كنت أتلذذ به كثيراً.. خاصة عندما لا يكون بمقدورنا فعل ذلك في الواقع .. فجميل أن نلجأ للحلم كي نعيشه .. وكوني فتاة قطرية لم تخلتط قط مع أجناس أخرى غيرجنسها .. خيردليل على الفشل المحتوم في تحقيق ما أصبو إليه ..

كنت أعيش في كنف مجتمع أنثوي من المدرسة إلى الجامعة.. حتى أساتذة الجامعة الذكور، كان التعامل معهم على استحياء وعن بُعد .. حتى فكرة قيادة السيارة ووحدي كانت أشبه بالخروج عن أعراف البلد وتقاليده.. وعليّ تحمل تبعات مجرد التفكير في البدعة التي ابتدعتها لنفسي وشجعت عليها بنات جنسي .. والعواقب ستكون وخيمة جداً ،

فمن جهة الأهل ، فقد يكون الرفض باليد أحياناً أو بشكل معنوي أحياناً أخرى .. ومن منطلق آخر كان المجتمع يمنع ظهور أوانتشار صورة الفتاة التي تقود سيارتها بنفسها، وعدا ذلك النظرة الدونية التي ستتعرض لها ، وقد يصل الأمر بالغير إلى إلصاق صفات غير شريفة بها دون مخافة الله .. كان ذلك قبل عشر سنوات من الآن .. وها هي تلك الأيام رحلت مثل نظيرتها..

ولكنني حينها رغم الترهيب والتهويل من الفكرة التي تدور

برأسي .. كنتُ صامدة قوية .. فلن يسلبني أحد حلمي .. ولتُضاف إلى قائمة الممنوعات في مجتمعي ولتكن في مقدمتها.. الطيران .. ثم السينما.. وتليها الممنوعات الأخرى .. أنا لم أمانع أن تكون معي رفقة في رحلاتي .. المهم أن اكتشف العالم الآخر مع وجوه لم آلفها قط في حياتي .. وجوه جديدة .. تعيش معي نشوة التجربة..

البعض من صديقاتي كن يتحفظن في إبداء آرائهن تجاه شيء لم يعشقنه مثلي ، فالاستقلالية وتحمل المسؤولية أهم أهدافي .. ولكن لا شيء مستحيلاً أمام عزيمتي لتحقيق ذلك ..

ومن الأشياء المجنونة التي كنت أقوم بها عندما كنت طالبة في الجامعة.. أن أطلب من السائق أن يعرج بنا كل يوم على المطار في طريق العودة للبيت وكان المسكين يستجيب لمطلبي مراراً وتكراراً.. كان رضي من ذلك إشباع رغبة داخلية بإلقاءالنظرات على المغادرين وهم يهمون بالدخول للصالة حاملين معهم حقائبهم وهداياهم وشيئاً من تراب قطر .. وعندما نقف عند صالة القادمين.. تتراءى لي وجوه أضناها عناء السفر والتعب والحنين للقاء الأهل .. كانت تلك هي قمة المتعة عندي .. فبينما أتابع تلك الوجوه المسافرة بعيون شغوفة أكون قد سافرت معها ، ولكن في عالمي الخاص ..

في الجامعة .. في إحدى المرات وأنا أنتظر قدوم السائق ليقلني إلى البيت ، أمعنتُ النظر من خلال النافذة باحثةً عن

سيارتنا.. فلفت انتباهي أحد الاشخاص يقود إحدى السيارات ويرتدي زياً أنيقاً جداً .. آه إنه طيار.. منذ ذلك الحين صرتُ في كل مرة وأنا منتظرة سيارتي ألصق وجهي بالنافذة .. لتقتنص عيناي الوجوه اقتناصاً ، علني أراه مرة أخرى .. ولحُسن حظي كانت النافذة عاكسة .. فلا تُظهر للناس في الشارع تفاصيل من يكون خلفها .. في تلك الأثناء كانت البنات ممن يعرفن السر .. ينظرن إليّ وهن يتهامسن ويضحكن ، ثم ترفع إحداهن صوتها ممازحة «يا خوفي اللي أدورينه يطلع مضيف مهب طيار» أجيبهن بثقة متناهية.. «أهم شيء الاثنان يطيران في الجو وراح نسافر معاً حول العالم».. بعدها كانت تجلجل بالمكان أصوات ضحكاتنا العاليةً ، فكانت البنات يعرفن سبب وقوفي وتحديقي لساعات طوال في النافذة ، لأنني أخبرتهن بالسبب ..

في أحد الأيام كنتُ في مكتبة الجامعة ، واقفة بين الأرفف المكتظة بعناوين كتب شتى.. لحظتها كنت في عجلة من أمري.. وما أن هممت بالخروج .. حتى شدني إلى الداخل عنوان كتاب على رف متهالك بعض الشيء كان العنوان (رحلات حول العالم).. للكاتب أنيس منصور.. حينها وسدتُ الكتاب بين راحتي وأخذتُ أتصفحه في عجالة.. ظهر لي بين صفحاته هذا العنوان «طائرة إميلي» أشعل هذا العنوان جذوة فضولي .. فبدأت أقرأ بنهم دون ملاحظة الوقت .. أملاً في معرفة حكاية إميلي وطائرتها ؟؟

أسرار فتاة قطرية

كانت إميلي شابة أمريكية في مقتبل العمر تعمل مدرسة للغة الإنجليزية لأطفال المدينة التي تعيش فيها لسنوات.. حينما كانت إميلي طفلة أثناء تجوالها في حقول اللافندر العطري ، حيث أمضت طفولتها هناك.. شد أسماعها صوت مدوٍ يملأ الأجواء ضجيجاً صاخباً .. ما أن رفعت رأسها حتى رأت طائرة عمودية بمراوح بدائية تحوم في السماء الصافية ساحبة خلفها خيوطاً بيضاء من دخانها الكثيف .. فبدأت تركض نحوها وتتسابق معها وتتعالى مع صوت أزيز محركها المزعج ضحكات إميلي البريئة .. حينها كانت لا تدري لماذا يغمرها هذا الفرح عندما تشاهد الطائرة محلقة فوق رأسها ؟؟ ومع الزمن اختزنت هذه الصورة في ذاكرتها.. مما جعلها في حالة عدم رضا وقبول لما آلت إليه .. فما وصلت إليه لم يكن مبتغاها .. لم تطمح إلى أن تكون مدرسة وتعيش حياة اعتيادية ككل البشر .. كان هناك شيء ما فيها يكبر دون أن تعرف ماهيته.. لم يرد في خلدها أن تكون قيادة طائرة مهما كان نوعها أو حجمها هي جُل همها ومطمحها .. وفي عصر يصعُب فيه تخيل قيام امرأة بذلك.. قاومت رغبتها وحاولت كبح جماحها ولكنها أدركت في نهاية الأمر أن ذلك هو ما تريده .. وفي أحد الأيام بكل شجاعة وهدوء دخلت مكتب استخراج رخص قيادة الطائرات.. وأفصحت عن مطلبها «أريد أن أقود طائرة» علامات التعجب والاستغراب بدت واضحة على وجه متلقي الطلبات.. فقد كان الأمر مستهجناً وغريباً.. فتاة وتريد قيادة طائرة.. ولكن بعزمها وإصرارها على الحصول على ما ترنو

إليه نفسها .. حصلت عليه .. وتم تدريبها من قبل طيارين أكفاء مدة كافية حتى استطاعت أن تقود طائرتها وحدها وتجوب المحيطات وتعبر القارات بطائرة عمودية صغيرة ..

في الثلاثينيات من القرن الماضي .. كانت تعتبر إميلي حدثاً عالمياً مهماً أولاها الإعلام جُل إهتمامه.. فكانت ترتقي من إنجاز إلى آخر كالفراشة .. فتارة تكتشف في أفريقيا .. وتارة أخرى تعبر على أحد أكثرالمحيطات عمقاً (الأطلسي) إلى أن حطت بطائرتها على أرض الهند عابرة بذلك المحيط الهندي .. وها هي الآن وصلت الهند وقد خرج الجموع لاستقبالها في رحلتها التاريخية .. وهناك من بين الجموع اقتربت منها إحدى الفتيات الصغيرات قلدتها إكليلاً من الورود ووضعت في راحة كفها حجراً صغيراً.. وهمست في أذن إميلي قائلةً: «هذا الحجر ليحفظك من الشرور» وطلبت منها أن تحمله معها كلما رغبت بالسفر.. ابتسمت إميلي في وجه الصغيرة مداعبة خدها بحنان.. قائلة لها: إذن تعتقدين أن هذا الحجر الصغير جداً سيحفظني .. لن أخذلك سأحمله دوماً معي لا ليحفظني ، ولكن لأنه هدية وذكرى من أرض الهند .. وأدركت وأنا أقرأ الكتاب أنه كان يعرض المعتقدات والأشياء الخارقة التي قد نغفل عنها حيناً أونتجاهلها فتحدث تغييراً فينا وفي حياتنا ومع مرورالوقت نكتشف مغزاها .. كان ذلك الموضوع هو المحورالذي يدورحوله الكتاب .. ولكن بقية القصة أن إيميلي كانت تحمل هذا الحجرمعها في جميع رحلاتها وكانت ترجع منتصرة في كل

الأحوال .. إلا الرحلة الأخيرة ، حيث تقاعست عن حمله في جيبها هذه المرة.. في هذه الرحلة الغريبة تعطلت أجهزة الإرسال والملاحة عن العمل وتوقفت المراسلات مع من على الأرض وبذلك عجزت عن تحديد موقعها وهي تطير فوق المحيط.. ولكن لم يتوقف نداؤها في السماء أملاً أن يجيبها أحدهم على الأرض ولكن لا مجيب .. فأصبح طريق العودة مبهماً لها ، فأخذت تسبح في الفضاء الواسع بلا هدف وبلا دليل .. فبدت لها الأرض قيعاناً بأعماق سحيقة مظلمة ومقفرة .. ولكن عندما قلبت نظرها نحو السماء كانت تتلألأ بالنجمات والثريات فاحتضنت إحداها واختفت معها..

بقيت قصة إميلي علامة بارزة على جبين التاريخ ولكن قليلاً من الناس من يذكرها.. ولكن الأجمل فيها انتزاع الأحلام من الخيال وتحقيقها على أرض الواقع .. جعلتني تلك الوريقات المعدودة في ذلك الكتاب العجيب الذي قرأته في عجالة .. أقطع على نفسي عهداً بالرجوع مرة أخرى للمكتبة لاستعارته .. ولكن للأسف لم أجد الكتاب على الرف مرة أخرى .. كررت محاولات بحثي عن الكتاب ولكن دون جدوى ، فقد اختفى بين ألوف الكتب.. مثلما اختفت إميلي في عرض المحيط .. وبقيت حكايتها محفورة في ذاكرتي بحروف من نور.. تروي لي قصة بطلة عشقت التميز وثابرت من أجله.. ولكنها حبيسة ذلك الكتاب ..

ولكن في ٣٠ أكتوبر سنة ٢٠٠٩

كان هناك حدث بارز يدور في الدوحة وهو افتتاح أول مهرجان سينمائي في قطر ، كان هذا الحدث غريباً من نوعه بالنسبة لي ولمجموعة قليلة من بنات جنسي ، ففكرة دخول صالة السينما من الأمور غير المستحب ذكرها أمام أهلنا بالأخص .. فكيف بحضور مهرجان للسينما بوجه عام .. فقد جاء فكرة افتتاح مهرجان ترايبيكا السينمائي الذي زرع مفهوماً جديداً لنا فقد كان شعار المهرجان «السينما هي الحياة».

ومن الذي لا يحب الحياة ويعشقها ..

فبالنسبة لي كانت الأفلام هي المتنفس الثاني لي بعد الكتب .. فمن خلالها كنت أعايش الشخصيات التي كنت قد قرأت عنها في بعض الكتب ورسمتها في خيالي بريشتي المتواضعة .. فأستمتع جداً وأنا أراها بهيئة صور حية أمامي على شاشة فضية ، فما أن تمتزج القصة بالموسيقى التصويرية .. تسحبني تلك الأجواء.. لتنتشلني إلى فضاء أوسع .. حيث تسمو فيه روحي وتنتشي .. فأحس بالحرية والشفافية بعيداً عن قيود الحياة ومشاغلها ..

كانت عيناي تكذبان ما أرى .. فتلك الاستعدادات الضخمة جداً.. وذاك المسرح العظيم واقف أمامي ، تتصدره فرقة أوركسترا عريقة .. تعزف أرقى الألحان وأعذبها .. حيث كانت

تلك المعزوفات تجعل العشب الأخضر الممدود أمامي يتمايل رقصاً مع النغمات ومع النسمات الممزوجة بعبير البحر المنعش.. كنت أعيش حلماً لا أريد أن أصحو منه .. فالألحان الشجية من حولي كانت تقلب صفحات ذاكرتي الموسيقية صفحة صفحة.. وكل معزوفة لموسيقى تصويرية لأي فيلم من الأفلام كانت تدير شريط الفيلم أمامي وتعيدني للوراء لأيام المراهقة ، حيث كنت أشاهد أفلام السهرة خلسة عندما أتأكد أن كل من في البيت قد نام وغط في سابع نومة .. ولأنه كان عليّ أن أنام باكراً لأصحو مع نجمات الفجر لأنتظر باص المدرسة ولأن سائق الباص لا ينتظر أحداً ولا يقبل أي تأخير.. فعليّ اللحاق به .. قبل أن يعرفوا سبب سهري «فالباص و لا العار» تلك هي مقولة صديقتي الشهيرة .. فكنت بكل هدوء وخفة.. أدير أزرار التليفزيون مقلبة بين القناتين الموجودتين في التلفاز.. فأما قناة ٣٧ والتي هي باللغة الإنجليزية وهي التي بكل صراحة السر الحقيقي وراء تفوقي في تلك اللغة .. ولشغفي بمتابعة الأفلام والبرامج .. كان إخوتي يعلمون أنني أحفظ عن ظهر قلب جدول برامج اليوم والسهرة أكثر من حفظي لجدول دروسي في المدرسة ، ولذلك يلجأون إليّ كلما اختلط عليهم موعد أو اسم أحد الأفلام والبرامج.. فالإجابة الشافية والوافية بالتأكيد عندي.. وعندما أبدأ بتغيير القناة إلى قناة تلفزيون قطر.. فتظهر لي المذيعة المصرية هدى عبدالقادر «الله يذكرها بالخير» وتقدم فيلم السهرة الذي يكون عادةً من أفلام النخبة ، سواء العربية التي

كانت عادة بالأسود والأبيض كل سهرة يوم الإثنين أوالأفلام الأجنبية العالمية التي قد تكون فائزة بجوائز لم أكن أعرف قيمتها آنذاك.. ولكنني كنت أشاهد الفيلم وأعيش سهرة ممتعة ، كما تمنت لي المذيعة ولجميع المشاهدين .. وفي الصباح الباكر أكون في سباق مع الزمن .. حتى لا يفوتني الباص وما أن أصل إلى المدرسة حتى أسرد على زميلاتي المقربات قصة الفيلم الذي شاهدته البارحة ، إما خلسة أو بمشاركة والدي الذي كان من محبي أفلام الكاوبوي وكان أول الذين بث فيّ حب الأفلام .. وبينما أنا أسرد لهن يلفت انتباهي مشهد انصاتهن الشديد لي ومعايشة كل جملة أو تعبير أذكره .. فيبدون لي كأن على رؤوسهن الطير.. جامدات كالتماثيل من حولي ، عيونهن فقط هي التي تتحرك وترمش إنما كل كيانهن فكان معي .. ولكن الشيء المؤكد أن بعد كل إجازة أسبوعية كنا نجتمع معاً لنتشارك في نقد وسرد الأفلام التي شاهدناها يومي الخميس والجمعة بإسهاب وتفصيل وكأننا نقاد عالميون ، أصحاب خبرة ، لنا باع طويل في صناعة السينما.. فننتقد كل شيء حتى الملابس ، فقد كانت تلك الشاشة الصغيرة هي عالمنا البرىء والذي نسافر معه ونتنقل إلى عوالم أخرى وبلدان أخرى .. نتعلم من أناسها كيف يعيشون ونتأثر بقصصهم وأساطيرهم وكثيراً ما كنا نتعلم لغتهم ومصطلحات لهجاتهم ..

كانت الأفلام بالنسبة لي النافذة التي أطل من خلالها على

العالم البعيد المبهم .. وكانت هي الحياة التي أود اكتشافها ..هذه المعزوفات أعادت إلى صفحات ذاكرتي.. لتتذكرأفلام (دعاء الكروان) (ذهب مع الريح) و(الدكتور جيفاغوا).. وغيرها من الأفلام .. وأذكر وأنا جالسة مستمتعة بالعزف .. كانت إحدى الفتيات تحاول أن تحزر معي أسماء الأفلام وموسيقاها التصويرية .. فتلك الأوتار حملتنا معها إلى حيث الذكريات الجميلة ..

والشاشة الكبيرة في فضاء حديقة المتحف الإسلامي .. دفعتني لحضور هذا المهرجان والإصرارعلى التواجد في هذا العرس ، فالأمر كان لي بمثابة التنفيس عن كبت عايشته في السنين الماضية عندما كان حضور فيلم في أي صالة سينما هو ما يقال عنه العيب «فالبنات المحترمات ما يروحون السينما» هذا ما كنت أسمعه من والدتي ..

كان تصويب النظر نحو شاشة ضخمة والجلوس على أحد الكراسي المصفوفة بترتيب معين يعتبران من الأمورالمعيبة منذ زمن وخاصة إذا كنت بنتاً.. ولكن كنت أصارع نفسي قائلة: إذا كانت السينما ثقافة ومتعة فما العيب في ذلك.. فتلك الشاشة الكبيرة في حديقة المتحف الإسلامي والكراسي الخشبية بقماشها المخطط البسيط والمتناثرة هنا وهناك .. أوحت لي بشيء واحد فقط وهو..السينما للجميع..

في البداية كنت أشعر بقليل من الخوف ، فكيف لي أن أتجرأ

وأجلس بين الجموع وأشاهد فيلماً.. في فضاء مفتوح وتكون السماء هي سقفي والنجوم شهوداً على جريمتي الأولى والتي تترتب عليها تبعات أخرى ولكنني كنت مستعدة لخوض تلك المغامرة ، فقد أحضرتُ معي لثامتي كي أغطي بها مفاتني إن أحسست بالخجل.. أو بعيون تحاول استراق النظر إليّ .. ولكن وأنا أمشي نحو الحديقة متوجسة قليلاً .. حتى رأيت جنسيات كثيرة ، ثم لفتت نظري مجموعة من السيدات الجالسات متلفحات بالسواد ، يبدو عليهن أنهن طالبات جامعات المدينة التعليمية.. آه المهم إنهن قطريات مثلي .. وانغرست بينهن وصحت في داخلي «عمار ياالدوحة» يعني هناك فئة تحب التجديد وتطوير الفكر .. فأنا لست وحدي التي أحب الحياة .. وأحب السينما .. حينها أدخلت اللثامة في حقيبتي .. ولم أحتجها بعد.. فلم تعد السينما عيباً..

وأنا أنتظر بشغف فيلم افتتاحية المهرجان .. فضولاً مني ليس إلا.. ظهرت لنا على المسرح مخرجة الفيلم وفوجئت إنها هندية وكانت تشكر كل من ساندها لإنجاح هذا الفيلم وظهوره إلى النور.. وبدورها تهديه لكل نساء العالم المثابرات.. ولكنني عندما سألت الفتاة الجالسة بقربي عن عنوان الفيلم بدا لي أنه أجنبي .. فكنت مندهشة من مشاهدة فيلم أجنبي بإخراج هندي ..وعقدت العزم على ترك مكاني ما أن يتسرب إليّ الشعور بالملل في الدقائق الأولى من فيلم ..

وتوسط الشاشة عنوان الفيلم بخط عريض باللون الأحمر الناري.. إميلي ..

بالتأكيد لم يدر في مخيلتي أن تكون..هي نفسها إميلي .. التي قرأت عنها منذ أن كنت طالبة بالجامعة.. وطبعاً بدوري استبعدت الأمر نهائياً.. فلا أحد يعرف شيئاً عن إميلي غيري أنا وبالتأكيد الكاتب أنيس منصور ..عدا ذلك لا أتوقع أن يعرفها أحد ولكن مع الأحداث التي تجري أمامي على الشاشة .. آمنت بأنها بطلتي .. التي قرأت عنها وعاشت معي في عقلي الباطن .. كنت أراقب كل مشهد من المشاهد وأقارنه بما قرأته .. وبدت لي على الشاشة أجمل بكثير من مخيلتي .. واستدركت قليلاً أن المخرجة .. لم تذكر قصة الفتاة الهندية والحجر الصغيرالذي أهدته لإميلي .. دار بخلدي سؤال .. لماذا لم تذكر هذه القصة ؟ هل لكونها تمس بمعتقدات أحد الشعوب .. فلم تفضل ذكرها أوربما هناك سبب ما منعها من البوح بها في مشاهدها .. المهم حينها كنت في قمة السعادة .. فهاهي إميلي .. تظهر من بطن الكتب لتجسد حلمها أمامي من جديد وأتعلم منها شيئاً واحداً.. أنه لا شيء اسمه مستحيل في الحياة .. وفي أثناء انصهاري مع مشاهد الفيلم .. كان هناك شيء يقطع اندماجي بالفيلم بين لحظة وأخرى .. أتدرون ما كان ذلك الشيء أوبالأحرى ما هو مصدر تلك الأصوات؟ كانت هي طائرات تطير من على مسافات قريبة جداً منا في السماء .. لتخترق سكون الليل بأصوات محركاتها.. حينها ورد سؤال على ذهني .. يا ترى ماذا سيكون شعورإميلي

وهي ترى مسيرة حياتها تعرض على شاشة كبيرة.. في هواء طلق وفي صدر السماء والطائرات محلقة من حولها بيسر وأمان دون قيود أوعقبات مبرهنة للجميع .. أنه ما أجمل الطيران !!

ويا الصدفة التي لم أتوقعها قط.. ففي أحد أيام المهرجان كنت أبحث عن جدول مواعيد الأفلام وأماكنها .. واتصلت بالمنظمين للمهرجان .. فقال لي أحدهم إنه يتحتم عليّ الحضورلأخذ المنشور من بهو أحد الفنادق التي تقام فيها نشاطات المهرجان .. وبالرغم من أن المشوار كان بعيداً عليّ ولكن لم تكن بيدي حيلة إلا الذهاب وأخذ المنشور.. فذهبت رغبة مني في معرفة الأفلام المعروضة خلال أيام المهرجان ثم أخذت المنشور.. وانتظرت عند البوابة ليحضر لي أحد العاملين في الفندق سيارتي من المواقف الخاصة به .. وإذا بي أرى عند الباب مخرجة فيلم إميلي واقفة أمامي تنتظر أحداً ما .. فما كان مني إلا أن تجرأت وذهبت ، حيث كانت واقفة وقدمت نفسي إليها وشكرتها على إبداعها في إخراج الفيلم بهذا الشكل الجمالي الآسر.. وإنني كامرأة قطرية فخورة بها كثيراً.. وبطلة الفيلم إميلي كنت قد قرأت عن قصتها مسبقاً في أحد الكتب ولكن هناك سؤالاً يدور في ذهني وأود أن استفسره منك.. فنظرت إلي مرحبةً بالسؤال فقلت لها: لماذا لم تأتِ على ذكر الفتاة الهندية التي أهدت إميلي حجراً صغيراً وتمنت لها الحظ عند أول زيارة لإميلي لأرض الهند ؟ هل هناك مانع ديني لذلك المعتقد في بلدكم ؟ فإذا بها

تنظر لي مندهشة من الخبر .. وتجيب أنها لم تكن على علم بهذه المعلومة ، ثم قالت لي وهي تدقق النظر نحوي : ليتني قابلتك من قبل وأضفنا هذه المعلومة معاً في أحد مشاهد الفيلم .. وسيبدو شيئاً جميلاً يذكر عن الهند البلد الذي أنتمي إليه .. ثم صافحتني مودعة ، فقد جاء من كانت تنتظره وقبل أن ترحل معه اقتربت مني لتهمس في أذني وصوتها يشوبه الفرح لتقول : اعتبريني تلك الفتاة الهندية التي أهدت إميلي ذلك الحجرالصغير الذي جلب لها الحظ .. فأنا أيضاً هندية وقدمت مسيرة إميلي للعالم أجمع في فيلم يحكي عنها وعن حلمها الذي حاربت من أجله..

تركتني وأنا متجمدة في مكاني غير مصدقة ، فقد اعتراني شعور بالحيرة لما دار من حولي من أحداث .. فكيف لي أن التقي بمخرجة عالمية ذائعة الصيت في عالم السينما لأقف معها وأسألها سؤالاً أرقني طويلاً في ليلة عرض الفيلم ، فوجدت الإجابة منها همساً وكأننا رفيقتان منذ زمن بعيد .. فقد رأيتها بالأمس على المنصة البعيدة تقدم للجماهير فيلمها الذي أخرجته وهي محاطة بحشد كبير من الحرس والمرافقين ويا سبحان الله.. اليوم تقف على مقربة مني بشبر.. دون تكلف أو تصنع .. لنتجاذب أطراف الحديث عن رفيقتنا الثالثة.. إميلي سيدة الحدث..

فإميلي خرجت لي مرة من بين صفحات الكتب لتعلمني درساً في الصمود أمام المصاعب والمعضلات التي تواجهنا حتى نحقق

الغاية التي نصبو إليها ..وهاهي تظهر لي مرة أخرى على شاشة كبيرة في عرض السماء لتخبرني بأنها باقية لم تمت.. فالأحلام لا تموت إلا بموت صاحبها وتقاعسه عن جعلها واقعاً.. وهاهي الآن أصبحت شمساً لا تخبئها فتحات المنخل الصغيرة ..

هذه العبارة كنت أسمعها من جدتي ، عندما كانت تصف لي ماذا تعني الحقيقة..

لتقول لي «إن الحقيقة هي شمس لا يخبئها المنخل» فإميلي هي الشمس التي أشرقت في دنياي لتعطيني دافعاً قوياً لاختراق فتحات الحياة ..



حكاية الزهرة الثانية

عندما كنت أصعد على الدرج لحضور محاضرتي التي كنت متأخرة عنها لدقائق .. لم ألحظ أحد المنشورات الملصقة بعناية شديدة على لوحة إعلانات الجامعة المقابلة لقاعة محاضرتي .. إلا عندما شدتني إليها صديقتي فاطمة .. مصرة على تقديمي على هذه المنحة التي هي من السيدة الأولى في قطر.. كنت أرد عليها ولسان حالي «ألحين تعتقدين من بين كل هالبنات بياخذوني أنا المسكينة اللي لا حول لي ولا قوة» ولأنني كنت واثقة من أنه لا حظ لي في هذه الأشياء وأن كانت الواسطة تلعب دوراً مهماً في تلك الأمور، لم أتشجع للموضوع كثيراً ولكن فاطمة كانت تعلم سر تعلقي الشديد بالسفر.. وتمنت أن أكون ضمن المقبولين لهذه المنحة.. فطرحت عليها سؤالي لأعرف سبب إحجامها هي عن التقديم فقلت: فاطمة لماذا لا تؤزرينني في هذه المصيبة وتقدمين على طلب المنحة معي؟

فردت عليّ بصوت يغلفه الحرج : أنه للقطريات.. وأنا عندي وثيقة سفر قطرية .. فشروط المنحة لا تشملني أبداً .. وعلى الأقل حققي أنتِ ما لا أستطيع تحقيقه .. وسأرى من خلال عينيك

بريطانيا .. صرخت في وجهها بريطانيا .. يا الظالمة.. بريطانيا مرة وحدة .. لماذا تقلبين عليّ المواجع .. فتفاجأت لامتعاضي وخوفي من التقديم على المنحة.. فقالت: ولماذا هذا الفزع لمجرد سماعك أن المنحة ستكون في بريطانيا ؟ فقلت لها .. ألا تعلمين يا فاطمة أن أهلي منعوني بطريقة لطيفة من السفر والالتحاق ببعثتي الدراسية في ألمانيا .. رغم أن والدي هو الذي اختار لي هذا البلد بنفسه لمدى علمه بنبوغي .. حيث وجد أنها البيئة التي تناسبني كثيراً وهوالمكان الذي سأبدع فيه حتماً.. ولكن تراجع عن رأيه عندما وجد الرفض والاستنكار من الجميع .. ولم يرد تحطيم أحلامي وما كنت أطمح إليه.. فطلب من إخواني الدارسين في الولايات المتحدة .. أن أغير بعثتي الدراسية وأذهب إليهم لأكون في رعاية من هم أحرص الناس عليّ وأيضاً لكي لا أتعرض لألسنة الناس وأصبح إحدى نوادرهم في المجالس ..

ولكنهم رفضوا بحجة أنهم لا يستطيعون تحمل مسؤوليتي في بلد غريب وكبير .. فخذلوني .. قبل أن يخذلوا والدي .. وبالتأكيد جاهدت للحصول على مطلبي ، فجلست في البيت دون دراسة مدة فصل دراسي كامل ، وعندما كنت أرافق والدي في زياراته الأسبوعية لعيادة غسل الكلى .. كان يؤلمني منظره وهو ممدد على كرسي أبيض وبجانبه جهاز ذو صوت مزعج يشفط دمه بالكامل ثم يرجعه إلى جسده بعد أن سحب جزءاً من

روحه .. تلك الصورة جعلتني أتراجع وأقف.. تساءلت فيما بيني: لمن سأترك والدي هنا؟ ومن الذي سيعتني به مثلي ؟ هو شمعتي التي أحافظ على ضوء فتيلها من الخفوت فكيف إذا انطفأ .. فسوف يظلم دنياي من بعده.. وانتهي للأبد..

فأقنعت نفسي بهذه الفكرة..أن الوالدين يكونان فرحين جداً عندما يجدان أبناءهما يكبرون أمام أعينهما ، فلماذا القسوة في مفارقتهما ومن أجل ماذا؟ شهادة قد لا يبارك الله فيها ، ثم لماذا التفكير بهذه الأنانية وحب الذات دون مراعاة مشاعر من ربياني صغيرة وعلماني كيف أمسك بالقلم ؟ واليوم بعد أن كبرت وقوي عودي أتركهما وأرحل هكذا دون مقدمات.. والسبب الوحيد هوأنانيتي .. ولكنه العلم الذي حثنا الرسول على إكماله والسعي وراءه .. ولكن كيف يقوى قلبي على مفارقة مريضي والذي هو والدي فهو أولى من أي شهادة في الدنيا .. فاتخذت قرارإنهاء اعتصامي وعدم الذهاب وتركه وحيداً يموت من مرضه بيد هذا الجهاز الذي استهلك قوته واستنفد طاقته.. وسأبدأ معركتي بتخليصه منها بعزمي وإصراري على إيجاد سبيل لعلاجه من هذا الداء المزمن .. وبالنسبة لدراستي فسأستكملها في الجامعة الوحيدة وقتها في قطر وهي جامعة قطر والتي أفتخر بها .. وإن شاء الله وكتب لي القدر إكمال دراستي في المستقبل فسأستكملها مع والديّ .. فرفقتهما هي الجنة ذاتها ..

وخلال سنوات قليلة .. تماثل والدي للشفاء واستطاع زرع

كلى بعد مدة قصيرة وتخلص للأبد من الألم ومن ذلك الجهاز المزعج.. فكان ذلك امتحاناً وابتلاء من الله ليرى مدى صبره على بلائه .. وأما أنا فكما تعلمين في السنة المقبلة سأكون طالبة تخرج والحمدلله ما وصلت إليه نعمة وفضل من الله عليّ ، فلك الشكر يارب على كل شيء.. فردت عليّ قائلة : ولماذا لا تكون هذه المنحة الدراسية هدية من الله على صبرك ربما ، فنحن لا نعرف كيف يدبر الله لنا الأمور لتكون سبباً في تغيير حياتنا كلها.. فلا تأخذي الموضوع باستخفاف ، فمن يعلم ذلك غير ربك .. فقد يكون لك نصيب في هذه المنحة دون أن تدري.. وأنتِ لن تبذلي أي مجهود مضنٍ .. كل ما عليك ملء الاستمارة وتقديم الطلب للجنة القائمة على المنحة الدراسية التي ستكون في موسم الصيف.. استغربت إصرارفاطمة وثقتها في أنه سيتم اختياري من بين عشرات الألوف .. لكن هذه أوامرالآنسة فاطمة وعليّ تنفيذها دون نقاش.. فما أن انتهت الاستاذة من شرح المحاضرة.. حتى أخذتني فاطمة من يدي وذهبنا معاً لأملأ الاستمارة أمامها وأقدمها للموظفة المسؤولة وبدورها أعلمتني الموظفة بأن آخر يوم لتقديم الطلبات سيكون بعد شهر.. فصرت أقترح على زميلاتي كلهن واللاتي أعرفهن من تخصصي أو من تخصصات أخرى ترشيح أنفسهن للمنحة الدراسية الصيفية التي ستكون تحت إشراف الجامعة وإدارتها وسترافق الطالبات مشرفة على دراية تامة بمتطلبات الطالبات وحريصة على سلامتهن في الرحلة .. ولكن لم يتشجع أحد للتقديم على المنحة مثلي ، فالأمر

كان محتوماً دون البت فيه.. فلا أحد يريد أن يواجه الأهل بأمر مرفوض مقدماً .. رغم أننا كنا في سنة ٢٠٠٣ آنذاك ..

المهم ذهبت للموظفة المسؤولة عن تلقي الطلبات في آخر يوم لملء الاستمارات.. لأسألها عن موعد إعلان أسماء المرشحات للمنحة .. فسألتني عن اسمي .. وهي تبحث بين الأوراق والاستمارات التي تخص الطالبات المتقدمات على طلب المنحة ولم تجد أي شيء يدل على تقديمي على المنحة ، لا استمارتي ولا حتى أوراقي .. رغم أنني كنت من أولى المتقدمات لطلب المنحة.. ولضيق الوقت طلبت مني ملء الاستمارة من جديد وإحضار بعض الأوراق المطلوبة بسرعة قبل تسليمها البيانات للجنة المسؤولة عن المنحة .. كنت متعجبة مما حصل ، فلو لم أسأل لما أدركت أن أوراقي ضائعة أصلاً .. فسبحان الله أدركت الأمر في الدقائق الأخيرة .. وبعد أسابيع قليلة انتهينا من الامتحانات وحصلنا على النتائج .. وفي أحد أيام الاجازة إذا .. بهاتفي المحمول يرن .. لأجد الطرف الثاني موظفة من الجامعة تطلب مني الحضور إلى اجتماع في الجامعة ، لأنني من الطالبات اللاتي تم قبولهن ضمن المنحة الدراسية الصيفية في بريطانيا وهذه المنحة مقدمة من صاحبة السمو السيدة الأولى في قطر.. لبناتها الطالبات.. واختفى صوتها .. وبدوري أغلقت الخط ..

وبعد ذلك .. فلا تعلمون ما الذي حصل لي .. فقد أحسست أن تياراً كهربياً قد صعقني وشل أطرافي .. والصمت الرهيب قطع

أوصالي .. فلا أعرف حقيقة مشاعري الآن.. فقد اختلط عليّ كل شيء ماذا أفعل ؟ فإذا فرحت أخشى أن يتم وأد حلمي في قلبي .. وإذا حزنت ، فهذه المرة الثالثة التي يتم فيها كسر مجاديف آمالي.. فالأولى كانت ألمانيا والثانية كانت أمريكا وهاهي بريطانيا الفرصة الأخيرة التي على ما يبدوأنها ستطير من بين يدي وتصبح محالاً .. ترى كيف أفاتح والدي بالموضوع وأفصح له عن رغبتي .. فوالدي إنسان متعلم ومثقف ويحبني ويحترمني كثيراً.. ولكن له أموره التي يتحفظ عليها في بعض الأحيان ولا مجال للنقاش فيها.. وبما أنني في مقتبل العشرين في ذلك الوقت فلا حول لي غير الطاعة دونما اعتراض ..

أمسيت ليلتي تلك في بكاء مرير.. فقد كنت أندب حظي ، لماذا خلقت بنتاً ؟ فلو كنت ولداً لاستبشر جميع الأهل والأصحاب وحتى الجيران بهذا النجاح ولأقيمت الموائد فرحاً بهذا الإنجاز العظيم .. ولكنني بنت.. والبنت عيب يجب ستره..

ثم توقفت عن البكاء لبرهة لأفكر ، فتذكرت السيدة مريم عليها السلام ، فهي كانت أنثى ولم يخجل القرآن من ذكرها وتسمية سورة كاملة باسمها .. والسيدة فاطمة الزهراء لم يخجل الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن ينادوه بأبي الزهراء .. والملكة بلقيس ملكة سبأ ، كل أولئك كانوا إناثاً ولم يخجل القرآن من ذكرهم والفخر بهم .. فلماذا أخجل أنا من كوني خلقت أنثى من ظهر رجل.. فأنا بنت رجل وأخت رجال .. ولا

ينقصني شيء ..

وليس من قال أنا رجل صار ذلك .. فليس بقليلين من رأيتهم في حياتي ..هم رجالٌ بالاسم فقط .. يفتقرون لأقل صفات الرجولة الحقة ، فأحزن عليهم كثيراً.. فالمسمى والظاهر رجل ولكن الباطن معدوم .. واكتشفت في هذا الزمن الصعب رجالاً يفتقرون إلى الشهامة والحمية ولكن وجدتهم في نساء يقال عنهن إنهن ضعيفات..

فقررت أن أواجه مخاوفي .. وأخبر والدي بموضوع المنحة الدراسية .. وأطلب منه أن يعطيني فرصة أثبت فيها قدرتي على تحمل مسؤولية نفسي ولو لمرة ..

كنت خائفة من الخذلان .. فأهمس في نفسي قائلة: ما هذه الورطة التي وضعتني فيها يا فاطمة.. الله يسامحك .. أنا نسيت هذا الحلم منذ زمن ، فلماذا جددتِ الألم فيّ مرة أخرى؟ ودخلت في نوبة بكاء مرة آخرى خوفاً من أن يضيع حلمي وأفقده للأبد.. ولكن إن الله مع الصابرين وأنا صبرت كثيراً.. ولن يخذلني ربي ، فأملي فيه كبير..

في صبيحة اليوم التالي وكان ذلك اليوم هو الجمعة .. وفي أثناء تناولنا الفطور، فاتحت والدي بالموضوع وأنا في خشية من النظر إلى عينيه .. فقد كنت متوترة جداً وأتظاهر بانشغالي بالتقطيع والأكل .. ولكن يعلم الله أن كل لقمة كانت كعلقمة

أمضغها بصعوبة ، متظاهرة له بالأكل فقط .. وليأسي كنت أريد إنهاء هذا الموضوع بأي شكل من الأشكال لدرجة أنني تمنيت أن يطلق عليّ رصاصة الرحمة ويتفوه بـ«لائه» ، فقد كنت أموت مع الوقت وأنا أنتظر لاءه وما أن يلفظها سأرتاح للأبد .. فلاؤه ستخلصني من همي الجاثم فوق صدري منذ أيام ..

حينها رفع رأسه وسألني : هل سيكون معك أحد ؟؟ أجبته وصوتي بالكاد يخرج من حنجرتي .. فهذه لست أنا التي تقهقه بالضحك مع والدها..

والآن أين ذهب صوتي ؟؟ أنا في أصعب اللحظات وأحتاجه أقوى من ذلك.. ما باله خذلني الآن في محنتي وأصعب لحظة تمر بي في حياتي ..

وفزعت خوفاً عندما أعاد سؤاله من جديد.. فأجبته على الفور وأنا مرتبكة: نعم ستأتي معنا مشرفة من الجامعة وهي التي ستكون مسؤولة عنا وعن متطلبات الرحلة هناك ..

فقال لي جملته التي سكنت قلبي ولن أنساها ما حييت وأدركت حينها أنني ابنة رجلٍ عظيم ..

قال لي بالحرف الواحد ويرن صدى كلماته إلى الآن في أذني قال: «إذا كنتِ ستسافرين ضمن مجموعة من الطالبات ومعكن مشرفة فاذهبي والله حافظك من كل شر.. أما إذا كنت وحدك .. فأنا مستعد أن آخذ إجازة من عملي وأرافقك أينما تريدين .. أنا

مستعد لعمل أي شيء من أجلك»..

وقع تلك الكلمات كان كبيراً على قلبي ، حينها لم أدرك أن والدي يحبني لهذا الحد .. ومن الذي لا يحب أبناءه .. ولكن أن يقف من أجلي في وجه الجميع .. هذا ما لم أتوقعه .. فشكراً والدي على ثقتك بي .. ولن أخذلك أبداً .. وكانت تلك هي أجمل هدية تلقيتها في حياتي في ذلك الوقت..

فسماح والدي لي باكتشاف بريطانيا .. أو بالأحرى العيش في مدينة (نيوكاسل) البريطانية لستة أسابيع .. كان ذلك أشبه بالحلم الذي لا أود الاستيقاظ منه أبداً.. لأنها كانت من أمتع و أجمل الرحلات والسفرات في حياتي وكان ذلك بداية لمس قدمي للعالم الخارجي .. فلكم أن تتخيلوا حجم المواقف والقصص التي حدثت لي هناك ..

طفت مدناً بريطانية عدة .. أسكوتلاند .. ليك دستيريك.. وساندرلاند .. ويورك شاير.. إلا لندن كان هناك تساؤل كبير موجه للمشرفة على الرحلة.. لماذا ترفض الذهاب بنا للندن ؟؟

التي درست معالمها وخريطتها في كتب المدرسة فحفظت شوارعها وحدائقها وقصورها قبل أن أزورها أو أراها وجاءت المشرفة وبددت الحلم في لقائها عن قرب .. ولكنني زرتها مع إنسانة ستعرفونها لاحقاً في حكاية الزهرة الثامنة ..

عندما بدأت في الاستعداد لحزم حقيبتي حصلت لي عدة

معوقات .. كان من ضمنها شراء تذكرة السفر.. فقد أخبرني الاستاذ المسؤول عن المنحة أن عليّ شراءها على نفقتي الخاصة ومن مكتب سفريات معين دون غيره .. وحينها والدي هو من ساعدني في شراء التذكرة .. فلم يكن لي مورد مالي غيره .. وهذا الأمر جعلني أفكر أفكاراً كثيرة ..

والشيء الثاني الذي أثار شكوكنا نحن الطالبات أن ابنة الاستاذ المسؤول عن المنحة .. كانت ضمن المقبولين رغم أنها التحقت بالجامعة حديثاً وكانت في عامها الأول في الجامعة .. وشروط المنحة تحتم على المتقدمة أن تكون قد أنهت ساعات دراسية معينة.. ليتم قبول استمارة الطلب منها .. وكان والدها المبجل يترأس اللجنة القائمة على قبول الطالبات في المنحة .. قد قبلها دون ترك الفرصة للأخريات من الطالبات ممن يستحققنها .. فالجواب متروك لكم .. واللبيب بالإشارة يفهمُ ..

كان هذا أول درس تعلمته في بداية رحلتي وهو أن هناك من الناس من تأخذه العزة بالإثم .. فلا يخاف الله في درء درهم يكسبه من حرام .. أو حتى مظلمة يظلم بها أحداً من البشر ..

في الساعة الحادية عشرة ليلاً من يوم الثاني عشرمن يوليو سنة ٢٠٠٣ كان لي مع أرض المطار موعد.. فقبل مغادرتي البيت وجدت والدي غارقاً في دموعه يبكي من أجلي بحرقة لأنها المرة الأولى التي سأفارقه فيها.. وأبى أن يوصلني المطار بنفسه.. وأوكل الأمر إلى أخي الأصغر..عندما دخلت الصالة

وجدت المشرفة والطالبات في انتظاري لندخل معاً ..

وأنا أحاول تسليم حقيبتي للكاونتر المسؤول عن الرحلة صعقني الموظف عندما أخبرني أن لدي وزناً زائداً وعلي تخفيف الحقيبة.. فكنت حائرة بنفسي لا أعرف ما العمل ، ما الحل ؟ فكل ما معي أحتاجه ولا يمكنني التنازل عنه وأذكر أنني قد أخرجت دفاتري وأعطيتها لأمي لترجعها معها إلى البيت إلا القاموس هو الوحيد الذي لا يمكنني التنازل عنه فهو وسيلتي للتعلم هناك ، فكيف أتخلى عنه وفي تلك الأيام لم يكن القاموس الالكتروني معروفاً.. وأن وجد كان مكلفاً جداً.. وفي الكاونتر القريب مني كانت تقف طالبة اسمها دانة وما أن سمع والدها بمشكلتي حتى طلب منها فتح حقيبتها ودس القاموس بين ثنايا ثيابها ، دانة تفاجأت بطلب والدها فلم يكن بمقدورها فتح حقيبتها أمام أعين الناس التي كانت تراقب الوضع عن كثب لتعرف ما الذي يجري بيننا وكانت في وضع محرج لا تحسد عليه وما الذي يجبرها على فعل ذلك ، ولكنها ولطيبة قلبها فتحت حقيبتها من أجلي وساعدتني ومن هذا الموقف عرفت صديقة أعتز بها وبصداقتها جداً وأحفظ لها ولوالدها ذلك الإحسان ..

جاء وقت دخولي لقاعة المسافرين .. تركني الجميع مودعين فرحين بإنجازي إلا أنا.. وقفت واجمة في مكاني وسلمت جواز سفري للضابط ليطبق عليه بقوته ختم المغادرة.. وبدأت الدموع

تفيض من عيوني ولم أستطع رؤية طريقي جراء تلك الدموع .. وسئلت نفسي هذا السؤال مؤنبةً .. أليس هذا الذي حاربت من أجله لسنين ؟؟ ألم يكن هذا هو حلمي .. وهاقد انتصرت الآن وحققت ما كنتُ أطمح إليه وصرتُ أسافر وحدي كما كنت أتمنى فما سبب هذه الدموع المنهمرة من عينين كاذبتين الآن .. كان صوت ضميري يؤنبني ويجلدني بسياطه.. فأحسست حينها بغربتي ووحدتي .. رغم المجموعة التي تحيط بي .. فأنا هنا لا أعرف أحداً من الطالبات.. وأخاف أن أغامر وأتعرف على إحداهن فتكون طباعها مختلفة عني تماماً.. فأندم على تلك المحاولة الجريئة ..

فجلست على كرسي من الكراسي في الطائرة وأنا إلى تلك اللحظة غير مستوعبة ما يجري .. فهل أنا بالفعل وحدي من دون أهلي على ظهر الطائرة ؟ فقد كنت أسافر دوماً بصحبتهم إلى دول الخليج بتحفظ شديد.. ولكنني خفت من أنني لا أزال يتهيأ لي .. ورجعت لتقمص أحلامي من جديد ..

وصلنا بعد سبع ساعات طوال .. كان الجو بارداً وكل ما حولنا أخضر بالكامل .. لم نعرف كيف نحمل حقائبنا من على الشريط الذي ظل يدور بها فترة .. فقد كانت بالنسبة لنا كبنات ثقيلة جداً ولم نعتد على جرها من على الشريط الدائر .. وأيضاً لم تكن معنا قطع معدنية لوضعها في عربة حمل الحقائب في المطار.. فكانت كل واحدة من الطالبات تحاول مساعدة الآخرى وكنا نمشي

بصعوبة حاملات معنا حقائبنا لمسافة طويلة .. حتى وصلنا إلى الباص الذي كان بدوره ينتظرنا لينطلق بنا إلى مدينة (نيوكاسل) ، حيث سنقضي فيها ستة أسابيع كاملة..

في الباص كانت كل واحدة من البنات تحاول الجلوس بالقرب من النافذة لتكتشف العالم الجديد الذي ستحياه هنا لستة أسابيع فقد أذهلتنا تلك المناظر الخلابة التي تبدو كلوحات مرسومة بيد فنان مبدع .. فالشلالات المتدفقة من قلب الوادي كانت كالخيال، والمروج المتدرجة بتدرجات الأخضر وبهاء حقول القمح الذهبية وحمرة زهور التوليب المبسوطة على الأرض على مد البصر وحتى شكل الخراف التي كانت تبدو كغيمات بيضاء صغيرة متناثرة على سفح الجبل الشاهق مرقشة الجبل الأخضر بكامله بنقاط بيضاء كان المنظرآية في الجمال والروعة .. عندها اغرورقت عيناي بالدمع مرة أخرى .. أتساءل.. ربي ما الذي فعلته .. حتى تهديني هذه الجائزة ؟؟

عندما وصلنا السكن دخلت كل واحدة فينا غرفتها بشكل عشوائي .. فقد كانت الغرف أشبه بالقبر في ضيقها ، فلا مجال للاختيار .. وأفرغنا حاجياتنا من الحقائب.. ووضعناها في الدولاب الخشبي ذي الباب الواحد الذي كان يبدو لكثرة استهلاكه مع الزمن قديماً وقد تغير لون طلائه وتقشر ..أما السرير فكان صغيراً متهالكاً بعض الشيء ، فكلما جلست عليه أصدر صوتاً محذراً أو مذكراً إياي بأنه قد ينكسر في أي لحظة ..

وأجمل شيء في تلك الغرف كانت النوافذ الموجودة فيها ، فعلى الرغم من أنها صغيرة جداً ويصعب فتحها بالكامل وتحتاج إلى مجهود كبير للرؤية من خلالها فإنني كنت اضطر إلى مد جذعي بأكمله للنظر من خلالها .. والحق يقال إنه كان مجهوداً يستحق العناء من أجله ، فقد كان خلف الزجاج السميك منظر رائع لمرعى أخضر وقطيع أبقار سمينة تجتز من عشب المرعى القاسي جزاً فلا حاجة هنا لآلة جز العشب ، فالابقار ستقوم بالمهمة بأسنانها كلما نما وأخضر العشب من جديد .. لاحظت أنها دون راع يراقبها أو يقودها نحو حظيرتها .. فما أن تغرب الشمس .. حتى يمشي القطيع بشكل منظم ومرتب باتجاه الغرب .. وفي اليوم التالي كانت الأبقار تخرج وحدها مع بزوغ أول شعاع شمس حتى قبل أن تستيقظ البشرية جمعاء.. وكنا في كل صباح أثناء خروجنا من السكن متجهات إلى المعهد.. لابد لنا أن نسلك طريقنا الصباحي بينها ، فكنا نمر من بين المرعى الأخضر وقطيع البقر .. فنمشي بهدوء وروية بجانبها.. متجنبات الروث المتناثر على الطريق الأسمنتي الممدود على العشب وإن كنت قد تعثرتُ في إحدى المرات على مقربة من إحدى البقرات ولولا لطف الله بي لكانت داستني البقرة تحت أقدامها لأكون شهيدتها أو شهيدة روثها الذي كان سيوسخ ملابسي ويجلب لي العار حتى وإن كنت ميتة في بريطانيا العظمى.. كانت في نهاية الطريق الممدود بوابة حديدية صدئة تخرجك للشارع العام ، حيث السيارات لتنتهي أجواء الريف المحاط بالسكن عند ذلك..

ولتعيش العصرنة على أوجها ، فكنا نمشي إلى وسط المدينة ، حيث يوجد فيه مكان المعهد الذي سندرس فيه .. كانت إحدى الطالبات وتدعى نورة ترافقني دوماً في رحلتي الصباحية إلى المعهد .. وما أن تشعر بأن النسيم البارد لاطف خدها.. حتى تبدأ تغني للسيدة فيروز..

نسم علينا الهوى من مفرق الوادي

و ياهوى دخل الهوى لاتخدني على بلادي

ياهوى يا هوى يللي طاير بالهوى

في منتورة طاقة وصورة خدني لعندون يا هوى

فزعانة يا قلبي اكبر بهالغربة وما تعرفني بلادي

لاتخدني على بلادي

شو بنا شوبنا ياحبيبي شو بنا

كنت وكنا تضلو عنا وافترقنا شو بنا

بعدا الشمس بتبكي

عالباب وما تحكي

ويحكي هوى بلادي

لا تخدني لا تخدني على بلادي

كانت تستوقفني لاءاتها القوية .. وأستعجبت نفيها العودة .. إذاً فهي تفضل البقاء مثلي .. ومن هنا أصبحت نورة رفيقتي في الرحلة وصديقتي .. فكنت أوقظها كل صباح لتستعد .. ثم نتناول الفطور معاً ونمشي كل يوم في نفس الطريق نحو المعهد ونحن نغني .. ونرجع ونحن نغني أيضاً و كنا نخطط لتمضية يومنا معاً وأحياناً نحل فروضنا معاً، فقد أنسجمنا مع بعضنا سريعاً وأصبحت كل واحدة منا تحافظ على الأخرى كأختها.. ومن حينها وهي ترافقني في كل مكان .

في بعض الأوقات عندما كنا نمر في الشارع نرى مشاهد نخجل منها ولأننا لم نعتد عليها ومع مرور الوقت اعتدنا عليها وصرنا نتفقدها .. كالتوديع اليومي الذي أجبرنا على أن نألفه ونحن نمر أمام أحد البيوت الذي كان لزوجين كانا من أصحاب الوزن الثقيل جداً فكانا ، يقبلان بعضهما بعضاً لمدة طويلة .. ليست الغرابة هنا .. ولكن في عرض الشارع غير مكترثين للمارة من الناس ، فكان الأمر يبدو لنا غريباً افتقاد الحياء وعدم احترام مشاعر الآخرين .. وكانا على هذا المنوال أيضاً عند ساعة الغروب .. ففي طريق عودتنا للسكن كنا نرى نفس الزوجين يفعلان الشيء ذاته مستقبلين بعضهما بعضا بعد يوم طويل من الشوق والوله.. فكان شكلهما مضحكاً ومقززاً في نفس الوقت.. فكنا نتساءل: لماذا لا يدخلان البيت ويستران على نفسيهما ؟ وإلا المحبة وصلت إلى أوجها في وسط الشارع ولم

يكن باستطاعتهما كتمانها إلى هذه الدرجة .. وفي إحدى المرات لم نرهما في الشارع فأدركنا أننا قد تأخرنا عن الحضورللمعهد .. فكأنما ربطنا قبلة الزوجين بموعد دوامنا في المعهد ، فكانا ساعتنا الرملية التي نعرف بها التوقيت وكلما رأينا مثل تلك المشاهد في الشارع .. نصيح بأعلى صوت .. أكشن .. نعني بذلك ابتداء المشهد في الفيلم الذي يجري أمامنا .. من جانب آخر كان مكان السكن الذي نعيش فيه قريباً جداً من مستشفى جامعة نيوكاسل .. فكنا نمر كل صباح ونرى العاهات والأصابات التي تعرض لها المقيمون فيها من مرضى .. فمنهم المكسور والمحروق والمرضوض ، جميع الإصابات التي تخطر على البال .. فنحمد الله على نعمة الصحة ونحن نخترقهم لنصل إلى أقصر طريق إلى المعهد..

كان يومنا يمضي مليئاً بالأحداث.. مليئاً بالضحكات التي تتخللها المواقف الطريفة .. وبذلك أندمجنا شيئاً فشيئاً في الحياة هناك ..

في إحدى المرات.. دخلنا دكاناً صغيراً يقع في زاوية الشارع المؤدي للسكن .. وكان البائع الذي يبيع فيه مسلماً من أصل آسيوي .. كنا دائماً نمر ونشتري حاجياتنا التي تسلينا وتلهينا عن مشقة التفكير في رحلة المشي الطويلة واليومية إلى السكن النائي والبعيد .. فكنا نشتري ألواح الشكولاته الصغيرة والسكاكر الملونة بأشكال غريبة ومثلجات بنكهات لم نذقها في حياتنا على

سبيل التجريب .. فنتناول في الطريق ما اشتريناه من سكاكر وحلويات ومع مشينا كان ينتهي كل ما كان بحوزتنا من «تسالي» ويبقى الطريق أمامنا طويلاً..

وفي أحد الأيام .. أخذت نورة علبة نودلز .. لتأكله عندما تجوع في منتصف الليل .. فهذه الحالة كانت تحدث للأغلبية الغالبة من البنات.. فالعشاء المبكر كان يشعرنا بجوع شديد في منتصف الليل وخاصة عندما يشتد البرد ويكون قارساً.. لذلك كنا نشتري كمية من الطعام ونحفظه لوقت الحاجة في المطبخ الصغير الذي يتوسط الممر الذي به غرفنا.. أريد أن أنوه بأن نورة كانت من الطالبات النحيفات وتتميز برشاقتها عن غيرها من البنات وإنما إحساس الجوع الظالم عند انتصاف الليل ، كان يوقظنا كلنا ويجمعنا حوله في المطبخ .. فنرى الأخريات يعانين من الجوع مثلنا..

نورة تحولت إلى تمثال جليدي ، ما إن سمعت من البائع يقول لها إن هذا الذي بين يديها ليس حلالاً.. فقد جمدتها جملته الأخيرة فقالت لي : وأنا طول هذه المدة آكل دون أن أفكر في الذي يدخل بطني وينبت لحمي أكان حلالاً أم سحتاً .. وانسحبت من المكان بخطوات متثاقلة وهموم الدنيا في رأسها.. ثم اعترفت لي أنها لم تعد تصلي بشكل منتظم مثلما كانت من قبل.. وصاحت باكية أنا صرت تاركة للصلاة وسيكون عقابي عسيراً يوم الدين .. أحسست بنقاء قلبها الذي تحمله في

صدرها.. فتلك الجملة التي لم يكن غرض البائع منها غير التنويه بحلال المنتج أو حرامه .. أحدثت صحوة في نفس نورة .. وأعادت بها التفكير إلى أنه في أي زمان وفي أي بقعة يجب أن نحافظ على ديننا ونتمسك به وإن كان جوهره الأساسي هو الصلاة .. فنذكر الله في كل أمور حياتنا وفي جميع الأوقات ..

منذ تلك اللحظة رأيت نورة تواظب على صلاتها بانتظام وتحث البنات الأخريات عليها أيضاً.. فمن يدري ربما كان ذلك البائع سبباً من الله لتذكيرنا بأشياء غفلناها وتغاضينا عنها ..

من الأشياء الشقية التي كنا نفعلها أنا ونورة عندما كنا نشعر بالملل والفتور في يومنا .. ولعدم وجود أي كاميرات بين الغرف أو الممرات في السكن المؤلف من طوابق متعددة ويقيم فيه بشر من جنسيات مختلفة .. ذكوراً وإناثاً .. كنا بكل براءة .. نطرق أياً من الأبواب طرقاً مزعجاً وقوياً ونلوذ بالفرار سريعاً.. قبل اكتشاف أمرنا .. محدثتين جلبة بين الممرات والغرف.. لتسابق كل واحدة منا الأخرى ولتصل إلى غرفتها أولاً.. أليس ذلك ممتعاً .. إنها شقاوة بنات ..

كانت نورة من مدينة الخور وهي مدينة ساحلية في شمال قطر.. تتمتع بشاطئ فيروزي هادئ وسفن صيد تقليدية ، حيث تشتهر بوفرة الصيد .. فيقصدها كثير من الناس من أجل الراحة والاستجمام والاستمتاع بالمنظر الجميل للبحر.. بعيدين عن ضوضاء الدوحة التي هي العاصمة .. وبما أنها اعتادت على رؤية

البحر وأدمنت رائحته .. فكانت تبحث في دليل الأماكن في مدينة (نيوكاسل) عن أقرب مكان يكون فيه شاطئ البحر.. لأنها بكل بساطة اشتاقت له وهي ليست معتادة على أن تغيب عنه مدة طويلة بهذا الشكل.. فما أن وجدت مبتغاها .. في شاطئ (بلو ريف) التي تبعد عنا بدقائق قليلة في حالة استخدام قطار المترو .. حيث هناك بالاضافة للشاطئ يوجد أيضاً حوض زجاجي كبير يحوي أنواعاً مختلفة من السمك والكائنات البحرية التي توجد في مياه بحر الشمال .. فطلبنا من المشرفة القيام بتنظيم رحلة لهذا المكان وكانت كلما ذكرناها بطلبنا تؤجله وتسوف لنا الموضوع ..إلا أننا في أحد الأيام وبعد انتهائنا من يوم دراسي حافل في المعهد .. أعلمنا المشرفة بأننا ننوي الذهاب إلى ذلك المكان بأية وسيلة .. «يا صابت يا خابت» المهم أن يكون المكان به شاطئ بحر .. في البداية عارضت ذهابنا .. ثم شجعناها للحضور معنا وخوض المغامرة .. فوافقت واقتنعت ..

ما أن وصلنا المكان المنشود.. حتى شدت أسماعنا أصوات الأمواج المتلاطمة بقوة .. فسمعت نورة تقول بصوت فيه حنين.. آه أشم رائحة الخور.. ثم أخذت تركض نحو الشاطئ بعيداً تدوس بقدميها الحافيتين على الرمل الناعم بنشوة وبفرح .. ثم تبسط كفيها في الماء وتغمرهما فيه محاولةً منها للبحث عن أصداف كلسية أونجوم متحجرة .. لتأخذها معها كتذكاريعيدها إلى هذا الشاطئ .. وأخذت قوقعة من القواقع وهمست في بطنها

أجمل ذكرياتها واعادتها لمكانها على الرمال حيث وجدتها كبصمة واضحة لزيارتها لهذا المكان ذات يوم في صباها ..

نسيت أن أذكر لكم عن صديقتي دانة فقد رافقتنا هي أيضاً لهذا المكان الجميل وشجعتنا على استكشافه ، فهي من عشاق البحر أيضاً ولها أهل وأقرباء يقطنون في مدينة الخور منذ زمن بعيد ..

فرفيقتنا الثالثة .. دانة ..على الرغم من أن غرفتها كانت تقع في أول الممر.. كنت دائماً أنسى إيقاظها كل صباح .. فأنا الوحيدة التي كانت لديها ساعة منبه فكنت أوقتها لتوقظني للصلاة .. ولم أكن أدري أن هناك دانة رقيقة تقبع في إحدى الغرف وحيدة.. ولم يدر ببالي أصلاً أن هذه الفتاة المنعمة والمدللة والخجولة بعض الشيء لها حس فكاهي عجيب مع المواقف الطريفة التي كانت تحدث لنا ، فهي تمتلك روح النكتة أينما وجدت.. سواء معنا أو مع زميلاتها في المعهد.. وأذكر في حفل التخرج واستلام الشهادات.. ما أن نادوها لتتسلم شهادتها وقفت المجموعة التي كانت بصفها بالتناوب وفي شكل الموج ليصفقن لها بحرارة فهي تمتلك شعبية واسعة بينهن وهي من أعطت للرحلة نكهة خاصة بقفشاتها المضحكة وأصبحت مؤخراً رفيقتنا أنا ونورة في طريقنا الصباحي..

كانت لدانة زميلة في المعهد من كوريا ، في إحدى المرات ذهبتا معاً لتناول الغداء وعند الدفع صاحت (دانتي) بأعلى صوتها وهي تعفي الفتاة الكورية من الدفع قائلة بالإنجليزي :

(Swear to God I will pay)

يعني ترجمتها (قسماً بالله ما في حد بيدفع غيري) أضحكني تصرفها فهذه الفتاة البوذية ما أدراها ما هو الله وماذا يعني القسم به؟! ..عدا عن ذلك من أين تعرف قطر والكرم عند أهلها ؟

ومن مغامراتها معي أنها في أحد الأيام ..اشتاقت للحناء وتريد أن تنقشها على كفها .. فقلت لها «يا دانة لما نرجع الدوحة إن شاء الله انقشي أجمل النقوش وأحلاها إنما هنا فصعب وجود الحناء في بريطانيا وفي نيوكاسل بالذات».. فقالت : «أنا أساساً أريد أن أنقشها هنا من أجل عرضها على الطالبات الاجنبيات في المعهد لتعريفهن بالحناء التي هي جزء من تراثنا القطري في حفلة اليوم التعريفي لبلدان الطلبة الدارسين في المعهد» .. والحناء شيء جميل وموروث تقليدي تناقلناه جيلاً عن جيل .. فقلت لها وأين سنحصل على الحناء في وسط مدينة (نيوكاسل) الإنجليزية .. ردت علي بثقة.. أكيد أن هناك أسراً آسيوية يبيعونها أو يقومون بنقشها .. ما عليك إلا أن تأتي معي وساعديني في البحث عنها.. سمعت كلامها ووقفت معها في وسط المدينة .. نسأل كل المارة عن الحناء .. ونرى علامات التعجب والاستغراب ترسم على وجوههم .. وما أن نرى أحد من الهند ونواحيها نركض نحوه .. لنسأله .. وكثيرون من ظنوا أننا نشحذ ونطلب منهم النقود.. فيفرون منا مبتعدين يحسبوننا شحاذات .. ولم يتوصل إلى مكان الحناء أحد .. إلا أننا في أحد الأيام وجدناها بالصدفة المحضة

في رحلة المعهد الاستكشافية لأحد المتاحف العلمية لنجدها تباع ضمن التذكارات المعروضة عن العصر الحجري في ذلك المتحف وهذه نهايتها يا دانة .. فالحناء كانت موجودة من الأزل وبالأخص من العصر الحجري ..

في بعض الأحيان في الصباح ..عندما تعلم دانة أنها قد تتأخر قليلاً عن الفطور.. كانت تطلب مني أن آخذ لها شيئاً في صحني ريثما تأتي إلينا .. في حينها كانت السيدة التي تقوم بتوزيع الفطور ترمقني بنظرة أفهم فحواها أنني أخذت أكثر من المعدل الطبيعي والمفروض .. فأقول بهمس وبهدوء الكلمة التي اشتهرت بها ..

«بفلوسنا يا عزيزتي نأكل»

وما أن تصل دانة قاعة الطعام .. وترانى أحمل في يدي كأساً بها عصير تفاح .. تصيح بصوت عالٍ ممازحة إياي.. من الصبح تشربين المشروب .. ستفقدين الوعي وتسكرين في المعهد .. أشربيه في الليل فهوأستر.. فتلتفت البنات مصدقات لها وهن يضحكن باحثات بأنظارهن في القاعة الواسعة عن التي في يدها كأس الشراب ..

كان الممر المؤدي لغرفنا خاصاً بنا نحن البنات القطريات ، لا يسكنه الذكور أوالجنسيات الأخرى ، فكنا نتسامر كل ليلة في إحدى غرف الطالبات ويكون الباب مشرعاً للجميع ، فكانت

البنات يجتمعن في الغرفة مع بعضهن البعض مريم تكوي ملابسها ونورة تحل فروضها وشيخة تأكل سندويش زعترأعدته بيديها.. فهي مدمنة زعتر ومن شدة إدمانها أحضرت معها كيساً مليئاً لآخره.. كانت تخلطه بزيت الزيتون وتضعه على الخبز الحارالخارج من التوستر «محمص الخبز» وتوزعه علينا عندما كنا نجوع في الليل ، فقد أحضرت عدتها معها ..

.. كنا في بعض الأوقات ولضيق الغرف نفترش على الأرض في الممر.. فتبدأ بدور بالغناء وهي تدق على باب إحدى الغرف تمثل في قالب مسرحي .. أغنيةَ السيدة فيروز..

تك تك تك يـــا ســلـــيـــمـــان

تك تك تك جوزك وين كان

تك تك تك كـان بـالـحـقـلـة

عـــم يـقـطـف خـوخ و رمـان

يــــا ســــتــــي يــــا ست بـــدور

شـوفـي الـقـمـر كـيـف بيـدور

و الـــنـــاطـــورة بـــدا شـمـــس

و الشـمـس بـعـقـد الـمـرجان

عمي يا عم الحطاب

خلينا نلعب عالباب

و الجارة بدا قمحة

و القمحة عند الطحان

يا جدي يا جد التلج

لحيتك غطت عالمرج

و الهوا بدو خيمة

و الخيمة بدا خيطان

وينني الجمال يحني بالقنطرة

شو طعميناهن قمح و درة

شو سقاينهن ميي معطرة

يا عمي الغراب جوزني بنتك

ومع دقاتها كانت تتراقص مها.. آه تذكرت .. أن أقص لكم حكاية مها .. فبينما نحن متحلقات حول بعضنا البعض في غرفة من غرف البنات كانت كل واحدة فينا تفتح قلبها وتخرج أسرارها.. فأذكر حيرة مها وتساؤلها الدائم .. هل أقبل أم أرفض.. هل سأرتاح معه أم سأتقيد .. تساؤلات عديدة كانت

تطرحها عن الشخص المتقدم لخطبتها .. فقد كان أخا صديقتها المقربة منها جداً.. كان أصله من البدو العرب .. بينماهي من الحضر العجم .. فبالمنطق هذه الزيجة محكوم عليها بالفشل منذ البداية ولا خلاف في ذلك ، فلا تطابق أو انسجام بينهما في الظاهر ولكن في الباطن كانت تحبه كثيراً .. كانت تهيم به ممتدحة أفعاله وأقواله في كل حين.. كانت تقنع نفسها بتحضره وأنه مختلف عن الصورة المرسومة في أذهاننا عن البدو وتحفظاتهم في قضايا المرأة .. فتقول : سأوافق فهو رجل جامعي مثقف وليست له أفكار رجعية ، كما في تصورنا نحن الحضر.. أعجبني إصرارها .. فهي لا تأبه بأقاويل الناس وآرائهم حين يتساءلون عن مدى تأقلمها بيئه غريبة عنها فقالت: الآن الحياة تغيرت كثيراً والناس أيضاً تغيروا معها .. وأذكر جيداً عندما قالت بالحرف الواحد :هل رأيتم الناس الذين سيتكلمون عني بالسوء.. في حال زواجي به ..أحلف لكم بأغلظ الأيمان ..إذا تقدم هذا الرجل لواحدة من بناتهم لزوجوه في الحال.. أتعلمين لماذا؟ لأننا، في زمن قليلون من الرجال من هم جادون أو راغبون بالستر على أنفسهم أولاً ثم السترعلى بنات الناس بالزواج .. فلا يهمني ما الذي سيقولونه عني ..المهم أنه رجل سيبذل الكثير من أجل أن نسعد معاً .. وسيتخطى عواقب الأعراف القديمة المتفشية في مجتمعنا من زمن بعيد لأجل أن يكون بقربي في الحلال .. ترى هل سنتخطاها دون ممانعة أهلي أو أهله لمشروع عمرنا ؟؟

لم أستطع افادتها في الموضوع .. ولكن وجدت الإجابة بين عينيها .. والقدر هو الوحيد الذي يستطيع أن يجيبنا.. في حكاية الزهرة الرابعة ..

من الأحداث التي مررت بها وكنت سعيدة الحظ للنجاة منها.. أنه في إحدى الليالي الباردة و كالعادة .. كنا نتحرك بين غرف البنات في الممر المعتاد.. إلى أن خفت الحركة في الممر لأن بعضاً من البنات ذهبن للنوم .. فكنت في بعض الأحيان أثناء وجودي في الغرفة معتادة على طرق البنات على بابي يطلبن مني ما يبحثن عنه من مقص أو خيط .. وغير ذلك من الطلبات.. في تلك الليلة .. نسيت أن أطفئ الضوء .. وكان باب الغرفة بمجرد ارتداده يقفل بنفسه من الداخل .. أي أنني الوحيدة التي أستطيع أن أقوم وأفتحه بما أنني في الداخل.. وكان الوقت منتصف الليل من يوم الإجازة الأسبوعية «السبت» سمعت طرقاً على بابي وكنت حينها ممدة على السرير ، غير قادرة على النهوض منه فقد كان يومي متعباً وأحسست بأن شيئاً ما ربط رجليّ وقيدني .. ولست قادرة على الوقوف وفتح الباب.. لم أكن واعية لصاحب الصوت ولكنني كنت مدركة أن هناك من ينادي خلف بابي .. كان يطرق الباب بقوة بينما أنا أسمعه خفيفاً لتعمقي الشديد في النوم .. لا أنا لا أحلم .. ذلك الصوت آت من خلف الباب .. وقد أقلق منامي وأزعجني .. أشعر بأنني أريد فتح الباب بأية وسيلة لإسكات الصوت الصاخب والمزعج .. ولكنني لا أستطيع

تحريك جسمي من على السرير، أتراني قد أصبت بالشلل في أوصالي ، فما بال أطرافي لا تتحرك إذاً.. لماذا أنا متصلبة في مكاني ، غير قادرة على الحركة .. تلك الليلة كانت أصعب ليلة مرت عليّ .. ولم أعرف سبب طولها وثقلها .. كان كل شيء من حولي أسود.. كنت في ظلام دامس رغم إضاءة الغرفة المفتوحة.. كنت أشعر بالعجزعن معرفة ما يجزي من حولي ، ومن الطارق على بابي في هذا الليل؟؟ أحسست بأنني فقدت الإحساس بساقيّ ، فقد أصبحتا مثقلتين لا تتحركان في هذه الليلة المشؤومة ..

في الصباح كان كل شيء على طبيعته أستطعت النهوض من على السرير والصلاة وإيقاظ البنات.. وأستعددت للذهاب إلى المعهد بارتداء ملابسي في عجالة ودخلت قاعة الطعام لتناول الفطور .. لأرى نورة ومها تقتربان مني وتطمئنان عليّ .. فغرفة مها في آخر الممر وهي من اللاتي نومهن خفيف .. أما نورة فباب غرفتها يقابل غرفتي.. فوجهت الأثنتان إليّ نفس السؤال .. قائلتين بصوت واحد: هل أنتِ بخير؟ أستعجبتُ سؤالهما، فلم أكن بالأمس مريضة .. ولا تبدوعليّ اليوم آثار مرض !!!

فسألتهما مستغربة ماذا بكما هذا الصباح .. هل تريان أنه يبدو عليّ الإعياء فأنا لا أرى شيئاً ؟ فردت مها متسائلة : ألم تسمعي الطرق الذي كان على بابك البارحة .. صحت فيها .. هاه إذاً ما كنت أشعر به البارحة لم يكن خيالاً أو حلماً .. ردت نورة : لقد

كنت خائفة جداً من أن تتهوري وتقومي بفتح الباب .. نحن لم تكن بيدنا حيلة لإنقاذك وقتها .. كل ما كنا نفعله في تلك الساعة الدعاء بألا تقومي من سريرك .. لم استوعب ما قالته نورة ؟؟ فسألتهما من جديد.. ما الذي حصل البارحة ؟؟ إلى هذا الحد كان الوضع مخيفاً!!. وأين المشرفة من ذلك ؟ قالتا بصوت واحد: في سباتها العميق .. سألتهما : اشرحا لي أكثر ما الذي جرى بالضبط .. أريد أن أعرف ؟ سألتني مها ألم تشمي هذا الصباح رائحة شيء عند بابك ؟؟ قلت لها : كانت هناك رائحة كريهة منبعثة من عند بابي وكانت منتشرةً في كافة أرجاء الممر الطويل وأيضاً المصعد كان متسخاً وبه رائحة قذرة .. ردت عليّ مها لكونها تدرس في المختبرات الطبية وتعرف المحاليل الكيميائية.. لتقول إنه الخمر .. الذي كان مسكوباً في كل الأرجاء.. فقد كان أحد الشباب السكارى من الطوابق الأخرى.. ثملاً للغاية واختلط عليه الأمر .. واعتقد أنه في طابقهم والممر .. هو .. ممرهم .. ورأى نوراً مصدره بابك .. فظن أنها غرفته.. فصار يطرق عليك الباب .. غير مدرك لما يفعل .. فقد كان في حالة سكر تام .. لا يدري أن الباب يجب أن يفتح بالمفتاح من الخارج .. ولو أنها غرفته بالفعل فمن الذي سيفتح الباب له من الداخل .. أعوذ بالله من هذا المنكر الذي يجعل الإنسان في منزلة أدنى من التي عليها الحيوان .. عموماً حمداً لله على سلامتك وحفظك من الشر الذي كان محدقاً بك لا محالة ..

والشكر أيضاً له على استجابته لدعائنا طوال طرقه ومناداته خلف الباب..

أصابتني صدمة قوية من هول ما سمعت .. وقلت لهما متسائلة في تلك الحالة : ماذا لو فتحت الباب وأنا غيرمدركة للخطر الذي ينتظرني خلفه ؟ مالذي كان سيحدث لي آنذاك ؟ ابتسمت نورة وهي تحاول تخفيف وقع الخبر عليّ لتقول لمها : لا ولم يطرق أي باب ..اختار باب المطوعة المتدينة .. كانوا ينعتونني بتلك الصفة أحياناً لأنني كنت أتشدد في الالتزام أكثر عن البقية .. كما حدث يوم تسليمنا الشهادات .. فقد أرتديت قفازاً من قماش سميك من أجل أن تكون مصافحتي لمدير المعهد من غير ملامسة .. كانت تلك من بنات أفكاري ..

هنا تدخلت دانة بعد أن سمعت الخبر بقفشاتها الفكاهية من أجل التهوين مما جرى بالليل لتسألني .. ماذا لو أنجبت طفلاً إنجليزياً أشقر بعينين زرقاوين ؟ ماذا كنت ستسمينه يا عزيزتي ؟ «العار» جاوبتها بنفي قاطع وأنا ابتسم في وجهها بثقة .. جاسم جيمس .. على اسم أبوه .. إحياء للأسماء التراثية عندهم وعندنا.. ومنها دخلنا في موجة من التعليقات والضحك حول الموضوع.. وكأن الأمر لم يكن في البارحة شيئاً مرعباً ..

كنا في كل إجازة أسبوعية .. نصحو مبكراً.. على غير عادتنا.. ونتناول الفطور قبل الموعد اليومي بساعة .. استعداداً للباص الذي سيأخذنا في رحلة خارج مدينة (نيوكاسل) .. زرنا مدينة

(ساندرلاند) الصناعية ، حيث متحف ومصنع إنتاج الزجاج .. وحيث أضاعت مها هاتفها المحمول .. ووضع أهلها سيناريو عجيباً بمجرد سماعهم لصوت رجل غريب يرد عليهم من هاتفها .. فقد تخيلوا أن مها قد خطفت وأن من كان يرد على مكالماتهم هو خاطفها .. وفي نهاية الأمر لم يكن إلا نادلاً مغربياً أميناً يعمل في استراحة المتحف وجد هاتفها هناك وأراد تسليمه لها.. فكان يرد على المكالمات من أجل معرفة مكان مها.. وشكرناه على أمانته فيما بعد..

من المدن التي زرناها وأحببنا زيارتها مرات أخرى ..اثنتان «سكوتلاند وليك دستريك» .. فزرنا في مدينة سكوتلاند سفينة الملكة المسماة بريتانيا .. كانت فخمة جداً .. ولولا اقتراح دانة وإصرارها ما قمنا بالزيارة وما اكتشفنا هذه السفينة الملكية الضخمة..

أما مدينة ليك دستريك .. فكانت جنة الله في أرضه .. فتلك البحيرة بمياهها الرقراقة كالمطر ومن حولها سرب البجع الأبيض يسبح بحرية وانسيابية.. والمحاطة بأشجار خضراء عظيمة الحجم.. تلك المناظر كانت تنطق بشيء واحد فقط هو عظمة الخالق وجمال صنعه.. فكانت المناظر تزيل عن أكتافنا تعب الأسبوع كله ، فتعيد شحن طاقتنا من جديد لأسبوع أكثر نشاطاً وحماساً.. ومن المدن التي زرناها أيضا مدينة يورك شاير المشهورة بمدينة الشكولاته.. وذلك لوجود المصانع التي

اختصاصها الوحيد هو صناعة الشكولاته .. هذا ما سمعناه من المرشدة السياحية في شرحها المفصل عن المدينة والمعالم المهمة فيها عندما ركبنا الباص الأحمر السياحي ..

أذكر في إحدى المدن أضطرت دانة للمشي حافية القدمين لمسافة لم تكن قصيرة .. لا لم تكن موضة جديدة آنذاك .. ولكن كانت المسكينة قد تقرحت قدماها من الحذاء الجلدي ذي الكعب العالي والذي كان لزوم الأناقة .. ولكن أي أناقة نبحث عنها ، هنا حيث كنا نمشي لساعات طوال ولأميال .. فأشترت دانة من أحد المحلات المنتشرة على جانبي الطريق الذي نسلكه.. شبشباً مطاطياً مريحاً .. ارتدته قائلة : بلا أناقة .. بلا وجع قدم أو ظهر ..

انقضت الأسابيع الستة سريعاً .. دون أن نشعر بها ، كانت من أجمل أيام عمرنا وأحلاها .. وحان وقت الوداع .. فنظم لنا المعهد التابع لجامعة (نيوكاسل) حفل تخريج بهيجاً .. كان بمثابة تكريم لنا كطالبات متميزات.. فكان الاحتفاء بنا بهذا الشكل دليلاً على مقدرتنا على رسم صورة جميلة عن المرأة القطرية في الخارج .. فكنا سفيرات لديننا ووطننا في ذلك التجمع الكبير.. وأصبح لدينا مخزون لا بأس به من معلومات عن دول شتى ولنا فيها صديقات أيضاً ، فقد عرفنا منهن عادات ومعتقدات بلدانهن .. فمنهن سامية وفائزة من عُمان .. ونوال من السعودية وغيرهن من الألمانيات واليابانيات والكوريات

والأسبانيات وجنسيات أخرى كثيرة ، فالآن أصبح لنا في كل بلد صديقة أو أكثر ..

في أحد الأيام الأخيرة لنا في مدينة (نيوكاسل) قررت المشرفة تنظيم حفل وداع للمدرسين والمدرسات الذين قاموا بتدريسنا في المعهد .. فاختار أحدهم لها أحد المطاعم لتقيم الحفل فيه .. فهي لم تكن تعرف اسم المطعم الذى سيقام فيه الحفل إلا في اللحظات الأخيرة أي قبل الموعد بدقائق ، ليأتيها اتصال من أحد المدرسين يحدد لها المكان .. فما علينا إلا التجمع كلنا في الساحة الفسيحة في وسط المدينة عند التمثال المثبت في أعلى المسلة المبنية من الجرانيت الأبيض .. وعند تمام الساعة السابعة مساءً .. في ذلك اليوم كنت أنا ونورة متأخرتين عن الموعد المحدد بنصف ساعة .. فعندما وصلنا المكان بدت الساحة الفسيحة.. ضيقة لنا .. فهي خاوية تماماً من المارة .. وانعكست أشعة الشمس البرتقالية على أرضية الساحة وقت المغيب ، إيذاناً بحلول المساء مصطحباً معه برداً شديداً .. لم يكن في الساحة أحد غيرنا.. أنا ونورة .. ذكرني الصمت المخيم على المكان .. بساعة الإفطار في شهر رمضان ..عندما تقف الحركة في شوارع الدوحة .. فتصبح خالية من كل كائن يتحرك .. فالكل مجتمع داخل بيت من البيوت حول إحدى الموائد.. ومن حولهم الضجيج يعم المكان بأسره.. بينما في الخارج الحياة نائمة قريرة العين ..

وهناك سؤال يطرح نفسه : لماذا لم نتصل بهم بالهاتف ؟؟ .. ردي على ذلك هو:أردنا أن نحيا ولو لمرة دون رنين هاتف ، فنحن لا نحب أن نقيد أنفسنا بهواتف محمولة.. فأحياناً تكون الحياة أجمل بكثير عندما نعيشها على طبيعتها .. دون تكنولوجيا .. والآن لا وسيلة لنا لمعرفة مكانهم .. وربما ما حدث لنا سر ستعرفون مغزاه لاحقاً ..

ومن شدة التعب والجري للحاق بهم وبالموعد المضروب لنا عند هذا التمثال.. خارت قوانا.. فجلسنا على قاعدته الرخامية مستندتين بظهرينا للعمود الجرانيتي الشامخ في الساحة الفارغة من مظاهرالحياة.. نظرت نورة إليّ ووجدت الحزن في عينيّ .. فقالت لي : لماذا الحزن والأسى ؟؟ فربما لم يكن من نصيبنا أن نكون معهم .. أدهشني قولها فتوقعت أن تكون غاضبة أو حزينة مثلي .. فقالت لي : أتركي عنك الحزن ولنقم ونحتفل على طريقتنا الخاصة.. نظرت إليها .. متسائلة أين وكيف ؟؟ تقصدين نرجع للسكن ونحتفل هناك .. قالت: لا يا حبيبتي أي سكن الذي سنرجع إليه ، بينما كل الطالبات يحتفلن دوننا في أحد المطاعم .. إذاً فلنختر مطعماً ونتعشى فيه عشاءنا الأخير ولنذهب للسينما لمشاهدة الفيلم المفضل لدي .. رفعت أحد حاجبي ورمقتها بنظرة استنكار.. قائلة لها : أنا موافقة على العشاء ولكن السينما لا.. تساءلت حائرة : لماذا لا .. قلت لها :«عيب البنت أتروح السينما» هذا ما قالته لي جدتي وأمي.. ولا أريد خيانة والدي

أيضاً.. فهوأعطاني ثقته ولا أود غشه في الغربة.. فوجدتها تضحك بصوت عال .. وتقول : أي خيانة وأي ضمير.. ياعزيزتي ..أنتِ في عام ٢٠٠٣ في بريطانيا .. يعني الزمن تغير والعقليات تغيرت أيضاً، ثم إن الفيلم الذي سنشاهده فيلم رعب للصغار.. كنت قد شاهدت جميع أجزائه في الدوحة .. وهذا الجزء نزل مؤخراً ولم أشاهده .. وأنا في شوق لمشاهدته .. وعندما نرجع الدوحة أخبري والدك بذهابك للسينما وبذلك أنتِ قلتِ له الحقيقة ولم تغشيه.. والله صدق الذي قال عنك مطوعة.. فرددت عليها وأنا أستهزئ بكلامها لأسألها : وهل هناك ما يسمى بفيلم رعب للصغار يا نورة .. فالصغار من دون شيء يخافون .. فلماذا فيلم وتكلفة وميزانية لكي نخيفهم .. أخذت نورة تضحك وتقول : أنا سأنال شرف إدخالك السينما لأول مرة في حياتك .. وبالفعل نالت هي ذلك الشرف العظيم ..

في ذلك المساء فضلنا أن يكون العشاء في المطعم الإيراني الذي كان قريباً جداً من المسلة التي نحن مرابطون تحتها .. وكان اسمه.. مطعم (علي بابا).. تناولنا فيه عشاءً لذيذاً ، لأول مرة نستطعم لذته وخاصة أنه كان على ضوء شموع خافتة وأنغام موسيقى فارسية عذبة.. تناغمنا معها.. ولكوني من عشاق الموسيقى بكل ألوانها وأجناسها أهدوني نسخة من الاسطوانة التي سمعنا موسيقاها في المطعم .. فليلتها كنت سعيدة جداً بالهدية.. التي ستبقى لي لتذكرني بهذه الليلة العجيبة ..

بعدها اتجهنا إلى السينما .. لنحقق رغبة نورة أولاً.. وأدخل التاريخ في ذلك اليوم العالمي ثانياً .. أخذنا الباص المتجه صوب مجمع السينما الوحيد في هذه المدينة .. ثم قطعنا التذاكر ودخلنا الصالة .. وطبعاً في تلك اللحظة نورة ممسكة بيدي .. حتى لا أتوه عنها في ذلك الظلام الدامس .. فرأيت كراسي مهترئة .. وشاشة كبيرة تتوسط صدر الصالة الواسعة .. وشباكاً مربعاً بزجاج شفاف في آخر الصالة .. في تسليطه للضوء كان أشبه بالمنارة التي ترشد سفنها.. وعلى كرسيين في الوسط رست سفينتنا أنا ونورة.. وابدأ الفيلم .. وأنا كلي استعداد للرعب .. مرت نصف ساعة وإلى الآن أنا لا أشعر بالخوف أو الرعب وأيضاً لفت انتباهي بطل الفيلم الذي كان يُقتل بوحشية .. ثم يعود للحياة في أدوار أخرى وكأن شيئاً لم يكن .. ولكن ما كان يشدني قفزات نورة .. فبمجرد أن أراها تقفز من على الكرسي بشكل فجائي من شدة فزعها للمشهد الذي اندمجت فيه .. كنت أضحك وأقول لها : «ألحين هذا يخوف» .. فأجدها غارقة في الفيلم حتى أذنيها .. لا تسمعني ولا تدري ما يدور حولها أساساً.. فكنت أتفحص وجوه المشاهدين لأرى فيها إحساس كل واحد منهم .. فأجد من يترصد لكل حركة في الفيلم بفزع شديد ، ومن هو مشدوه بكل كيانه للفيلم وآخر نائماً لا يدري إذا ما ابدأ الفيلم أوانتهى ..فوجدت سعادتي في متابعة تلك الوجوه أكثر من متابعتي لما يدور في الفيلم ..

وعندما انتهت السهرة.. استقللنا سيارة تاكسي من أمام المجمع ورجعنا للسكن بأمان .. فوجدنا الطالبات ينتظرن عودتنا على أحر من الجمر ، متسائلات عن كيفية تمضيتنا للسهرة دونهن.. وما أن أخبرناهن عن الذي صار لنا وما فعلناه .. حتى تمنين لو كن معنا في تلك الحفلة الخاصة بنا .. حتى واحدة منهن تنهدت قائلة: آه ليتني كنت ضائعة معكما .. أستعجبنا الأمر أنا ونورة !!! فبينما نحن نتحسر على فوات الفرصة التي كانت ستجمعنا بهن .. أجمعت الطالبات على فشل الحفلة التي أقيمت تلك الليلة .. فالمطعم الذي تم اختياره كان مستواه أقل من العادي.. وأكله كان غير شهي .. والأجواء كانت مملة للغاية وتدعو للاكتئاب.. وسرعان ما عدنا للسكن خائبات من مكان كان من المفروض أنهن قضين فيه أوقاتاً ممتعة .. بالمناسبة اكتشفنا أن المكان أو المطعم الذي أقيم فيه الحفل كان في الشارع الموازي للمطعم الذي كنا فيه .. أي أننا كنا قريبتين جداً منهن يفصلنا عنهن شارع.. ونحن لم ندرك ذلك أبداً.. فكنا نحتفل من دون أن ندري أن من نبحث عنهن هنا أمامنا وفي الجهة المقابلة لنا ..

يا سبحان الله .. مشيئته كانت تريد ألا نكون بصحبتهن في تلك الليلة ..

فقد كانت الخاتمة بيد الرحمن الذي أهداني ذكريات جميلة.. سأظل أتذكرها على مر السنين .. كلما عاد بي الحنين لمدينتي ..

مدينة (نيوكاسل).. البريطانية.. التي أمضيت فيها أجمل أيام صباي .. وكانت هي أولى خطواتي نحو الخروج للعالم الخارجي .. وها أنا ذا قد خرجت من شرنقتي أخيراً وأصبحت فراشة .. تطوف العالم بجناحيها..

حكاية الزهرة الثالثة

بعد أن تخرجت من الجامعة .. وجدت فرصة عمل لم أكن أحلم بها أبداً.. وما أن أصطدمت بأخلاقيات منحطة مطلوب مني أن أتصف بها في بيئة العمل .. تركت لهم الجمل بما حمل.. غير آبهة بالمردود المالي الكبير الذي كنت سأجنيه هناك .. كان الشرف عندي يأتي في المرتبة الأولى وقبل كل شيء .. وهذا ما علمني إياه والدي .. فكتبت استقالتي على الفور رغم دموع زميلتي الجازي التي أصبحت اليوم التوأم الروحي لي والتي سيأتي ذكرها مجملاً في الزهرة السادسة .. فسلمتهم إياها وأنا مقتنعة تمام الاقتناع بأن الرزاق هو الله .. كنت غيرآسفة على ما فعلت ولكنني تأثرت كثيراً لما مررت به من فشل في أولى تجاربي ومعركتي في ساحة الحياة ، ولما أحس والدي بذلك أحب أن يغير من تلك الأجواء .. باقتراحه السفر والاحتفال بالتخرج في اسطنبول عاصمة تركيا.. حيث المكان الذي يحب.. فقد زارها مع والدتي في التسعينيات من القرن الماضي .. وقررهذه المرة أن نذهب جميعاً لزيارتها أنا وأختاي .. فحجزنا التذاكر ووضعنا ميزانية السفرة على خلفية زيارته السابقة لها .. فقد أخبرنا والدي

أن البلد أسعاره رخيصة جداً ولن نصرف الكثير ما دمنا لن نمكث فيه أكثر من أربعة عشر يوماً.. فعقدنا العزم وتوكلنا على الله .. وشددنا الرحال إلى تركيا .. كنا قد حجزنا فندقاً لثلاث ليال في مدينة اسطنبول عن طريق أحد المكاتب السياحية وسنحجز لبقية الأيام من هناك عندما نصل ، فهذه هي خطة والدي .. فكما قال الأسعار هناك أرخص بكثير عما هو معروض هنا .. وهذا من خبرته .. ولله الحمد وصلنا بالسلامة دون مواجهة أية مشاكل.. وبدأت الأيام الثلاثة تنقضي سريعاً وعلينا أن نبحث عن غرف للأيام المتبقية في فنادق أخرى في أسرع وقت .. ففوض إليّ والدي مهمة البحث عن فندق .. وبينما كنت أقوم بالبحث وجدت أن أسعارالفنادق كانت مرتفعة جداً بالمقارنة مع الفترة التي قام والدي بزيارتها.. فآنذاك لم يكن الأترك على خريطة السياحة .. كما الآن ونحن في سنة ٢٠٠٥ فالسياحة تطورت كثيراً في بلدهم عما كانت عليه قبل ذلك ، فقد أصبحوا الآن يعرفون عملة أخرى ويصرون على التعامل بها عوضاً عن عملتهم المحلية.. فقد كان الدولار هو مطمعهم الجديد .. واستدركت بذلك أن المبلغ الذي معي ليس كافياً لأربعة عشر يوماً المزمع قضاؤها هنا .. إذاً عليّ إعادة حساباتي ووضع ميزانية جديدة .. فقمت بمهاتفة أخي الذي كان في دولة أخرى للدراسة.. وطلبت منه مساعدتي في تدبير مبلغ من المال لسد عجزي في المصروفات واستطاع بعد جهود مضنية وضع المبلغ في حساب والدي الذي كانت بطاقته البنكية لحسن الحظ معي .. فقد نسيت

تركها في الدوحة كما طلب والدي .. وبما أن والدي غير قادر على الحركة والمشي لمسافات طويلة حسب أوامر الطبيب والسبب جرح عميق في باطن قدمه ولأنه مريض بالسكر.. يحتاج جرحه وقتاً طويلاً ليبرأ ويلتئم تماماً ولذلك عليه تقليل مشيه عليها .. فكنت أنا رجله التي يمشي بها .. فأقوم بكل المهام التي يعجزهوعن القيام بها ، على سبيل مساعدته وكان سعيداً عندما يراني أدير دفة الرحلة كما يريد .. فقد كنت أقرأ أفكاره قبل أن ينطق بها ، فأعرف ما يجب فعله من نظرة واحدة.. فقد كنت بمثابة الولد الذي يعتمد عليه في كل أموره .. فأستمتعنا كثيراً بالرحلات البحرية التي كنا نقوم بها بين الجزر.. وزرنا أماكن كثيرة في مدينة اسطنبول .. مشهورة بالمعالم السياحية فيها ، من متاحف ومساجد وأسواق شعبية قديمة .. إضافة للحدائق والقصورالمنتشرة على أطراف المدينة .. كنا مصطحبين معنا من الدوحة كتيباً صغيراً لتعليم اللغة التركية .. فكنت أنا وأختي نقرأ ونحفظ ما فيه من مصطلحات ليلاً ونمارس ما حفظناه مع الباعة نهاراً.. أثناء شرائنا الحاجيات .. حتى أذكر أنني في إحدى المرات عندما استقللنا تاكسي تكلمت مع السائق بالتركية .. فالتفت إليّ والدي مستغرباً اتقاني اللغة في هذه المدة البسيطة .. لدرجة أن السائق اختلط عليه الأمر وظن أننا أتراك .. فأفهمته بعد ذلك أننا لسنا أتراكاً .. فظل واجماً محدقاً بي من خلال مرآته الأمامية غير مصدقٍ لما أقول ..

في أحد الأيام اشترت أمي كاسات كريستال ملونة بألوان زاهية.. وما أن وصلنا إلى الفندق حتى غيرت رأيها .. وتريد استبدالها بألوان أخرى ، طالبة مني الذهاب بدلاً منها لاستبدالها.. في ذلك الوقت كانت الحرارة تشتد ظهراً وتكون الشمس حارقة رغم برودة النسيم في الظلال .. فرجوتها أن تؤجل المشوار قليلاً إلى ما بعد الظهر .. فرفضت عذري مخافة ألا يقبل البائع استبدال بضاعته بعد مرور ساعات طويلة وكذلك يدعي عدم شرائنا منه للتو.. فمضيت إلى السوق .. مسلمة أمري لله .. واصطحبت أختي معي في هذا المشوارالذي كنت مكرهة عليه .. بينما أختي الثالثة فضلت الجلوس معهم في الفندق مستمتعة بالظل وهواء المكيف البارد .. كان السوق بعيداً والجو لايرحم ولكننا وصلنا أخيراً.. وبدأنا نبحث عن المحل طويلاً كالباحثين في كومة قش .. وجدنا أحد المحلات وكنا متشككتين في شكل البائع .. فموقع المحل هونفسه .. ولكن الشخص الذي جالس بداخله لم يكن هو البائع الذي باع لنا الكاسات.. إلى أن تجرأنا وسألناه عن الشخص الذي اشترينا منه هذه الكاسات.. فبدأنا نصف له شكله وهندامه .. إلى أن فهم أننا نقصد أخاه الأكبر الذي ذهب لصلاة الجمعة .. آه نسينا أن اليوم جمعة .. فمظاهر الجمعة تختلف عنا كثيراً.. فيوم الجمعة مثله مثل باقي الأيام في اسطنبول ، فالمحلات مفتوحة ويتم فيها البيع والشراء كالمعتاد باستثناء يومي السبت والأحد .. حيث تتوقف فيها الحركة في السوق بالكامل .. والسبب لأنها الإجازة

الأسبوعية الرسمية لهم .. فطلبنا من الرجل الموجود استبدال الكاسات بألوان أخرى .. فأبى ذلك.. معللاً بوجوب وجود أخيه حينها وموافقته على التبديل فسألناه.. وأين أخوك ؟؟ فأجاب : في المسجد الكبير في السوق ليستمع لخطبة الجمعة .. فسألناه مرة أخرى : ومتى تنتهي الخطبة .. قال : منذ دقائق بدأت وستنتهي بعد ساعة .. وعلينا الانتظار لساعة .. فقلت في نفسي آه يا ربي إذاً عليّ التشمس لساعة وأين سأنتظر في هذه الساعة ؟ وإلى أين سأذهب أنا وأختي المسكينة في هذا المكان المكتظ بالناس من كافة الأشكال والبلدان ؟ قلت لها هيا بنا لنذهب للصلاة في المسجد .. فمن ناحية لا تفوتنا صلاة الظهر ومن ناحية أخرى منها ينقضي الوقت ونعود البائع وننتهي من كاسات والدتي .. فطلبنا من الرجل الموجود في المحل أن يدلنا على مكان المسجد الكبير كما يقول .. فرسم لنا خريطة في ورقة صغيرة للأتجاهات المؤدية إليه وأي طريق نسلكه لنبلغ مرادنا .. وبدأت المغامرة للوصول للمسجد الكبير .. كما يسميه أهالي مدينة اسطنبول .. ولم نترك أحداً من المارة إلا وسألناه عن المكان.. ورغم الازدحام الشديد استطعنا الوصول إليه أخيراً .. فرأينا أمامنا مسجداً ضخماً .. من حوله حشد من الناس مصطفين بالمئات ومن كل الاجناس فمنهم من هو واقف رغم الحرارة الشديدة مستظلاً بحائط المسجد في الساحة المليئة بالناس ومنهم من هو جالس على سجادة الصلاة الصغيرة على أرضية الساحة .. مستمعاً للخطبة .. سألتهم عن مكان مصلى النساء..

فنزل علي الرد كالصاعقة .. لا يوجد مصلى للنساء .. إذاً أين تصلي نساؤهم ؟؟ لم أجد أي إجابه .. إذاً أين نصلي .. في الساحة .. حتى الساحة مليئة بالرجال والنساء .. ولا يوجد مكان نجلس فيه .. فكيف لو أردنا الصلاة .. الموقف بأكمله جعلنا نصرف النظرعن التفكير في الصلاة وفضلنا أداءها عند رجوعنا الفندق .. ولكن السؤال الذي راودني حينها .. أين نجلس وننْدب حظنا الأسود مع التهاب الجو وسخونته ساعة كاملة ؟ لا..لا نستطيع العودة للفندق وإعادة المحاولة في يوم آخر .. لأن ملامة والدتي ستكون أكثر سخونة .. من هذه الأجواء .. ففضلنا الجلوس مزاحمتين المصلين و الجالسين في الساحة .. مستمعتين للخطبة العصماء.. ولكن باللغة التركية المحلية .. التي لم نفهم كلمة واحدة منها.. كانت لغة مغايرة تماماً عن مصطلحات الكتاب الذي كان معنا .. كنت محظوظة بجلوسي على إحدى الطابوقات المحاذية للجدار.. ولكنها كانت متشبعة لحرارة الشمس.. فكانت ساخنة جداَ وأحسست بجلوسي عليها بردتها، بينما حرارتها أحرقتني .. أختي المسكينة رماها حظها العاثر عند عجوز شمطاء.. مفترشةً الأرض تبيع أشياء يدوية على بسطة من قماش مرسوم عليها ورود دقيقة في زاوية ساحة المسجد الكبير.. كانت في كل مرة تصيح في وجه أختي طبعاً باللغة التركية وتنهرها عن الجلوس بجوار بسطتها .. وفي كل مرة تسألني أختي : ما بها هذه العجوزغاضبة وتتلفظ بكلمات لا نفهمها.. جاوبتها : أظنها وأن لم يخب ظني .. أنها تحسبك

منافساً جديداً لها في الساحة .. ولا أستبعد أن تقوم من مكانها في أية لحظة وتضربك.. قالت.. الرحمة يا أختي أرجوكِ.. متى سينتهي الشيخ من الخطبة غير المفهومة ؟؟ ومتى سنقوم من هنا؟؟ قلت لها بسخرية : حتى يمر البائع من أمامنا ويدخل السوق .. سحبتني من مكاني ودخلتني السوق عنوة .. وسط فوج كبير من الناس .. لكي لا يصل إلينا الجن الأزرق وليس العجوز الشمطاء قليلة الحيلة طويلة اللسان..

ما أستفدناه من جلوسنا في الساحة منتظرتين ساعة .. شيء واحد فقط .. اكتسبت بشرتنا لوناً برونزياً فريداً من نوعه .. وكنا في غنى عنه أساساً.. وأخيراً حضر البائع صاحب المحل ليشهد حفل استبدال الكاسات الملونة بأخرى شفافة .. بناء على طلب والدتنا الفاضلة وكان كل شيء في حضرته وبناءعلى موافقته الكريمة .. وابتهاجاً بهذا الخبر السار .. وانتهاء المحنة القاسية التي مررنا بها.. قررت مكافأة أختي على صبرها وعدم موتها شهيدة تحت الأقدام أو بيد العجوز الشمطاء .. فاشتريت لها بوظة تركية تكريماً على صمودها وبقائها حية ساعة كاملة تحت أشعة الشمس الحارقة واستماعها لخطبة مفيدة جداً باللغة التي لا أنا ولا هي فهمنا أية عبارة منها .. فهنيئاً لنا عودتنا الحميدة لاستكمال مغامرات أخرى..

كان فندقنا يقع في مكان استراتيجي مهم .. فهو وسط الشارع الطويل المليء بمحلات ، واجهاتها تتزين بالمعاطف الجلدية

والفراء الملون .. وكان بديهياً أن نرى في الشارع أحد الباعة حاملاً بين ذراعيه وعلى صدره كومة فراء يتجول بها نحو محلات مجاورة.. فقد عرفنا بعدها أن تلك المحلات المواجهة للفندق.. ماهي إلا محلات للبيع بالجملة فقط .. ومستحيل أن تبيع بالمفرق لأي كان .. حتى لو كان المشترون سياحاً مثلنا .. فقد كنا نتابع أحدث الموديلات للمعاطف والموضات الحديثة لها ، من خلال نافذتنا المطلة على المحلات تلك في الشارع المقابل للفندق ، فقد كان يتم تبديل المعاطف في الفترينات في كل صباح .. فننزل من الفندق رغبةً في شراء أحدها.. ليسألنا البائع عن الكمية التي نريدها.. متسائلاً بقوله كم درزينة تريدون؟ فيخيب رجاؤنا ونعود أدراجنا من حيث أتينا وآثار الخيبة واضحة على وجوهنا ..

كنت أنا ووالدي نستمتع كثيراً بمشاهدة المارة في الشارع من تحتنا ونحن جالسان في الشرفة نعلق على كل شيء غريب نراه .. فكنا نرى أحياناً كثيرة شابة محجبة بالكامل تمشي مع أخرى سافرة بالكامل .. فيتساءل والدي كيف للمتضادين أن يمشيا معاً ويتصادقا أيضاً ؟؟!!

غريب أنتِ يا بلد أتاتورك .. حيث الدين والعلمانية يمشيان جنباً إلى جنب.. وكانت منطقتنا التي تدعى «أكسراي» على مقربة كبيرة من جامعة تحمل اسمه (جامعة أتاتورك) ربما تخليداً لذكراه.. غير المجيدة ..

في إحدى المرات جاء موظف الفندق يستعلم أن كنا رمينا زجاجاً من الشرفة على أحد المارة .. استنكرنا هذا الفعل الشائن أولاً.. وأخبرناه بأننا لسنا أطفالاً لفعل تلك الأشياء الشقية ، فرمي الزجاج على المارة ليس بأمر هين .. فقد يصيب أحدهم في رأسه وهذا يعتبر جريمة وليس مزحة ..فتخيل الموظف حينها أنه قد يكون ذلك بفعل سكران رمى أو سقطت زجاجته من النافذة في وسط الشارع .. فكل شيء جائز..

وعندما رجعنا لغرفتنا نحن البنات الثلاث وأردنا الخلود للنوم.. قمت بإقفال النافذة ، لأن الجو كان يبرد مع انتصاف الليل.. أخذت أبحث عن طفاية السجائرالزجاجية التي وضعتها أمي على زاوية النافذة حتى لا تنغلق بفعل قوة الهواء فلم أجدها .. فعرفت أن الشيء الزجاجي الذي سقط على المارة في الشارع ما هو إلا طفاية السجائر الزجاجية .. فتكتمنا على الموضوع كلياً .. وأخبرنا والدي به في الصباح .. فضحكنا كلنا على ما حدث وأخذنا نتذكر وجه موظف الفندق المسكين وهو يضع سيناريو لسكران رمى أو سقطت منه زجاجته كما ذكر.. كانت أجواء المرح تغمرنا في كل مرة نمر فيها بموقف ضاحك .. قبل أن أنسى سأحكي لكم عن القطارالصغير أوالمترو الذي كان يمشي على السكة الحديدية في الشارع القريب من باب فندقنا .. والذي علمنا أحد العاملين في الفندق كيفية استخدامه .. بعد أن شارفت رحلتنا على النهاية .. فقلنا لا ضير من تجربته في الأيام الباقية لنا..

فتزاحمنا مع الآخرين مستخدمين القطار مثلهم ، فبدونا كأسماك صغيرة في علبة سردين كبيرة.. وعلى مر الأيام أصبحت تلك هي وسيلتنا للتنقل من دون والدي .. لأني كنت أخاف عليه من أن يصاب بالعدوى من أي مرض .. لمناعته الضعيفة.. فكنت أفضل له ركوب سيارة تاكسي عوضاً عن استخدام المترو المزدحم بأنفاس البشر.. ووقاية له من المرض .. ورغم حرصي الشديد على ذلك.. حدث ما لم يكن بالحسبان وما لم أتوقعه أبداً.. وكان باقياً على عودتنا للدوحة يومان .. بعد أن قضينا أياماً جميلة في مدينة اسطنبول التركية .. وها قد حان وقت الرحيل .. وكنا قد أشترينا الهدايا للجميع وجمعناها في الحقائب استعداداً للسفر .. بعد يومين بإذن الله .. حتى استيقظت ذات صباح على صراخ أمي وهي تطرق الباب بقوة وكادت أن تكسره علينا .. لتخبرنا بأن والدي مريض جداً ، فهو منذ الفجر يستفرغ كل ما في بطنه بعد نوبة إسهال شديدة منذ البارحة .. كدت أنهار من هول الخبر ولكن تماسكت وبدلت ملابسي متجهة لطاولة الاستقبال في الفندق طلباَ للمساعدة .. وطبعاً وجدت صعوبة كبيرة في شرح الوضع للموظف ذي الإنجليزية الركيكة .. فهو لم يكن يفهم ما أقول له .. وأنا لا أعرف مصطلحات المرض في لغتهم .. فعجزت معه .. حتى استطاع فهمي .. واعطاني ورقة بها عنوان المستشفى الذي سيفي بالغرض.. فذهبت مسرعة آخذة والدي لذلك العنوان بسيارة الفندق ما أن وصلنا أخذتني الدهشة والحيرة ..فقد كان المكان مستشفىٍ حكومياً ذا مبنى متهالك

يفتقر للنظافة تماماً والاهتمام فيه معدوم ..عدا ذلك جهلهم بأي لغة أخرى غير لغتهم .. إذاً كيف سأتفاهم مع البشر الذي أمامي وكان عليّ أن أقف في صف طويل ليصل دوري في ذلك المكان الموبوء .. وعلمت حينها .. موت والدي المحتم هنا .. إما جراء مرضه أو من الوباء الذي سيلتقطه من هذا المكان القذر .. فرجعت به من حيث أتيت .. أضرب أخماساً بأسداس ، بينما كانت حالة والدي تسوء مع الوقت لتصبح من سيئ إلى أسوأ .. إلى أن طلبت مني والدتي الاتصال بأحد الأشخاص والذي كنا قد قابلناه بالمصادفة في أحد الأسواق الشعبية .. وقدم نفسه لنا على أنه طبيب عربي يعيش هنا .. فاتصلت به أطلب منه مساعدتي في إيجاد أي مكان ينقذ والدي ويقدم النجدة له .. فأتى سريعاً مجيباً لندائي .. فأصطحبنا نحن الثلاثة .. أنا ووالدي ووالدتي إلى إحدى العيادات ، بينما بقيت أختاي تنتظران خبر الاطمئنان في الفندق .. كانت العيادة نظيفة ويوجد بها طبيبان فقط.. فقدما الاسعافات الأولية لوالدي .. وانتظرا حتى تستقر حالته .. ويفيق من غيبوبته .. فقد كان فاقداً الوعي بعدما جف جسمه من كل السوائل والأملاح التي فيها .. وكنت يائسة وحزينة.. فكنت أدعو الله أن يشفي والدي بأسرع وقت ليصحو ويفتح عينيه .. ونرجع بعدها للدوحة .. قبل فوات الأوان .. وهاجس التفكير كان يأكلني كيف سأفاتح إخوتي بخبر مرض والدي المفاجئ .. وأيضاً المبلغ المالي الذي معي أخاف ألا يغطي مصاريف علاجه، فمن أين سأتدبر المال أيضاً.. يارب اعطني القوة حتى أخرج

والدي من هذه المصيبة التي حلت على رأسنا كلنا.. فمن صعوبة المحنة التي كنت فيها لم يكن لدي وقت للبكاء.. بينما أختاي فعلتا ذلك .. وبكتا بشدة وكانتا مذعورتين جداً .. أما أنا فتمالكت دموعي أمامهما متظاهرة بقوتي وصلابة بأسي وأن الأمور ستحل بإذن الله وسيشفى والدي ونعود جميعاً بالسلامة إلى بلدنا ..

ومضى يوم وبقي يوم واحد على عودتنا .. وإلى الآن والدي لم يصح وأعلمت الطاقم الطبي بسفرنا بعد يوم فأجمعوا باستحالة سفر والدي حتى تستقر حالته أكثر وسيحتاج لأيام أخرى في المستشفى .. قلت في نفسي إذا مكثت هنا أياماً أخرى من أين سيكون لي المال لتدبير أموري؟؟

فالمبلغ الذي عندي بالكاد يكفي .. ثم أفقت على هاجس آخر وهو أن شركة الطيران لن تسمح له بالسفر وهو في هذه الحالة .. فشعرت حينها كأنني مقيدة بكرات فولاذية ورموا بي في عرض المحيط لأغرق في بحر الهموم .. ولكني أستعنت بالله وشددت أزري به واستنهضت همتي وقلت في نفسي لن أغرق ولن أدعهم يغرقون معي وسأجد وسيلة تنجينا من هذا المأزق بإذن الله ..

فطلبت من أختايّ التوجه فوراً للفندق وجمع حقائبهما والذهاب في اليوم التالي للمطار للحاق بالطائرة حتى لا يذهب علينا حجزنا للتذاكر.. وطلبت من والدتي والرجل العربي الذي

كان يدعي أنه طبيب ويتكلم التركية بطلاقة مرافقتهما وتسهيل إجراءاتهما في المطار.. بينما تبقى أمي ملازمة لي في اسطنبول لنرجع معاً مع والدي إن شاء الله .. بالنسبة لأختايّ كانت هذه هي المرة الأولى التي تسافران فيها لبلد بعيد عن دول الخليج ولوحدهما ، فكانتا مرتبكتين في البداية .. وخافتا من التوهان في المطار .. فطمنتهما وأخبرتهما بأن بسفرهما سيخف الحمل الذي على كاهلي كثيراً.. ورجوتهما أن تساعداني في ذلك.. فوافقتا .. والحمدلله في قاعة الركاب التقى بهما صديق لوالدي.. ورافقهما طوال الرحلة إلى أن وصلوا بسلام .. فالحمدلله الذي بعث بهذا الرجل الذي ساعدهم كثيراً في التحرك بين الصالات ولم تتوها كما كانتا خائفتين ..

بقيت في اسطنبول أنا ووالدتي ووالدي الذي كان مقيماً في المستشفى .. كانت والدتي في ذلك اليوم في الفندق .. عندما دخل عليّ الغرفة الطبيبان ليخبراني بأنه لابد من نقل والدي لمستشفىٍ آخر لتلقي المزيد من العلاجات ، فإمكانات عيادتهما متواضعة جداً ولن تفي بالعلاج الطويل اللازم له وهما أيضاً غير قادرين على مساعدته أكثر.. كانت الصدمة قوية عليّ ..أين سآخذ والدي في هذا الوقت؟؟ حيث شارف على المغيب وكل الأماكن ستغلق ويخيم الظلام علينا .. ووالدي لا يقوى على النهوض والأجهزة مازالت هي الوسيلة الوحيدة لبقائه حياً .. وأين سأجد في هذا البلد الكبير من يستطيع فهم اللغة الوحيدة

التي يعرفهاالعالم أجمع وهي الإنجليزية.. كهذين الطبيبين؟؟

أطرقت برأسي أفكر.. أن يرشدني ربي إلى وسيلة.. فحتى لو كلمت السفارة القطرية فهي في مدينة أنقرة البعيدة عنا.. وها قد انتهت ساعات الدوام الرسمية عندهم .. وجربت واتصلت بالسفارة لعلهم يستطيعون إرسال من يساعدني ويرشدني كيف أتصرف.. ولكن كان جرس الهاتف يرن دون مجيب .. فدخل علي أحد الطبيبين يبشرني أنهما استطاعا التوصل إلى مستشفىٍ سيتولى معالجة والدي .. وسيأتيان لنقل والدي بسيارة الإسعاف الخاصة بالمستشفى .. فلا داعي للقلق .. ويجب علي دفع رسوم العلاج الذي تلقاه والدي في العيادة قبل مجيء السيارة.. فدفعت الرسوم من المبلغ الذي بحوزتي .. واتصلت بالرجل العربي كي يلحق بنا هناك ليشرح للأطباء بلغتهم التركية .. وما أن وصلت سيارة الإسعاف حتى أدخلوا والدي فيها وكان غائباً عن الوعي .. وعندما أردت الدخول معه في الكبينة الخلفية والجلوس بجانبه رفضوا ذلك.. وطلبوا مني الجلوس في الأمام وسط السائق ومساعده .. وصاحت صفارة سيارة الإسعاف في الأرجاء لتبرد أطرافي من الفزع وأحسست بالشلل التام حينها ، فلا معين يشد من أزري في مكان أنا ووالدي فيه غربيان وضعيفين فلم أصدق ما كان يحدث.. كيف لي وأنا المعززة الغالية أن أركب سيارة اسعاف وأجلس بين رجال أغراب عني ليصلوا بوالدي إلى بر الأمان .. فرغم صوت الصفارة المدوي كان رجل الإسعاف

يخرج سماعة تكبير الصوت ليصيح بالناس أن يفسحوا الطريق لتمر السيارة وسط الزحام وعلى سكة الحديد أحياناً مغامرة بنا لنصل في أقصى سرعة ممكنة ..

حينها شعرت بصفعات الضيق القوية تلهب وجهي ألماً لترغمني على البكاء في دنيا ضاقت بي رغم اتساعها .. فشعرت بأنه لم يعد لي وطن .. ولا سند.. أحسست بوحدة وغربة في ذلك البلد ، فالحالة التي وصلت إليها جعلت من دموعي تتحجر في مقلتها وتتصلب فلم يكن هناك وقت لندب حظي والبكاء على المصيبة التي غرقت فيها ولكن كان عليّ التماسك وعدم الانهيار، لأنه بانهياري سأفقد كل شيء إذا لم أصمد أنا في هذه المعضلة العصيبة فلن أعود بوالديّ .. فكنت أهون على نفسي تعاظم المصيبة لتقوى عزيمتي وأواجه الظروف بقوة وحكمة .. وبعد مغامرة ومخاطرة كبيرة وصلنا المستشفى المنشود .. الذي كان يبدولي ذا تكاليف باهظة جداً والمبلغ الذي معي لا يغطي مصاريف العلاج ، وحينها لم يكن همي الوحيد دفع المصاريف ، بل كان الأهم عندي أن تتم معالجة والدي .. لنرجع .. أريد فقط الرجوع .. إلى الدوحة لأحتضنها ، فهي أمي وأبي ..أريد معانقة ترابها وإبدال الخوف الذي واجهته هنا في الغربة بالأمان والطمأنينة .. أريد أن أرجع لأرضي وأقبل موطئ قدمي الذي أقف عليه ، فلطالما كنت عزيزة فيها ولا يجرؤ أحد على كشف ستري ولكن ببعدي عنها تعرضت للمرض والكرب ، فقط أريد

تنسم هوائها ، فقد يكون في ذلك دواء لنفسي المتعبة العليلة ..
نعم أشتقت للرجوع إلى الدوحة الأرض التي نبت فيها عودي ..

في هذا المستشفى الخاص.. كان الاهتمام مختلفاً عن الحكومي أو العيادة التي كنا فيها .. فهنا أحاطوا والدي بعناية ورعاية خاصة .. كي يراه الاستشاري في اليوم التالي .. وفاجأني الرجل العربي الذي كنت قد اتصلت به ليساعدني في شرح حالة والدي للأطباء على الرغم من أن فئة منهم يتكلمون الإنجليزية بطلاقة ، فإذا به يطلب مني أن أعطيه رسوم سيارة الإسعاف التي نقلت والدي ، كما طلبت الإدارة منه ، أعطيته دون التأكد من صحة كلامه .. فقد كان ذهني مشغولاً بوالدتي وكان عليّ الذهاب للفندق للاطمئنان عليها ، فقد تكون جائعة ولا تعرف كيفية التصرف وشراء الطعام .. فوالداي الآن تحت مسؤوليتي وعليّ المحافظة عليهما أكثر من ذي قبل .. فأخذت قطار المترو متجهة إلى المنطقة التي يقع فيها الفندق ثم أصطحبتها معي للمستشفى بالوسيلة ذاتها ، فقد كانت محطة قطار المترو قريبة جداً من موقع المستشفى .. وما أن وصلنا حتى كان والدي قد أفاق من حالته وبدأ يتماثل للشفاء .. فالحمد والشكر لك يا رب على سلامته .. وقبل أن يتأخر الوقت طلبت من والدتي العودة بها للفندق وشراء ما تحتاجه في طريقنا على أن أعود إليها في صباح اليوم التالي .. وقررت المبيت مع والدي في المستشفى في تلك الليلة وكان عليّ إحضار أدوية الكلى الخاصة به وبعض ملابسه

من الفندق، وفي وقت الرجوع للمستشفى كان الليل قد أرخى ستاره شيئاً فشيئاً وعليّ الاسراع بالعودة قبل انتصافه .. فركبت قطار المترو من المحطة القريبة من الفندق الذي نقطن فيه ..كان كل شيء كالمعتاد طبيعياً وهادئاً .. فالقطار ملئ بالناس .. ويتوقف بين فينة وأخرى في أكثر من محطة ليحمل مجموعة من الناس وينزل غيرهم .. وهكذا حتى يصل للمنطقة التي فيها المستشفى .. وفجأة هطلت الأمطار بشدة.. كان الأمر عادياً بالنسبة لي .. ولكن توقف القطار فجأة في إحدى المحطات وتم التبليغ عن عطل أصابه نتيجة ماس كهربي ، كان غير عادي وطلب منا الخروج منه إلى الشارع العام لإيجاد وسيلة نقل أخرى .. هذا الخبر الذي سمعته «تعطل القطار» جعل وجهي بلا دم .. فالخوف تملكني في هذا الليل ولا يعلم بحالي غير الله، فناديته ولجأت إليه كي يساعدني ويحميني في ظلمة هذا الليل ومطره الغزير.. رباه أي الطريق أسلك قبل أن يبللني المطر بزخاته ويبلل أدوية والدي وملابسه التي أحملها في يدي ، وأنا لا أحمل معي مظلة تقيني منه.. وما هي الوسيلة التي عليّ ركوبها لتوصلني إلى المستشفى .. وبينما أنا أخرج من بوابة القطار أتلفت يمنة ويسرة لأعرف أي طريق أسلك مع الجموع الخارجة من بطن القطار الذين مشيت معهم دون أن أعرف وجهتي ، لأجد أحدهم يصيح من خلفي منادياً إياي باللغة التركية أن آتي معه .. دققت النظر في وجهه لأعرف سبب مناداته لي أنا بالذات .. فلم أعرفه ولم آبه لأمره لأنه بدا لي ثملاً وكان ذلك واضحاً عليه من خطواته

المترنحة.. تركته ومشيت بعيداً عنه .. وإذا بي أراه يمشي خلفي مقترباً مني أكثر ثم طلب مني أن أمشي معه لنعود معاً.. بينما كان رجال الأمن يراقبون الموقف بالقرب منا على رصيف المحطة دون حراك.. فحاول أن يقترب مني ليسحبني معه رغماً عني .. فصحت بأعلى صوتي مبتعدة عنه وأقول بإنجليزيتي بأنني لست معه وأنا أوجه كلامي لرجال الأمن ، ورغم أنهم يرون أنني أحاول الفكاك منه بالجري والهروب منه ، فانهم اكتفوا بمتابعة المشهد الذي أمامهم ، غير مدركين لما أقوله لهم .. فكانوا يظنوننا زوجين نتشاجر مع بعضنا البعض .. فقد كنت كالطريدة التي تحاول النجاة بنفسها من يد الذي يطاردها واستطعت الإفلات منه قبل أن يمسني أو يحاول لمسي ، لأنني بمجرد أن رأيت يديه تتحركان صوبي محاولاً الأمساك بي .. أطلقت رجليّ للريح بأقصى ما أوتيت من قوة .. وغبت في الظلام البهيم ودسست نفسي بين مجموعة من الناس ، كانت تقف على حافة الشارع عند الطريق العام تنتظر مرور سيارة من سيارات التاكسي لتقلها حيث تريد ، فسألت الواقفين معي من الرجال والنساء إذا كانوا يعرفون العربية أو الإنجليزية.. أو حتى يعرفون العنوان الموجود على البطاقة التي أحملها في يدي .. فوجدت شيخاً كبيراً كان متجهاً صوبي وقال لي بلهجة عربية مكسرة .. لا تخافي يا ابنتي.. أنا كنت أعيش في لبنان لفترة قصيرة وأعرف قليلاً العربية وسأساعدكِ.. اطمئني .. أخذ مني بطاقة المستشفى التي مكتوب بها اسم المنطقة والشارع الذي يقع فيه المستشفى ..

وأخذ يستوقف كل سيارة تاكسي تمر أمامنا ليسأل سائقها عن إذا كان يعرف العنوان ، وكان الجو ماطراً والظلام دامساً وبالكاد نرى بعضنا البعض .. كنت أرى الشيخ كيف يمشي بين السيارات من أجل مساعدتي .. فأدركت أن هناك أناساً يبعثهم الله لنا كطوق نجاة لينقذني من ذلك السكران ويساعدني للوصول إلى والدي في المستشفى فأثبت لي وأن لم يكن عربياً أنه صاحب شهامة .. واستطاع الشيخ إيجاد تاكسي يأخذني إلى العنوان الذي به المستشفى .. فشكرته كثيراً على المعروف الذي لن أنساه.. وأنا أحاول ركوب السيارة وجدت السائق يطلب مني الجلوس على المقعد الأمامي استغربنا طلبه أنا والشيخ الكبيرالذي يقف بجانبي فاتحاً لي الباب الخلفي لآخذ مكاني فيه.. فرفضت طلب السائق وأشرت له أنني أنوي الجلوس بالخلف إذا كان يريد إيصالي .. فوافق على مضض وجلست بالخلف وبعدما ركبت ودعت الشيخ الشهم .. وانطلق بي السائق نحو المنطقة التي بها المستشفى ، فقد كنت أحفظ الطريق المؤدي إليه جيداً رغم الظلام والمطر.. ثم لاحظت نظرات السائق لي من مرآة السيارة العاكسة .. فسألني عن اسمي؟؟ فلم أرد .. فلا أريد الدخول معه في حوار.. سألني مرة أخرى .. فخفت أن يغضب وينزلني من السيارة في وسط الطريق لتأكلني الذئاب البرية والبشرية معاً ، ففضلت مسايرته حتى يمل ويبتلع لسانه ويصمت فجاوبته : اسمي مريم .. قال : أنتِ من أين؟؟ خفت أن أقول له من الخليج .. فيخطفني ويسرق ما عندي

من مال.. فقلت له من إيران.. وسبب إختياري لإيران كوني محجبة أولاً ولأني كنت أرى مجموعات كثيرة من الإيرانيات منتشرات في المنطقة التي يقع فيها الفندق ثانياً.. ثم زادت أسئلته.. فقال : هل أنتِ متزوجة ؟ من خوفي أجبت : نعم وعندي ثلاثة أبناء .. فسألني مرة أخرى : هل أنتِ متأكدة من أنكِ تريدين الذهاب للمستشفى أم تودين الذهاب لأحد البيوت في نفس المنطقة ؟ جاوبته بصوت قوي : إنني ذاهبة لوالدي المريض في المستشفى.. ولاداعي للسؤال أكثر لأنني أحفظ الطريق فانتبه لقيادته أكثر.. هنا زادت شكوكه عندما سمع رنين هاتفي المحمول .. فعندما رأيت الرقم عرفت أنه أخي .. فسألني أخي عن مكاني ، فخفت أن يقلق عليّ فقلت له أنا في الفندق نائمة .. سألني عن سبب تأجيل العودة ؟ قلت له إنك تعرف مدى حب والدي وتعلقه بتركيا .. فأحب أن نمضي فيها أياماً أخرى وخاصة أنه ليس على ما يرام وعندما تتحسن حالته نرجع ، والآن الجميع نائمون ، اتصل غداً لتكلمهم مع السلامة .. وما أن أغلقت الخط حتى أرى سائق التاكسي يرمقني بنظرات مريبة ويبتسم ، فلم أفهم مقصده ولم يهمني ماذا يخفي وراء ابتسامته الخبيثة .. وعندما شعرت بأنني قريبة جداً من منطقة المستشفى .. قلت له : أنزلني هنا .. استغرب طلبي .. وخفف من قيادته للسيارة، بينما كررت قولي له: أنزلني هنا كما طلبت فأنا على دراية بشوارع المنطقة أكثر منك .. وفتحت باب السيارة ورميت نفسي خارجها تاركة له على المقعد الخلفي أجرته بالزيادة المفروض أن يعيدها لي

ولذت بالفرار نحو الممر الضيق المؤدي للمستشفى ولا تستطيع أي سيارة أن تدخله .. وما أن وصلت إلى بوابة المستشفى الكبيرة فوجئت بالأضواء المطفأة والأبواب المغلقة وزادت الأمطار في الهطول بغزارة لتبللني بالكامل وأنا أطوف حول مبنى المستشفى لعلني أرى أحداً يفتح لي الباب وأدخل لأرتمي في حضن والدي المريض ليحميني من هول ما رأيته في هذا الليل.. وكنت خائفة جداً أن يفسد ماء المطر أدوية والدي ويبلل ملابسه التي أحضرتها معي بتعب ومعاناة ، فكنت أحاول اتقاء الماء بالبحث عن أي شيء أستظل تحته ، ولكن لم أجد وكنت أجري تحت المطر ذهاباً و إياباً وأنا أحوم حول المبنى الزجاجي آملة أن يلاحظني أحد وينقذني من الغرق في حمام الماء المنهمر من السماء.. فقمت بالطرق على الباب السميك بقبضتي بقوة ، حتى آلمتني وألصقت جسمي كله بباب المدخل الزجاجي وأنهارت قواي عندها ، لأتكوم على نفسي في مكاني عند المدخل وأصرخ باكية ليأسي من أن يسمعني أحد ما في مبنى المستشفى ، فيفتح لي وكنت أخاف أن أبيت في مكاني هذا عند باب المدخل ، حيث الظلمة والغربة تقبعان معي على الأرض خلف الباب الموصد في وجهي ، لترويني السماء بدموع حزنها ، وكنت منهارة تماماً عندما خيل لي أني رأيت طيف أحدهم يمشي في الممر .. ففتحت عيني متأملة أن ينقلب خيالي لواقع ، فدققت النظر أكثر لأجد طبيباً يمشي في الممر البعيد حاملاً بيد ملفاً لمريض فدبت فيّ روح المحاولة من جديد لأستغيث به بقوة

طرقي على الزجاج الذي كدت كسره جراء فعلي ذلك .. فانتبه أخيراً لوجودي بعد محاولاتي المستميتة وصرت أكلمه بالإشارة خلف الزجاج وأريه ما كنت أحمله في يدي ، كيس دواء وكيس آخر به قماش ، وكنت أومئ له بسبابتي إلى أعلى وأنا أشير له بأنني أريد الذهاب لفوق ، حيث غرفة والدي هناك و أخيراً فهم قصدي وأشارعليّ أن أذهب إلى الجهة الأخرى ، حيث باب الطوارئ .. فانه سيفتح لي الباب هناك .. وما أن فتح الباب حتى ركضت إلى المصعد وضغطت على زر الطابق الذي فيه والدي وتنبهت لنفسي ورثيت للحالة التي كنت عليها وأنا أنظر في مرآة المصعد فقد كنت مبللة بالكامل ولم تكن معي ملابس لأبدلها بجافة ، فدعوت الله ألا أصاب بنزلة برد في هذه الليلة ومن الذي سيعتني بوالدي إن مرضت؟؟ وعندما وصلت لغرفة والدي فوجدته لم ينم بل ظل يقظاً ينتظرني بقلق ثم سألني بصوت تعب من الانتظار ألم تتأخري قليلاً؟؟

فإبتسمت لأقول له بالعكس أن الجو بالخارج رائع جداً وخاصة نزول المطر بهذا الشكل الغزير جعل روحي تنتعش وتمنيت قضاء أطول وقت في الخارج لأتابع المطر عن كثب وهو يتساقط .. فأحسست أن والدي اطمأن عليّ عندما سمع ذلك ولم ير في عيني الكابوس الذي كان يلاحقني في الخارج ، ثم بوجه بشوش ساعدته في تغيير ملابسه وناولته أدويته وأفترشت الأرضية لأنام عليها .. بعدما طلبت من الممرضة غطاءاً سميكاً

يدفئني من برد تلك الليلة وأهوالها .. وحاولت إقناع نفسي بالنوم بملابس مبللة فوضعت خدي على كفي الذي كان محمراً من أثر الضرب على الباب الزجاجي وانهمرت قطرات ساخنة من دموع عيني على الوسادة كالمطر الذي كان يهطل على اسطنبول بالخارج .. شكراً لله وبصوت خافت .. حمدت الله الذي حفظني من أجل والديّ.. فكيف كانا سيتدبران أمرهما دوني .. فالحمد لك كثيراً..

في صباح اليوم التالي .. بشرنا الطبيب الاستشاري بأنه لا داعي للخوف .. فوالدي يتماثل للشفاء ويحتاج ليومين أو أكثر وسيكون في أفضل حال .. هذا الخبر أسعدني كثيراَ وكنت أود أخبار والدتي بذلك فكنت في كل حين أنظر من خلال النافذة إذا كان القطار يتحرك كالمعتاد أوأنه متوقف منذ الأمس بسبب الماس الكهربائي الذي كان سببه مياه الأمطار والذي زلزل كياني بعد الظروف التي مررت بها أمس ومسح من مخيلتي كل صورة جميلة رأيتها في اسطنبول .. كانت محطة قطار المترو قريبة جداَ منا فبمسافة بسيطة أستقل القطار الذاهب إلى أي وجهة أريدها .. ثم لاحظت أن والدي تنبه لتوتري ونظري الدائم لاتجاه معين وأنا أطل من خلال النافذة .. فسألني إذا ما كان هناك شيء ما يقلقني ؟ .. فأجبته بلا .. فقط أنا أنظر من النافذة إذا ما كان القطار مازال مزدحماً بالناس .. أم فرغ من الأزدحام ، لأنني أفكر بالذهاب إلى والدتي لأبشرها بالخبر وسأحضرها معي إلى

المستشفى ، فأذن لي والدي بالذهاب قائلاً : لا تقلقي عليّ سأكون منتظراً عودتك مع والدتك ..

وعندما هممت بالخروج من باب المستشفى تذكرت سائق سيارة الإسعاف ، فسألته إن كان قد أعطاه الرجل العربي أجرته .. فنظر إليّ متعجباً وأخبرني أن المستشفى وفر سيارة الإسعاف بالمجان .. فلا رسوم عليها .. هنا شعرت أن هذا الرجل العربي ما هو إلا محتال يدعي أنه طبيب ويبدو من ملابسه أنه ليس أكثر من شحاذ ، ولكني كنت أحتاج للغته التركية مع الأطباء حينها .. فقلت لنفسي سأكون على حذر.. ولن أعطيه ثقتي كما تطلب مني والدتي التي تصر على أن أسلمه زمام أمورنا بيده .. فهي لا تعلم دناءته.. ولكن سأرى ما الذي ينوي فعله معنا ، هذا ما كنت أفكر فيه وأنا في طريقي لأتأكد بنفسي إن كان سير القطار منتظماً أم متوقفاً منذ البارحة .. فوجدت الحياة اعتيادية والقطار مكتظاً بالناس .. فقطعت التذكرة مثل الباقين .. وجلست فيه وكان وقتها الجو صحواً.. ولكان فجأة تلبدت السماء بالغيوم .. وبدأت تمطر من جديد .. وأنا أدعو الله ألا يوقفوه مرة أخرى .. ولكن إرادة الله فوق كل شيء .. وتم إيقاف القطار مرة أخرى .. وطلبوا منا النزول والخروج من المحطة .. فدخلت في وسط مجموعة من السيدات كن يمشين معاً .. فمشيت معهن .. إلى أن ركبن أحد الباصات .. فتوقفت .. وأخذت أركض بين الباصات أسأل كل سائق .. إن كان يتجه نحو منطقة (أكسراي) .. حيث يقع

الفندق .. كان أكثرهم يرفض إلى أن وافق أحدهم أن يوصلني .. ولكن إلى محطة قد تكون أقرب نقطة لمنطقتي ، فوافقت على مضض وأنا مضطرة فليس هناك وسيلة أخرى غير هذا الباص ، فجلست على كرسي من الكراسي بين فوج من الناس .. إلى أن وصلنا منطقة (تقسيم) وأبلغني السائق أن أنزل هنا ، فهي أقرب نقطة لمنطقتي ولا توجد في منطقة (أكسراى) محطة للباصات هذا ما أخبرني به ، فنزلت من الباص ومشيت نحو الأتجاه الذي أشارعليّ باتباعه للوصول لتلك المنطقة.. فكانت المسافة طويلة جداً وإلى أن وصلت للفندق كدت أموت من مشقة الطريق وبعد التعب والإجهاد دخلت منهكة جداً.. فارتميت على السرير لساعتين .. ثم صحوت على رنين الهاتف لأجد ذاك الرجل العربي يتصل بي ويطلب مقابلتي ليساعدني في الحصول على موعد حجز تذاكر الطيران والعودة للدوحة في أقصى مدة .. فطلبت من والدتي أن ترافقني ، فأنا غير معتادة على المشي وحيدة مع رجل غريب مهما كانت الظروف وهذا السبب الذي جعلني ألا أسمح لها بالسفر مع أختايّ وتركي وحيدة مع والدي ، فقد كنت أريدها أن تكون معي وحتى لا يستفرد بي أحد ولم تفهم ما أقول لها.. وردت عليّ بقولها : اذهبي معه فهو رجل أمين وفي الستين من العمر وهو أكبر من والديك ويستحيل أن يفكر بطريقة سيئة ، وما هذه إلا أوهام وشكوك لا داعي لها .. قلت لها سنرى إذاً .. ثم أخيراً وافقت على المجيء معي وحصلنا على الحجز الذي كنا نريده آه وسأعود إلى الدوحة وبعدما حصلت

على التذاكر اتجهنا إلى المستشفى لأفرح والدي بالخبر وبينما كنت جالسة مع والدي في الغرفة أستأذنني الرجل المشكوك في أمره أن يكلمني لخمس دقائق ليخبرني شيئاً عن والدي ، فاستغربت من ذلك ووقفت في الممر خارج باب الغرفة ، فبدأ حديثه بإخافتي حول صحة والدي قائلاً إن صحته متدهورة جداً و يحتاج لعلاج لفترة طويلة في المستشفي .. ولا يدري الخبيث أن الدكتور الاستشاري يجيد الإنجليزية وتحدثت معه في الصباح حول صحة والدي فطمأنني عليه وسمح لنا بالسفر.. فالتزمت الصمت ولم أخبره بأي شيء ، فكنت أنصت له وعلامات التأثر واضحة على ملامحي ، فقط كنت أود معرفة الفكرة أوالخطة التي تدور في رأس الخسيس ، ثم فاجأني بسؤاله كيف سارت أموري البارحة عندما رجعت من عند والدتي إلى المستشفى .. فاستغربت سؤاله وقلت في نفسي يا هل ترى أعلنوا عما حصل للقطار في وسائل الإعلام ، فبدأت أروي له ما حصل معي بالحرف وذكرت له تصرفات سائق التاكسي المريبة التي لم أفهمها ، لأجد الإجابة عنده عن كل سؤال سألني إياه ، فقال لي بما أنه وجد معك كيساً وفي ذلك الوقت من الليل ، تراءى له أنك مومس من المومسات المنتشرات في الشوارع في الليل وعندما قلتِ له بأنك إيرانية تأكد من شكه بك ، لأن فئة كبيرة من هذه الجنسية تأتي إلى تركيا كسباً للعيش والاسترزاق من وراء امتهان الدعارة .. وعندما قلتِ له انك متزوجة معنى ذلك أنك سهلة عليه ، فأنتِ صاحبة تجربة وخبرة ولست عذراء .. وعندما رن

هاتفك وتكلمتِ مع رجل تيقن أنك ذاهبة لقضاء ليلة حمراء عند أحدهم ، فكنت أسمع له وأنا مذهولة لما حدث معي وما صنعته بنفسي ، فقد أصبحت في جنح الظلام فتاة ليل من الطراز الأول أجوب اسطنبول التركية تلك الليلة لأمتهن أقدم مهنة في التاريخ والعياذ بالله ، ثم وجدته يصيح بي بإنفعال شديد ويسألني : لماذا لم تتصلي بي في تلك الليلة فكنت سآتي لنجدتك ؟ وبالفعل فكرت في سؤاله ، فهو لم يخطر علي بالي أبداً ثم ما الذي كان سيفعله لي ؟ لا شيء كان بيده ومادام أن الله كان معي وهو حفظني من كل تلك الشرور التي كانت محدقة بي فكرر سؤاله عليّ لماذا لم تتصلي ؟؟

فقلت له بديهياً أنت نائم مع زوجتك وأبنائك ، فلماذا أقلق منامكم بإتصالي ، وما الذي كنت ستفعله لي ، فليس باستطاعتك فعل شيء في ذلك الوقت ، فوجدته ينظر إليّ بنظرة خبيثة ، مفصحاً لي عن سره وكأنه سيفرحني بذلك قائلاً : أنا لست متزوجاً والمرأة التي أخبرتكم عنها هي تعيش معي في البيت كصديقة وهي عربية مثلك ثم فاجأني بجملته الأخيرة متسائلاً وأنتِ لماذا متعلقة إلى هذا الحد بوالديك؟ أتركيهما يسافران وحدهما وتعالي معي لأذيقك الشهد ، وما أن أنهى «الدال» في كلمته تلك حتى علا صوتي كالرعد في الممر الذي أقف فيه شتماً وقدحاً فيه وفي كرامته التي مسحت بها أرضية المستشفى لأجده يجري مني كالفأر ليدس نفسه في مزبلة من المزابل التي خرج لنا

منها ، بينما كنت مندهشة جداً لقذارة الجيفة التي كانت تقف أمامي ولم أشأ أن أدخل الغرفة وأخبر والديّ بالذي حصل وبالصدمة التي تعرضت لها خارج الغرفة ..

فقد كانا يريان فيه شخصاً شهماً ساعدنا كثيراً ودون أن يقبل منا أو يطلب المال ، فكان هدفه السامي هو أننا عرب وأخوة ولم يعرفا ما يبطنه من نية دنيئة لنا ، ولم يشموا مثلي رائحته النتنة وحدسي الصادق منذ البداية بأنه ليس إلا أبليس تجسد في صورة إنسان ..

في يوم السفر والعودة للدوحة .. خرجنا من المستشفى متجهين للفندق .. بعد أن دفعنا مبلغاً وقدره ولم يتبق معي إلا القليل الذي سندفعه للفندق وأجرة التاكسي.. فوضعنا حقائبنا وكان والدي ينتظرني في السيارة بينما كانت والدتي تشتري شيئاً من المحلات المجاورة للفندق .وأنا أقوم بدفع مستحقات الفندق للموظف لاحظت نظراته المختلسة في ما كان في محفظتي من مبلغ ، فقال لي أن الحساب تغير نظراً لتغير أسعار الحجوزات عن السعر المتفق عليه وعلي دفع زيادة عن ما سأدفعه له الآن وإلا لن يستطيع تسليمي جوازات السفر.. يعني بالفصيح هذه وسيلة جديدة للاحتيال واستغلال نزلاء الفندق .. فحاولت معه سياسة اللطف واللين ولم ينفع معه ، و لم يتبق إلا وقت قليل للحاق بطائرتنا ، ثم قررت تهديده بالشرطة فارتبك ولم يعر إهتماماً لأنه أدرك أنني لا أحمل معي رقم شرطة السياحة ..

فاستعجلته وطلبت منه أن يرحمني ويرأف بوالدي المريض ويعطيني الجوازات التي يحتجزها تحت يده .. ولم يرق قلبه لحالي وعندها استشطت غضباً لتصرفه الحقير، معي فرميت حفنة من الدولارات التي معي في وجهه وأخذت الجوازات منه عنوة وأنا ألعن اليوم الذي فكرت بالإقامة في فندقهم وزيارة بلدهم وتأكد لي ما كنت قد سمعته عن بعض فنادقهم ، فهي فعلاً خاضعة للشبكة مافيا وبالتأكيد أن فندقنا يتبعها..

انطلق بنا سائق التاكسي نحو مطار أتاتورك وفي الطريق دخلنا في أزمة مرورخانقة لساعة ونصف الساعة وما أن وصلنا صالة المغادرين وذهبت لشركة الطيران لإدخال حقائبنا .. حتى زفت إلي الموظفة البشرى وتخبرني بإقلاع طائرتنا منذ زمن طويل إلى الدوحة .. صدمة الخبر أقعدتني على أرض المطار فساقاي لم تعدا قادرتين على حمل مأساة أخرى والحمدلله أنه لم يغشى عليّ حينها من هول الصدمة وشعرت بنظرات الاشفاق التي كانت في عيون الناس الموجودين في الصالة والذين اندهشوا وواستغربوا للحالة التي كنت عليها ، ثم حاولت النهوض وعدم الاستسلام والنجاة بالاثنين العاجزين اللذين معي فسألت الموظفة عن أقرب رحلة متوافرة لأحجز فيها على الفور.. فردت عليّ أن الرحلة الوحيدة الموجودة هي رحلة يوم غد وسنكون ضمن قائمة الانتظار، وتنهدت تنهيدة خرجت من قلبي المكلوم بالمصائب التي تحل عليّ الواحدة تلو الأخرى .. فسألت نفسي أين سأذهب

بوالدي المريض والذي أخاف أن تتدهور حالته مرة أخرى ونمنع من السفر نهائياً لتطول مدة وجودي في اسطنبول التي أرتني العجب العجاب، فسألتها إن كان في المطارفندق نمكث فيه ليلتنا هذه إلى . يوم غد.. فأجابتني بالنفي على ما سألت وهي مبتسمة وكأنني قلت لها نكتة.. فهل وجود فندق في المطار نكتة إذاً فلتضحك على تخلفها ثم سألت نفسي وإذا تواجد الفندق هل عندك مبلغ للمبيت فيه لليلة ثم فكرت بأن الله سيدبر أمري ولن ينساني حينها فبإمكاني الأتصال بأخي والطلب منه وهو سيقوم بوضع المبلغ في حساب والدي ولكنني سأكون قد فتحت على نفسي باب الأسئلة التي أنا في غنى عن الإجابة عنها وسيدخلني في متاهات كثيرة وسيلومني من دون أن يدرك الظروف الصعبة التي مررت بها.. ثم ولنفترض لو خرجنا من المطار إلى أي فندق لقضاء ليلتنا فيه سنعلق من جديد في زحمة السير المزمنة في اسطنبول وتفوتنا الطائرة مرة أخرى وعندها سأطلب اللجوء السياسي هنا في تركيا لأن أرض تركيا تريد مني البقاء فيها و تأبى تركي لها ورجوعي إلى الحبيبة قطر والتي فعلاً أفتقدت الأمان على أرض غيرها ..

واقترح والداي أن نقضي ليلتنا هذه في المطار ليوم الغد حتى لا نقع في مشكلة أخرى خارجها ، فنحن في مأمن الآن داخل المطار.. ورأيتهما ممددين على الكراسي الجلدية المهترئة في صالة الانتظار وقلبي يعتصر ألماً للحالة التي توصلنا إليها بعد كل

تلك المآسي التي رأيتها في تركيا التي جئناها سياحاً ، فكنت أشعر بالخزي من نفسي وأنا أرهما والتعب أضناهما من الجلوس لساعات طوال على تلك الكراسي غير المريحة ولكن لم يكن أمامي وسيلة أخرى أساعدهما بها وكم كنت أتمنى لو أن إدارة المطار وفرت فندقاً بالقرب منه ليتسنى للمسافرين الذين فاتتهم رحلاتهم مثل حالنا المبيت والراحة فيه ..

وفي الصباح وبينما كنا ننتظر موعد الرحلة بفارغ الصبر تعرفنا على أناس كثر وسمعنا قصصاً أفظع من التي حدثت لنا ، فقد رأينا سيدة ألمانية عجوزاً كانت تقف على مقربة منا تبكي وتشرح لسيدة كردية كيف قامت عصابة من النشالين بسرقتها حيث دخلوا عليهم باصهم السياحي وأشهروا السلاح في وجوههم وأخذوا منهم كل شيء بعدما رموا بجوازات سفرهم وفرواهاربين وبكت السيدة العجوزبحرقة وهي تقص على السيدة الأخرى الكردية ، بينما أنا أراقب الموقف وأتابع المحادثة التي جرت على مقربة مني والتي كانت كلها بالإشارة فاستطعت فهم ما كان يدوربينهما وأنا جالسة في مكاني دون سماع ولا كلمة مما تقولان واستغربت فكرة العجوز الألمانية التي جاءت سائحة لاسطنبول تركيا .. تاركة ألمانيا وغابات أشجار الصنوبرالخلابة وأتت هنا ، حيث ينتظرها المصير الأسود والعاثر ..

ثم تعرفنا على السيدة الكردية التي قصت علينا حكايتها.. فقالت إنها دخلت تركيا كمعبر تدخل منه للعراق ، لتزور أهلها

الصامدين فيها بعد الحرب ، وهي في الأساس تعيش مع زوجها وأطفالها الثلاثة في هولندا وأشارت إليهم ، فقد كانوا يجلسون بعيداً عنا ثم قالت أن واحداً من أبنائها انكسرت ساقه في طريق عودتهم من العراق إلى تركيا ، حيث سيرجعون من خلالها إلى بلدهم الجديد هولندا .. وأشتكت لي سوء المعاملة التي لاقتها هي وأسرتها من قبل الجنود الموجودين على الحدود التركية العراقية .. ثم قدمت لنا شاباً كان يقف بجوارها فقال لنا إنه عراقي الجنسية ويعيش في هولندا واستهل كلامه بعرضه علينا المساعدة في حال احتياجنا لشيء ، فقد لاحظ وجودي وحيدة مع والديّ وأتحمل جل المسؤولية وحدي ، فصعب عليه حالي فشكره والدي على نخوته الأصيلة ولطفه معنا .. ثم حكى هو الآخر قصته وسبب مجيئه لتركيا .. فقال إنه أتاها كمعبر ليس إلا، فهي تستحق أن تكون أكثر من ذلك ، ودخل العراق ليزور والده الذي مازال متمسكاً ببيته فيها ويأبى هجر أرضه والنزوح لبلد آخر يعيش فيه هو وعماته وأخواته البنات ، ثم أخبرنا عن أسفه وضيقه من وجود أخواته المراهقات في بيئة كبيئة هولندا ، حيث يصعب على المرء توجيههن ومراقبة تصرفاتهن فالدولة تحميهن حتى وإن مارسن الرذيلة .. ففي هولندا كل شيء مباح ومجاز للجميع ، بل هناك قوانين سنت لإباحة المحرمات وتحت أعين القضاء وبإشراف رجالاته وفي أحياناً كثيرة يشعر بالندم لإنخراط أخواته الصغيرات في السن في ذلك المجتمع الغريب عما تربين عليه ولا يستطيع أيضاً تركهن دون عائل مع أب مريض في بلد

أُستبيحت فيه الحرمات ولا وجود للأمان فيه وسبب زيارته السنوية للعراق متخطياً العنجهية في المعاملة التي نتلقاها والأسلوب القذر الذي يتعاملون به معنا وكأننا لسنا ببشر وخاصة على الحدود التركية ، وكل تلك المخاطر أتحملها من أجل عيون والدي العليل لأطمئن إلى بقائه بخير سالماً معافى ثم أعود أدراجي من حيث أتيت .. ثم أشارعلى السيدة الكردية ليقول : والتقيت بهذه الأسرة التي كانت بحاجة للمساعدة والرعاية خاصة أن معهم ولداً مصاباً فالحمدلله قدرني الله على تذليل الصعوبات التي واجهتهم في طريقنا من العراق إلى تركيا والآن سأعود وحيداً بعد أن رتبت لهم حجوزات العودة إلى هولندا ..

كان جلوسنا مع هذا الشاب وسماع حكايته أشبه بتعلم دروس خصوصية في مدرسة الحياة ، فقد استمعنا إليه بكل جوارحنا وعرفنا منه كيف يحيا الانسان عندما يكون بلا وطن .. وبكلامه هذا زاد جذوة الشوق في قلبي اشتعالاً وزاد معه حنيني للرجوع لقطر والاعتراف بفضلها الكبير علينا كوطن ..

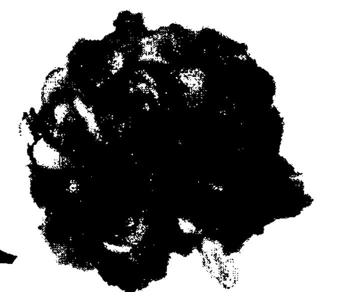
ومضى الوقت بطيئاً وثقيلاً وحان موعد الرحلة لتكون أسماؤنا ضمن قائمة المسافرين .. وانتظرت طويلاً ليتم إعلان أسمائنا ضمن المسافرين إلى الحبيبة وما أن أعلنت الموظفة أننا ضمن الرحلة لم تسعني الدنيا من الفرح بهذا النبأ السعيد ولم أصدقها حتى أسندت ظهري لمقعد الطائرة وأنا أنظر من خلال النافذة ، مدينة اسطنبول ويمر أمام عيني شريط ذكريات سوداء ،

طغت على كل بقعة نور رأيته فيها .. فلا أريد لقاء هذه المدينة مرة أخرى .. مهما كان نوع الإغراء ، فقد رأيتها على حقيقتها.. جرداء رغم خضرتها ..

وأخيراً وصلنا أرض الحبيبة قطر .. الحمدلله على السلامة .. أحسست بها حقاً في تلك اللحظة عندما قالها الضابط وهو يضع ختمه على صفحة من صفحات جوازي ، ثم أدهشني حركة الضابط وهو يعمق النظر في وجوهنا ويلتفت يمنة ويسرة فسألته ما خطبه .. فرد عليّ أنه يبحث عن صاحبة الجواز فأخبرته بأنني هي فبدا مستنكراً وغير مصدق بأنها أنا !!

فقد فقدت حينها من وزني الكثير لدرجة أنه تغيرت ملامح وجهي عن صورتي التي كانت في جوازالسفر ..

فشكراً تركيا على هذه الهدية .. ولن أعود إليك أبداً ..



حكاية الزهرة الرابعة

بعد عدة أيام من وصولنا انتكست صحة والدي مرة أخرى .. فقد تلوث الجرح العميق الذي بقدمه وعليه أن يلازم السرير وأخذ مضادات حيوية بالمصل في مستشفى حمد العام إلى أن يبرأ جرحه بالكامل ويلتئم ، وبما أنه مريض بالسكر فجرحه لن يلتئم سريعاً ويحتاج لعناية خاصة ورعاية وبعض الوقت ليتم شفاؤه .. فخفت على والدي من بقائه في المستشفى وحيداً يتسرب إليه الشعوربالعجز وتزيد حالته سوءاً.. فقررت البقاء معه في محنته وطبعاً كان الأمر مستهجناً وغريباً بعض الشيء من وجود فتاة في قسم جراحة الرجال ولكن هذا لن ينتقص مني شيئاً أن ساعدت والدي في تخطي تلك المرحلة بأمان ، فليس المهم إن كنت ولداً أو بنتاً الأهم أنني معه وأؤازره وأجيب ندائه إذا ما احتاج شيئاً.. فقد كنت كثيراً أخاف أن يعطش والدي في الليل ولا يجد أحداً يناوله الماء ليشرب .. أو يمسح على رأسه بحنان عندما تغفو عيناه للنوم.. أحببت أن أفعل ذلك عن طيب خاطر.. كنت أداعبه كطفلي وأجعله يتحدث ويفضي ما بداخله من أسرار.. كي يخفف من ثقل الذي يحمله في صدره .. كنت كثيراً

ما أمازحه وأنا متقمصة دور الحلاق.. فأحلق له قائلة : سكسوكة بابا أو قفل؟؟ فيجيبني مفتاح .. ونقهقه بالضحك كي نقتل جو المستشفى الكئيب بقوة عزمنا على الشفاء..

هاه .. أتذكرون مها صديقتي التي عرفتها في سفرتي مع طالبات الجامعة لمدينة (نيوكاسل) .. وحيرتها من الزواج من «أخا» صديقتها لأسباب قد ذكرتها سابقاً .. اتصلت بي تدعوني لحضور حفل زفافها إلى الشخص نفسه أخو صديقتها المقربة .. كنت سعيدة بهذا الخبر .. والذي زاد من سروري أنها قالت ما كنت قد أحسست به في ذلك الوقت .. قالت لي إنها اكتشفت أن روحها تحبه وتأبى العيش مع غيره من البشر .. ويكفي أنه واجه الجميع بحبه لها وإصراره على الزواج منها ثم قالت : أتدرين إنه الرجل الذي لطالما أردته وهذا الذي كنت دائماً أحلم به ..

للأسف لم أستطع الحضور وترك والدي وحيداً في المستشفى ولكن صديقتي دانة قامت بالواجب وحضرت الحفل ووصفت لي على أنه كان خيالاً وكانت عصافيرالحب تحلق هناك ، حيث كانت مها عروس الحفل ..

وبعد أن انتشلتني مها باتصالها إلى أجواء السعادة والفرح أعود بكم إلى المستشفى ، حيث عشت فيه شهرين متتابعين بحلوهما ومرهما ..

فعندما كان يرخي الليل ستاره .. كنت أسحب الكرسي وأفتحه

ليكون على شكل فراش ممدود على الأرض ، فأتغطى بلحاف بنفسجي اللون ذي نجوم صغيرة كالأطفال وأنظر إلى وجه والدي النائم لأتذكر كيف كنت أتوسد ذراعه وأنام عليها هانئة بدفء أنفاسه .. في إحدى المرات فتحت عينيّ في ظلمة الغرفة لأجد أمامي ممرضتين قطريتين ، في عمري تقريباً كانتا واقفتين تنظران إليّ برأفة وشفقة .. وأنا ممددة نائمة على الكرسي على أرضية الغرفة الخاصة بوالدي .. فأسمع إحداهما تروي للأخرى حكايتي وسر وجودي هنا على تلك الأرضية الباردة أحرس والدي .. فمن بين جميع الغرف التي يمكث بها الرجال كنت أنا الأنثى الوحيدة التي أعيش في هذه الغرفة ومع مرورالأيام أقمت علاقات مودة وصداقة مع الطاقم الذي يدير قسم جراحة الرجال.. من الإداريين والأطباء وطاقم التمريض رجالاً ونساء حتى عمال النظافة في القسم أصبح الجميع يعلم بوجودي وبقائي في هذا القسم لشهرين وهما مدة ليست بسيطة وصارت هاتان الممرضتان رفيقتيّ في المكان ..

وكانت أختي تأتي دائماً بحاجياتي وحاجيات والدي من البيت بعد انتهاء دوام عملها وكنت ألاحظ أنا وأختي سيدة كبيرة في السن كانت تزورالغرفة التي تجاورنا في كل يوم وتجلس فيها لساعات طوال .. وكنا في أغلب الأحيان نلتقي بها في مصلى السيدات عند قسم جراحة السيدات في أوقات الصلاة .. فنلقي عليها السلام ونمضي في طريقنا .. إلى أن سألت السيدة أختي عن

اسم والدي وما أن عرفت الاسم .. حتى سمعنا نبرة الشوق في صوتها وطلبت منا أن تأتي معنا لتراه وتسلم عليه .. وعندما رأت والدي ذكرته بنفسها ، فقد كانت تضع على وجهها برقعاً ذهبياً لامعاً يظهر فقط عينيها وشيئاً من ذقنها ونطلق عليه بلهجتنا القطرية الدارجة (البطولة) بفتح الباء ونساء أهل الحضرهن من كن يلبسنها على الدوام عند خروجهن من البيت ومازالت فئة قليلة من السيدات الكبيرات في السن محتفظات بها الآن .. ويلبسنها عند الخروج كنوع من الستر .. فعرفها والدي من صوتها وفاضت عيناه بالدمع.. فقد تذكرها وتذكر والدته ـ رحمها الله ـ معها.. فقد كانت من الجيران وأهل المنطقة الواحدة التي كان يعيش فيها وهي أيضاً من معارف جدتي رحمة الله عليها .. وما إن جلست حتى أدارت رحى التاريخ بيديها .. وعاد والدي شاباً يقرأ في دفاتر ذكرياته .. وأخيراً وجدنا الأنس معها ، كما وجدته هي معنا.. فقد كانت تأتي يومياً لزيارة زوجها المريض في المستشفى وتهتم به وبما يحتاج .. ثم أصبحت شريكتنا الثالثة في القضاء على الوقت بالنبش في صندوق الذكريات وإخراج المجوهرات منها «الحجية فاطمة» ذاك هو اسمها تقوم بمهنة لم أتخيل في حياتي أن تقوم بها امرأة .. وليست أي امرأة .. فالحجية فاطمة لها قلب رقيق وحنون جداً.. فمن تقوم بمهنتها يجب عليها أن تكون صاحبة قلب قوي كالحديد.. إنها ببساطة .. تقوم بغسل الموتى من السيدات .. كانت تحكي لنا النوادر والطرائف ، من المواقف التي تواجهها في تغسيلها للموتى.. وكان لها لسان

ينطق بالدعاء لجميع البشر وكافة الأجناس، وفي مرة أخبرتني بشيء تتميز به وورثته لبناتها وهو صناعة خبز الرقاق .. وجميع أصناف الخبز.. وأفشت لي سرها لتقول إن البيت التي تعيش فيه ويضمها هي وأبناءها.. ساهمت فيه بجزء كبيرهي وبناتها نتيجة بيعها خبز الرقاق للناس فقد كانت كما تقول تقوم بإعداد الخبز في البيت بيديها دون وجود أية آلة في ذلك الوقت وتتعاون هي وبناتها في إعداد كميات كبيرة جداً وكن يبعنه بعد وضعه في صناديق كرتونية كبيرة بناءً على طلب معارفهن وأصدقائهن من الناس .. كانت متشوقة جداً لتعليمي الخبز وتقول إذا خرج والدك بالسلامة من المستشفى أريد منك زيارتي لأعلمك بنفسي كيف تصنعين خبز الرقاق بيديكِ .. فله لذة خاصة .. وبالأخص عندما تطعمين أبناءك بيدك.. فلن ينسوا طعمه أبداً وتبقى نكهته ورائحته عالقةً في أذهانهم ، فيتذكرون خبز أمهم الذي عجنته بعطر يدها ..

كلماتها ذكرتني بوالدي الذي ما إن يحل علينا شهر رمضان نجده في وقت السحر يتساءل متذكراً خبز أمه التي كانت تقوم في السحر لتخبز لهم وتوقظهم للسحور برائحة خبزها المليء بالحب.. ليت جدتي تعيش إلى الآن لتعلمني كيف أخبز وأعيش في وجدان الناس بذكرى معطرة بماء الورد النقي ..

عندما كنت أتخذ من المستشفى بيتاً أقبل علينا شهر رمضان الكريم وأنا أعيش فيه .. كانت تلك أول مرة في عمري أقضي

رمضان بعيداً عن الزاوية التي كنت قد خصصتها في غرفتي لأختم فيها كتاب الله وأقيم صلاة الليل فيه ، فكانت بمثابة المحراب وها أنا ذا أبعد عنها للمرة الأولى في حياتي .. لتكون طاعتي لوالدي ومؤازرته في مرضه هو محرابي الآن .. وربما عليّ تجربة نكهة رمضان هنا في المستشفى مع الحجية فاطمة ومن عرفني من الناس في قسم جراحة الرجال .. كانت وجبة الفطور مختلفة ومميزة جداً في كل يوم .. فكنت أنزع الغطاء عن الصحن الذي جلبه لي عامل التغذية كطعام لمرافق المريض مبتسمة في وجه والدي قائلة بصدق هذا تكريم كبير لي .. بينما يحن قلبي كثيراً لأكل البيت وجمعة الأهل ..

في إحدى المرات قال لي والدي : أيتها المسكينة من المؤكد أن ظهرك يؤلمك كثيراً من النوم على الكرسي فأجيبه بالعكس أنا تعودت عليه فهومريح وصحي جداً وأريد أن أشتري مثله للبيت عندما تخرج بالسلامة .. وكان العكس هو الحقيقة التي أقصدها.. باختصارلم أرد جرح مشاعره أو إيلامه بإنني قد ضجرت من الجلوس معه بالمستشفى .. فكنت أقول له ممازحةً إياه إنني وتأكيداً على سعادتي بالوجود معه بالمستشفى .. هوأنني أتناول يومياً السحورهنا بينما في البيت كم مرة صمت يومي وأنا على لحم بطني .. لأنه لم يوقظني أحد للسحور، بينما هنا لا تفوتني أبداً لأن الممرضة بنفسها تأتي به خصيصاً وتوقظني لتناوله والتأكد من أنني قمت وتناولت سحوري ، فهذه الخدمة

غير متوافرة عندكم في البيت ووجبة السحور بالمستشفى متميزة بطبق من الحلو الذي يختلف عن كل يوم .. هل رأيت أن مكوثي معك فيه فوائد وهذه إحداها.. فيصدق المسكين أنني سعيدة هنا كثيراً ..

في بعض الأحيان كانت الحجية فاطمة تشاركني فطورها رغم أن أختي كانت تقوم بمهمة إحضار الإفطار لنا من البيت وتكسر صومها معنا أنا ووالدي .. أما في النهار فكانت الحجية فاطمة تتابع معنا المسلسلات الخليجية التي كان يتابعها أبناؤها في البيت .. فتجلس معنا وتضفي طعماً آخر على الجلسة بكلامها العذب .. في إحدى الجلسات أخبرتني كيف كانت تعد العدة والتجهيزات للشهر الفضيل ، فقد كانت تبدأ إعدادها قبل شهر، يعني في شهر شعبان تشتري البهارات حباً أي ليس مطحوناً ، كما هو متعارف ، فكانت تشتري بكميات كبيرة من سوق واقف الشهير بوجود كافة أصناف البهارات ، فتغسله بنفسها وتجففه فوق السطح .. ثم تطحنه بيديها وتضع كل صنف على جنب ، ثم تبدأ بصنع خلطاتها بطريقتها بمقادير ومعايير دقيقة تخصها هي ثم تحفظ البهارالتي انتهت من إعدادها في أوعية من زجاج وتوزعه على بناتها وزوجات أبنائها وتهديه لمن تحب من معارفها .. بعدما تكون قد احتفظت بجزء منه لتستخدمه في أكلاتها ..

في يوم النصف من رمضان اشترت أختي تذكارات للاحتفال بليلة (الكرنكعوه) التي توزع فيها المكسرات والحلويات ..

فأعطت تذكاراً ملفوفاً بقماش به القليل من الحلوى والمكسرات للحجية فاطمة ، آه لو ترون كيف تهلل وجهها كالطفل فرحاً وفتح ذلك شهيتها للكلام عن ذكرياتها في تلك الليالي .. فتوقعت أن تعطي التذكار لأحد من أحفادها وعندما سألتها .. فاجأتني بصوتها وكأنها طفلة عنيدة .. لتقول إنها لي وحدي ولن أعطيه لأي أحد كان ..

في يوم من الأيام كانت الحجية فاطمة حزينة ، وعندما سألتها عن الذي يكدرها .. أجابتني بأنها ذهبت لسوق الخضرة مع السائق لتشتري مؤونة البيت.. واكتشفت أن سوارها الذي تحبه كثيراً والذي هوعزيزٌ عليها سقط منها في محل من المحلات وعندما طلبت من السائق الرجوع للبحث عن سوارها رفض طلبها وإرجاعها إلى السوق .. وهي لا تريد أن تقول لأبنائها عن تصرفه هذا حتى لا تخلق له مشاكل ويطرد بسببها ولا تستطيع أن تخبر بناتها بأنها أضاعت إحدى هداياهم الغالية لها .. فسألتها إن كان هو ذلك السوار ذو الخرز المرجاني الأحمر و تتوسط كل أربع أو خمس خرزات حمر حبة ذهب أشبه بتلك الحمر.. فأجابت .. بأنه هو نفسه الذي ضاع منها .. فقلت لا تقلقي ستجدينه بإذن الله فربما وقع منك في السيارة وسيجده السائق غداً ويعطيك إياه فلا تقلقي فأدركت أنها متأكدة من أنه سقط منها في السوق ولكنها تحاول أن تصدقني بأية طريقة ..

ومرت الأيام سريعاً لنتفاجأ بخبر نقل زوجها لمستشفى

الرميلة.. وحزنت كثيراً على فراقنا.. وكان التأثر الشديد واضحاً على والدي لمفارقته لسيدة كانت تذكره بأمه وعطائها ..

ومن القصص التي عشناها في هذا القسم .. قصة حب بنهاية غير متوقعة .. كنا نلاحظ أنا ووالدي تعلق الممرض محمود بالممرضة باسمة والاثنان شابان في عمرالزهور وكانا من أهل الشام أيضاً يعني مناسبان لبعضهما جداً.. ثم عرفنا أنهما قد توجا حبهما بخطبة رسمية .. فكنا نراهما في المناوبات معاً وكان الانسجام والهيام بينهما واضحاً ..

وبعد أن أمضينا شهرين متتاليين في المستشفى وبعد أن بدأ جزء كبير من الجرح يلتئم .. وصار والدي بصحة أفضل عن سابق عهده فطلبت من الطبيب أن يصرح لنا بالخروج .. رغم أنه يعزعلينا ترك أيام جميلة قضيناها في قسم جراحة الرجال بمستشفى حمد العام.. ولكن لابد أن نرجع إلى حياتنا الاعتيادية وحان الوقت لوداع أناس.. تركوا فينا مشاعر جميلة لن ننساها ما حيينا ..

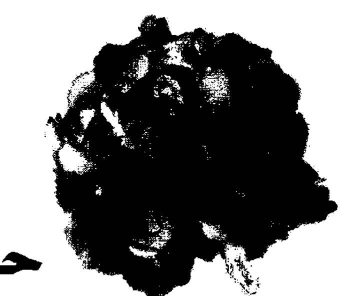
أعرف مدى شوقكم لمعرفة تتمت قصة الحب الملتهبة بين محمود وباسمة .. ولكن كان الزمن كفيلاً بمعرفة نهايتها .. ففي إحدى المرات اضطر والدي لأخذ علاج لمدة قصيرة في ذلك القسم مرة أخرى .. فكانت الممرضة باسمة هي المناوبة في تلك الليلة .. وافتقدنا وجود محمود معها .. وبينما تقوم بتركيب المضاد الحيوي في يد والدي سألها عن محمود.. فأجابت

إجابة.. أحسست أنها صمت أذني .. قالت : ذهب إلى الأردن ليتزوج .. نظرت إليها أنا ووالدي والدهشة تعقد لسانينا ثم والدي ظن أنها تمزح معنا كعادتها.. فقال لها أنتِ تمزحين .. فحلفت أنها لا تمزح وهذه هي الحقيقة .. فرد عليها متسائلاً : ولكن كنتما مخطوبين منذ فترة طويلة وقد كنتما متوافقين معا ، فما الذي حصل حتى يتغير كل شيء فجأة ؟ أشغلت نفسها بكيس المحلول وهي تتحاشى النظر إلى أعيننا .. لتجيب : لا يوجد نصيب بيننا .. فعرفنا أنها تود كتمان الأمر ونسيانه.. ثم سألتها إذا ما كان محمود سيرجع للعمل في نفس القسم أم لا وكنت متأكدة بلا فأجابت بالإيجاب .. وقلت لها وأنتِ هل ستظلين تعملين معه في نفس القسم .. قالت: نعم .. قلت هذا مؤلم .. ومؤلم جداً. قالت عليّ الصبرعلى ذلك ، فهذا هو رزقي أولاً ولا أستطيع تركه ثم هذه الحقيقة التي عليّ مواجهتها .. ثم إلى متى سأخبئ رأسي كالنعام وأخاف مواجهة حقيقة زواجه بغيري ، فقلت لها : باسمة الذي تقومين به يحتاج لقلب جبار ينسى كل ثانية حب مرت بكما معاً وفي هذا المكان بالذات الذي ولدت فيه أول دقة قلب بينكما .. ردت : أتمنى من الله أن يمنحني القوة لمجابهته ونسيان ما كان بيننا من حب حتى وإن وقف أمامي ونبض قلبه يهتف باسمي سأنساه لأنه لا بد لي نسيان غدره ..

تركتنا باسمة في الغرفة مكتئبين وتمنينا حينها لو أصابنا الصمم ولم نسمع الذي سمعناه عن نهاية حب محمود وباسمة ..

وحتى ألطف الأجواء قليلاً سأخبركم عن زيارتي التاريخية للحجية فاطمة في بيتها بعد سنتين .. من لقائي بها في المستشفى.. فعندما زرتها استقبلتني بحفاوة بالغة هي وبناتها .. وكانت سعيدة جداً بزيارتي غير المتوقعة والقصيرة جداً وقضيت وقتاً ممتعاً معهن في ذلك المساء .. وعندما قمت بوداعها عند الباب وضعت في يدها علبة صغيرة ، فاستغربت مني هذا التصرف ولم تتوقعه .. فهمست قائلة : لم أنس سوارك المرجاني الضائع .. فاشتريت لك مثيله .. افتحي العلبة وأنظري إليه بنفسك وما أن فتحت الحجية فاطمة العلبة ورأته .. سحبتني نحو حضنها بقوة ورسمت على خدي قبلة.. قائلة : إنه هو نفس الذي ضاع مني .. ثم تعالي أمازلتِ يا عزيزتي تتذكرين الحدث وبعد كل هذه السنين ..

قلت لها : أنتِ موجودة معي في كل رمضان يمر عليّ .. أنتِ موجودة في كل سلة مليئة بالمكسرات والحلوى مجهزة للاحتفال بليلة (الكرنكعوه) وأنتِ في كل كسرة خبز الرقاق الذي تصنعه الأيدي بمهارة.. فكيف لي نسيانك وأنتِ عبق من ذلك الزمن الجميل بكل ما كان فيه من عطاء ..



حكاية الزهرة الخامسة

«عندما يأتي الحظ يأتي مرة واحدة ويجلب معه كل شيء»
هذه العبارة قالتها لي عمتي مريم في إحدى المرات ، فهي الآن تعيش مع أسرتها في إمارة دبي في دولة الإمارات .. وأخيراً الحظ دق بابي.. فقد سنحت لي الفرصة لحضور دورة تدريبية من جهة عملي لسبعة أيام في إمارة دبي .. حينها رجوت والدي أن يسمح لي بالذهاب وحدي دون والدتي التي إن رافقتني ستشغلني عن الدورة التدريبية بالتسوق والزيارات .. وأنا بصراحة أود أن أخوض تجربة السفر هذه وحدي وأزور عمتي وأقضي فترة أطول مع ابنتها ميثة .. فوافق والدي الحبيب على طلبي بناءً على أنني الآن صرت فتاة صاحبة مسؤولية ، أعمل في شركة مرموقة ولي كياني الخاص ومستقلة بذاتي ، ولكن عندي حدود وخطوط معينة أقف عندها ولا أتجاوزها وبذلك أعطاني ثقته .. بينما كانت والدتي وقتها مصرة على عدم ذهابي دونها وتحثه على الممانعة خشية كلام الناس ، فرد عليها والدي قائلاً : إن كلام الناس لا يطعم أحداً إذا ما نفذه بطواعية ودون تفكير وعلى الإنسان أن يستشير عقله وقلبه أولاً ثم يماشي الناس وأهواءهم ،

فطرت حينها فرحاً لموافقة والدي وثقته فيّ واتصلت على الفور بميثة ابنة عمتي أزف لها الخبر وأطلب منها أن تستقبلني في المطار، كونها المرة الأولى التي أسافر فيها وحيدة إلى دبي .. أما هي فلم تسعها الفرحة بهذا الفوز الميمون والخطوة الحديثة والمتقدمة في حياتي وقالت إذا سأجهز العدة للمغامرات التي سنقوم بها نحن البنات دون مرافقة ومراقبة الأمهات..

وجاء يوم السفر ، وبما أنني لم أسافر منذ مدة طويلة .. حيث كانت آخر سفرة لي سافرتها هي السفرة المشؤمة إلى تركيا .. فعندما وصلت صالة المغادرين في المطار وكنت برفقة والدتي التي جاءت معي مودعة ، فإذا بموظف الكاونتر الخاص بشركة الطيران يرفض إدخال حقائبي والسبب إغلاقه الكاونتر، لأنه كان من المفترض ذهابي إلى المطار قبل وقت الرحلة بثلاث ساعات، والآن لن يُسمح لي بالسفر على هذه الرحلة ويجب تغيير الحجز إلى رحلة أخرى وفي وقت آخر أن توافر.. كان منعي من السفر على تلك الرحلة صدمة لي ، فأنا من فرط السعادة بالسفر لم أتناول طعام الغداء بالرغم من رجاء والديّ لمشاركتهم الغداء الأخير لي معهم ، فقد كنت أخاف من أن تفوتني الرحلة .. وحصل ما لم يكن بالحسبان .. فأستسلمت للواقع المرير الذي تعلمت منه درساً قاسياً وهو ضرورة المرابطة على أرض المطار قبل موعد رحلتي بساعات مهما كانت الأسباب والمسببات التي تدعو للتأخير، فقمت مجبرة بتغيير حجزي للرحلة التي ستكون

بعدها بساعتين .. فطلبت مني والدتي الرجوع معها للبيت وتناول الغداء بدلاً من الانتظار لساعتين فقد رثت لحالتي عندما رأت تلاشي آثار الزهو والفرح الذي كنت أعيشه منذ الصباح ورغم محاولاتها وتوسلاتها فإنني فضلت البقاء في مبنى المطار مرابطة فيه مخافة تكرارتجربة التأخيرعن الرحلة للمرة الثانية ، ثم طمنتها على نفسي وقلت : لاتخافي لن أبقى جائعة مادام هناك «كوستا» في المكان ، فقد لمحته عند مدخل الصالة وفي الطابق العلوي .. فكوستا كافيه هذا هو «عديل الروح»، فوالداي يعرفان مدى الحب الذي أكنه لهذا المقهى .. فهو أول مقهى أدخله في حياتي في زيارتي الأولى لبريطانيا في رحلتي لمدينة نيوكاسل.. فرائحة قهوته تعيد بي الذكريات إلى هناك .. ويكفي أن أكوابه ملونة بأعز الألوان على قلبي الأبيض والعنابي وهما لوناي علم الحبيبة قطر.. وعندما يحتضن كفي أحد أكوابه أكون في قمة فخري وإعتزازي به ، فأنا أراه من منظور وطني بحت ، بينما المقهى برمته إيطالي الموطن والمنشأ .. وبالمختصر المفيد وبعيداً عن اللف والدوران أنا أعشق قهوته في كافة الأشكال التي يقدمونها فيه.. وعندما انتهيت من رشفات منه تم الاعلان عن موعد الإقلاع ودون أن أنتهي من شربي لقهوتي المفضلة ركضت نحو بوابة المغادرين إلى دبي .. وما أن وصلت أرض المطار في دبي حتى بحثت بين البوابات الكثيرة عن البوابة التي تدخلني دبي و ليس صالة الترانزيت ، وما أن وجدت الممثلة الإماراتية فاطمة الحوسني تتجه نحو إحدى البوابات ، مشيت

خلفها لأتبعها على أساس أنها إماراتية ولابد أنها ستدخل البوابة المؤدية إلى دبي ووقفت خلفها بالضبط في طابور تفتيش الجوازات ، وكثير من الناس في المطار ظنوا أنني أرافقها وكنت معها في الرحلة إلى أن وصل بي الدور لختم جواز سفري من قبل موظف المطار ، فصرت حينها على يقين بأنني في المكان الصحيح ، آه أيامها كنت في منتهى البراءة والسذاجة ولم أكن على علم أو دراية بأمور المطار والواجبات التي عليّ إستيفاؤها وبعد أن تستلمت حقيبتي بمساعدة أحد العاملين في المطار، اتصلت بميثة لأعلمها بوجودي في صالة القادمين فوجدتها تنتظرني عند بوابة الخروج من الصالة ، هي وصديقتها شما ..

ركبت السيارة مع ميثة والدليل السياحي الخاص بنا صديقتها شما ، فهي أعلم واحدة فينا بمعالم دبي وشوارعها لكونها تعمل في هيئة الطرق والمواصلات ، فقد كانت كجهاز الملاحة تخبر ميثة عن الاتجاه الذي عليها أن تسلكه حتى تصل للمكان الذي تريد وبينما كنا متجهات في طريقنا نحو الفندق ، تهنا بسبب أعمال الطرق الخاصة بمترو دبي وبما أن دبي تحتوي علي فنادق لا حصر لها ولا ، عدد فصرنا لا نعرف الطريق المؤدي للفندق الذي لي حجز فيه .. فأقترحت شما على ميثة الوقوف عند مدخل أحد الفنادق والسؤال عن مكان الفندق الذي نبحث عنه .. فوقفت ميثة عند باب فندق سوفيتيل الذي يقع في وسط دبي ونادت على أحد الأشخاص الواقفين عند مدخل الفندق

لتسأله عن مكان الفندق الذي نقصده بعدما أعطته الاسم وكنت حينها أجلس في المقعد الأمامي بجوار ميثة ، بينما شما تجلس بالخلف .. فاقترب الرجل كثيراً من نافذة السيارة ثم أدخل وجهه بالكامل فيها ليقول «هل ستوصلونني معكم» فزعت وقتها وصحت بصوت عال وأنا أموت من الخوف «ميثة الله يخليكِ أنطلقي بسيارتك وأهربي إنه سكران».. وأنطلقت بسيارتها تفر بنا من الرجل الذي أثار الرعب في قلبي وجمد الدم في عروقي من بعد سؤاله الذي دل على أنه فاقد وعيه تماماً ، فأين سنوصله في هذا الليل ونحن ثلاث بنات .. كانت الاثنتان تقلدان صوته وتعيدان لي المشهد وهما تقهقهان ضحكاً عليّ فقالت ميثة وهي تحاول تهوين الموضوع :هاه يا الغالية ما الذي أخافك منه ؟؟

هل خفتِ أن يقبلك مثلاً ؟ وماذا في ذلك أنتِ في دبي «لاس فيغاس» الخليج وبالتأكيد تعرفين ما معنى كلمة «لاس فيغاس» يا مثقفة العائلة .. فقلت لها : نعم مدينة المعصية .. قالت وهذه أول معصية رأيتها بأم عينيك وسترين الكثير عندما تعيشين هنا ، ثم تداخلت شما بتنهيدة خارجة من صميم قلبها لتقول: آه يا لحظك.. أحمدي ربك أن هناك شخصاً فكر بتقبيلك ، بينما نحن إلى الآن ننتظر منذ زمن من يأتي ويضع قبلته على جباهنا في حفل زواج بهيج إعلاناً عن الحب الذي بقلبه ليشهد الناس عليه بقصده الشريف، في ذلك الحين كنا نمر بالقرب من شاطئ الممزر الطويل ، فإذا بشما تفاجئنا بإنزال نافذتها وتصيح بأعلى

صوتها تنادي «يا ريابيل» .. وينكم «يا ريابيل».. نحن هنا ننتظركم منذ زمن.. فمتى ستأتون وتبددون غمامة السكون القابعة في قلوبنا وتشعلون فيها نور الحب.. إلى متى سننتظركم؟؟ إلى متى وقد مل منا الانتظار ؟؟ إلى متى ونحن نتحرق للعفاف والستر..لم يرد عليها أحد ..فكل شيء حولها ساكن والصمت مخيم على المكان إلا أن شيئاً وحيداً سمعته يرد عليها كان هدير الموج المتلاطم القريب منا يناغي شما ويخبرها سراً.. يا ترى ما الذي كنت تخبره لشما ؟ ليتني كنت أفهم لغة الأمواج لأكشف السرالذي باحت به الأمواج لشما اليائسة !!

الحمد لله وأخيراً توصلنا بعد مجهود للفندق الذي ستعقد فيه دورتي التدريبية والذي سيكون مقر اقامتي الدائم فيه لسبعة أيام فقط واتفقنا قبل نزولي من السيارة على اللقاء عصر يوم غد بعد انتهائي من الدورة في بهو الفندق لتصطحبني ميثة لزيارة والدتها التي هي عمتي والتي تزوجت وانتقلت للعيش مع زوجها هنا في دبي وهي تتشوق لاي شيء يحمل اسم أو رائحة الدوحة .. فكيف إذا رأت أمامها قطرية لحماً ودماً وهي ابنة أخيها الوحيد الذي بقي لها في الدنيا ربما تسقط عمتي مغشياً عليها من فرط السعادة ..

بالنسبة لأمورالدورة ، فقد كان كل شيء على ما يرام وقد أفادتني مهنياً.. أما بخصوص مغامراتي مع رفيقتيّ ميثة وشما فكانت لا تنتهي أبداً ، ففي كل يوم يواجهنا موقف طريف ،

فأسجله في دفتر يومياتي، ومن المواقف التي حدثت لنا ويستحيل نسيانها لذلك الحدث العظيم وهو دعوة ميثة لنا لتناول العشاء على ظهر سفينة تقليدية ، وهي عبارة عن مركب كبير يطلق عليه باللهجة الخليجية «البوم» فأخذتنا في ذلك المساء إلى مكان يطلق عليه «قرية البوم» حيث تتجمع السفن الكبيرة فيه ثم تحمل على ظهرها الناس وتبحر بهم في عرض الخليج الصغير ليستمتعوا بوجبتهم وبالمنظر الجميل وسط البحر ، وعندما وصلنا إلى المكان المنشود اكتشفنا أننا قد تأخرنا وأن السفينة قد أبحرت من دوننا ..

فاقترح مدير المطعم العائم أن يتم أخذنا إلى السفينة الراسية في وسط البحر بواسطة طراد سريع وبذلك نلحق بالركب الموجود على السفينة فوافقنا على اقتراحه مضطرات لأننا كنا قد دفعنا مسبقاً ثمن العشاء الذي سوف نتناوله على ظهرها ، ولما جلست كل واحدة فينا في مكانها عرفنا قائد الطراد بنفسه قائلاً : أنا عبدالمنعم من المغرب من مدينة أغادير، ففتحت شما فاها على آخره مدهوشة.. وتبسمت ميثة ابتسامة خبيثة وتغمز بعينها لشما وتقول : أغادير بنفسها وصلت إليك يا شما وماذا تريدين أكثر من ذلك ، الحمد لله الآن أطمأن قلبي عليك وأخيراً جاء الحظ إليك بينما أنا مثل الأطرش في الزفة أنظر إليهما ولا أعرف ما تقصده الأثنتان ؟ وماذا في ذلك إن كان قائد الطراد عبدالمنعم من مدينة أغادير أو طنجة أو حتى من القطب الشمالي؟ ماذا يهم في

ذلك ؟ الأهم عندي أن نصل بسلام إلى السفينة الموجود على ظهرها عشاؤنا .. فإذا بميثة توكز شما وتقول : افهمي المسكينة ماذا يدور في أذهاننا فلربما سيكون لها نصيب معنا ، فنفذت شما المهمة لتسألني أتذكرين الصالون النسائي الذي ذهبنا عنده وقمتِ أنتِ بنقش الحناء على كفيكِ ، بينما أنا وميثة قمنا بعمل حمام مغربي؟ أجبتها : نعم أذكره ، قالت أتعرفين : أن العجوز المغربية التي قامت بعمل الحمام قالت لي : إن منطقة أغادير معروفة بالسحر والسحرة وإنهم يصنعون نوعاً من الكحل ما أن تكتحل به البنت حتى يأتي الخطاب إلى باب بيتها وتشعل نيران العشق في قلوب الشباب فلا يتركونها حتى يطلبون منها الزواج ، ثم ضربت العجوز مثالاً قائلة : ألا ترين أن أغلب شبابكم هناك مع بناتنا يلهون ويعبثون وأكبر مثال حي أمامك صاحبة الصالون المغربية وأنتِ قد رأيت وجهها وليس به أي علامة من الجمال أو الحلاوة ورغم ذلك تزوجها مواطنكم المحترم والذي هو أجمل منها كثيراً وها قد أصبحت نظيرة لكِ وتحمل جنسيتك أيضاً بينما أنتِ بنت البلاد أجمل منها ألف مرة ولكن لا أحد يلتفت لكِ أو يدق باب بيتك طلباً للزواج .. فقاطعتها قائلة : شما كل تلك خزعبلات وخرافات وربما العجوز تود استغلالك بطريقة الدق على وتر الزواج والستر الذي تبحث عنه كل فتاة .. فتعدك بعمل شيء سحري لتكتسب من ورائك مبلغاً محترماً، فقالت لي لا تخافي رفيقتك ذكية وفكرت فيما فكرت به الآن ، فأنا وكما تعرفين الحمدلله لا أؤمن بالسحر والخرافات ، فإيماني الصادق

بالله لا تزعزعه هذه السخافات والهرطقة ولكنني أردت أن أمتحنها وأجرب معها سياسة السفاهة ، فطلبت منها أن تساعدني وتأتيني على الأقل بالكحل ، لأنه إلى الآن لم يدق بابنا أحد وكل المعارف والأصدقاء يتساءلون عن السر الكامن وراء عدم زواجي إلى الآن وأعدائي يشمتون بي و بكل سنة تمر عليّ دون زواج ، ورجوتها أن تحل مشكلتي وسألبي لها كل مطالبها وبذلك اكشف كذبها.. فوجدتها ترفض بإصرار وتقول إنها صعب عليها حالها فأرادت أن تخبرها بهذه المعلومة التي يمكن أن يفيدها في تفاصيلها أحد غيرها فهي تعرف بالضبط أن البنات يجلبن الكحل من مدينة أغادير وهي مدينة بعيدة جداًعن مدينتها التي تقطنها وهي لا تعرف أحداً هناك وقد سمعت بذلك حالها كحال كل الناس عما تفعلنه بنات جنسها من أجل استجلاب الرجال ، وإنما أن تأتيها به فهذا صعب عليها ومستحيل .. فهي لا تريد أساساً التعامل مع السحرة أبداً.. فهي سيدة عجوز لا طاقة لها بتلك الأشياء التي يفعلونها .. ثم تشجعت ميثة لتسأل عبدالمنعم عن ذلك الكحل .. حيث أنعم الله علينا بلقائك لكي نكشف العجوز المغربية ونعرف صدقها من كذبها ..

فجمعنا الصمت لبرهة ونحن هائمات بفكرنا بعيداً ، بينما كان في الناحية المقابلة لنا عبدالمنعم يقود الطراد بروية وحرص ، فكنا نرمقه بنظرات متوجسة وقلقة حتى توصلنا إلى فكرة من التي تبدأ فينا بسؤاله .. فوجدنا ميثة تتشجع وتبدأ بسؤاله قائلة : أخ

عبدالمنعم ممكن أن أسألك سؤالاً لم يمانع عبدالمنعم فقالت : له هل أنت فعلاً من مدينة أغادير أوأنك تسكن بالقرب منها ؟ فأجاب: نعم أنا منها وهي مسقط رأسي ، ثم رد عليها بسؤاله : هل تعرفين أغادير أو سمعتِ عنها من قبل ؟ فأسمعتني شما همسها لتقول إنها أشهر من نار على علم في السحر والشعوذة يا عبدالمنعم فحاولت اخفاء ضحكتي عن عبدالمنعم حتى لا يعتقد أننا نسخر منه، ثم وجدت ميثة تلعثمت في الكلام وأحست بورطتها ، فهي لا تعرف كيف تبدأ وتسأله عن الكحل السحري.. وإذا به هو الذي دخل في صلب الموضوع بسؤاله هل تريدين شيئاً من المغرب أو من أغادير يا أختي ؟

فأنا حاضر لأي طلب تطلبينه ، فإذا بشما تنهي هاجسنا لتقول له الكلمة التي أرهقتنا طوال معرفتنا أنه من أغادير، فقالت له بصوت جهور جعلتني أفاجأ وأسقط على أرضية الطراد من هول الضحك ، فقالت له بلهجتهم العامية الإماراتية : نريد الكحال .. وتقصد به الكحل .. فأخذ ينظر إليها مستغرباً بماهية الكحال ، وماذا تقصد شما بتلك الكلمة ، فتدخلت محاولة المساعدة والتوضيح له أكثر ، فقلت بصوت ناعم : كحل العين يا أخ عبدالمنعم .. فأخذ يفرك رأسه متعجباً هذا الطلب الغريب في وعرض البحر، فظن إما أنه لم يسمعنا جيداً أو لم يفهم الكلمة جيداً بسبب صوت المحرك المزعج الذي عبأ المكان صخباً وأزيزاً وإنما ما دخل الكحل بموطنه أغادير؟ وهل أصبح الكحل

شيئاً ممنوعاً ويحظر بيعه كالمخدرات مثلاً وإلا لماذا البنات يردن مني أن آتيهن به من المغرب ومن أغادير بالذات .. يالغرابة هذه البنات ومطلبهن في ليلة سوادها كالكحل الذي طلبنه مني .. وعندما أردنا الاستفسارمنه أكثر وجدنا أنفسنا قد وصلنا للسفينة التي كانت تنتظرنا في مياه الخليج ولم نكن قد توصلنا بعد إلى حقيقة وسر الكحل الأغاديري إلى الآن ، فودعنا عبدالمنعم وشكرناه بينما كان فكره مشغولاً بسؤالنا عن الكحل الأغاديري.. في هذه السفرة قضيت أوقاتاً مرحة مع هاتين الفراشتين اللتين كانتا أسعد مني في تمضية تلك اللحظات الجميلة، ومن يدري فقد لا تتكرر هذه اللحظات مرة أخرى ، فقد تنشغل كل واحدة منا بحياتها وقدرها القادم لا محالة.. فبوجودي معهما كنت أشجعهما على خوض مغامرات لم تتخيلا ما تفعلانها خاصة عندما عدت بهما إلى شقاوة الطفولة وبراءتها فلعبنا معاً بكرات الثلج ورمينا بها بعضنا في «سكي دبي» في مول الإمارات وأدخلتهما حديقة «ماجيك لاند» وركبنا التليفريك في الهواء وطاف بنا فوق الجسر العائم والخور الذي يحاذيها .. واستمتعنا بالسباحة في بحر «جميرا» واللعب مع البنات الأخريات كرة الشاطئ بخصوصية وحرية في يوم خاص بالسيدات في منتزه الجميرا .. ومشينا على كورنيش الممزر الطويل وجلسنا على رمال شاطئه الملساء، نبني قصوراً وقلاعاً كالأطفال ..عشت مع ميثة وشما أحلى الذكريات في السبعة أيام التي قضيتها في دبي كمراهقات مرة وكأطفال مرات فكل واحدة

منا كانت تلهو بقدرها قبل أن يلهو هو بها على شاطئ الحياة ..

في يوم من الأيام فضلت ميثة قضاء ليلتها معي بالفندق وأرادت أن تحضر أغراضها من سيارتها المتوقفة في موقف نزلاء الفندق ، فنزلت معها وإذا بباب المصعد يفتح فجأة في الدور الذي به مطعم الفندق وهو الدور الذي كنت أتناول فيه وجبتي الفطور والغداء يومياً وبينما نحن واقفتان ننتظر دخول من استوقف المصعد لم نجد أحدا عند الباب ولكن شد أسماعنا صوت ضحكات رنانة لامرأة دوت فجأة في الظلام على الرغم من خلو المكان من الناس، فأثار ذلك فضولي وفضولها لاكتشاف مصدر الصوت وصاحبته .. فخرجت من المصعد وبدأت أسحب رجلي ببطء إلى القاعة المظلمة وألقي النظر إلى كل ما فيها من طاولات وكراسي ثم وقع نظري على الزاوية البعيدة التي يأتي منها مصدر الصوت وقلت لها : ميثة إنني أرى إضاءة خافتة هناك وأنا أشير لها فسحبتني من ذراعي قائلة : يا المجنونة عودي إلى المصعد في الحال فمن يدري قد يكونون سكارى ويقومون بأذيتك بأي طريقة ، فلنرجع إلى الغرفة فأنتِ هنا أمانة عندي ولا أريد أن أغامر بك وأرضي فضولي ولتذهب صاحبة الضحكة إلى الجحيم ، وبينما نحن ننتظر رجوع المصعد لندخله ، فإذا بنا نرى امرأة بلباس فاحش تجلس على طاولة في ركن القاعة ويجتمع حولها شباب من أهل البلد ممن كانوا على شاكلتها ولم ينتبهوا لوجود أعين تراقبهم في خلسة وهم منشغلون بالمشروب والمقامرة

وتتوسطهم الساقطة كقطعة رخيصة يلمس الكل مفاتنها وأمام بعضهم البعض ودون حياء لتنتهي مقارعتهم عليها لصالح أحدهم ليأخذها إلى إحدى الغرف لتكون الرذيلة رفيقتهما الثالثة في تلك الليلة .. كان المشهد الذي رأيته في تلك الأثناء كفيلم إباحي يحظر على من هم مثلي رؤيته لأنه سيخدش براءتهم للأبد وسيحدث شرخاً في نفسيتهم الشفافة والنقية .. فعندما رجعنا للغرفة انتبهت ميثة للذعر والخوف الذي اعتراني وجفا النوم من جفوني ، فلم أكن أتخيل أناس بهذه القذارة والانحطاط ، فحاولت ميثة أن تهدئ من روعي وتضحكني بقولها: لقد صدقت العجوز المغربية التي أخبرتنا عن سر بنات جنسها هل رأيت بأم عينك الآن تأثير الكحل الأغاديري على رجالنا والله صدقت المسكينة ، بينما كنا نكذبها ، فلنبحث عن عبدالمنعم الأغاديري ليأتينا بالكحل العجيب الذي يصهرأقوى الرجال.. فأخرجتني بتعليقاتها تلك من جو الفزع الذي عشته معها في ذلك الطابق في تلك الليلة ..

في الدورة التدريبية التي حضرتها من جهة عملي تعرفت على موظفات كثيرات يعملن في نفس مجال عملي .. كانت ظبية واحدة ممن تعرفت عليهن ، فهي تقطن إمارة أبوظبي وأتت هنا من أجل الدورة التي ابتعثتها لها جهة عملها بالرغم من حملها وقد كانت ظبية في شهرها الثامن ورغم ذلك كانت تتمتع بروح المداعبة ، ففي مرة من المرات سخرت من حالتها و مشوارها

اليومي الذي تسلكه من أبوظبي إلى دبي و بالعكس لتقول لنا بما أنني حامل بتوأمين ولد وبنت وكما يبدو لي أنه اقترب موعد ولادتي بسبب هذه الدورة والمشقة التي أتكبدها كل يوم لأحضرها ، سألد أحد توأمي في دبي والآخر في أبوظبي بإذن الله والبركة في الدورة التدريبية التي اضطررتُ أن انضم لها في أواخر شهور حملي .. وفي بعض الأوقات ولطول ساعات الدورة كانت تشعر بالتعب والإرهاق فتستأذنني بالاستلقاء على السرير في الغرفة لبعض الوقت لكوني أقيم في الفندق ذاته الذي نتلقى فيه الدورة .. فكنت أذهب بها إلى غرفتي لأصلي ، بينما تستلقي هي على السرير وبعد انتهائي من الصلاة كنت ألاعب الجنينين اللذين في بطنها .. فكنت أضع يدي على بطنها ثم أدق عليه بخفة فأجد استجابة سريعة من أحد الجنينين لإعادة الضربات لي ذاتها وليتحرك بطنها بشكل غريب .. كان لاستجابة الجنينين في بطن أمهما آية من آيات الله التي رأيتها لأول مرة في حياتي فاستشعرت بإحساس غريب وقتها وأدركت حينها أن الحياة في بطن الأم هي جنة عظيمة من جنات الله ..

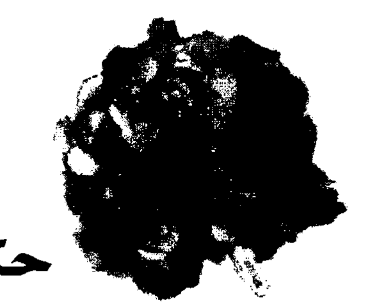
في الأيام الأخيرة لي في دبي كنت أحاول الاعتماد على نفسي في الذهاب وحيدة للتسوق في بعض المجمعات القريبة مشياً على الأقدام ، فكل شيء كان قريباً من حولي ثم أنني كنت أتجول بين المحلات في وضح النهار وعندما انتهي من مسحي الشامل للسوق أعود أدراجي ماشية على قدمي ولكن في إحدى المرات

اشتدت حرارة الشمس وتعبت من حمل أغراض كثيرة والمشي بهم لمسافات طويلة فقررت أن أستريح باستقلال تاكسي يعيدني إلى الفندق بأمان وراحة ..

وكنت في نفس الوقت متخوفة من ركوب التاكسي ، فأنا لم أفعلها في الدوحة وهذه المرة الأولى التي أفكر بركوب تاكسي .. وفي نفس الوقت لا أريد إزعاج ميثة أو صديقتها شما بطلب توصيلي للفندق خاصةً أن كل واحدة مشغولة بالدوام في مكتبها.. فقلت في نفسي سأتدبرالأمر بإيجاد تاكسي في كل الأحوال وبعد تلويح طويل وطول انتظار وقفت لي وما أن رأيت السائق حتى ترددت في الركوب في السيارة لأنني ظننته آسيوي الجنسية وقد سمعت منذ صغري بأشياء يشيب لها الرأس من أفعال شائنة كانوا يقومون بها ، فأصبت بعقدة نفسية جراء ما سمعت عن تلك الجنسية .. ثم توكلت على الله .. وركبت في السيارة بعد أن أجبرتني حرارة الشمس الملتهبة على الرضا والخنوع وتقبل أول تاكسي يقف لي فجلست فيه وذكرت له عنوان الفندق واسمه.. دون زيادة حرف ولكن وجدته ينطق ويسألني بلهجة سورية فعرفت أنه عربي .. فاطمأننت.. وأخذت نفساً عميقاً .. فسألني مدام حضرتك من وين؟؟ فقلت له من قطر.. ثم ظل ساكتاً طول الطريق .. فسألته كيف يمكنني أن أحصل على تاكسي في أقرب وقت ؟ عدا ذلك أنني أحترس جداً من الركوب مع السائقين الآسيويين ، فقد سمعت عن جرائمهم

كثيراً .. وأنا اليوم كنت في ورطة بسبب وقوفي لساعات تحت الشمس انتظرأن تقف لي إحدى سيارات التاكسي .. فشعرت بأنه أشفق عليّ ورق قلبه لي فرد عليّ معرفاً بنفسه بنبرة كانت تبدو وكأنه رجل آلي قائلاً أنا زاهر من سوريا وصار لي عشر سنوات بدبي وأنا مستعد لتوصيلك في أي وقت شئتِ .. فقط أعلميني بذلك قبلها بساعة حتى أرتب أموري أو أبعث لك من هو ثقة من السائقين الذين أعرفهم ولديهم سيارات تاكسي ثم أعطاني رقمه .. وعندما طلبت منه توصيلي لمرات عدة وجدته دقيقاً جداً في مواعيده وكم مرة أنقذني من الوقوف والانتظار لساعات طويلة في الشارع .. تصرفات زاهر معي كانت تدل على أنه إنسان محترم وعلى خلق وأهل للثقة وهذا الذي جعلني أعتمد عليه كلما احتجت إلى توصيلة لمكان ما .. وقد تتساءلون لماذا ذكرت زاهر في ختام زيارتي لدبي ؟؟

لأن زاهر كان له دور مهم في زيارتي لدبي للمرة الثانية حيث رأيتها من منظور آخر في سر حكاية الزهرة السادسة ..



حكاية الزهرة السادسة

عندما ينتصف شعبان .. وتتزايد فيه الأيادي التي تطرق على الأبواب عند ساعات المغربية .. ليتم تبادل الأطباق الشعبية بين الجيران باسم «النافلة » منشدين بأصواتهم ومنادين : يا النافلة يا أم الشحم واللحم .. كنت أدق على باب صديقتي ونية ابنة الجيران كل عام وإلى الآن .. قد تستغربون اسمها ومعناه .. فهو يعني اللؤلؤة.. فقد أحب والدها تسميتها هي وأختها موزة بأسماء اللؤلؤ النادر والنفيس جداً وهذان الاسمان من الأسماء القطرية الأصيلة .. فأحب أن تكون ابنتاه لآلىء تزين سماء حياته ..

فقد كنت دوماً أحمل بيدي طبقاً به إما حلوى (الزلابية) أو حلوى (الساقو) بالزعفران مطبوخة بماء الورد والمكسرات ومعه طبق (النشا) الأصفر كنوع آخر من التحلية مع وعاء (الهريس) باللحم وقد دهن وجهه بالسمن الذي تفوح منه رائحة الهيل العطرة مع رشة من مسحوق «الدارسين» أوما يطلق عليه عند البعض القرفة على سطحه المقعر ، وكانت دائماً والدتي تعطيني وعاءً كبيراً يكفي العائلة ويزيد لعلمها أن تلك المناسبة هي الوحيدة التي أتحجج فيها لرؤية ونية صديقتي في كل عام وذلك

اليوم هو عيدنا الذي نلتقي فيه معاً دون بقية الأيام .. فقد كنا في الماضي نتشارك في طاولة واحدة في المدرسة الإعدادية التي كنا بها وقد كان التنافس بيننا على أشده لنعرف من التي ستفوز فينا بجائزة الطالبة المثالية على الصف كله .. فتكون الجائزة إما من نصيبي أو من نصيبها هي .. ثم التقينا معاً في الجامعة بتخصصات مختلفة ولكن كانت أحلامنا متشابهة فقد كنت أحضر معها محاضراتها في وقت فراغي وكنا نمضي معاً أوقاتنا الجميلة أنا وهي وأختها الكبرى موزة وكنت أرجع للبيت معها في بعض الأحيان وبسيارتهم التي يقودها والدها الطيب الذي يحدثنا طوال الطريق عن المباريات وأخطاء اللاعبين ، فقد كان مسؤولاً معروفاً في المجال الكروي في قطر آنذاك .. وفي يوم عرسها أصرت على حضوري العرس ومشاركتها فرحتها بالجلوس معها على الكوشة ومن شدة تعلقها بي أقترحت عليّ أن أكون زوجة لأحد أخوة زوجها لنكون في بيت واحد وعائلة واحدة تجمعنا .. آه كم هي عزيزة عليّ ونية ..

وبعد طرقٍ متواصل على الباب ، أخيراً فتح أحدهم لي الباب.. الذي فتح الباب لي لم تكن ونية ، فقد رأيت وجهاً ذابلاً تفترسه الهموم والأفكار ، لا لم تكن هي ، فالتي رأيتها سيدة كبيرة في السن ولم تكن ونيتي ، فهي دائمة الضحك والانبساط وثغرها باسم في كل الأحوال .. والحياة عندها سهل ممتنع أو كما تقول بإنجليزيتها إيزي «Easy».

إذاً ماذا حدث لها؟؟ لماذا أبدو أمامها فتاة صغيرة عنها بسنوات بالرغم من أننا رفقة عمر واحد .. وجدتها تحمل بين ذراعيها ابنها خليفة ذا السنة الواحدة .. فسألتها وأنا أنظر إليها بقلق .. كيف حالك يا ونية هل نسيتِ أن اليوم النافلة وإذا نسيتِ فأنتِ معذورة بانشغالك بزوجك وطفلك ، أما أنا فلم أنس المناسبة الوحيدة التي تجمعني بك في كل سنة ولذلك أحببت أن أحضر لك شيئاً من الأصناف التي طبخناها للفطور، فاليوم كلنا صائمون لانتصاف شعبان .. رفعت نظرها نحوي وقالت بأسى: يا سبحان الله .. صارت الأيام تمر بنا سريعاً فبالأمس كنا فتيات لا هم لنا ولا غم نعيش حياتنا بالطول والعرض بلا مسؤوليات ، أتذكرين عندما كنا نرتدي أجمل ما عندنا من فساتين ونتزين في أغلى الصالونات النسائية بأحدث صيحات الموضة من مكياج وتسريحات .. ثم ننطلق معاً نحو حفلات الأعراس التي يدعونا إليها عادةً الأهل والصديقات.. فنتمايل رقصاً مع الأغاني التي تطربنا ، ننافس الأخريات في كل شيء لباساً ومظهراً ورقصاً.. أتذكرين تلك الأيام.. ليتها تعود لتعود معها ضحكاتي وهنائي في بيت والدي .. استعجبت كلامها !! فقلت لها : ونية ما الذي تقولينه .. كنت سعيدة جداً بطلبك للزواج .. فقد كان زواجاً تقليدياً كأغلب الزيجات.. فقد تم ترشيحكما لبعض من قبل أحد المعارف دون أن تتقابلا ولو لمرة .. كانت النظرة الشرعية كافية كما كنت تقولين ثم تم عقد القران .. فحفلة الخطوبة .. ويوم الزفاف.. وطفل تحملينه الآن بين ذراعيك.. وتريدين أن تعود

بك الأيام لترجعي بنتاً كما كنتِ في سابق عهدك.. فقطع حديثي سماعي لصوت طفل يبكي في إحدى الغرف المجاورة فإذا بموزة أختها تحمله وتأتي به إلى ونية كي ترضعه .. فسألتها معاتبة إياها: ونية لم تخبريني بأنك أنجبت مرة أخرى .. وماهو اسم الملاك الصغير الذي ترضعينه .. تبسمت وقالت إنها ابنتي لولوة وقد اسميتها عمداً بهذا الاسم (لولوة) لأنني أحببت أن استكمل مجموعة والدي من جواهر ودرر نفيسة بحبة لؤلؤ صغيرة .. فرحت كثيراً عندما رأيتها ابتسمت لتخبرني عن طفلتها الصغيرة .. وهي التي كانت الابتسامة لا تفارق وجهها .. عجيبة هي الدنيا ثم فاجأتني لتقول أتعرفين كنت حاملاً بها دون أن أشعر بذلك ، فقد كان كل شيء طبيعياً ولم أشعر يوماً بأعراض الحمل لدرجة أنه لم يظهر لي بطن حتى الشهر الخامس أو ربما بسبب انشغالي لم ألحظ ذلك .. فقد كنت مشغولة بالمعركة أحارب بها قدري في قاعات المحاكم وذلك من أجل الحصول على ورقة الطلاق .. صعقتني بالكلمة الأخيرة لأسألها عن السبب ، فما الذي جرى بينكما حتى جعلك تصلين إلى هذه المرحلة ؟ أو ماذا فعل بك هذا الرجل المدعو زوجك حتى تتمني الانفصال عنه ؟ فردت قائلة : لم أتخيل يوماً أن حياتي ستكون معه على هذا النحو.. لم أتخيل أن طاعتي له وانصياعي لأوامره في كل أمور حياتنا سينقلبان حتماً عليّ في يوم من الأيام .. فبعد أن أنجبت بكري خليفة .. تبدل زوجي كثيراً ليتدخل في شؤون الولد كما النساء ، فقد أصبح يتناقش معي حول مواعيد الرضاعة وتغيير

الحفاض وألوان ملابس الطفل تحول إلى شخص تافه بلا شخصية، فتارة يقول أمي قالت لي أنك لم ترضعي الولد في موعده هذا المساء عندما كنتِ في زيارتهم ، وتارة يقول أختي قالت لم تبدلي ملابس الولد في تلك الليلة التي كنت عندهم .. أصبح الناطق الرسمي بلسان أمه وأخواته .. فيختلق أي سبب ليلومني ويتهمني بإهمال الولد مستشهداً بآراء أمه وأخواته وكان يجرحني كثيراً وهو يدوس على كرامتي أمامهم .. اكتشفت أنه لم يتزوجني لأنه أحب أن أشاركه حياته ، بل تزوج أساساً من أجل أن يشبع رغبته كرجل اشتهى أنثى ويريد منها أن تلبي ما أراد منها دون إحساس .. كل تلك الأشياء لم أفصح عنها لأحد حتى أقرب الناس إليّ أمي وعلى الرغم من أننا كنا نعيش في بيت والدي الذي وافق على أن نمكث عنده ريثما تنتهي أعمال البناء في البيت الذي يبنيه زوجي لنا.. فلم أخبر أحداً بعذاب قلبي وألمي لما أسمعه من زوجي من سب ولعنات وطعنات للرجل الذي استقبله في بيته وأمنه على ابنته ، لقد سبب لي هذا الرجل أمراضاً كنت أكتمها عن أهلي لكي لا يتألموا ويعرفوا مستوى الحالة التي وصلت إليها ، لقد ضقت ذرعاً به وبالحياة معه.. فبسبب شكه وغيرته العمياء كان يمنعني من ممارسة حياتي مثل جميع الزوجات .. فتوصلت في قرارة نفسي إلى الخلاص منه بأية طريقة رغم صعوبة الموقف برمته ، ولكن ذلك كله لم يمنعني من أن أخجل كعادتي ولكن هذه المرة يجب عليّ إتخاذ قراري في مسألة الحياة بعيدة عنه أو الممات تحت أقدامه ، ففضلت منازعة الموت وطلب الطلاق

على أن أحيا ذليلة معه طول عمري .. ووقتها لم أكن أعرف بحملي في أحشائي لؤلوتي التي كانت تقاسمني الوجع ذاته في جسمي وبكيت كثيراً عند علمي بذلك .. أتعرفين في إحدى جلسات المحكمة ماذا قال لي زوجي الذي أعطيته في يوم من الأيام روحي قبل جسدي ليصعقني بتفكيره الدنيء ، قال لي أمام القاضي دون خجل أو حياء من الذي سيقوله لي متظاهراً بالضعف والبكاء كي يتعاطف معه القاضي قائلاً : أعرف أنكِ بمجرد حصولك على الطلاق مني ستتزوجين غيري في الحال ولذلك ورقة الطلاق أبعد لك من نجوم السماء .. ففوجئت من خسته ووضاعة تفكيره الضحل .. وقلت له : لقد كانت حياتي معك كافية لتكرهني في الزواج والارتباط بكل الرجال وخذها عهداً مني لا زواج بعد الجحيم الذي عشته معك .. ورغم توسلاتي وحرقة قلبي ودموعي الصادقة لم يطلقني لا هو ولا قاضي المحكمة الذي نصره كرجل مثله وظلمني كامرأة كسيرة .. وكنت في كل مرة أرجع فيها من الجلسة وأجلس في السيارة ، حيث يكون في انتظاري والدي وأختي موزة خارج قاعة المحكمة .. متلهفين لمعرفة ما حدث معي بسؤالي : هل تخلصت منه .. فأرد بحنق وغصة في الحلق .. لقد رفضا تطليقي هو والقاضي وحول القاضي أوراقي للاستشارات العائلية .. ثم يعتصر قلبي بالبكاء على حالي وقلة حيلتي أمام جبروته .. وعندما ولدت لولوة عرفت أن بمجيئها للدنيا أضافت قيداً جديداً حول عنقي وقيدني زوجي بقيد آخر ليغرقني في وحل أوهامه وشكوكه

ويربطني معه برباط آخر يضعفني ويحد من مقاومتي له والرجوع إليه .. لم أكن أعرف شيئاً عن دنيا الرجال وحبهم للتملك والاذلال وإبداء طلب مفارقتهم هو مساس كبير بكرامتهم ومن يواجههم به يحتاج لقوة الأرض كلها حتى تعاضده ضدهم .. وها أنا الآن أنتظر صابرة تغير حالي للأفضل وأملي في الله كبير أن يتغير زوجي الذي اتضح أنه قدري الذي لا مفر منه وعليّ مواجهته مهما كانت الظروف وكما يبدو لي ظاهراً أنه لا خلاص منه .. فمسحت دموعها بيدي بعدما أدمت قلبي بقصتها وأحزنته ثم قمت مودعةً إياها عند الباب على أمل لقائها العام المقبل وطيور السعادة تحلق فوق رأسها .. فإذا بي أسمعها تصيح وتناديني بأعلى صوتها .. بعد أن كنت قد أدرت ظهري مستقبلةً الباب لأهم بالخروج .. لتقول لي سأتصل بك قريباً لنخرج معاً في يوم ما ، فقد اشتقت كثيراً للخروج معك .. فتوقفت مكاني لأنظر وألتفت إليها لأرى من خلفي يداً تلوح من بعيد وعيوناً تبكي بغزارة.. وإلى الآن منذ ذلك اليوم أنا أنتظر اتصالها..

ولكن أحزروا معي من الذي اتصل بي .. لقد اتصلت صديقتي المشاكسة وتوأم روحي الجازي .. فعندما أكون معها نشكل ثنائياً فريداً من نوعنا ، فأينما وجدنا نحن الاثنتين تعم المكان أجواء الضحك والمرح .. وكل من حولنا لاحظوا الإنسجام التام الذي بيننا ويشهدون على ذلك.. فالجازي عرفتها عندما التحقت بالعمل في إحدى الوظائف بعد تخرجي مباشرةً .. وبعد

تركي للعمل في ذلك المكان كما ذكرت لكم الأسباب في حكاية الزهرة الثالثة .. كانت الجازي معارضة تركي للمكان وهي تصيح فيّ أن أعطيها أوراق طلب الاستقالة لتمزقها حتى أتراجع عن رأيي وكانت تبكي بحرارة وهي تطلب مني ألا أتركها وحيدة وأستقيل ، ولكني لم أستطع تحمل ما رأيت ، ففضلت تقديم الاستقالة والذهاب بعيداً عن ذلك المكان الموحل وبالرغم من الفترة القصيرة التي قضيتها هناك والتقيت فيها بالجازي فإنه ربطتنا صداقة وأخوة متينة ظلت لسنوات ولله الحمد.. فكانت تتواصل معي بإستمرار ، من حين لآخر تسأل عني وعن أحوالي.. وفي آخر مرة اتصلت بي لتخبرني بأنها ستسافر لدبي لترافق أختها روضة التي عليها حضور مؤتمر طبي تمثل فيه جهة عملها في الأسبوع المقبل .. فسألتني بناءً على زيارتي السابقة لدبي عن أفضل الفنادق العائلية التي يمكن لهم أن يقيموا فيها بأمان والقريبة لهم من الأسواق والمجمعات ، فقد صرت خبيرة بدبي وضواحيها من أول زيارة لها وذكرت لها عن زاهر سائق التاكسي الأمين وأنها تستطيع أن تستعين به في جميع تنقلاتهم ، فهو خدوم وسيكون في عونهم متى احتاجوه وأعطيتها الرقم ، لأجدها تفاجئني وتسألني سؤالاً لم يخطر ببالي أبداً قائلة : لماذا لا تأتين معنا ما دمت على دراية وخبرة بدبي ؟؟ فشهقت متفاجئة لعدم توقعي هذا السؤال ، وفي البداية مانعت وتعذرت بأحد أعذاري .. لأجدها ترجوني أن آتي معهم لأنها ستشعر بالضجر والملل نظراً لوجود أختها طوال اليوم في المؤتمر.. ويكفي أن

وجودي معها سيضيف نكهة مميزة على أجواء الرحلة ، خاصةً أن أغلب المواقف الطريفة التي تحدث عندما نجتمع معاً.. ففكرت في أول خطوة لي في حياتي بالسفر مع الجازي ، فاستشرت والدي الذي وافق لكونه يعرف الجازي جيداً و يثق بها ولصداقتي الطويلة معها لم يمانع فكنت أختهم الثالثة في الرحلة ..

اختارت الجازي عن طريق الانترنت أحد الفنادق لنقيم فيه والذي كان يقع الفندق في شارع المرقبات أو كما يسميه البعض شارع الرقة .. وكنا وقتها في أواخر شهر ديسمبر البارد من السنة الميلادية ، أي أننا سنقضي ليلة رأس السنة الجديدة هناك لنرى بأعيننا ما كنا نسمع عنه من الناس عن احتفالات السنة الجديدة في دبي ..

ما أن دخلنا الفندق ووضعنا الحقائب حتى أخذت الهاتف الموجود في الغرفة وبأناملي الدقيقة والناعمة ضغطت على مكعبات أرقامه لأتصل بشبكة الاتصالات المحلية عندهم هناك وأسأل وأستعلم عن رقم تليفون وعنوان المدعو الدكتور مروان الحكيم .. دون سابق معرفة به أو بتخصصه ، كل ما أريد أن أعرفه مواعيد عيادته لأزوره فيها ، بينما كانت الجازي وأختها تنظران إليّ متعجبتين لما كنت أقوم به .. فظنتا أنني مريضة وجئت معهما لغرض العلاج ولم أكشف لهما عن ذلك حتى لا تحزنا عليّ ولكن كنت أبدو أمامهما سليمة وبصحة وافرة كالحصان ..

فتحيرتا فيما كنت أفعل .. وبينما كنت أطلب من موظف الاستعلامات رقم الدكتور وعنوانه وأنا أتأوه وأتظاهر بالمرض والتعب وأحتاج لمقابلته واستشارته في أقرب فرصة لأشفى من الداء الذي بي .. ليأتيني الجواب محرجاً جداً كاشفاً للموظف كذبي عليه .. حيث قال لي دوني عندك يا أختي المريضة رقم وعنوان الدكتور البروفيسور مروان الحكيم طبيب الأمراض التناسلية والذكورة والعقم ففوجئت بأنه دكتور متخصص في أمراض الرجال فقط .. وأنا منذ دقائق أحاول أن أقنع موظف الاستعلامات بأنني مريضة جداً وأحتاج مساعدته كي يبحث لي عن عنوان هذا الدكتور بأي وسيلة .. واكتشف الموظف ، كما اكتشفت أنا أن الدكتور مختص بأمراض الرجال فقط وليس له علاقة بأمراض النساء.. وببساطة عرف الموظف أنني كنت أكذب عليه طوال مدة المكالمة .. فيا ويلي وهو الذي سمع تأوهاتي منذ قليل ويا للاحراج الذي وقعت فيه .. واندهشت الأختان وهما تسمعان مكالمتي غير مصدقتين لما فعلت وتنظران لبعضهما البعض باستغراب للتصرف الذي قمت به وما أن حصلت على المعلومات التي أردتها حتى أغلقت الخط وجلست على الكنبة الموجودة في ركن الزاوية لأشرح للأختين سر المكالمة الغريبة التي قمت بها وسبب بحثي عن رقم وعنوان هذا الدكتور بالذات دون أن يكون لي سابق معرفة بتخصصه الغريب والمحرج .. فبدأت قائلة : هل تعرفان مي زميلتي التي تعمل معي صح ؟ قالت الجازي : نعم أعرفها .. جُل المعرفة ،

فقد قدمتها إليّ ذات يوم عندما كنا معاً في قهوة «كوستا» .. قلت لهما .. هي التي وصتني أن أقوم بهذه المهمة أو الخدمة الإنسانية من أجلها .. فردت عليّ الجازي قائلة : أتحفينا يا «ماثر تيريزا» وصاحبة القلب الحنون ومنذ أن عرفتك وهذا الاسم ينطبق عليك تماماً .. فأكملت قائلة : وبما أن مي آنسة إلى الآن وقطار العمر يمضي أمامها دون أن تلتقي برجل يشاركها حياتها ، وعلى ذلك فوضت أمرها إليّ كي أساعدها ، ففي أحد الأيام اتصلت بها أختها المتزوجة والتي تعيش في دبي لتخبرها بأنها وجدت لها عريساً يناسبها كثيراً بعمره .. ولكنه مطلق وله ولدان بالغان من زوجته السابقة ويسكن دبي التي له فيها عيادة مشهورة ، فهو بروفيسور ودكتور معروف في اختصاصه .. وما هواختصاصه الله أعلم .. ثم ضحكت لأقول وأخيراً عرفت اختصاصه وليتني لم أعرف لكنت أبقيت لساني في لهاتي وحفظت كرامتي ولكن ماذا أقول عن قلبي الذي يوقعني في أدهى المشكلات ، فأخذتا تضحكان عليّ فأكملت قائلة : وكما ورد على لسان مي فأخت الدكتور المحترم اتصلت ببيت مي في أثناء غيابها لتجيبها والدة مي وعندما أخبرتها بموضوع التقدم لخطبة مي ، ردت عليها الوالدة بأنها ترفض زواج ابنتها من رجل مطلق وعنده ولدان من زيجه سابقة .. وعندما علمت مي بتصرف والدتها ورفضها لهذا الزواج من هذا الرجل وبهذا الشكل دون أن يكون لها رأي في مسألة مهمة في حياتها .. هاجت وماجت غاضبة من الذي حدث، فقد كانت تلك آخر فرصة لها لتودع حياة الوحدة بلا

رجعة وتدخل عالم المتزوجات ولكن والدتها حكمت عليها بالسجن المؤبد بتزمتها في قرارها دون مشاورتها في الأمرها وحزنت لذلك كثيراً ، وعندما علمت بسفري إلى دبي معكم طلبت مني مساعدتها في استرداد العريس الذي طار منها حتى يرجع هو وأهله ليتصلوا بها مجدداً ويحددوا موعداً للمفاتحة بموضوع خطبتها.. والآن أريد مساعدتكما وهمتكما معي في هذه المهمة الإنسانية والخيرية أيضاً .. فوجدت الجازي معلقة على كلامي بقولها : لم أكن أدرك أبداً أن «ماثر تيريزا» الراهبة الرؤوفة بالفقراء كانت تعمل في وقت فراغها خاطبة لهذا وذاك من الناس الفاقدين الأمل في وداع العزوبية ودخول قفص الزواج، فضحكت أختها روضة لتقول : أول مرة في حياتي أرى واحدة تفكر في مشكلة زميلتها .. بصراحة يا هذه الزمالة يا بلا .. بالنسبة لي يا عزيزتي أنا أتأسف منك فلا أريد ولن أستطيع المشاركة بأعمالكم الخيرية على الإطلاق فيكفيني ما جنيته من حصاد في مساعدة الناس وفي النهاية ينقلب الموضوع برمته عليّ ونصيحة من أخت لأختها «أتقي شر من أحسنتِ إليه» ، فمجال عملي ومخالطتي بالناس علمتني أنكِ إن فعلت خيراً يوماً لقيت مقابله شراً متربصاً بك لأيام وستتذكرين كلامي هذا يوماً فقد كانت لي تجارب مع أقرب الأقربين لي وأنزووا عني في نهاية الأمر عندما عرفوا أنه لم يعد بإمكانهم استغلالي بعد .. لم آخذ كلام روضة على محمل الجد فأعتبرتها تجربة شخصية أو ربما لم تحسن الإختيار منذ البداية ولذلك فشلت في تجاربها مع الآخرين ثم

قالت روضة وهي معتذرة عن خوض المغامرة معنا إضافةً لذلك سأكون مشغولة طوال الأيام المقبلة بالمؤتمر الطبي حول الأجنة وأمراضهم ، فلن أفيدك إلا بعد زواج مي ووعداً مني سأولدها بنفسي أما أمور الخطبة وخلافها فأنا فاشلة فيها ونذير شؤم في تلك المواضيع فلن يتم الموضوع على خير إن ساهمت فيه .. فقاطعتها قائلة : أعوذ بالله من فألك ، سيتم موضوع مي بسرعة وبلا مجهود مضنٍ بإذن الله ثم أومأت روضة بسبابتها على حبيبتي الجازي الجالسة كطفلة هادئة ووديعة تحاول فهم ما يجري حولها قائلة : خذي معك وجه السعد ، هذه فهي التي ستفتح نصيب زميلتك مي بالريموت كنترول في سرعته لتدخل عش الزوجية وتهنأ به يا ملاك الرحمة أنتِ وهي ثم زادت على كلامها وهي ما تزال تشير على المسكينة الجازي لتقول إن هذه الإنسانه هي الوحيدة التي تستطيع المساهمة معك في مهماتك الإنسانية وهي المتفرغة تماماً لهذا الانتداب .. فعدلت الجازي جلستها لتتربع بعدما كانت مسترخية بظهرها على الكنبة لتخطب فينا خطبتها العصماء قائلة : لا يا حبيباتي أنتِ وهي أسمعوا جيداً أنا جئت دبي للاستجمام والراحة وليس لتزويج سعيد بسعيدة .. أتركِ عنكِ مي وعريس الغفلة وتمتعي بالهناء والراحة هنا فأنتِ في دبي وكفاكِ انشغالاً بهموم الناس، فكري بنفسك قليلاً وربي الذي في سماه لو كانت هي مكانك لما فعلت ما أنتِ تفكرين بفعله لها .. ولماذا أنتِ تسعين لها بينما أقرب الناس لها أختها لم تفكر بذلك؟ أنا اقترح أن تنسي موضوعها تماماً وأتركيه على

الله.. فإذا كان لها نصيب مع هذا الدكتور فسيكون رغماً عن والدتها شاءت أم أبت .. وقومي بتوفير خدماتك الجليلة هذه يا «أمنا تيريزا ».. وضعي يديكِ في مياه باردة ونامي هانئة البال مرتاحة الضمير .. «واللي في الجدر يطلعه الملاس».. كان كلامها وأمثالها الشعبية .. كثيراً ما يجعلني أبتسم في نهاية الأمر لأتخيل بأنني أجلس مع جدتي العجوز وليس صديقتي الشابة اليافعة .. وفي تلك الليلة عندما نام الجميع بقيت يقظة طوال الليل ولم يغمض لي جفن فقد كنت أفكر في طريقة أساعد بها مي زميلتي ..

وفي الصباح الباكر قمت بالاتصال بسائق التاكسي زاهر واتفقت معه على أن يأتي في توقيت معين لينتظرعند باب الفندق البرنسيسة روضة حتى يقوم بتوصيلها أولاً لمكان المؤتمر ثم يرجع إلينا ليقوم بتوصيلنا لأي مكان نريده .. ونعم السائق كان زاهر ..

ثم أيقظت الجازي لأخبرها برغبتي في الذهاب لعيادة الدكتور مروان الحكيم .. وسأتصل بزاهر ليأتي ويأخذني إلى هناك .. وستتحمل هي مسؤولية حدوث أي مكروه لي إذا رفضت أن تأتي معي في مهمتي .. فأزاحت الغطاء السميك الملتحفة به من شتاء دبي .. قائلة بصوت منزعج : ياالله صباح خير .. وبعدين معك يعني هذه الفكرة لازالت تعشعش في رأسك .. الله يسامحك يا أم مي .. لكنت وافقت على زواجها وارتحنا من

سيرة تزويجها منذ الصباح..

كان السائق زاهر ينتظرنا عند مدخل الفندق بعدما استعددنا للخروج بإرتدائنا أحسن ما عندنا وانتهينا من تناول الفطور، وما أن ركبنا سيارته حتى أعطيته العنوان ، فلم يحرك السيارة من مكانها وظل واجماً متسائلاً ليقول : مدام هل هذا العنوان صحيح، أخاف أن تكوني مخطئة .. قلت له أنا متأكدة منه ، فأنا أريد الذهاب لعيادة الدكتور مروان الحكيم .. فسكت وألف فكرة كانت تدور في ذهنه وربما تساءل في نفسه ، ترى لماذا هاتان الشابتان تريدان الذهاب لعيادة مرضاها كلهم رجال .. فما السبب الذي يجعل بنات يقمن بزيارة عيادة خاصة بالرجال.. غريب أمرالنساء يردن مساواة الرجال في كل شيء حتى بعيادة تخصه هو .. ثم بسطت كفي فجأة وقربته نحو الجازي وقلت لها أعطيني خاتمك من فضلك نظرت إليّ وعلامة التعجب بين عينيها كما في أفلام الكرتون .. لتقول: ولماذا تريدين استعارة خاتمي يا حلوة .. قلت لأنه يشبه كثيراً دبلة الخطوبة .. فقالت : وما دخل ذلك بزيارتنا للعيادة يا فطينة .. قلت لها : أعطني إياه الآن وسأخبرك عندما نصل هناك.. وعندما أردت أن أضعه في إصبعي سألتها .. الجازي في أي يد تلبس فيه دبلة الخطوبة .. ردت عليّ وهي تسخر مني قائلة : خيبة يخيب عدوكِ يا شيخة وكل هذا ومي معتمدة عليك وواثقة من قدراتك والله أنك بريئة إذا كانت دبلة الخطوبة لا تعرفين في أي يد تكون فبالله عليكِ ستنجحين في

مهمتك وتقابلين البروفيسور في الأمراض التناسلية والذكورة والعقم الله يستر علينا من هذه الزيارة .. فقلت لها مدافعة عن نفسي وما أدراني في أي يد تلبس الدبلة فأنا لم أمر بتجربة خطوبة من قبل ولم ألبس دبلة في حياتي .. يعني ذلك يا عزيزتي أنني إلى الآن جوهرة مصونه ودرة مكنونه ومن أراد أن يخطب ودي ويحصل عليّ يجب عليه أن يتخطى السبعة أبحر حتى يتمكن من الوصول إليّ بالإنجليزي يا حبيبتي أم أستل أفا ليبل «I'm still available».

ردت قائلة : خليني أشوف آخرة بطولاتك يا عنترة زمانك ومثل ما يقول المصريون «أسمع كلامك أصدقك .. أشوف أمورك أستعجب».

فرددت مشاكسةً إياها كعادتي لأقول : نصرمن الله وفتح قريب بإذن الواحد الأحد .. نظرت إليّ مندهشة لتقول : ممكن أسألك سؤالاً أنتِ داخلة حرب البسوس مثلاً أو عيادة البروفيسور في الأمراض التناسلية والذكورة والعقم وأنا ما أدري؟ فقلت لها : الأثنان معاً فأصبري لتري شطارتي بأم عينيكِ فردت قائلة : فعلاً العقل نعمة وأتمنى أن ينعم الله عليك به وغلطتي هي أنني طاوعت جنونك .. ووقتها كان زاهر ينصت إلى حديثنا بتركيز عال ونحن نتهامس في المقعد الخلفي ، فقد كان يود أن يتوصل لخيوط رفيعة تفك له خفايا اللغز الذي كنت أخبئه بذهابنا إلى تلك العيادة..

وصلنا العيادة أخيراً فدخلنا عند موظف الاستقبال مباشرةً.. فقلت له : أريد الدكتور في استشارة خاصة .. نظر إليّ موظف الاستقبال متفاجئاً وشك في قدراتي العقلية وظن أنني استهزئ به.. فرد عليّ قائلاً : سيدتي يمكن أن تكوني غلطانة بالعنوان ، فهذه عيادة البروفيسور الدكتور مروان الحكيم المتخصص في الأمراض التناسلية والذكورة والعقم وكل مايختص بأمراض الرجال وأنت سيدة ومستحيل أن يكون هو مقصدك ربما أردت زيارة إحدى العيادات في الطوابق الأخرى وأخطأت المكان بمجيئك إلى هذا الطابق فأجبته بثقة متناهية قائلة : أنا في العنوان الصحيح وأعرف من أريد ولدي استشارة خاصة فهل عندك مانع في رؤيته ، فالمسألة بالنسبة لي حياة أو موت وما أن انتهيت من هاتين الكلمتين حتى استشاطت الجازي غضباً لتعنت الموظف ومحاولة إقناعه لنا أننا في المكان الخطأ فاستدارات له موجهة الكلام له لتقول : «يا أخي هلكتنا بالبروفيسور البروفيسور.. اللي يقول بروفيسور في الطاقة الذرية أوالنووية كنت بلعتها أو حتى صواريخ أرض أرض راضيين بها فهو بروفيسور في خدمة البشرية جمعاء ، ولكن ما هو إلا برفيسور في أمراض تناسلية وخلافها وطول الوقت وأنت نافخ نفسك علينا وشايف حالك في العالي ليش .. من أنت ، ومن بروفيسورك هذا ، فالواقفات أمامك لسن أقل منه ، فهذه وكانت تشير عليّ زوجة سفير وأنا زوجة وزير ونحن مهندسات كانت لنا صولات وجولات في مجال عملنا مثله ، فلا داعي لهذه «الفذلكة والفشخرة» علينا ، حينها

أحسست بألم في بطني ، فلم أقاوم الضحك ، فتعمدت ورميت نظارتي الشمسية على الأرض لكي أجلس وأضحك ملء فمي على الأزواج الذين تزوجناهم في ثوان لنبين للموظف أننا من أصحاب البرستيج وصاحبات تاريخ مشرق في مجال الهندسة ذات الأفرع الكثيرة .. لم أتوقع أن تفعل بالرجل هكذا وتعطيه من الآخر وتفهمه موقعنا الاجتماعي الذي كان من تأليفها .. كنت خائفة جداً أن يكشف لعبتنا ليطردنا من العيادة خاصة أنه رآني في ذلك الحال ، فقد كنت غارقة في الضحك تحت طاولة الاستقبال.. فانتبهت إليّ الجازي قائلة : وأنتِ ياالله قومي من الأرض ولنذهب ونجلس في الممر لأنه لا توجد أساساً غرفة انتظار للنساء وكأن النساء ليس لهن وجود في الدنيا أو رب ولننتظر حتى ندخل على البروفيسور الذي طاير فيه موظفه .. ثم هذه مي لم تجد طبيباً في تخصص آخر لتتزوجه .. والله انفضحنا بسبب زواجها الأغبر من هذا الدكتور.. والله لو رآنا أحد من الرجال لشك فينا .. قومي خلصينا من هذا المشوارالإنساني الذي سيشمع على نصيبنا بالشمع الأحمر .. هي تتزوج وتجيب عيال واحنا نقعد عوانس بسبب هذا المكان .. أرد عليها باللهجة القطرية البحته «حبيبتي فالك ما قبلناه وبعيد الشر وإن شاء الله اللي يكرهونا » ..

وأخيراً دخلنا معاً عنده وما أن رأينا البروفيسور الذي يقال عنه.. فبدا لنا من أول وهلة ديناصور من العصر الحجري .. رجل

كبير ضخم أشهب الشعر .. فهمست الجازي في أذني قائلة : أرأيتِ ضخامته تلك هذا دليل يا عزيزتي على أنه مليئ بالعلم والمعرفة في اللي بالي بالك .. شهقت بكحة قوية ودمعت على أثرها عيناي وأحمر لوني .. فخرج الطبيب ليأمر الموظف بأن يستعجل ويحضر الماء.. وطبعاً بالكاد كان صوتي يخرج بسبب الكحة القوية .. وأنا التي جئت في مهمتي الإنسانية ، فكيف سأتكلم وأشرح له الموضوع .. وصوتي كان مبحوحاً حينها بسبب الشهقة العجيبة ، فقلت له : دكتور أنت بالتأكيد مستغرب لماذا أنا موجودة في عيادة خاصة بأمراض الرجال ولا علاقة لك بالنساء سأفسر لك سببي .. فأنا لم آتِ لشيء لي .. وحينها كانت الجازي جالسة في هدوء سلمي تسمع ما أقول .. ولكنها ففوجئت وفتحت عينيها على الآخر عندما أكملت قائلة : بأنني جئت من أجل خطيبي المصاب بمرض السكر .. لأرى الجازي ترمقني بنص عين وبنظرة ماكرة وتقول بصوت خافت : يا عيني مرة وحدة الخطيب المستقبلي فيه مرض السكر!! من حلاوتك أنتَ يا عسل .. عندما سمعت ذلك حاولت صدها وعدم النظر إليها حتى لا أضحك ويكتشف الطبيب سيناريو الفيلم الذي يدور حوله باحتراف تام وتمكنت من تمثيل الدور عليه على أكمل وجه وخفت أن أضعف أمام تعليقاتها ونطرد نحن الأثنتين شر طردة ، فحاولت التركيز أكثر في كلامي وصم آذاني عنها .. فقلت له : دكتور أنا سمعت أن المصابين بالسكر صعب عليهم أو ليس باستطاعتهم الإنجاب وكوني متعلقة جداً بالأطفال أريد أن أنجب

الكثير من الأطفال .. فسمعتها تقول لي بصوت خافت : يعني أنتِ أرنبة مثل أخت فاتن حمامة في أفواه وأرانب .. رآني ابتسم وطبعاً كنت حينها أغالب ضحكتي التي مصدرها الشريرة التي تجلس بجانبي .. فظن أنني أبتسم خجلاً من الموضوع فقال : لا داعي للخجل في ذلك ، هو حق مشروع فمن حقك أن تعرفي مصير حياتك مع الرجل الذي تحبينه واختاره قلبك.. فإذا بالجازي تدوس على رجلي وتهمس في أذني تحبين يا الداهية ومن ورائي .. فصرخت منفعلة .. لأقول : آخ .. نعم فهمت ما قصدت يا دكتور مروان .. استعجب أنفعالي الإيجابي .. بينما كنت أصرخ من الألم الذي سببته الجازي لأصابع قدمي .. ثم قال هناك أمل لبعض الحالات ، فلا تقلقي .. هل عندك شيء من تحليل دمه أو معدل مستوى السكر في دمه كم يكون بالعادة ؟ هل هو مرتفع أو معتدل؟؟ فبدأت أنظر للسقف أحاول تأليف أي رقم يخطر في ذهني فقد كنت في مأزق ، فوجدت الجازي تجيب نيابة عني قائلة : دائماً مرتفع يا دكتور دائماً .. فنظر إليها متعجباً وقال : أنتِ تعرفين عنه أكثر من خطيبته وزوجته المستقبلية .. فردت عليه الجازي وهي تبتسم وتنظر إليه خجلاً : نحن يا دكتورأكثر من أخوات ونعرف أسرار بعضنا البعض جيداً أليس كلامي هذا صحيحاً .. فأرادت أن تدوس على رجلي مرة أخرى فرفعتها من مكانها قبل أن تفعل .. وأجبت نعم كل ما قالته صديقتي عين الصواب ثم سألني الدكتور قائلاً : لماذا لم يأتِ خطيبك معك ؟ فجاوبته وأنا كلي ثقة بأن خطيبي يحبني كثيراً

وستتأثر علاقتنا ببعض إذا عرف أنني استشرت طبيباً دون علمه وخاصةً للاطمئنان على صحته الإنجابية .. فتتدخل الشريرة الجازي مرة أخرى قائلةً : ماذا صحته السنجابية ؟؟ .. وما أن سمع الطبيب تعبيرها حتى ضحك ضحكة عالية ومزلزلة اهتزت معها الغرفة بكامل أجهزتها .. ثم وجه كلامه لي قائلاً : حاولي أن توصلي له الفكرة بهدوء ولطف وأحضريه معك في المرة القادمة.. فأسمع همسها وهي تقول : من وين يا حسرة تجيب لك واحد .. إذا هي يا حسرتها ما حصلت اتجيب لنفسها .. راح أتجيب لك أنت وإلا مي التي وصتها ببروفيسور ذي مكانة علمية مرموقة وليس أي واحد .. مسكينة «ماثر تيريزا ».. تجيب لمن وأتخلي من .. فتذكرت حينها هدفي الأساسي من هذه الزيارة وهو مي فقلت للدكتور متظاهرة بالدعاء له: الله يبارك لك في أبنائك .. وممكن أسألك سؤالاً يا دكتور فقال: تفضلي على الرحب والسعة ، فسألته : كم عندك من الأبناء والبنات يا دكتور.. فجاوب قائلاً : أنا عندي ولدان من زوجتي الأولى التي هي عربية من نفس جنسيتي .. ولي صديقة فرنسية تعيش معي في نفس المنزل فوكزتني الجازي بقوة لتسمعني همسها في أذني قائلة : يعني الأخ بالعربي زير نساء فلنخلع من هنا بسرعة يا الأخت الفاضلة ويا زين ما اختارت زميلتك مي .. فأكمل الطبيب كلامه إلى أن قال وأنني حالياً أحاول أن أبحث لي عن عروس فهمست أنا في أذنها قائلة : وصلنا أخيراً إلى مربط الفرس .. وهذا هو المطلوب فردت عليّ الجازي لتقول : وهذا «الميدان يا

حميدان» ، دعيني أرى كيف ستفاتحينه بأمر مي .. فتفاعلت معه قائلة : لا داعي لأن تحتار يا دكتور، فأنت عليك إيجاد العلاج لخطيبي وحبيبي وأنا بدوري سأبحث لك عن عروس ولا يهمك، فتعلق الجازي بقولها : «أمحق خطيب لا سماء له ولا أرض».. فبدأت بالخطوة الثانية بإخراج صورة مي من محفظتي لأقول له هاه وما رأيك في هذه البنت كعروس لك وهي من نفس جنسيتك وتناسبك كثيراً في كل شيء .. وأعطيته ورقة صغيرة مدوناً عليها رقم هاتفي المحمول ، وقلت له هذا رقمي في حالة إن أردت أن تستفسر عنها أكثر .. تهلل وجهه فرحاً بالصورة التي رآها وقال : بعد يومين سأتصل بك لأخبرك برأيي في الموضوع ، فقط أمهليني بعضاً من الوقت وضروري سأتصل بك .. وبينما أنا واقفة عند باب غرفة الكشف أهم بالخروج والأخت الجازي مشغولة بالذي تحمله بين يديها وكان منشوراً خاصاً بمترو دبي ، حيث كانت تقرأ أسماء محطاته بصوتها الذي بدا كالصرير في أذني .. فقبضت بقوتي على مقبض الباب لأديره حتى أستوقفني الدكتور قائلاً : نسيت أن أسألك عن اسم خطيبك .. حينها دارت جميع الحروف والأسماء أمام عيني ولم أستطع تذكر شيء منها وعندما توقعت نجدة الجازي في تلك الحالة رأيتها منهمكة بقراءة أسماء المحطات وغير منتبهة لما أنا فيه من ورطة ولو أنها كانت في ساعتها حاضرة الذهن لساعدتني على الفور.. ولكنني سمعتها تقرأ أسماً من أسماء المحطات وكان محطة خالد بن الوليد .. فتنبهت للاسم في الحال وجاوبته وأنا بالكاد أنطق به

ليخرج من حنجرتي عنوة .. لأقول :اسمه «خ خه خا خالد ».. فقال لي لطول المدة التي جاوبتني فيها اعتقدت أنك نسيت اسمه أم أنني ذكرتكِ بحبيب القلب فسرحتِ فيه .. تنبهت لي الجازي لتقول هامسة .. شلاخة.. أكبر شلاخة في الدنيا واقفة أمامي.. شلاخة يعني .. كذابة باللهجة القطرية .. ثم قال لي الدكتور: أحضري خالد معك في المرة القادمة وستكون أموركما على مايرام ولا تخافي ستنجبين منه امبراطورية من الأولاد والبنات .. وهنا قفزت الجازي لتقول : حشا أنتِ دجاجة وليست بأي دجاجة .. امبراطورية مرة واحدة .. صادق في كلامه يعني هذا العلم والشهادات ولا تنسي بروفيسوريته جاءت من فراغ .. لم تأتِ إلا ليزيد عدد سكان الكرة الأرضية ويجعلها أكثر اكتظاظاً مما هي عليه الآن .. وستغرق قارة آسيا في البحر بسبب الامبراطورية التي ستنجبينها بلا شك وحمدت الله أنها بدأت بتعليقها على كلامه عندما خرجنا من غرفة الكشف ، فقد كنت حينها أضحك بشدة لدرجة أنني بدوت وكأنني أبكي من الدموع التي ذرفتها بغزارة من عينيّ فقد كنت أتخيل كل كلمة قالتها لي .. لا أعرف هل هذه البنت معجونة بالعسل .. حقيقةَ لا أعرف من أين لها خفة الدم هذه .. وعندما دخلنا المصعد قرصتني بكل ما عندها من قوة في إحدى ذراعي لدرجة أنني بدأت أتأوه من شدة الألم الذي سببته لي لتقول : هاه يا الثعلبة المكارة خايفة أحسدك.. مخطوبة لخالد .. وهو مريض بالسكر وتخافين عليه وعلى صحته السنجابية يا الأرنبة .. كل هذا الفيلم الهندي الطويل

في رأسك ولا تعلميني بأن هذه هي الخطة .. قلت لها والله أنه كان ارتجالاً فقد جاء كل شيء بالمصادفة ومن خيالي الخاص .. ولم أتوقع إتقاني للدور بهذا الشكل المقنع .. فقالت أتدرين أنني صدقت حديثك عن الخطيب المزعوم خالد وجعلتني طوال الوقت أتعاطف معه وأحزن عليك .. مع أني أعرف جُل المعرفة أنه لا يوجد في حياتك لا خالد ولا خلود .. فمن أين تأتيكِ تلك الأفكار لا أعرف!! «فيا سبحان الله في عجائب خلقه» .. فقلت لها مستنكرة لماذا يا حبيبتي شايفة إحدى عجائب الدنيا السبع ، أبو الهول مثلاً ؟ فتجيبني بدم بارد لتغيظني لا أنتِ أم الهول .. يا عجيبة وتقرص خدي المحمر من أثر حرارة الشمس ، فقد طال وقوفنا في الشارع انتظاراً لأي تاكسي يعود بنا للفندق بعد أن ذهب سائقنا زاهر ليحضر البرنسيسة روضة من المؤتمر الذي هي فيه .. بينما كنا نحن اللتين حضرتا مؤتمراً مهماً في عيادة هذا البرفسور وليس روضة ومؤتمرها الطبي الذي لا نفع منه في المهمات الإنسانية .. وإذا بالجازي تصيح بي متذمرة من اشتداد حرارة الشمس لتقول : والله لو كان هذا البروفيسور طبيباً للأمراض الجلدية لقلنا سنستنفع من ورائه بكشف مجاني ليعالجنا من الحروق التي أصابتنا ونحن واقفتان ننتظر في هذه الظهيرة حتى يتم جمع شمل مي بعريسها البائس مثلها ، بينما أنا وأنتِ نتعذب هنا تحت أشعة الشمس ونحترق وتفقد بشراتانا رونقهما ونذوي كالشمع ، فمن سينفعنا حينها مي أو عريسها الموعود البروفيسور في الأمراض التناسلية والذكورة والعقم ..

في ماذا سيفيدني تخصصه هذا قولي لي ؟ ماذا سيفيدني به ؟ فأجبتها قائلة وأنا ابتسم : على الأقل سيعالج خالد خطيبي الوهمي .. فأخذنا نضحك معاً ، فقد فزت عليها بردي فبدأت تدعي وتقول حسبي الله على ابليسك يا مي التي أدخلتنا في هذه الأماكن .. حسبي الله ..

بعد مرور يومين من الموعد المتفق عليه اتصلت بالطبيب البورفيسور مساءً اسأله رأيه في موضوع زواجه من مي .. وكنا نحن البنات الثلاث متحلقات حول بعضنا لنعرف النتيجة .. ففوجئت بطلبه غير المتوقع فقال لي : أريد أن نخرج معاً لأصطحبك معي في سيارتي وسأقول لك حينها عن رأيي فيها عندما نكون مع بعضنا وحيدين .. حينها أحسست بأنه أسقط على رأسي «دلولاً» به ماء مثلج فتجمدت مكاني وفقدت حواسي تماماً فأصبحت لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم وسكت لدقائق ثم رأيت روضة والجازي تشيران لي بالرفض .. طبعاً كنت سأرفض ، فلست بهذه السذاجة لأخاطر بنفسي .. رغم أنني كنت مستعدة لفعل أي شيء من أجل أن أفرحها ولكن والدي حملني أمانته .. فلن أغامر بوالدي من أجل عينيها وهل ستحفظ لي المعروف حيث كنت سأغامر بحياتي من أجلها ، فأنا لست بمجنونة أو غبية إلى هذا الحد .. فعندي خطوطي الحمراء التي أقف عندها ولا أتجاوزها أبداً مهما كانت الأسباب التي تدعوني للتضحية ، لأنه بعدما تقع الفأس بالرأس لن ينفعني أحد وسأتحمل خطيئة تهوري

بنفسي .. فرفضت قطعاً دون جدال في ذلك وقلت له إن والدتي معي ونحن لا نفترق أبداً عن بعض وأنا لست من نوعية البنات إياها التي يظنها .. فوجدته تلعثم قائلاً لا تفهميني خطأ .. ما قصدته أن نجلس معاً في مكان هادئ بعيدين عن أجواء العيادة المزدحمة بالمرضى ونناقش موضوعنا عن صديقتك مي باتزان ،لأنني أحتاج لمعلومات عنها أكثر .. فقلت له بحزم : إذاً سيكون لقاؤنا في العيادة وأمام الملأ وعدا ذلك.. فأنا آسفة لا أود حتى أن أعرف رأيك ، ثم دعني أخبرك ، تستطيع أن تقول ردك لي عبر الهاتف دون أن أتكبد عناء المجيء للعيادة .. فوجدت البروفيسور المحترم يتعذر لي بأعذاراً لم أفهمها ولا أساس لها .. فأنهيت المكالمة قائلة : انتظرني يوم غد في العيادة حيث سألقاك هناك مع صديقتي وأقول في نفسي وحارسي الشخصي الجازي..

في صباح اليوم التالي وكالعادة اتصلت بزاهر سائق التاكسي .. ليوصلنا إلى العيادة التي أخذنا إليها مؤخراً .. وفي الطريق سألنا سائق التاكسي زاهر .. مبتدئتين كلامنا بأستاذ .. فالبرنسيسة روضة منحته لقب الاستاذية الفخرية كلما نادته فأجبرنا بدورنا أن نناديه بها مثلها حتى لا نشذ عن قاعدتها .. فكان المسكين ينكشح فرحاً فخوراً بنفسه ويفرد صدره ليجاوبنا : تفضلوا خير يا صبايا .. فسألناه عن حركة غريبة نراها تحدث في كل ليلة في الشارع الذي يقع فيه فندقنا وخاصةً العمارة السكنية المقابلة

للفندق الذي نقيم فيه والعجائب التي نراها كل ليلة .. فأبتسم وبدا واضحاً عليه معرفته التامة بالمنطقة فقال : هذا شيء عادي.. أنتم تسكنون في منطقة مليئة بالمراقص الليلية وشباب الخليج يأتونها في كل نهاية أسبوع ليخرجوا من مرقص ويدخلوا آخرغيره بحثاً عن اللهو والمتعة والفندق الذي تسكنونه هو الوحيد العائلي في المنطقة ولا يسمح لغير العوائل بالسكن فيه .. والعمارة المواجهة لفندقكم ..هي شقق تسكنها مجموعة من الممرضات من جنسيات شرق آسيوية .. هن في الصباح ممرضات محترمات ولكن في الليل يتحولن لشيء آخر.. وهذا ما كنا نراه ونتعجب له.. وقال : في إحدى المرات صادق هندي فتاة ليل صينية وعندما ذهب معها لبيتها .. ذبحوه هي ورفيقاتها وطبخوه حساء فاصولياء وحاول زاهر كتم ضحكته ، بينما كنا نصغي لما يقول ثم أكمل قائلاً وبعد فترة من بحث أصدقائه عنه وجدوا بقايا الرجل في ثلاجة الصينيات .. سكتنا ولم ننطق بحرف أو تعليق فالصدمة كانت قوية بعض الشيء علينا ..

إلى أن وصلنا ودخلنا العيادة أنا والجازي .. وقلنا لموظف الاستقبال : نود مقابلة البروفيسور كما يدعوه.. وانتظرنا قليلاً .. حتى دخلنا معاً .. وأدخلنا الطبيب في مواضيع كثيرة لم تهمنا وسألني أكثر عن خطيبي المزعوم وأنا أتهرب منه بإجابات واهية ومبهمة .. ثم تدخلت لأسأله لم تقل لي يا دكتور عن مي هل أعجبتك ؟ .. دقائق صمت خيم على المكان .. ثم رد عليّ قائلاً :

بصراحة أنا أجد أن حياتي مع صديقتي الفرنسية أفضل بكثير من الزواج والارتباط بواحدة عربية توجع رأسي بغيرتها الشديدة وطلباتها الكثيرة .. ثم مي عندما رأيتها وجدتها جامدة بلا روح.. لم أشعر بأن قلبي دق لها .. لأجد الجازي تبدأ تعليقاتها مجدداً بقولها : هذه الجثة الضخمة ولك قلب يدق أيها العجوز المصاب بالخرف والزهايمر .. شعرت حينها بحزن كبير .. فقد كنت أود أن آتيها بخبر تطير معه فرحاً والآن كيف سأخبرها بالذي حدث .. لا أستطيع كسر قلبها بوصفها عديمة الروح كما قال عنها البروفيسور أو أفهمها بأنها لم تعد مرغوبة مثل صباها.. أصعب إحساس على الأنثى هو أن يرفض الرجل قلبها بل وأن يكسره لها .. شعرت حينها بأنني بحاجة للبكاء بصوت عال لأغطي على صوت الكسر الذي بقلبي .. والذي بشظاياه جرحني أنا لا هي .. أحسست بهمها يطوقني أنا فأنا امرأة مثلها.. لا أعرف كيف سأرجع وأقابلها وأنا أعرف لهفتها لمعرفة ما دار بيننا من حوار حول مستقبلها معه .. خرجنا من العيادة بوجوه ثانية ليست بالوجوه التي دخلت للتو مستبشرة ومتفائلة وركبنا مترو دبي والصمت يقتلنا طوال الوقت وكنت أنظر من خلال النافذة في حيرة وأسى .. فأنا لا أرى المباني التي على جانب الطريق .. أنا أرى وجه مي ماثلاً أمامي تنظر لي بعيون بها سؤال واحد وهو.. ما الخبر ؟ لماذا رفضني هذا الرجل؟؟

ثم تذكرت أنها منذ مدة كانت تبحث عن عطر تعشقه ولم

تجده في الدوحة.. وهو متوافر في دبي ولكن ثمنه غالٍ بعض الشيء.. ولكن قلت في نفسي ربما بهذا العطر أنسيها ما كانت تحلم به .. فقلت للجازي : إنني أريد الذهاب لبرجمان مول ، حيث هناك سأجد العطر وقلت لها اسمه .. فقالت لي هل جننتِ هذا العطر غالي الثمن .. فقلت لها أريد أن أفرح به مي .. إذا لم أستطع أن أجلب لها عريساً .. فعلى الأقل أكون قد جلبت لها شيئاً تحبه وتعشقه وهذا العطر هو ما تتمناه ..

حضنتني وأنا أرى لمعة بعينيها وكأنهما تدمعان ، قائلة لي: حبيبتي «ماثر تيريزا» في كل مرة تفاجئينني بقلبكِ الكبير.. وتزيديني افتناناً بشخصيتك وعندما رأتني اشتريت الزجاجة الكبيرة والأغلى ثمناً لها .. ولم أشتر لنفسى شيئاً.. فقالت وأنتِ أين عطرك.. لماذا لم تشتر لك واحدةً مثلها ولماذا أخذت الأكبر حجماً لها .. فقلت للجازي لقد اشتريت واحدة خصيصاً لها لأنني أريدها أن تتميز به دوني .. وأخذت لها الأكبر حجماً .. لأنني أحبها بشكل كبير ..

ثم أخذت على الجازي عهداً وميثاقاً على أن ما حدث ودار في عيادة ذلك الدكتور هو سرنا الأبدي وعليها أن تحتفظ به مدى الحياة ولا تخبر مي بالحقيقة وما حدث لي .. فلا أريدها تتألم أبداً.. وقلت لها : سنختلق سيناريو آخر .. حتى تكرهه .. ولا تنجرح بحقيقة رفضه لها .. فقالت لي : كيف ؟ قلت : نقول لها إن الدكتور مروان لا يستحقها ، فقد اكتشفنا أنه زير نساء وأننا

رأينا ذلك عندما دخلت فتاتان عربيتان عنده في غرفة الكشف وكانت شكلهما مريباً ونحن بدورنا سألنا ممرضته التي تعمل عنده في العيادة فقالت إن لديه صداقات نسائية كثيرة وأغلبهن يأتين عنده بالعيادة .. وأعتقد أن مي لن ترضى بعلاقات زوجها النسوية .. وأننا نحن الذين غيرنا رأينا في موضوع الخطبة .. وليس هو .. وبذلك تكرهه وتنساه ونتخلص من هذه المشكلة التي وضعنا فيها رغماً عنا وليسامحنا ربنا على هذه الكذبة التي الغرض منها جبر النفوس وعدم إيلامها ليس إلا .. فقالت الجازي : من أجلك سأفعل أي شيء تأمريني به .. والحمد لله عندما رجعت نفذت الخطة ونجحت في إقناعها وصدقت مي المسكينة .. غير أنه كان لديها إحساس يخبرها بأن هناك سراً ما أخفيه في صدري .. وهو المكان الدفين الذي لا تستطيع الوصول إليه أبداً ..

ومضت السنون وإلى الآن وسر مي يسكن في صدري .. ولكن بدأت بتذكر كلمات روضة أخت الجازي التي أصبحت ترن في أذني كأنها قالتها لي بالأمس .. لتذكرني بشيء تجاهلته حينها وهو «أن من يفعل الخير قد يلقى الشر أيضاً ».. فبعد هذه العشرة تغيرت مي كثيراً معي ، فبمجرد أن تغير مكان مكتبها .. وتم نقلها إلى طابق آخر وأصبحت لقاءاتنا معدودة ولم نعد كأختين كما في السابق .. وبدأت غيرتها تتزايد وبدأ يسقط القناع شيئاً فشيئاً وأصبحت ترميني بكلمات جارحة كانت

تؤلمني بها وتبكيني أحياناً.. وكنت ألحظ استمتاعها ولذتها لرؤية دموعي تذرف أمامها .. لم أدرك أنانيتها إلا متأخراً.. لم أعرف أنها كانت تخفي شخصية أخرى في داخلها غير التي عرفتها من قبل .. ولكن كُشفت لي هذه الشخصية بعد فوات الأوان .. بعد أن أضعت أحلى أيام عمري معها .. يا ترى هل كانت مي أخرى معي طوال تلك السنين أم أنها هي نفسها وإنما كنت أنا أرى ما أحب فيها فقط وأتجاهل قبائح تصرفاتها وصفاتها..

وبعد ذلك جمعتني زيارات عدة إلى دبي مع الجازي .. وعندما نمر مصادفةً في الشارع الذي فيه العيادة وبمجرد أن تقع عينها على مبنى تلك العيادة وخاصة أن مكانه يطل على الشارع العام .. فتنظر إليّ قائلة : تذكرين هذا المكان المشؤوم .. ومالذي فعلناه فيه وتكبدنا العناء والتعب تحت أشعة الشمس الحارقة نخاطرين بسمعتنا وسمعة أهلنا من أجل إنسانة .. لم تُثمن العمل الذي قمنا به من أجلها لم تعرف قيمة الجوهرة التي كانت معها .. ثم تقرصني كالعادة إحدى قرصاتها الموجعة .. لتقول : بصراحة بتصرفاتك وتضحياتك معها .. كنتِ تجعليني أغير منها كثيراً.. والحمدلله بانت حقيقتها لك أخيراً .. يا عزيزتي.. هي مثل القمر جميل جداً في بعده ولكن ما أن تقترب منه ترى قبح الفوهات المنتشرة على سطحه.. فلتكن بعيدة عنك دائماً لتحتفظ بجمالها ، أما أنتِ يا غاليتي فشمس تدخلين كل

القلوب بنورك لتنشري فيها السعادة .. فهناك من القلوب من يحجب نورك عنه بستار الغفلة عما سيجدونه معك من فرح ويخسرونك للأبد غير مدركين أنك تشرقين في حياتهم مرة واحدة .. وتغيبين عنهم لتشرقي في سماء أناس آخرين.. ثم ترحلين تاركة من استفاد بنورك كسب ومن خسرك .. خسر لقاءك للأبد .. وبعد هذا النثر الجميل الذي قالته فيّ أرد عليها باستهزاءلأقول: والله الأخت الجازي أصبحت فيلسوفة من بعد معاناة مي .. حبيبتي عليكِ بأكل الموز والأكثار منه لأنه يقال عنه إنه أكل الفلاسفة .. فتصيح بي قائلة : ليش شايفة « سبالة » أمامك.. والسبالة باللهجة القطرية تعني القردة .. قلت لها حشاكِ والله مع أن القرد كائن لطيف .. ولكن أنتِ سقراطنا القادم بقوة .. تفلسفي يا حبيبتي تفلسفي .. درر مكنونه تخرج من تحت طيات لسانك العذب ..

هذا حالي دائماً مع توأمي ونصفي الآخر الشقي الجازي .. اصطحبها معي في كل مغامراتي لأن لها نظرة خاصة في الناس تكشف خباياهم لي ..



حكاية الزهرة السابعة

قبل سفري إلى ورشة عمل أخرى في إمارة أبوظبي في شهر يونيو من عام ٢٠٠٨ .. مررت بظروف صعبة جداً في الدوحة .. فقد كان وقتها والدي مريضاً جداً ويتلقى العلاج في تايلاند بعد أن تم بتر رجله هناك جراء الجرح الذي لم يلتئم لخمس سنوات ودمرت كل الأنسجة التي في رجله ولم يعد بالإمكان الانتفاع بها.. تأثرت لهذا الخبر كثيراً ، فقد كنت أقوم بعمل ضمادات لجرحه كل ليلة قبل أن أنام وأعتني برجله جيداً من أجل ألا تبتر ولكن الطبيب فضل وأشار بضرورة فعل ذلك للحفاظ على حياة والدي .. كان وقع الخبر مؤلماً عليّ وعلى والدي الذي رفض ذلك القرار ثم رضخ له دون مقاومة .. ثم سافر كل من في البيت لمؤازرته .. وبقيت وحيدة في البيت الكبير الذي كان يبدو في الليل كالمقبرة في صمته.. وما حل بوالدي كان يؤجج إحساسي بالوحدة في الدنيا دونه .. فكنت في كل ليلة أدفن رأسي في المخدة لأبكي وجعي وتألمي للحالة التي وصل إليها والدي الذي زاد شعوري بافتقاده أكثر عندما تعرضت لحادث وأصبحت سيارتي تحتاج لتصليح ، فلم أكن أعرف كيف أتصرف

وماذا أفعل في تلك الظروف .. فهو الذي كان يرشدني في تلك الحالات ولا يتركني وحيدة أصارعها .. والآن أنا تائهة في هذا العالم الكبير دون رفيق دربي ومعلمي الأول .. فما مررت به كان صعباً جداً.. وجاءت سفرة ورشة العمل هذه مفاجئة لي ، فلم أتوقع أن تخرجني من حالة الحزن التي كنت أعايشها في تلك الأيام.. لأقضي سبعة أيام من عمري في إمارة لا أعرف فيها أحداً .. فأبوظبي لم يكن لي فيها لا خالة ولا عمة .. فلا أعرف فيها أحداً.. وبحكم أن الجميع مشغولون بأمر والدي وموجودون معه ، فأنا مضطرة للذهاب وحيدة .. فوصت إحدى زميلاتي قريبة لها هناك أن تزورني وتطمئن عليّ عندما أصل إلى هناك ، حيث سأقيم في فندق (روتانا بيش) المطل على البحر والملاصق لمول أبوظبي التجاري .. فاكتشفت فيما بعد أن موقع الفندق استراتيجي وحيوي ولاداعي للتنزه خارجه ..

في أول يوم وصلت فيه المطار.. كنت أشعر بخوف مما سأواجهه في هذا المكان الغريب عليّ ، فأنا لا أعرف أحداً هنا وهذه المرة الأولى التي أسافر فيها وحدي ولبلد لم أتجرأ أن أزوره وحدي .. كانت صالة المطار بشكلها القديم بدا لي مطار الدوحة في حقبة الثمانينيات من القرن الماضي عندما كنت طفلة بريئة لا أعي ماذا نعني بالمطار والسفر ، والآن أنا بنفس البراءة وأنا شابة في هذا العمر .. وعندما خرجت من مبنى المطار أبحث عن تاكسي يأخذني للفندق .. استغربت المكان في الخارج ، فقد

كان مبنى المطار بعيداً تماماً عن المدينة وصخبها .. وكأنها واحة منفردة في قلب صحراء شاسعة .. على عكس مطار الدوحة والذي يشعر الناس بأن الطائرة ستحط بعجلاتها على الشارع العام المؤدي لمدينة الوكرة جنوب الدوحة وليس المدرج الخاص بالمطار .. فمكان المطار كان أول مفاجأة لي .. ثم بعدها استقللت تاكسي وأعطيت السائق العنوان لينطلق بي نحو الفندق ..

عندما وصلنا الفندق كان فخماً ورائعاً جداً.. كانت ألحان آلة الفلوت الحزينة تقاطعني وتشدني إليها في كل مرة لا أتوقف في كل حين والتفت للعازفة ثم أرجع وأستكمل استفساراتي مع موظف الاستقبال الذي كان اسمه ديوان .. والذي أصبح خير معين لي هناك في غربتي فقد اختار لي أفضل غرفة ، ذات مواصفات خاصة لم تكن مذكورة في شروط الحجز .. كان يلبي طلباتي على وجه السرعة وكأنني أميرة يجب إطاعتي في الحال ، فعندما كنت أطلب منه أن يقوم بالحجز لي في مطعم معين رغم عدم وجود شاغر كان يستطيع تدبير الأمر ذلك ليأتيني بالحجز وفي أحسن زاوية كان أحياناً يخترق القوانين ليأتي بأفضلها لي .. وأذكر في أحد الأيام بينما كنت أجلس في الردهة العلوية والموجودة في الطابق الثاني ، حيث لا أحد يكون فيها أولا يعلم بها كثير من نزلاء الفندق ولا يعرفون كيفية الوصول إليها ، فقد كانت كشرفة تطل على العازفتين اللتين تأخذاننا بمعزوفاتهما

لأجواء أخرى حيث الرقي والسمو .. ولم يكن ينتبه أحد لجلوسي هناك منتشية بما أسمعه من عزف وأعيش لحظاتي في عالمي الخاص غير شخص واحد وهو ديوان موظف الاستقبال الذي كان يراني مستمتعة جداً بالموسيقى التي تعزف في الطابق الأرضي وأنا أراقب تحركات الناس من دون أن يشعروا لينظروا للأعلى ويروا عيني اللتين كانتا تترصدانهم .. وفجأة فإذا بالعازفتين ترفعان رأسيهما للأعلى تحييانني بالتلويح وتبتسمان لي كي تبدآ بمعزوفة عيد الميلاد ثم تهديانها لي .. فوقفت مشدوهة وأنظر إليهما بغرابة ، فقد كان ذلك اليوم هو بالفعل يوم ميلادي.. ولكن لم يكن يعرف به أحد.. ولكن بالنسبة لي كانت مفاجأة سارة وغير متوقعة .. فأشرت لهما بالتصفيق شاكرة على العزف الجميل لتلك المقطوعة الموسيقية .. ثم استفهمت منهما بالاشارة كيفية معرفتهما بالأمر .. فأشارتا على الفور باتجاه طاولة الاستقبال .. حيث يقف ديوان .. الذي لوح لي مبتسماً من مكانه فنزلت عنده لأسأله عن كيفية علمه بأن اليوم هوعيد ميلادي؟ فرد عليّ قائلاً : لقد لاحظت ذلك عندما كنت أقيد بياناتك في النظام الآلي الخاص بالفندق، ولأننا لاحظنا جلوسك الدائم في زاوية من زوايا الردهة العلوية تستمعين للعزف الذي تقوم به هاتان العازفتان ،أردنا كموظفين في الفندق مفاجأتك وإسعادك في نفس الوقت بتلك المقطوعة الموسيقية وهذا أقل ما نقدمه لك سيدتي الوحيدة ..

فقد كان يعرف الطقوس التي أقوم بها في كل يوم ، ففي الصباح أتوجه لفندق (شيراتون الخالدية) .. لحضور ورشة العمل المكلفة بها من جهة عملي، فيقوم ديوان بحجز أحد أفخم السيارات الخاصة بالفندق لتأخذني إلى ذلك المكان ، حيث تقام ورشة العمل يومياً ..

وبالنسبة لورشة العمل التي كنت أحضرها بشكل يومي كانت باللغة الإنجليزية مثلها مثل باقي الورشات العالمية على الرغم من أن الاستاذ المحاضر فادي عمران كان عربياً فلسطيني الجنسية ، فقد أخذني هذا الاستاذ من يدي ووضعني في قلب الإبداع وأراني الحياة من الجانب الآخر الذي كنت غافلة عنه ، فقد كانت معرفتي به هوأجمل هدية تلقيتها في أبوظبي .. فقد علمني هذا الإنسان كيف أحيا من جديد بفكر وعقل منتجين ، أفيد الناس من حولي بالذي حباني الله به من موهبة وأرجع لي ثقتي بنفسي وبقدرتي على صنع المعجزات إذا آمنت بالله وبعونه لي في أصعب الظروف ، فأخبرنا بماذا نعنيه عندما نقول هذا الناجح كانت عنده رغبة مشتعلة.. فقد حكى لنا في أحد الأيام حكاية حكيم القرية والشيخ العجوز .. فقد كان هناك رجل في إحدى القرى يدعي الحكمة والعلم بكل الأمور، إلا أنه دائم التكاسل في الحصول على المعرفة، وذات يوم أخبره أهالي القرية التي يسكنها بأنه بالفعل حكيم القرية ولكن تنقصه معرفة شيء واحد وبعدها سيكتمل علمه و يكون جديراً بأن يلقب بحكيم القرية..

فسأله أحدهم إذا ما كان يعرف ماهي الرغبة المشتعلة التي تعرفها النخبة من الناس .. ففوجئ الحكيم بالسؤال ولم يعرف الإجابة فأشارعليه أن يصعد الجبل الشاهق ذاك ليصل إلى قمته ويلتقي بالشيخ الكبير الذي عنده مفتاح الإجابة ، فهو الوحيد القادر على حل لغز الرغبة المشتعلة .. فحاول الرجل الحكيم أن يتجنب عناء الصعود لقمة الجبل والتوصل إلى إجابة السؤال دون تعب ولكن باءت محاولاته كلها بالفشل ، فقال في نفسه لابد من المخاطرة وصعود الجبل الوعر حتى يصل إلى الشيخ الكبير.. والحمدلله وجده في القمة ، حيث يسكن هناك فوجه له سؤاله .. فتعلل الشيخ بعدم مقدرته على الاجابه في ذلك الوقت وعليه المجيء يوم غد ليستطيع إعطاءه الاجابه الشافية والوافية .. حزن الحكيم لعدم حصوله على الأجابه بالرغم من التعب الشديد الذي لاقاه ليصل للشيخ ثم استبسل واعداً نفسه بإنهاء معاناته في الغد .. وعلى غير المتوقع تعذرالشيخ بانشغاله الشديد في يومها وطلب منه العودة في يوم آخر ليكون ذهنه أكثر صفاءً ومن ثم سيجيبه على سؤاله .. كان الحكيم يتكبد مشقة الصعود للجبل في كل يوم وما أن يصل إلى القمة حتى يجد بانتظاره أعذاراً واهية من الشيخ الكبير وبقي على ذلك المنوال لمدة ولم يتوصل بعد إلى سر الرغبة المشتعلة .. وفي أحد الأيام قرر الخلاص من هذا العذاب اليومي .. فما أن وصل إلى الشيخ الكبير حتى تساءل عن سر مماطلته في الإجابة على سؤاله ..فأجابه الشيخ بأنه لم يماطله بالعكس سيبرهن له صدق كلامه ، وطلب الشيخ من الحكيم أن

يذهبا معاً للبحر وسيحصل على الإجابة هناك .. وما أن وصلا حتى مشيا في البحر إلى أن بلغا مسافة كانت المياه عميقة فيها نوعاً ما .. وهناك قام الشيخ الكبير بتغطيس رأس الحكيم في الماء بقوة محكماً عليه بيديه الاثنتين .. فاستطاع الحكيم إخراج رأسه بقوته مفضلاً النجاة والبقاء على قيد الحياة .. ثم صاح غاضباً في الشيخ يلومه على فعلته تلك .. ولماذا فعل هذا به وهو لم يطلب إلا الإجابة عن سؤال بسيط ولم يقم بأذيته قط فلماذا أراد أن يغرقه.. فأجابه الشيخ أن تلك هي إجابته فاستغرب الحكيم من فعلته فرد عليه كدت أن تقتلني وتقول لي إن هذه هي الإجابة .. فأجابه الشيخ الكبير بأن تصرفه ذلك هو الرغبة المشتعلة .. رغبته في الحياة أعطته القوة ليقاوم الضغط الواقع عليه وخلق قوة أقوى وأشد ليخرج من المحنة الذي هو فيها وأيضاً لو لم تكن لديه رغبة مشتعلة لما كان كل يوم يتكبد عناء الصعود والنزول على الطريق الجبلي الوعر ليحصل على الإجابة .. فتلك هي الرغبة المشتعلة.. أن نقاوم الظروف المؤلمة التي نمر بها ونبدع ، أن نكون مثل الزهرة الجبلية التي تخرج من بين الصخور لتثبت وجودها على قمة الجبل .. بسرده الاستاذ علينا هذه الحكاية أيقظ فيّ مارد الكتابة وخلق عندي الرغبة للعودة والإمساك باليراع من جديد ونفض الغبار عن ذاكرتي وترك قلمي للبوح بالأسرار .. لقد طلب مني الاستاذ فادي عمران عدم الخروج من الدنيا دون ترك إرث وأفضل إرث هو شيء ينتفع به الناس من بعد الفناء أو ما يدل على وجودي في هذه الحياة لأياماً.. فطلب مني أن أبدع وأفيد الناس

وأمتعهم في ما سأترك .. مهما كانت الظروف والمصاعب التي سوف أمر بها فعليّ محاربتها وإثبات فوزي وتفوقي عليها .. وحكى لي قصة الشاعر محمد مهدي الجواهري .. الذي غادر موطنه ليعيش غريباً في دول عدة وكان يتحرق لإنجاز أحد أحلامه في موطنه .. فكتب قصيدته المُحرقَة التي وصف فيها خشيته من الرحيل من هذه الدنيا دون أن يترك بصمة وجوده يوماً فيها ودون أن ينهل من علمه أحد من الناس.. فقرأ عليّ مقطعاً من قصيدته التي تقول :

أَحاوِلُ خرقا في الحياةِ فما أجرا
وآسَفُ أن أمضي ولم أُبقِ لي ذكرا
ويُؤلمني فرطُ افتكاري بأنّني
سأذهبُ لا نفعا جلبتُ ولا ضُرّا
مضتْ حِججٌ عَشْرٌ ونفسي كأنها
من الغيظ سيلٌ سُدَّ في وجهه المجرى
خيَرْتُ بها ما لو تخلّدتُ بعدَه
لمَا ازدَدْتُ عِلما بالحياةِ ولا خُبرا

تلك القصيدة زلزلت كياني وجعلتني أعيد التفكير فيما سأفعله في حياتي القادمة بعد عودتي إلى دياري .. ومن العادات الجميلة التي زرعها فيّ الاستاذ .. القراءة ثم القراءة ثم القراءة .. وقال لي مثلما المعدة تحتاج للغذاء العقل يحتاج للكتاب وإلا سيموت

العقل ويكون كالجماد لا حياة فيه .. وهو بدوره لم يترك القراءة ولا يوماً.. حتى في يوم زفافه أستأذن عروسه للقراءة ..

فوضع الاستاذ في يدي جواهر ثمينة تفيدني لبقية حياتي الآتية..

وفي أحد الأيام أخبرت الاستاذ بأنني في كل يوم بعد الورشة أذهب واستكشف أبوظبي ، وبالأمس قمت بزيارة مسجد الشيخ زايد .. ثم سألته .. ترى كيف كانت الحياة في أيامه .. رأيته صمت لثوان ثم فجأة وكأنه لم يتخيل أن أسأله هذا السؤال ، فقال لي بعين دامعة .. أتعرفين بالأمس تذكرته كثيراَ وتمنيت لو أنه بيننا إلى الآن.. ثم أكمل .. ففي البارحة مرض ابني الرضيع وكانت حرارته مميتة ويحتاج للعلاج على الفور حتى يبقى حياً .. ركضت به إلى المستشفى الحكومي مثل كل المرضى .. لأفاجأ بالطبيب الذي كان عربياً مثلي يرفض علاجه لأن هذا المستشفى للمواطنين فقط.. وعليّ أن آخذ ابني للمستشفى الخاص بالوافدين وهو في منطقة بعيدة على أطراف الإمارة .. فصحت في وجه الطبيب وأنا أقول له ولكن ابني سيموت ما أن أصل إلى هناك ورجوته حتى يقوم بتقديم العلاج له وسآخذه بعد أن تتحسن حالته لذلك المستشفى الذي أخبرني به عندما يتماثل ابني للشفاء .. فلم يحرك الطبيب ساكناً قائلاً : تلك هي القوانين ولا استطيع خرقها .. فوجدت الممرضة الإيرانية ترثى لحالة طفلي وتقدم له العلاج اللازم .. فقلت للطبيب لو كان الأمر في

زمن الشيخ زايد لتبدل الحال كثيراً.. فالشيخ زايد لم يفرق يوماً بين مواطن ووافد .. وخاصة في الأمور الإنسانية .. فرحمة الله عليك أيها الشيخ الرجل بمعنى الكلمة فقد كنت نادراً في الوجود..

فعلاً هذا ما أحسست به في كل مكان في أبوظبي .. وأنا في سيارة الفندق فما من شيء أسأله السائق إلا ويقول الشيخ زايد أمر ببنائه وخاصةً عندما سألته عن المساحات الكبيرة الخضراء المزروعة بأشجار النخيل وأشجاراللوز المورقة وأشجارالليمون الهندي الأخضر لتكون إجابته «الشيخ زايد أمر بزراعتها» .. كنت أرى بصمات هذا الرجل في كل مكان وفي كل بقعة وكأنه لا يزال حياً.. ونحن في الطريق أشار لي على بيوت تبدو كالقصور في بنائها.. فقال هل تعلمين أن تلك البيوت يملكها مواطنون عاديون.. قلت يستحيل .. قال سأخبرك بسخاء هذا الرجل وكرمه .. كان الشيخ دائماً يتصدر مجلسه بين شعبه يستمع لهم ولمطالبهم وفي إحدى المرات طلب منه أحد المواطنين أن يساعده في دفع تكاليف إيجار السكن الذي يقيم فيه .. فأستعجب الشيخ طلبه .. متسائلاً أنت مواطن وهذه أرضك وتسكن فيها بالإيجار .. كيف يحدث هذا ؟؟ إذاً أين حق المواطنة والوطن عليك .. ثم أمر بمنح جميع المواطنين بيوتاً ملكاً لهم .. دون أخذ درهم واحد منهم .. أرأيتِ عظمة قلبه وعطائه .. حتى نحن الوافدين كنا نعيش مع أسرنا من خيره ولم

نشعر أننا غرباء يوماً .. وكنت في كل مكان أسمع الكثيرين يترحمون على الشيخ زايد ويذكرون تفانيه في العطاء .. فرحمة الله عليك أيها الشيخ .. فإحساس الناس بك جعلني أراك حياً تمشي بينهم ..

آه عليّ أن أخبركم بموقفين حدثا لي هناك، الأول مرعب والثاني مضحك .. الأول .. عند انتهائي من ورشة العمل كنت أطلب من العاملين في فندق شيراتون الخالدية إيجاد تاكسي ليوصلني حيث أقيم في فندق (روتانا بيش) وفي كل مرة كانت الأمور سليمة إلا تلك المرة .. حيث استوقف لي العامل إحدى سيارات التاكسي في الشارع .. اضطررت إلى الركوب وكان السائق باكستانياً حينها وكنت ألاحظه في كل مرة ينظر لي نظرات غريبة من مرآته العاكسة.. ثم بدأ يسألني أنتِ من دبي .. لم أجبه .. رجع وسألني مرة أخرى .. فقلت نعم .. فأخذ يبتسم ويتكلم بأشياء لم أفهمها ولم أعرها اهتماماً .. فقد كنت منشغلة بالطريق لأعرف أي طريق يسلكه، هل هو نفسه الذي آتي منه كل صباح؟ .. أم سيأخذني لمكان آخر .. واكتشفت أنه طول المسافة .. حينها خفت كثيراً .. وصحت فيه أنا أهلي يعيشون هنا وأعرف الطريق جيداً فلماذا أبعدته .. فوجئ بمعرفتي للطريق.. وأكمل سيره في الطريق دون كلمة ..إلى أن وصلت الفندق .. وخرجت من السيارة جرياً وأنا أرجف خوفاً .. ووجدت ديوان موظف الاستقبال واقفاً في الردهة، فقصصت له

ما حدث لي بالضبط .. فطلب مني أن اتصل عند انتهائي من ورشة العمل في ذلك الفندق وسيرسل لي سيارة الفندق من عنده متى أردت .. وفي اليوم التالي أخبرت إحدى البنات التي كانت معي في الورشة فخافت عليّ وقامت بإيصالي بسيارتها للفندق .. فالحمد لله مر الموضوع بأمان وسلام .. الموقف الثاني.. إنني كنت أحب الجلوس على الكراسي المحاذية للشاطئ وبرك السباحة الموجودة في الفندق الذي أقيم فيه في بعض الأوقات وفي إحدى المرات جلست على الكراسي البلاستيكية البيضاء الموجودة على الشاطئ بعدما أشار النادل بامكانية الجلوس هنا.. وبينما أنا في غمرة الاستمتاع بمنظر البحر أرى أحد الأشخاص السباحين في البحر يخرج رأسه من المياه لدقائق فيراقب حركاتي ثم يعاود السباحة وهكذا كل دقيقة أو دقيقتين وظل على هذا الحال لمدة طويلة ينظر إليّ ويتابعني وهو في عرض البحر .. أزعجني بتصرفاته تلك .. فقمت من مكاني وجلست على أحد الكراسي التي تتوسط عائلة وأطفالها .. ثم فوجئت به يخرج من الماء .. متجهاً صوب المكان والكرسي الذي كنت جالسة عليه ثم بدأ ينظر إليّ شزراً.. استغربت فعلته .. ثم عرفت سبب النظرات والمراقبة فأطرقت برأسي نحو الأرض أضحك على نفسي .. فقد كنت جالسة على منشفته التي كانت بلون أسفنجة المقعد .. إضافة إلى ذلك وجود هاتفه المحمول وأغراضه الشخصية على الطاولة التي كانت أمامي ولم ألحظ وجودها عندما كنت منغمسة بالنظر إليه في البحر .. ثم رأيته

يطيل النظر إليّ متجهاً بجسمه كله نحويّ يريد مني أن أرفع عيني لأنظر إليه ليبدأ بسؤالي .. فما كان مني إلا أن سحبت نفسي من وسط تلك العائلة أتوجه على الفور نحو داخل الفندق إلى المصعد ثم غرفتي بكل تأكيد وكنت أضحك على نفسي والذي فعلته بالمسكين الذي لم يهنأ بالسباحة في البحر طوال وجودي على الشاطئ جالسةً على كرسيه بينما كنت أظن أنه يحاول مغازلتي والتحرش بي وهو في داخل البحر ، بينما كان طوال الوقت يظن أنني سأسرق أشياءه الشخصية التي وضعها على الطاولة .. ولسوء الفهم هذه تقع الملامة كلها على النادل الذي دلني على هذا الكرسي ظناً منه أنني زوجة الشاب الذي لم يهنأ له بال وهو بيد الأمواج تتهاداه ولكن فكره كله منشغل معي وماذا أفعل على كرسيه مستندة بظهري لمنشفته الزرقاء المعلقة خلفي..

حينما كان يحل المساء في أبوظبي كانت مشكلتي معه تبدأ بالظهور، فقد كنت أفكر أين سأتناول العشاء من دون أن ينتبه الناس لوحدتي في المكان .. فقد كانوا ينظرون إليّ بتعجب واستغراب لوجودي وحيدة بين الجموع في كل مطعم فخم اذهب إليه .. فقد كان الفندق يحتوي على أفخم المطاعم العالمية وما عليّ إلا أن اختار .. أي نوع طعام سأتناوله الليلة ومن أي دولة، فقد كان هناك المطعم الأيرلندي والأمريكي والهندي والإيطالي والياباني، وأيضاً كان هناك مطعم مبني في وسط البحر، ترى الأسماك تحتك تسبح بانسياب في حوض كبير على

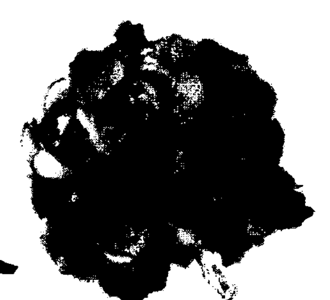
الأرضية وكان هذا المطعم مختصاً بتقديم الأكلات البحرية فقط.. وكان على ديوان موظف الاستقبال الموكل بالاهتمام بي إيجاد حجز لي في تلك المطاعم ،لأنها في الغالب محجوزة بالكامل ولا توجد فيها طاولات شاغرة.. فكان يحاول كثيراً حتى يحصل لي على طاولة في تلك المطاعم .. وفي إحدى المرات قلت له إنني لا أريد أن أتناول العشاء وحيدة .. وسمعت أن المطعم الياباني يقدم الطعام لمجموعة من الناس مع عرض خاص للطبخ أمامهم .. وأريد أن أكون ضمن أي مجموعة لا يهم، المهم ألا أكون وحدي .. ولسوء حظي كانت المجموعة التي سأشاركهما العرض كبار سن إيطاليين لا يعرفون كلمة أخرى غير لغتهم الإيطالية .. ولكن كنت سعيدة بوجودي في مجموعة من الناس .. وعندما قام الشيف بإعداد طبقي مؤدياً حركاته البهلوانية أمامي .. سألني مستغرباً : سيدتي الجميلة هل أنت وحيدة هنا .. جاوبته : كما ترى .. فقال : هل يعقل أنك بلا حبيب ولا رفيق هنا.. فابتسمت و أنا أشير لأعلى إن الله هو رفيقي وهو الذي يحبني ويحميني ولا حاجة لي سواه ..

ما أن أنهيت جملتي .. حتى دخل نموذجان مختلفان تماماً عن بعضها الأول زوجان من المواطنين يبدوان عروسين جديدين.. وكان ذلك واضحاً جداً من خجل الشابة والحناء المنقوش بكفيها.. وكانا يجلسان بالجهة المقابلة لي .. والنموذج الثاني كان لشاب وسيم وبنت مغربية بملابس

فاضحة.. وكانا يجلسان على مقربة مني .. وأحسست أن الشاب فوجئ بوجودي .. فقد ظن أنني مواطنة .. وتجمد في مكانه .. وكان يحاول الخروج من المأزق الذي وضعته فيه البنت المغربية.. بقوله وهو يقرأ القائمة إنه لا يفهم الأطباق التي سيطلبها وعليهم تبديل المطعم ولكن هي أصرت على اختيارها وهو قبل الأمر عن طواعية (اخص على الرجالة اللي تمشيها ستات زي الحمير) .. وجلوسي بالقرب منهما جعلني أسمع المحادثة كاملةَ .. ثم لاحظت نظرات الاشمئزاز واضحة على وجه العروسين اللذين يجلسان بالمقابل ، خاصةً عندما أحضر النادل للشاب والبنت المغربية زجاجة الشامبانيا .. وطلب منه النادل أن يتمنى أمنية واضعاً إصبعه عند قعر الزجاجة من الأسفل.. حتى يرج الزجاجة من بعد ذلك .. وكانت أعيننا ترصد وتتابع ما سيفعله هذا المعتوه .. فاستحى من فعل ذلك وطلب من النادل فقط أن يفتح الزجاجة دون رجها .. بينما البنت المغربية لم يعجبها ردة فعله لأنها كانت تود أن تجعل منه متحضراً بشرب الكأس معها وكأنه في أوروبا لا يهمه أحد ، ولكن بدا متخبطاً من فعلته تلك .. ورأيت الانزعاج بادياً على الزوج الجديد وهو يرى مدى تعجب العروس التي خُدش حياؤها من جراء تلك الأفعال الصادرة عن تلك الحثالة .. ثم كانت العروس تنظر لي باستفهام ما يجري هنا ؟ وابتسمت في وجهها قائلة أنا في حالة الصدمة مثلها .. ثم أنا لست مواطنة .. أنا غريبة عن البلد .. فردت انفضحنا أمام العالم .. فقلت لها وكنت أريد

أن يسمعني الشاب بدلاً من إنزال عينيه نحو الأرض خجلاً مما هو فيه ، بينما كل حواسه كانت مركزة عليّ وتراقبني .. قلت لها : إن الله يستر ولكن نحن نفضح أنفسنا بين الخلق بقبيح أفعالنا .. ثم هممت بالخروج فعشائي انتهى ولكن المشهد لم ينته .. وعند الباب التفت للخلف فرأيت الشاب ينظر لي بحياء شديد .. فقلت في نفسي ما الفائدة من أن تستحي مني أنا وما أنا إلا واحدة من البشر .. الأهم أن تستحي من ربك الذي وهبك عقلاً وأنت تذهبه بمعاقرتك للمنكر.. واضعاً يدك بيد جرثومة تمشي معك لتنشرا الفساد في الأرض معاً ..

بينما كان في ورشة العمل التي كنت أحضرها في كل يوم شابان من النماذج التي يفخر بها الفرد من حيث الأدب والأخلاق والجدية في العمل ، فقد كانا من خيرة من التقيت من الشباب في تلك الإمارة.. وهما عادل وسعود .. النموذج الطيب الذي مسح الصورة السيئة التي رسمت في ذهني تلك الليلة .. فقد كانا أهل غيرة وحمية .. ومن معدن أصيل .. فهما فعلاً عيال زايد .. كما كانوا يفضلون مناداتهم بها .. وتذكرت حينها جدتي عندما كانت تقول لي (في كل ديرة بتشوفين الزين من الناس والشين وكل ديرة ما تخلى من مقبرة) ..



حكاية الزهرة الثامنة

عندما رجعت من رحلتي في إمارة أبوظبي .. اتصلت بي صديقتي دانة .. مقترحة عليّ إعادة لقائنا معاً في تجربة سفرأخرى إلى بريطانيا ولكن هذه المرة إلى مدينة (برايتون) الساحلية .. استعجبت قائلة : كيف ؟ فمن الصعب جداً أن نذهب وحدنا دون مجموعة أولاً ، وثانياً رفض الأهل القاطع للسفر دون محرم .. فردت عليّ بأنها وجدت إعلاناً في الجريدة لإحدى المدارس الثانوية للطالبات .. ستقوم برحلة في الصيف إلى بريطانيا ولا مانع عندهم من أن نكون ضمن مجموعة طالبات المدرسة واقترحت عليّ أن ندرس في أحد المعاهد المختصة بشؤون الأعمال ليفيدنا بعد ذلك في إدارة عملنا بشكل أفضل .. فوافقت بعد أن وافق والدي بشرط أن نكون في مجموعة مع طالبات المدرسة ومعنا إداريات يشرفن علينا .. ودفعنا أنا ودانة مبلغاً باهظاً .. وأعطيتهم جوازي من أجل إجراءات التأشيرة .. بينما دانة أخبرتهم بأنها ستسافر إلى إحدى الدول وستعود قبل سفرنا بأيام وستقوم باستخراج التأشيرة بعدها .. واتصلت بنا بعد مدة موظفة من المدرسة تخبرنا بأنه لم يحصلوا على مقاعد لنا ..

فعلينا المجيء للمدرسة لاستلام جوازاتنا مع ما دفعناه لهم من مبلغ مبدين الأسف على ذلك .. وذهبت إليهم دانة وتسلمت منهم جوازها ومبلغها المالي ثم سافرت بعدها بمدة بسيطة .. بينما أنا تقاعست عن استلام الجواز والمبلغ في ذلك الحين وأجلته لبضعة أيام أخرى وذلك بسبب بعد المسافة .. فالمدرسة كانت تقع على أطراف مدينة الدوحة .. وفي أحد الأيام اتصلت بي نفس الموظفة تخبرني بأنهم استطاعوا الحصول على مقعد شاغر لي وأن عليّ اتمام إجراءات التأشيرة معهم في السفارة البريطانية.. كانت مفاجأة كبيرة لي ولم أكن أتوقعها وكان عليّ إخبار دانة بذلك لأنني وافقت على السفر بناءً على أنها سترافقني في الرحلة لنكون معاً ولن اذهب وحيدة دونها في تلك المجموعة ؟ فكنت حينها في ورطة ولا أعرف ماذا أفعل؟ فاتصلت بها لأجدها قد سافرت مع أهلها إلى سويسرا ولا تستطيع العودة لاستكمال إجراءات التأشيرة والسفر معي .. وكلما اقترب موعد السفر .. زادت مخاوفي .. فقد كان هدفي عندما قدمت أوراقي لتلك المدرسة السفر مع دانة حتى نعيد الذكريات التي قضيناها معاً في مدينة (نيوكاسل).. وقبل ليلة واحدة تفصلني عن موعد السفر .. جاءني اتصالها .. بأنها في الدوحة وأنها وجدت إحدى الهيئات ستقوم بزيارة لبريطانيا وستكون الدراسة في مدينة (اكسفورد) وليست مدينة (برايتون) التي تورطت بها في بداية سفري ثم عشقتها بعد أن رجعت منها وكانت رحلتها ستبدأ بعد عشرة أيام من سفري (لبرايتون).

وطلبت مني إلغاء كل شيء والسفر معها .. كان ذلك خبراً ساراً لي ولكن لم يكن بإمكاني إلغاء كل شيء هكذا ، فقلت لها : دانة إن طائرتي ستقلع يوم غد وإذا لم اذهب معهم يعني ذلك خسران كل شيء بما فيه المبلغ الباهظ الذي دفعته .. وليس بيدي حيلة إلا الذهاب مع مجموعة طالبات المدرسة ولقائها هناك ، وحزنا كثيراً لعدم توفيقنا لما كنا نطمح له ثم أعطيتها عنواني على أمل أن تزورني يوماً في مدينة برايتون ، حيث سأعيش فيها شهراً كاملاً دونها ..

في المطار تعرفت على المشرفات الإداريات وطالبات المدرسة الأربعين ..فالمكان كان أشبه بساحة مدرسة من شدة الاكتظاظ .. أدخلنا الحقائب بسلام .. وأخذنا أماكننا منتظرات النداء على الرحلة المتوجهة لمطار (جاتويك) .. كانت البنات في الطائرة يذكرنني بنفسي في أول رحلة لي لبريطانيا .. كانت مجموعة منهن تركب الطائرة للمرة الأولى في حياتها .. عدا الأخريات الجزعات لمفارقة أهاليهن للمرة الأولى فكن يبكين بحرقة للفراق .. غير ذلك أنموذج آخر من البنات جريء وخبير بكل خفايا الرحلة وكيف ستسير الأمور، فقد كانت لهن تجربة سابقة مع المدرسة ذاتها في العام الماضي .. كانت أعمار البنات تتراوح ما بين أربعة عشر عاماً إلى ستة عشرعاماً .. فكرة دانة واقتراحها للسفر مع طالبات المدرسة أدخلتني إلى عالم آخر لم أتخيل أنني سوف أرجع مراهقة من جديد بعد كل هذه السنوات ،

ففي البداية واجهت صعوبة في الالتزام والانضباط بالقوانين والنظم كطالبة في مدرسة ثانوية وكذلك أتعايش مع هذه العقليات من الجيل الحديث الذي لم أخالطه قط ولكنني بعد مدة توصلت إلى مكنون حبهن لي بسهولة بعدما أتخذنوني صديقتهن الجديدة .. فقد كنت أساعدهن في تفسيرالأشياء التي كانت تحدث لهن في البيئة المستجدة عليهن وفي بعض الاحيان كنت أخفف عنهن اشتياقهن لأمهاتهن وآبائهن.. فقد كانت البنات إيمان وغنيمة وسبيكة وبثينة والجوهرة ونور ونوف وأمينة ومريم وهنادي وأسماء أخرى كثيرة أحاول تذكرها من الجمع الكبيرالذي كن يجتمعن في غرفتي الصغيرة جداً ويتوافدن عليّ في شكل مجموعات .. فقد كنا نعيش في مدرسة داخلية مسورة بالكامل ..كان السكن هو عبارة عن قلعة من قلاع القرون الوسطى المبنية على سفح هضبة خضراء شاهقة تطل على البحر الكبير.. بسفنه الشراعية ذات الحجم الصغير والتي ما أن أراها من نافذة الغرفة وهي تبحر بسلام أدرك أن الأجواء ستكون اليوم صافية من دون عواصف أو مطر ..

وأيضاً كانت قريبة منا مدينة ألعاب ضخمة يطلق عليها (برايتون بير).. أي (منصة برايتون) .. فهي كانت على شكل منصة ممدودة في وسط البحر مبني عليها مدينة ألعاب متكاملة .. كانت بالطبع تلك هي جنة البنات فهناك كن يلعبن فرحاً بالألعاب ولا يكتفين بالساعات الطوال اللاتي قضينها في اللعب وأكل

المثلجات والحلويات ، كنت أحياناً أقضي وقتي مثلهن ولكن أرجع إلى طبيعتي عندما نخرج من (برايتون بير) والتي هي أضخم مدينة ألعاب مبنية في عرض البحر ، وبالرغم من هذه الجنة إلا أن البنات كن يشعرن بأنهن محبوسات عن العالم الخارجي .. فقد كانُ يسمح لهن بشراء حاجياتهن من المؤونة مرة في الأسبوع من سوبرماركت كبير عند أسفل الهضبة والذي كان يدعى «آزدا» .. فقد كان الأكل الذي يقدم في السكن أشبه بأكل المساجين وفي بعض الأوقات ينفد ولا يكفي الطالبات والطلبة الآخرين من المجموعات الأخرى والذين هم من دول أخرى متعددة .. فكانت الطالبات يرجونني وكأنني أمهن أن أجلب لهن معي بعض الخبز والحليب والكورن فليكس أو رقائق الذرة في طريق عودتي للسكن .. فقد كنت أخرج يومياً إلى المعهد الذي أدرس به والذي يقع خارج المدرسة الداخلية التي أسكن فيها مع الطالبات فقد كان السكن ضمن ملحقات المدرسة الداخلية والتابعة لها .. وكان مكان المعهد في وسط المدينة بالضبط .. أمام المتحف الكبير الذي اسمه «بافيليون» والمبني على طراز هندي شبيه بإحدى عجائب الدنيا السبع «تاج محل» فقد كانت بالفعل تحفة جميلة .. وكان المعهد يبعد عن السكن ساعة مشياً على الأقدام بمحاذاة كورنيش برايتون الطويل ونصف ساعة بالباص ذي الطابقين .. فكنت أهبط من أعلى سفح الهضبة في كل صباح باكر لأنتظر الباص عند نقطة وقوفه في الجهة المقابلة لباب المدرسة الداخلية بعد أن أكون قد تخطيت السور الممدود حولها ..

لأمشي على تلال صغيرة لتنغرس قدمي في الفجوات العشبية الصغيرة والخاصة بملعب الجولف الواسع خارج بوابة المدرسة الداخلية فأدخل بين الأحراش الذهبية وأسمع فحيح الحية ذات الأجراس من حولي لأخمن من أين ستخرج لي اليوم فصوت جرسها المزعج ينذر بوجودها بالقرب مني في المكان الذي أقف فيه .. وعندما أصل للشارع الفاصل بين أسوار المدرسة الداخلية ونقطة وقوف الباص في الجهة المقابلة له على بعد خمسة أمتار من المشي .. لأصدم بمنظر غريب عليّ بعض الشيء على الرصيف ، فقد رأيت جثة ثعلب صدمته إحدى السيارات المسرعة وبقيت الجثة ملقاة على الرصيف لأسبوعين كاملين .. لدرجة أن إحدى البنات وتدعى غنيمة صورته من جميع الإتجاهات وعندما سألتها بغرابة : لماذا صورت الثعلب وكأنك باحثة جنائية ؟ ردت عليّ قائلة :لأنها ليس لدينا ثعالب تصدم بالسيارة .. نحن لدينا فقط القطط تدعس تحت عجلات السيارة.. والله نظرية من نظريات غنيمة البنوتة اللطيفة التي كانت ضمن المجموعة والتي كانت تصور كل شيء تقع عيناها عليه ، أي حشرة .. أي نبتة .. حتى حاوية القمامة فعندما رأيتها تقوم بتصويرها سألتها : لماذا تصورين حاوية القمامة ؟ فردت قائلة : لأن حاوية القمامة عندهم تختلف عن التي عندنا في الدوحة ، كانت تصور كل شيء تقع عليه عيناها ، حتى الوجبات سواء في الطائرة أو المدرسة ، كانت تقوم بتصويرها وأذكر أنها في إحدى المرات كانت تأكل وصورت نفسها واللقمة «متكومة» في أحد

خديها ثم تقول : هذه الصورة للذكرى .. كانت تضحكني كثيراً هذه البنت .. وبعد هذه النبذة القصيرة جداً عن غنيمة .. أعود بكم لأستكمل معاناتي في الرحلة اليومية التي أسلكها في طريقي إلى المعهد ، فقد كنت ما أن أصل عند نقطة وقوف الباص أتنفس الصعداء أخيراً لوصولي سالمة دون لدغات الثعابين أوظهور مفاجآت من العيار الثقيل في دربي الذي سلكته بصبر وتوجس وبينما أنتظر في غالب الوقت وحدي في النقطة ، فإذا بي أتلقى صفعات قوية على وجهي من جراء هبوب هواء الساحل البارد جداً وكانت في بعض الأحيان تدفعني نحوالأرض بقوتها لأقع ولكن كنت أقاومها بتشبثي بأحد الأعمدة المعدنية التي علقت عليها مواعيد الباصات .. وأدعو الله أن يأتي الباص في أقرب فرصة ليخلصني من هذا التعذيب اليومي ..

وقبل أن أدخل المعهد لابد أن أمر على حبيبة القلب واستنشق رائحة قهوتها .. فقد كان مقهى(كوستا) قريباً جداً من المعهد الذي أدرس فيه .. فأتناول فطوري هناك مع فنجان قهوة على الريحه مثلما يقولون .. وأدفيء أوصالي التي تتجمد كل يوم في تلك الأجواء الحربية التي أمر بها وأنا أتصارع مع الرياح بكل قوتي منتظرة أن يرحمني الباص بمروره بعد معايشتي في هذه الدقائق القليلة بما يطلق عليه بالحرب الباردة ..

في إحدى المرات جلست في الطابق العلوي من الباص وفي المقدمة .. بينما كان يجلس في مؤخرة الباص ثلاثة شباب

قطريين عرفت ذلك من لهجتهم وأشكالهم وعرفت أنهم في بدايات مراهقتهم من الشنب الذي كان نابتاً بعضه وعودهم الغض ولحسن الحظ لم يلحظوا وجودي ، فكانوا يتكلمون بكل أريحية.. فكنت أسمع حديثهم وشوقهم لشراء الهدايا لأهلهم .. وأتذكر جيداً صوتاً واحداً منهم .. عندما قال : أريد أن أشتري لأختي شيئاً غريباً وعجيباً .. سأشتري لها «شيلة» ويعني بذلك وشاحاً حريرياً .. فضحك عليه أصدقاؤه وسألوه بسخرية: هل «الشيلة» شيء غريب حتى تشتريه ؟ ثم أين سيجد محلاً لبيع هذا الشيء العجيب ؟ كنت أحس في صوت الفتى نبرة حب شديدة نحو أخته .. لذلك كان يفكر ، ما الشيء النفيس الذي سيفرحها به ويزيد محبته في قلبها؟.. التفت للخلف لأنظر للبراءة التي في وجوههم .. فبدو لي أنهم لا يقطنون المدينة مثلي ، إنما هم في زيارة لمدينة الألعاب التي فيها .. وبعد أيام من رجوعي للدوحة وسماع خبر مقتل الفتى محمد الماجد بوحشية على أحد الأرصفة في مدينة من المدن الساحلية ، فقد قتله أحد الشبان السكارى بدم بارد متعللاً بالعنصرية ، فهل هي حقاً سبب لقتل روح بريئة ؟؟

ثم طرأ في ذهني سؤال .. هل يكون محمد الماجد أحد هؤلاء الفتيان الثلاثة الذين جمعتني الصدفة بهم في الباص ذات صباح ؟ وقد يكون بالفعل هو الفتى الذي كان يود أن يفدي أخته بروحه ليرضيها وها قد فاضت روحه هنا على رصيف بارد لتنهشه

الغربة.. أحسست حينها بوخز كبير في صدري ، فقد كنت في لحظات قريبة جداً منهم وسمعت فرحة قلبهم وقهقهة ضحكاتهم التي ملأت أرجاء الباص ثم يسكت كل شيء فجأة .. فقد أُغتيلت الضحكة التي ارتسمت على شفاه جاءت لتكتشف العالم الجديد ، لا لأن تغتال على أرصفتها بتداعيات العنصرية الواهية .. فرحمة الله عليك يا محمد الماجد ..

في المعهد كنت أنا القطرية الوحيدة .. بينما كانت هناك أربع سعوديات يدرسن معي ، اثنتان مع زوجيهما .. أما رفيقتاي آمال وحذام .. فقد كانتا صديقتين تسكنان في بيت واحد مع عائلة بريطانية وقططهم الصغيرة كما أخبرتاني بذلك .. أما الشباب فكانوا من الامارات والسعودية وعمان ومن الكويت إلا قطر.. وكنت لا أتكلم مع أي منهم .. وكان بالفصل شابان من السعودية.. كنت لا أنطق بكلمة أو حرف معهما .. بينما الشباب من الدول الأخرى كانوا يسألونني كثيراً عن قطر ..

وفي أحد الأيام .. دخل أحد الشبان السعوديين وكان اسمه ثامر.. وأجلسه الاستاذ على المقعد الموجود بجانبي ليشاركني نفس الطاولة .. وطلب منا أن نجري محادثة في أحد المواضيع المكتوبة على لوحة الفصل .. وتحدثنا بشكل رسمي جداً باللغة الإنجليزية دون التطرق لأية مواضيع خارج نطاق المحادثة المطلوبة من كلينا وحان وقت الاستراحة .. وقبل أن أقوم وأغير مكاني وجدته يخبرني بأنني أستطيع الجلوس في أي مكان أريد..

لأنه كان يراني دائمة الجلوس في هذه الزاوية بالذات ولاحظ صعوبة رؤيتي للوحة الفصل ، فرثى لحالي .. وقرر أن يخبرني بذلك خاصة أنه آخر يوم دراسي له معنا ولن أراه بعدها وسيرجع، «جدة» ، حيث يعمل هناك ويعيش مع والديه وإخوانه الثلاثة .. فلا أخوات عنده .. ثم سألني : هل زرت لندن ؟ فقلت له : لا .. فقال لي لقد زارها وأخذ صوراً فيها وقد قابل في لندن «جينيفر لوبيز» و«أجلينا جولي» وغيرهما من الممثلات ، استغربت كلامه ،أبهذه السهولة نستطيع ملاقاة المشاهير في لندن .. فلاحظ استغرابي للأمر وعدم تصديقي لمقابلته كل تلك الممثلات دون أن يزعجهم المعجبون .. فأخرج كاميرته .. قائلاً إذا لا تصدقيني.. أنظري للصور التي التقطتها معهن .. ما إن رأيت الصور حتى قلت له مبتسمة : هاه أنت تقصد أنك التقيتهن في متحف الشمع المشهور بمتحف «مدام توسو» .. فرد مبتسماً .. بالضبط .. ثم قال إن لندن فيها معالم رائعة الجمال تدعو الشخص لأن يزورها فحاولي أن تذهبي إلى لندن إنها مختلفة كثيراً عن برايتون .. وبها أماكن سياحية جميلة حاولي إقناع مدرسة الطالبات بأخذكن إليها .. ثم أخرج جوازه من جيبه قائلاً : وإذا كان بجوازك هذه التأشيرة .. لاستطعت الذهاب إلى دول أوروبا المجاورة لبريطانيا كما فعلت ، فقد اشتركت في إحدى الرحلات التي ينظمها المعهد إلى باريس وبلجيكا وهولندا وألمانيا .. حاولي الحصول على هذه التأشيرة التي يطلق عليها «شنجن فيزا».. وحاول فتح الصفحة التي بها التأشيرة ليرني شكلها..

وكتب لي على إحدى الأوراق اسمها بحروف إنجليزية حتى لا أنساها .. ولم أكن أعرف أنا أو هو أن القدر قد ضرب لي موعداً مع هذه الدول لتكون رحلتي القادمة إليها بالتحديد لتزيد بذلك تأشيرات الشنجن في صفحات جواز سفري من شتى دولها .. ثم أراني الصور التي كان التقطها في تلك الدول حتى أتأكد من أن هذه التأشيرة تصنع المعجزات ، فهي كالبساط السحري الذي تفتح له الأبواب .. وعندما كنت أنظر في دهشة للعالم الجديد الذي اكتشفه ثامر قبلي ولم أعرف بأنه عليّ اكتشافه أنا أيضاً.. ثم أخرج شريحة هاتفه وأعطاني إياها قائلاً : أنا لا أحتاجها بعد الآن خذيها أو أعطيها للمشرفة أو إحدى طالبات المدرسة بدلاً من أن يشترين شريحة جديدة وذلك لأنني سأسافر يوم غد ولن أستعملها بل سأرميها .. ثم خرج من الفصل مودعاً ومحتماً عليّ ضرورة زيارة لندن .. ثم خرجت من الصف على إثر اتصال من جهة عملي وكنت أقف عند مدخل المعهد حيث موظفات الاستقبال متأهبات لمساعدة الطلبة وكان المكان مزدحماً بالشباب من كلا الجنسين وطبعاً كنت تحت مراقبة أعين الخليجيين .. والذين يريدون أن يعرفوا اسمي وإلى أي دولة خليجية أنتمي .. كنت أقف في زاوية ضيقة منشغلة بالحديث في هاتفي المحمول .. لأجد ثامر يخرج من بين مجموعة شباب واقفة بعيداً عني ثم تقدم نحوي ودس في يدي ورقة صغيرة بها رقم الشريحة التي أعطاني إياها من قبل .. ثم رفعت رأسي لأفاجأ بعيون الخليجيين التي كانت تحرقني حرقاً .. ظناً منهم أن ثامر أشجعهم بالمبادرة في

التعرف على سري وهاه قد تطورت الأمور لتبادل الأوراق والأرقام .. فصرت حينها غاضبة جداً من تصرف ثامر الساذج .. الذي فتح شهية الباقين لمحاولة الكلام معي والتعرف عليّ .. فأقفلت الهاتف بعد أن زاد تركيز نظر الشباب عليّ وعلى ثامر ، فالمشهد الذي حدث أمامهم اليوم كان مثيراً لفضولهم فقلت بصوت مسموع أمام الجميع : ثامر هل هذا هو رقم الشريحة التي لا تريدها لأنك ستسافر و لن تستخدمها ؟؟ ففهم ثامر قصدي وجاءني معتذراً عما بدر منه من تصرف دون قصد ولم يدرك أن أعين الشباب تترصدني .. وهذا السبب الذي يبقيني في الفصل بعيدةً عنهم أو في الاستراحة أخرج مسرعة متخفية بنظارتي السوداء من عيونهم واتجه نحو الحديقة القريبة من المعهد .. فأجلس وحدي أحياناً أقلب صفحات الكتاب الذي بيدي ، أو أتجاذب أطراف الحديث مع آمال وحذام السعوديتين .. وأذكر أنه في مرة من المرات عندما تبعني أحد الشبان الخليجيين إلى أحد الدكاكين وبينما مددت يدي على الرف لأخذ زجاجة عصير فوجئت بوجود أحدهم أمامي يقول لي : لقد عرفنا ما هو اسمك أخيراً .. ثم فوجئ الشاب بصمتي ، فلم أعلق ولم أنطق بحرف ، فقد كنت أفكر بجواب كاد يصعقه ، ولكني فضلت تجاهله بالسكوت وخرجت من المكان بهدوء وزاد يقيني أنني أشغل تفكيرهم بغموضي وكنت حينها أود أن أرد عليه بأن اسمي ليس بسر أخفيه .. وماذا لو عرفه هو أوغيره ، فلا يهمني الأمر إن عرفوا اسمي أو من أي بلد أنا .. المهم أنني لا أحب أن أختلط

بأي أحد منهم .. فأنا هنا من أجل الدراسة فقط وليس للانضمام لنادي التعارف مع الجنس الآخر ..

وعندما وصلت السكن وضعت في يد المشرفة علياء شريحة التليفون مع الورقة الصغيرة المدون عليها الرقم وأخبرتها أن صاحب الشريحة هو الذي كان له آخر يوم معنا في المعهد «ثامر» وأخبرته بكلامها عن لندن ومدحه للمعالم الجميلة التي فيها .. وشوقني بحديثه عنها لكي أزورها .. فوعدتني علياء بأن نذهب معاً أنا وهي والمشرفة غالية .. في أقرب فرصة للندن ، لأنها تود أن تشتري بعض الهدايا من أحد الأسواق الواقعة في إحدى ضواحيها.. فكنت أنتظر تلك الفرصة بفارغ الصبر.. فقد كانت المشرفة علياء جارتي ، فغرفتها ملاصقة لغرفتي ويجمعنا ممر واحد، فقد كانت سيدة طيبة جداً لأبعد الحدود ولها قلب أم حنون.. رغم ملامحها الشابة إلا أنها أرتني صورة حفيدتها الصغيرة التي تشبهها كثيراً لأصدقها بأنها تزوجت وهي صغيرة.. وحكت لي علياء أنها كانت مشرفة على البنات في رحلة سابقة في العام الماضي وكانت مجموعتها من البنات الصغيرات اللاتي أعمارهن تتراوح بين العشر والثلاثة عشرعاماً فقد كانت مهمتها الطبخ لهم والحفاظ على أشيائهم وتضطر أحياناً لتمشيط شعورهن لكونهن صغيرات جداً فتساعدهن بذلك وكانت المجموعة الأكبر منهن تتجنبها وتخشاها لملامحها الجادة ، فقد كن يحسبنها معلمة ومشرفة شديدة وقاسية نوعاً ما ولم يكن

يجلسن معها كما الآن في الجلسات التي تعقد في غرفتي الضيقة والمتواضعة وأصبحت الآن الصديقة المفضلة للبنات فيأتين إليها كل ليلة لإخبارها بأحدث المستجدات في يومهن الطويل في المدرسة ويثقن بإرشاداتها ، كنت بمجرد أن أشرع باب غرفتي واضعة الكرسي بجانب الباب لأجد البنات يلتففن حولي وعلياء المشرفة تشاركنا حكمتها .. كنت أشعر بأنني أجلس مع عجائز.. فالبنات اكتسبن من الأمهات والجدات كثيراً من المصطلحات القطرية القديمة وكنت سعيدة بأنهن مازلن يستخدمنه في كلامهن مع بعضهن البعض .. مثل كلمة «مزوزية » يعني أنكِ لست على طبيعتك وربما مصابة بدوار وسمعت ايمان تقولها دائماً لغنيمة لزيمتها الدائمة .. غنيمة وسبيكة.. كانتا دائماً تخجلان من ذكر اسميهما لأنه تحملان اسمين جدتيهما .. فكنت أشجعهما على الافتخار بما يمتلكانه من أسماء ولتشعرا أنهما ثروة غالية ، كان لي على الرف كتابان .. فسألتني علياء أن كنت قد قرأتهما ؟ فقلت لها : علياء إنني في كل ليلة أتصفح وجوه هؤلاء البنات وأقرأ قلوبهن لأغوص في روحهن الشفافة الجميلة فأحصل على أجمل المعارف عن النفس الإنسانية وذلك يغنيني عن قراءة ألف موسوعة .. وكانت علياء توافقني الرأي بإستمتاعها في مجالسة هؤلاء الصغيرات عمراً الكبيرات عقلاً ..

في بعض الأيام كانت تدخل عليّ الجوهرة متسائلة إذا ما كان عندي قهوة عربية لأنها أشتاقت لرائحة الهيل .. ثم تطلب مني

مساعدتها في صنعها في غرفتي التي تنقلب لمطبخ بفوران القهوة وانسكابها على الأرض ولتركض الجوهرة وغنيمة لتنظيف الأرضية من القهوة المسكوبة على موكيت الغرفة ولسان حالهما الاعتذار، فأقول لهما إن ما حدث ما هو إلا فأل خير ولو كان ذلك في غرفتي في الدوحة سيكون حسابهما عسيراً.. فتضحكان فرحاً بعد أن أفلتتا من العقاب قائلتين : الحمدلله أننا لسنا في الدوحة لتفوح رائحة القهوة في الممر لتنتشر وتتذكر البنات قهوتنا الأصيلة إيذاناً للتجمع في غرفتي فتجتمع حولي البنات بثينة وإيمان والجوهرة وغنيمة و سبيكة و حياة و شيخة ونوال ومنيرة ونوف وأمينة وغيرهن اللاتي أحاول تذكر أسمائهن مع أنني أتذكر وجوههن جيداً فأقدم لكل واحدة منهن علبة التمر المحشوة بالمكسرات والذي قد أحضرته معي من الدوحة بعد أن آخذ منهن علب الشكولاته والكولا التي أدمنّها قائلة لهن :أن هذا التمر أفيد لهن صحياً يا العجائز فيجبن : حاضر إن شاء الله يا مريم نور أم الأكلات الصحية .. وعندما نجوع نتسابق في تحضير سندويتشات الجبن أو الزعتر اللذيذة ونتبادل اكياس رقائق شيبس (عُمان) الحارة مع ما اشترينه من أنواع الكعك والبسكويت من السوبرماركت وكنا نستأذن مشرفتنا علياء في استخدام سخان الماء الخاص بها من أجل أن نغلي أوراق النعناع مع الشاي أو نخلطه بقطرات من ماء الورد لنستنشق رائحة الورد عند شربنا الشاي ، فقد كانت كل واحدة فيهن تتفنن في صنع الشاي على طريقتها في تلك الليالي الباردة التي تدفئها تلك

الأقداح الساخنة كسخونة الأسرار والقصص والمغامرات التي كنت أسمعها من البنات ..

ولكن في إحدى الليالي ولأن الأبواب لا تقفل وليس لها مفاتيح أصلاً .. وعدا ذلك التجربة السيئة التي مررت بها في مدينة (نيوكاسل) مع المعتوه السكران في تلك الرحلة .. فكنت أضع الطاولة الثقيلة التي كانت بجانب سريري خلف الباب خوفاً من أن يدخل عليّ أحدهم فجأة ويحدث لي ما هو ليس بالحسبان ولكن في تلك الليلة حيث كانت الساعة تشير للثالثة فجراً سمعت طرقاً قوياً على بابي أيقظني من نومٍ عميق كنت غارقة في أحلامي السعيدة ، فسمعت صوت إيمان خافتاً من وراء الباب تقول أرجوكِ افتحي لي الباب أنا محتاجة لكِ كثيراً هذه الليلة .. فقمت من سريري وبالكاد استطيع فتح عينيّ وسحبت الطاولة وأزحتها من خلف الباب إلى الناحية الثانية وما أن فتحت الباب حتى رمت إيمان بنفسها في حضني ودخلت في نوبة بكاء مرير وكانت دموعها تذرف كالشلال وهي تحتضنني بقوة .. فقد شعرت حينها بأنها حنت لحضن أمها التي هي أقرب شخص لها في الدنيا، ولذلك لجأت إليّ ولكن لماذا أنا التي فكرت أن تريها دموع ضعفها وجرح قلبها ؟ لماذا رغم أن غرفة المشرفة أقرب لها مني ؟ فلماذا دقت بابي أنا ووثقت بحفظي لسرها ؟ .. لم أعرف سبب اختيارها لي دون البنات اللاتي في سنها وأيضا لماذا لم تلجأ للمشرفة علياء التي تحبها كثيراً مثل كل بنات المدرسة ،

فمسحت بيدي على رأسها لأهدئ من روعها .. بينما كانت تلك الاسئلة تحلق في سماء فكري وفي داخلي ، لم أكن استوعب حقيقة ما يحدث ، فسألتها عن السبب الذي دعاها للبكاء في هذا الوقت من الليل ؟ فوجدتها تفصح لي بعينين دامعتين عما كان في قلبها ، قائلة : إن معاملة نائبة المديرة والمشرفات قاسية جداً ، فلماذا المشرفتان علياء وغالية تعاملاننا بحب ورعاية كأننا بناتهما بينما الأخريات من المشرفات يعاملننا بدونية ومزاجية ثم كيف يزرعن الشك بيننا عندما يحاولن خلق الفتنة بين البنات بقولهن لنا إننا جعلنا إحداكن تتجسس عليكن وبالتالي تنقل إلينا اخباركن أولاً بأول ، فنكون على دراية بما تفعلنه وما تخططن له مع بعضكن البعض .. هل هذا أسلوب تربوي زعزعة الثقة بين البنات ؟ هل يعتقدن أنهن سيحافظن علينا بهذه الطريقة عندما يزرعون الشك في قلبي تجاه صديقاتي ؟ أي مدرسات سأحترمهن عندما يحاولن معاملتي بعقلية طفولية بحته للاحتراس من زميلاتي وأخذ الحيطة والحذر أثناء تعاملي معهن ، فقد تكون إحداهن الجاسوسة التي تحدثت عنها نائبة مديرة المدرسة المتعلمة والتربوية هل هذه هي التربية الحديثة لمثلنا من أجيال الغد وأمهات المستقبل ؟ هل سأربي أبنائي على الغيرة والحقد الذي تعلمته من مديرتي الجديدة ومدرساتي غير الفاضلات ؟ هل كانت مدرساتكِ يفعلن الشيء نفسه في أيام دراستك في ذلك الزمان .. بالتأكيد لم يفعلن ذلك ، حتى تحليت بهذه الخصال الحميدة التي نحسدك عليها كلنا ، ونتمنى الاقتداء بها ..

تساؤلات إيمان أرجعتني إلى أيام الدراسة وحيث كانت معلمتنا «ست نعيمة» مدرسة الجغرافيا تقول لنا إن دورها في المدرسة ليس تعليمياً فقط بل يسبقه دور تربوي أهم من التعليمي ، فلا فائدة للعلم دون الأدب والأخلاق وكانت تسترشد باسم الوزارة كأكبر دليل قائلة : إن اسم الوزارة يبدأ بالتربية والتعليم .. أي أولاً التربية ثم يأتي دورالتعليم ودورها كمعلمة أن تربينا على دماثة الأخلاق كبناتها ومن ثم تعلمنا علوم الدنيا .. فعلمتني وجه الشبه بين الصدق وخط الاستواء، فكلاهما يدلان على الاستقامة والنزاهة على وجه الأرض ، علمتني أن لكل بذرة موسم حصاد.. فالآن أنا حصاد ذاك الزمن الذي تربيت فيه على أيدي مدرسات تلقيتُ منهن الأخلاق قبل الإبداع في علوم الدنيا ، فكم أنا مشتاقة لأمهاتي المدرسات والمربيات الفاضلات فأنا نتيجة زرعهن .. فقلت لإيمان نافية أن تتعامل معنا هيئة التدريس كما هو الآن ماثل أمامي كالأسلوب غير التربوي الذي تتعامل به نائبة المديرة معكن كطالبات في سن تكوين الشخصية والنضج الفكري قبل العقلي .. فالمديرة كانت أيامنا أماً فاضلة وحضناً كبيراً يسعنا كلنا ، فتزرع فينا محاسن الأخلاق وليس ما أراه من دس الفتن والحقد بين الطالبات .. عجيب هو زمانكم هذا يا إيمان ، فقالت : هل رأيت كيف تتم المفاضلة بين الطالبات ، ففي كل أسبوع تجدين نائبة المديرة تغدق الهدايا على مجموعة من البنات دون غيرها لأنهن دخلن مزاجها، فتريد الاستفادة من مناصب أهاليهن لغرض هي تعرف سره، وفي كل فترة تأخذ مجموعة من البنات في رحلات

خاصة إلى لندن لأنهن مسليات جداً لها في الرحلة بالمشاغبة والمشاكسة مع غيرهن من البنات، بينما نحن الفئة المستضعفة التي لم نعجبها تستكثر علينا ذهابنا للسوبرماركت لنشتري ما نحتاج ، فنجد ما طلبناه قوبل بالرفض دون مناقشة وكان الأدهى والأ مَر ما حدث في هذه الليلة حينما قامت بتوزيع الهدايا على البنات المقربات منها .. بدعوى أنهن مواظبات على الصلاة ، فكيف كانت تعرف أننا نواظب على الصلاة في وقتها ؟ هل لديها كاميرات تصورنا بها في أوقات الصلاة ؟ أم أنها أعلم من الله عز وجل؟ وها أنا أصلي بانتظام ولم يحتفين بهذا الإنجاز العظيم ويهدونني إحدى الهدايا التي وزعت على الأخريات .. فهل هذا يدل على أنني لست من المجموعة المفضلة عندها هل لأننا بعيدات عن أهلنا يعاملننا بهذه الطريقة أم لأن أمهاتنا لسن على صداقة ومعرفة بهن ، فليس لنا الحق كالأخريات في الهدايا والرحلات ؟؟

تساؤلات إيمان كانت في محلها .. وكانت تدور في ذهني قبلها وتحسرت كثيراً على أيامنا .. حيث الإدارة الآن تخلو من فن التعامل مع العقول الجبارة التي أمامها .. فقد أصبح همها مادياً بحتاً.. وكان ذلك واضحاً على نائبة المديرة التي كانت ينقصها الكثيرمن الثقافة ورغم اصطناعها الثبات كان اهتزاز شخصيتها جلياً للكل .. وهدأت إيمان بعد أن أباحت بما في قلبها .. وعرفتها أن الله حق ولن يضيع حقها ..ثم سألتها : أريد

أعرف سر لجوئك لي وما أنا إلا طالبة مثلك وقد جئت على نفقتي الخاصة كوني مرافقة لكن وبلعت مقلباً سخيفاً مدبراً من مدرستك التي جعلتني أدفع أضعافاً مضعفة مما دفعته لهن من مبلغ في الدوحة ؟ ثم لماذا لم تلجئي لعلياء ، فهي المشرفة المحبوبة من الكل والتي غرفتها في نفس الممر؟ فأجابتني إيمان قائلة ولم أتوقع أن يكون ذلك الشيء له تأثير كبير ليجعل الطالبات يتحلقن حولي في كل ليلة لتزاحم كل واحدة الأخرى في الجلوس في غرفة مترين في ثلاثة أمتار ، قالت : أنتِ تسمعيننا بكل حواسك عندما نحدثك عن أتفه أمورنا .. ترقبين بشوق لسماع نهاية حديثنا دون مقاطعة ، ثم تشيرين علينا ما هو الأصح .. فنحن بإجماع البنات نحبك ونرتاح لكِ كثيراً ..

لم أدرك هذا الحب الذي كان يحيط بي إلا الآن ..عندها تذكرت البنات وهن ينتظرن عودتي عندما رأيتهن جالسات على بابي ، حتى قالت لي إحداهن لماذا لا تعودين بسرعة من المعهد فأنا والبنات نفتح باب غرفتك كل نصف ساعة لنتفقد وجودك بها.. لنجلس معك ؟ لم أعرف أنهن كن يشتقن لي لأسمعهن .. فالحمدلله أنني حصلت على محبتهن ومازلن يتواصلن معي في الدوحة .. وبالذات إيمان ..

وأخيراً وفت مشرفتي علياء بالوعد وأخذتني معها ومع المشرفة غالية إلى لندن .. بالقطار السريع الذي كان يأخذ من الوقت قرابة ساعة أو أقل ، فذهبنا أول الأمر إلى السوق الذي في

أطراف لندن لنتعرف عليه من كثرة حديث الناس عنه .. ثم ضعنا قليلاً ودخلنا أحد المجمعات المعروفة .. ثم تناولنا العشاء في مطعم لبناني .. على ألحان موسيقى أغاني فيروز ، فتذكرت كل واحدة زوجها واشتاقت إليه ، بينما أنا في أجواء عدم التصديق بأنني في لندن فلم أره معالمها التي كنت قد درستها في المدرسة.. فقد كانت زيارة سريعة وخاطفة .. ورجعنا (برايتون) في ليل بهيم متأخرات عن موعدنا المتفق عليه .. ووعدتني علياء بزيارة أخرى للندن يكون هدفها زيارة لدار النشر التي أريد أن أُري القائمين عليها إنتاجي الأدبي الجاهز .. وكون علياء من القارئات النهمات تشجعت كثيراً للذهاب واستكشاف دار النشر تلك ونصطحب معنا رفيقتنا غالية..

وشاءت الظروف أن تمرض أم علياء وتقرر العودة للدوحة لأبقى على أمل زيارة دار النشر تلك يوماً ما .. فطلبت من المشرفات الذهاب معي فاعتذرت كل واحدة منهن بعذر وأفصحن بعدم مقدرتهن على اصطحابي لدارالنشر التي أريدها في لندن .. ومضت الأيام وأنا أحاول النسيان ، فعلياء التي كانت متشجعة للذهاب معي عادت للدوحة ولم يعد هناك أحد يشاركني حلمي ، لذلك وجب عليّ نسيان الأمر نهائياً ، وفي المعهد في أحد الأيام تقرر نقل أحد الفصول المسائية ليقام في قاعة أحد الفنادق .. وبعد وصف وشرح مطول وصلنا أنا والبنات السعوديات للمكان المطلوب بعد أن كنا في شدة الاستغراب من

الفرق الشاسع بين المعهد وهذا الفندق الشديد الفخامة ، وما أن دخلت الردهة حتى أعجبني الفندق كثيراً فقررت أن اصطحب والديّ معي في رحلتي القادمة (لبرايتون) لنسكن هذا الفندق .. فذهبت لطاولة الاستقبال أستفسرعن اسم الفندق وكيفية الحجز فيه .. فوجدت سيدة جليلة القدر تنظر إليّ ثم اقتربت مني وسألتني : أنت من وين .. فجاوبتها أنا من قطر .. فاستغربت ثم سألتني عن اسم عائلتي فقلت لها الاسم .. فاستغربت أكثر ثم قالت لي إنها هي وبناتها من قطر وإنها من الأسرة الحاكمة.. وجمت مكاني متعجبة من بساطة السيدة في كلامها معي ثم أمسكت بيدي قائلة : سأعرفك على بناتي .. وطلبت مني الجلوس ليتحلقن حولي ثم قالت : هل تعرفين منطقة مشيرب ؟ قلت لها نعم حيث ولد والدي هناك وترعرع وعاش صباه ، قالت كنا نسكن أيضاً هناك .. فأخذتني السيدة بذاكرتها إلى الماضي في رحلة تعود بها لأيامها في منطقة مشيرب ، فكانت تصف لي كل بيت في الفريج والأزقة التي كانت بين البيوت.. أحسست وقتها بالحنين لوالدي الذي كان يطلب مني دائماً أن أمر به على منطقة مشيرب ليشير لي إلى البيت الذي سكنه عمراً حتى كبر ثم يشير لي بيده إلى زقاق ضيق ليقول لي كنت ألعب هنا في هذا المكان مع أصدقائي الصبيان في ذاك الزمان .. فحفظت جملته عن ظهر قلب ، فكنت أرددها له ما أن نمر في نفس المكان في يوم ثان .. وبالضبط كانت السيدة تفعل الشيء ذاته معي وتصف لي باسهاب كل الزوايا الموجودة في مشيرب بينما كانت بناتها

ينظرن لوالدتهن في دهشة وهي تتكلم وتشرح وكأن المنظر أمامها تماماً .. ثم قالت لي : لماذا لا تأتين إلى لندن ؟ فقلت لها أتمنى ولكن سأرى ظروفي ، فإن سنحت لي فرصة مواتية للذهاب للندن سأذهب من أجل زيارة دارالنشر تلك لأستقصي منهم كيفية نشرهم لإنتاجي الفكري الخاص .. فقالت لي إذا ما نويت الزيارة فقط اتصلي بي وسأكون هناك لملاقاتك فنحن نقيم هناك في بيتنا في كل صيف وأردنّ البنات زيارة مدينة الملاهي في (برايتون) اليوم ، وها قد وصلنا للتو من رحلة طويلة بالسيارة وأتمنى لقاءك في لندن ، فقلت لها وأنا أتمنى ذلك أيضاً وودعتها بعد ..

لاحظت آمال وحذام السعوديتان شرودي الدائم بفكري فسألتاني عن السبب فأخبرتهما برغبتي في الذهاب للندن ولكني إلى الآن لم أجد أحداً يرافقني في زيارتي هذه وخاصةً أنني لم أركب القطار من قبل وأخاف من المغامرة وحيدة ، فقد أضيع فلا أعرف الذهاب للندن أو الرجوع (لبرايتون) .. فقالتا انهما كانتا قد خططتا لزيارة معالم لندن الأسبوع القادم ، فما رأيي بمرافقتهما والدعوة مفتوحة على مصراعيها لكي اذهب معهما .. ففرحت كثيراً لذلك الخبر وأخبرت المشرفات برغبتي الذهاب معهما فوافقن بعد أن كن مضطرات للموافقة وذلك لعدم قدرتهن على المجيء معي ..

وفي صباح ذلك اليوم أخذنا أذناً من الاستاذ عن عدم

الحضور للمعهد في ذلك اليوم واتجهنا إلى محطة القطار.. وكنت قد اتصلت مسبقاً بالسيدة الجليلة التي التقيتها في أحد فنادق (برايتون) لأخبرها بمجيئي للندن لأقابل أحد القائمين على دار النشر المعروفة والتي تقع في منطقة «وايت ليز»، فما أن عرفت الاسم حتى قالت لي إنها قريبة جداً من منزلها وسألتقي بها في مجمع «وايت ليز» ذاتها ..

وما إن خرجنا من القطار حتى توجهت آمال وحذام إلى متحف الشمع وهالهما منظر الطابور الطويل المنتظر عند الباب ، فأبدلتا رأيهما وقررتا الذهاب إلى أي لندن أو عين لندن .. وأيضاً كانت الطوابير واقفة تنتظر مثل هناك ولكن انصاعتا للأمر وفضلتا الوقوف مع الناس وانتظار الدور مثلهم ، ثم فكرت حذام بأخذ صورة مع رجل واقف يرتدي ملابس في هيئة ممثل الأفلام الصامته شارلي شابلن .. وما أن وقفت بجانبه حتى هم بعصاته على رأسها .. فصرخت فيه وهي تتألم ظناً منها أنه يمازحها وقالت له إنه أوجعها ، فرفع عصاته مرة أخرى ليضربها من جديد، كنت حينها أقف بجانب آمال التي كانت تأخذ صوراً لحذام كما طلبت منها حذام بكاميرتها .. وفوجئنا بالذي حدث لحذام .. فقررنا أن نخبر الأمن بفعلة هذا الرجل .. ووجدنا أحد رجال الأمن وعندما أخبرناه كان غير مصدق ، ثم توجه معنا للرجل المتقمص شخصية شارلي شابلن.. وسأله عن سبب فعلته هذه ؟ أتدرون ما كان جوابه .. قال إنها هي التي دفعتني بقوة

فاضطررت أن أدافع عن نفسي بضربها كنا نحن الثلاث واقفات متعجبات من كذبه وعلامات الذهول كانت واضحة على وجوهنا من ردة فعله السريعة وجرأته في الكذب على رجل الأمن الذي كان معنا .. فقد كانت العنصرية هي سيدة الموقف حينها ..

ثم تركتهما تنتظران دورهما لركوب عين لندن (London Eye) على الرغم من أن حذام كانت لاتزال مصدومة مما حدث لها ..

بعدها استقللت تاكسي واتجهت إلى مجمع وايت ليز، حيث كانت السيدة الجليلة تنتظرني قلقة وما أن اتصلت بها حتى أخبرتني بأنها قلقت عليّ كثيراً لعدم اتصالي بها فور وصولي المحطة وظنت أنه قد حدث مكروه لي .. فتأسفت لها معتذرة وحكيت لها عن الموقف الذي حصل معنا نحن الثلاث عند عين لندن ..

وتقابلنا عند مدخل المجمع المعروف هي والبنات فسلمت عليهن .. وتوجهنا إلى دار النشر التي كانت قريبة جداً من المجمع وعندما دخلنا المكتبة أو دار النشر التي كانت مبتغاي وجدت معاملة خشنة معنا من قبل البائع الذي كان في حديثه فظاً مع الجميع ، فحينها تراجعت عن قراري بالنشر عندهم وأرجعت النص الذي كنت أحمله معي إلى حقيبتي حيث كان مكانه وطلبت من السيدة الخروج بعد تغيير رأيي لنشر كتابي عن طريقهم .. ثم أخذتني السيدة القديرة إلى أحد المطاعم الإيرانية

الراقية لتناول الغداء فيه وفي ذلك الحين كنت استغرب فرحة البنات بأمهن التي أطلقت لحديث قلبها العنان ، فكانت تقص علينا أحداثاً جميلة ومشوقة حدثت لها في حياتها وكانت تعاملني كضيفة شرف معهن بالرغم من إنهن هم الكريمات بتواضعهن وأخلاقهن النبيلة .. ثم ركبت السيارة معهن وأخذنا نجوب شوارع لندن الملونة بشتى أشكال السياح ، ثم دخلنا المتجر الشهير في لندن هارودز وطبعاً البنات غير مصدقات لسعادة أمهن وانطلاقها في الكلام معنا ثم وجدتها تحمل علباً صغيرة من الحلوى وتعطيني إياها وتقول هذه ذكرى مني لك أرجو ألا ترديني .. خجلت كثيراً لما فعلت وحلفت لها أنني أحمل معي مبلغاً محترماً وعندي بطاقتا فيزا أحملهما معي لأشتري ما أريد ، ولكن إني أخاف من الوزن الزائد لحقائبي في المطار وخاصة أنني لدي حقيبة واحدة وأنا ضمن مجموعة المدرسة فقد أسبب إشكالية بوزنٍ زائد ، لذلك لا أفكر في شراء أي شيء بسبب هذا الهاجس ، ثم خجلت منها وهي التي وقفت في الدور لتشتري علب الحلويات من أجلي ، فأخذتها منها إستحياءً .. ثم توجهنا إلى باب الخروج فلمحت ممثلاً سعودياً مشهوراً فأخبرتها بذلك فلم تصدقني ثم قالت لي لنقترب منه ونسلم عليه لنتأكد إن كان هو بالفعل ووافقت فوجدنا المسكين في عالمه الخاص وكان هو نفسه الممثل فاندهشت السيدة لقوة ملاحظتي له..

ثم دخلنا مجمعاً تجارياً كبيراً آخر مشهوراً في لندن واسمه

سيلفرج فاحتسينا القهوة في مقهى من مقاهيه .. ثم خرجنا نجوب شوارع لندن الكثيرة وهي تشرح لي حكاية كل شارع فيها ، فقد أصبحت خبيرة بكل شيء في لندن .. ثم استوقفنا منظر وجود الداعية عمرو خالد واقفاً أمام مدخل أحد الفنادق .. فأوقفنا السيارة بجانبه وأنزلنا النافذة وألقينا عليه السلام وفرح كثيراً بمعرفتنا له.. كنت أرى البنات سعيدات جداً في ذلك اليوم والأم منطلقة مثلهن في سماء السعادة ، ثم حان موعد الوداع فطلبت منهن أن يوصلني إلى محطة قطار فكتوريا حيث سألتقي بآمال وحذام ونرجع معاً إلى(برايتون) في قطار واحد .. وعندما نزلت من السيارة وجدتها حزنت كثيراً لمفارقتي لهن بعد أن قضينا يوماً مليئاً بالفرح ..

ستعرفون سر هذه السيدة الجليلة وسر سعادة بناتها بها في حكاية الزهرة التاسعة ..

بعد هذه الرحلة صار سهلاً عليّ طريقة أخذ تذاكر القطار والتوجه إلى لندن والرجوع (لبرايتون) وقت ما أشاء ، فقد تعلمت ذلك عندما ذهبت بالقطار للندن في المرة الأولى مع علياء وغالية ثم جربت معلوماتي في المرة الثانية مع البنتين السعوديتين .. ولكن في المرة الثالثة سأشتري تذاكر القطار وحدي اضطراراً وليس عن طواعية ..

فقد أخذتنا المدرسة الداخلية في رحلة ترفيهية إلى لندن بالباص جامعةً كل البنات.. كانت أجواء الباص ممتعة جداً

ذكرتني بأجواء مسرحية «المشاغبون» فالبنات كن يبدأن بالغناء والتصفيق على طول الطريق وعلى مدار الوقت مغنيات لكل الأغاني التي حفظنها طوال حياتهن ، بينما كان ذلك يزعج السائق الإنجليزي فيتوعد ويهدد بإيقاف الباص وإنزالنا منه في أي لحظة إذا ما لم يتوقفن عن الغناء والتصفيق .. فتسمع البنات التهديد والوعيد من السائق ثم من نائبة المديرة والمشرفات بصدر رحب فتسكت البنات لبرهة ثم يبدأن بالغناء من جديد وكأن شيئاً لم يكن وعلى هذا المنوال طول الطريق غير آبهات بردة فعل السائق الإنجليزي المعقد كما اسمينه والمنزعج منهن.. فكانت الأجواء الدراماتيكية بين شد البنات وجذب السائق المعقد ممتعة فقد كنا نتوقع في أية لحظة عندما يزيد حنق السائق أن يقوم بإنزالنا في الطريق الجبلي الوعر لنكون وجبة دسمة للوحوش الإنجليزية الموجودة في الجبال ..

بالنسبة لي كنت قد اتفقت مع إحدى زميلاتي التي كانت موجودة آنذاك في لندن على لقائها عند باب من أبواب هارودز الكثيرة .. وقد أخبرت المشرفات بلقائي زميلتي ولن أكون ضمن المجموعة معهن فسمحن لي بذلك .. قائلات : أنتِ ثقة أفعلي ما تريدين فعله .. فأتخذنا مجلسنا في أحد المطاعم أنا وهي وأختها وأطفالها .. ثم حان موعد الرحيل فاتصلت بي إحدى المشرفات قائلة : إنهن على وشك الرحيل ولن أستطيع اللحاق بهن بالباص وعليّ التوجه للمحطة والرجوع بالقطار وحيدة .. كان موقفاً

صعباً عليّ بعض الشيء ولكن لابد لي أن أجرب فأستقللت تاكسي وتوجهت إلى محطة فكتوريا المعتادة للرجوع إلى (برايتون).. ووقفت في أحد الصفوف الواقفة أمامي وما أن وصلت للشباك حتى قالت لي الموظفة : أنني أقف بالمكان الخطأ فهنا تباع تذاكر مترو لندن وعليّ البحث عن الشباك الذي تباع فيه تذاكر القطارات للمدن الآخرى وللعلم فقط .. أن تلك الليلة كانت هي آخر ليلة لي في بريطانيا وكنت سأرحل مع طالبات المدرسة فجراً مع بزوغ أول شعاع شمس في السماء لمنطقة أخرى حيث يقع فيها مطار (جاتويك) الذي سنعود منه إلى الدوحة .. فعليّ الرجوع بسرعة قبل أن تفوتني أية رحلة من الرحلات المتوجهة لمدينة (برايتون) .. ولخوفي من أن يحدث ذلك كنت أمشي وأسأل كل شخص أواجهه في المحطة عن شباك تذاكر القطار المتوجه (لبرايتون) إلى أن وجدته وأشتريت تذكرة العودة من الموظفة التي أشارت عليّ بالركض حتى ألحق بالقطارالذي سينطلق بعد ثوان .. فما أن أنهت جملتها حتى ظهر لي جناحان يطيران بي نحو البوابة التي يقف فيها قطاري الموعود..

في القطار كنت خائفة أن يجلس بجانبي أحد السكارى .. فيضايقني برائحته وتصرفاته .. فأغمضت عيني أدعو الله أن أصل بسلام .. وفتحتهما على فتاة محجبة جلست في الجهة المقابلة لي وكان واضحاً أنها عربية وهي أيضاً ارتاحت عندما وجدت

فتاة محجبة مثلها جالسة في هذه المقطورة ثم توالت صديقاتها البنات بالجلوس حولي .. فسألتهن من أين هن ؟ ولماذا هن في مجموعة ؟ فأجابتني أنهن من تونس الخضراء وهم مجموعة من الطلبة والطالبات في إجازة ترويحية لبريطانيا ومعهم مرشد الرحلة .. وفي كل مرة كان المرشد يقوم بحسابهم ثم يعيد الكرة مرة أخرى ميتعجباً وهو يقول هناك خطأً .. إلى أن استدرك الطلبة أنه كان يقوم بحسابي ضمن المجموعة التي معه.. فالحمدلله مر الأمر على خير.. وعندما وصلت برايتون كان المطر شديداً فركبت تاكسي وعدت للسكن .. فوجدت البنات ينتظرنني عند المدخل مخافة عدم معرفتي للوسيلة التي ترجعني (للبرايتون) ولكن أخبرتهن أنني تجاوزت خوفي واستطعت النجاح بفضل الله وها أنا أمامهن .. ثم دخلت غرفتي لأستريح قليلاً.. فنزعت معطفي الثقيل وجلست على حافة السرير لأجد دقاً على الباب ، ظننتها واحدة من البنات .. فسمحت لها بالدخول .. فوجدت إحداهن تقف أمامي وهي تحاول أن تغطي وجهها بالشنطة .. لا أدري لماذا نطقت بهذا الاسم وصرخت بأعلى صوتي .. دانة .. فأجدها أمامي تضمني ونبكي معاً .. فلمتها على ما فعلته بي ، فقد تركتني وحيدة في هذه الرحلة التي كانت هي صاحبة الفكرة لها في الأساس .. والآن نحن مفترقتان عن بعض .. فكل واحدة منا في مدينة .. فقالت لي :ها أنا وفيت بوعدي وجئت أزورك وأطمئن عليك .. ثم أجدها تنظر في ساعتها لتقول إن مشرفتها تنتظرها منذ زمن في المحطة وعليها العودة الآن .. فتسحبني من

يدي معها وهي مسرعة نحو الشارع تبحث فيه عن تاكسي ليأخذنا للمحطة وبعد تلويح طويل رقت لحالنا إحدى السيارات وتوقفت لنركبها وننطلق بسرعة إلى المحطة وفي التاكسي ما أن جلسنا فيها نلتقط أنفاسنا .. اكتشفت أنني لأول مرة في حياتي لا أرتدي معطفي الطويل الذي كنت أحس أنه يسترني ، فقلت لها هذه أولى فعايلك بي يا دانة .. وعندما وصلنا مدخل المحطة مددت يدي لأدفع أجرة التاكسي لتفاجئني دانة بقولها : الله خليكي خليني أنا أدفع الحين وبعدين أنتِ أدفعي له في الرجوع.. ففكرت في كلامها ثم عرفت إنها إحدى قفشاتها المضحكة كعادتها .. فطبعاً في طريق رجوعي للسكن سأكون وحدي في السيارة وسأدفع للسائق عن طيب خاطر وإلا سيكون مصيري السجن .. فقلت لها لقد تفوقت عليّ في هذه.. وفي المحطة وجدنا المشرفة التي كانت تغلي من التوتروالقلق .. فأعتذرنا لها عن التأخير ثم بدأنا بأخذ بعض الصور معاً لنوثق الحدث التاريخي للقائنا في رحلة العمر التي جمعتنا للحظات ثم ليفرقنا القطار ثم نلتقي بعدها في الدوحة ونحلم برحلة أخرى تجمعنا معاً من جديد ..

في المطار كانت أجواء الهرج والمرج سائدة في المكان .. فالفوضى تعم الصالة وحينها أذكر أن السفارة القطرية في لندن بعثت بموفدها لمساعدة واحدة من البنات التي كانت قريبات أحدهم في السفارة .. فقد جاء خصيصاً من السفارة في لندن إلى

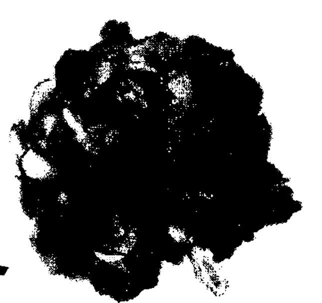
مطار (جاتويك) وليس مثلاً مطار(هيثرو) بل على وجه التحديد مطار (جاتويك) .. فبناءً على وجود هذه الطالبة ضمن مجموعة المدرسة وأذكر اسمها جيداً وأعرف قريبة من تكون والآن أنا لست بصدد الخوض في هذا الموضوع لأنني سأتطرق له لاحقاً ضمن حكاية الزهرة الثانية عشرة ..

المهم ساءني ما كنت أراه من حالة التوتر الذي عايشته البنات لأيام والسبب الرئيسي وراءه نائبة المديرة .. فكن طوال الليل ينطقن بكلمة واحدة وهي الوزن .. يا ترى ما هو وزن حقيبتي .. وهل سأرجع بحقيبتي أم سيرمون ما أشتريناه من هدايا في سلة المهملات .. كانت تلك المخاوف التي زرعتها نائبة المديرة في أذهان البنات لمآربها التي يندى لها الجبين .. فقد لاحظت المربية الفاضلة بعيني تضع حقيبة من حقيباتها الكثيرة مع حقائب البنات لتدخل مع أوزانهن ولتتخلص هي من الوزن الزائد الذي سيكون محسوباً عليها وإذا كانت الطالبة ليس لديها وزن فائض فهو زيادة الخير خيرين ، فتستغلها خير استغلال .. فاجأني كثيراً تصرفها الذي يخلو من التربية أو حتى التعليم الذي تردده باستمرارعلى أسماع الطالبات في كل صباح في ساحة المدرسة.. فكان تصرفها مفاجأة للبنات ولي أنا الضيفة التي رافقتهن الرحلة لشهر كامل وعرفت من خلاله سبب تدهور التعليم إذا ما أمسك بزمامه هذه النوعيات من الناس والتي هي بحاجة ليد من حديد توقفها وتوقف تسربها في المجتمع ..

ولكن من يستطيع مناقشتها فيما تفعل فهي الآن مديرة المدرسة المفترضة .. ومربية الأجيال القادمة ..

لا استطيع التعليق أكثر .. ولكن أتركه لكم ..

وبعدما رأيت بنفسي وبعيني المجردة تلك التصرفات راجعت نفسي وتوصلت إلى قرار عدم تكرار تجربة السفر مع مدرسة بهذا المستوى .. وترحمت كثيراً على مدارس الزمن الجميل التي بشقائها صنعت منا أجيالاً يُعتمد عليها والفضل يرجع للمدرسات اللاتي كن أمهات حفرن فينا العلم والأدب وسمو الأخلاق ..



حكاية الزهرة التاسعة

عندما رجعت من رحلتي التي كانت لبريطانيا وجدت والدي بحالة نفسية مؤلمة .. فقد كان جسداً بلا روح .. يتمنى الموت في كل ثانية .. فقد كان يسألني لماذا حكم عليّ أن أكون حبيس الكرسي من دون ذنب؟ فلم أعرف بماذا أجيبه وحاولت مساعدته بأخذه لعيادة الأطراف الصناعية .. ليصنعوا له رجلاً اصطناعية ويمشي كسائر البشر فكثيراً ما كنت أحفزه على تقبل قضاء ربه ، فلعل فيه الخير وربما سيتحسن حاله للأفضل وسيمشي كما كان في السابق .. ولكن عندما حاول تقبل ما قلته له بمجرد ركوبنا السيارة تسقط الرجل الصناعية عن ساقه على الرصيف وذلك لرداءة التصنيع ، فكان يشعر ساعتها بإحراجٍ كبير والأعين ترقب الذي سقط من السيارة .. فيبكي قائلاً : ليتني مت ولم أصل لهذه المرحلة من الخزي بين الناس ، ثم رفض إتمامه للجلسات عندما أحس بفشلهم في صنع طرف صناعي كهذا وبدائية أدواتهم التصنيعية لتلك الأطراف ، كنت أرى والدي يذوي أمامي في كل يوم حسرةً على نفسه وعلى حاله .. فنصحتني إحدى الإداريات في المستشفى أن أبحث له عن طرف

اصطناعي قوي وثابت يمكنه المشي به وهو مطمئن ولا يسقط عند التحرك به .. فسألتها كيف يمكنني تدبير ذلك؟ فقالت أنني سأجده في أوروبا وعند الألمان على وجه الخصوص ، فهم أهل الاختصاص في صناعة الأطراف الاصطناعية.. ولكن للأسف لم يكن لديها أي عنوان تعطيني إياه لهم ، فكما قصت لي حكاية ، كان رجل يتردد باستمرار على جلسات التأهيل للمشي على الطرف الصناعي الذي أتى به من ألمانيا فمن المؤكد لديه العنوان ولكن الآن توقف عن الحضور بعد بأن تحسن مشيه وتأقلم مع الرجل الصناعية .. ثم وعدتني أن تعمل كل جهدها للحصول على العنوان وستتصل بي حينها .. فخطرت لي فكرة الاتصال بأخي الذي يدرس في فرنسا والطلب منه أن يقوم بالبحث عن أي عنوان في العالم لأهل الاختصاص بالأطراف الاصطناعية.. ولكن لم يتوصل لشيء.. حاولت التفكير بعمق أكثر وطرق اي باب أمامي لعلني سأحصل على إجابة خلفه ، اذا خطر ببالي الاتصال بالسفارة الألمانية و سؤالهم عن ذلك ولكنهم تعجبوا من طلبي فهم مختصون باستخراج التأشيرات والمعاملات الخاصة بالجالية هنا في الدوحة وليسوا على علم بالمستشفيات هناك أو حتى الشؤون الطبية .. كانت الحيرة تقتلني فكنت أقول لو أن والدي سمح لي بالسفر لألمانيا بعد أن حصلت على منحة للدراسة بها لرجعت الآن وأنا خبيرة بكل ما فيها ولو عاد بي الزمن لفضلت الذهاب لهناك .. كنت أتمنى لو أني أعرف أي أحد في ألمانيا ليساعد والدي الذي كاد يموت حزناً .. ولكن في إحدى

المرات عندما كنت أزور زميلة لي وكان والدها في المكان وقد سمع عن محاولاتي المستميته لمساعدة والدي تذكر، والدها صديقاً ألمانياً قديماً جمعته الأيام به عندما كان موظفاً في إحدى الجهات التجارية.. فوعدني بمراسلته بالإيميل وسؤاله عما كنت أبحث عنه في بلاده .. ومرت الأيام طويلة إلى أن رد علينا «بيتر» وكان ذلك اسمه ، فبعث برسالة يطلب فيها لقاءنا حيث سيكون لأيام معدودة في الدوحة في زيارة عمل .. فذهبنا لمقابلته أنا وزميلتي ووالدها في مكان إقامته في أحد الفنادق وانتظرناه في بهو الفندق .. وعندما تم اللقاء بدا مستغرباً لطلب المساعدة منه ، فهو ليس بطبيب ولا دراية له بالمستشفيات والأطباء ، فهو ببساطة رجل أعمال مختص بصناعة المكاتب والأثاث فبيتر هذا رجل في منتصف الستين من العمر ، ذي شخصية محنكة وبحكم سنوات تجارته الطويلة في قطر كان يعرف تجاراً ذوا مكانة مرموقة من العوائل القطرية المعروفة في الدوحة ولكنه في ختام لقائنا به وعد بمساعدتي قدر استطاعته ..

بعد أسبوعين من لقاءنا به رد علينا بيتر برسالة بها شرح مفصل عن المعلومات التي توصل ، إليها فأخبرنا بتمكنه من الحصول على عنوان لمراكز ومستشفى متخصص في هذا المجال ، فكانت تلك هي بشرى خير لنا جميعاً وبذلك خطوت الخطوة الأولى التي هي البداية لطريق مبهم وغامض أمامي .. فبشرت والدي بالأمل الجديد الذي جعل معنوياته تتغير للأحسن وبدأت

لإعداد العدة لهذه التجربة الغريبة عليّ فقد كانت الترتيبات كلها تقع على عاتقي من ألفها إلى يائها أول ما قمت به هو حجز تذاكر السفر وحددت تواريخ الذهاب والعودة بنفسي وقمت بمراسلة المركز الألماني وإعلام مسؤولية بغرضنا وحددت موعد المقابلة بهم في ثاني يوم من وصولنا إلى هناك وراسلت الفندق الذي وصاني بيتر بالاقامة وساعدني للحصول على سعر مخفض وخاص ثم اتصلت بالسفارة الألمانية لأستعلم منهم عن شروط الحصول على التأشيرة وأذكر حينها كنا في شهر رمضان والمسلمون فيه صائمون فسألت الموظف الذي رد على مكالمتي عن أي علامة بارزة ترشدني إلى سفارتهم مثل وجود مبنى معروف أو محل مشهور في نفس المنطقة التي تقع فيها السفارة .. واتضح لي من صوته أنه سوداني الجنسية وكان ضجراً من صيامه ، فأجابني إجابته التي كدت أن أخرج له من السماعة لأخنقه وقتها فقال لي وكأنه عبقري زمانه وملخلصاً في كلمة واحدة قائلاً : آه العلم ، سوف تجدين علم ألمانيا بحجم كبير أمام مبنى السفارة وهو الذي سيدلك علينا وأنهى المكالمة دون سابق انذار ليدل بتصرفه هذا على قله فهمه واحترامه للناس ، فاتصلت به مرة أخرى لأعنفه على تصرفه الذي ينم على قلة أدبه ففوجئت بموظف مغربي يرد على مكالمتي فأخبرته بتصرف زميله في الإجابة عن سؤالي بقلة احترام وإني أود أن أشكيه عند قنصل السفارة فتدخل محاولاً تهدئة الموضوع وحاول بأقصى ما عنده مساعدتي وإمدادي بالمعلومات التي كنت احتاجها كونها الزيارة

الأولى لي وأنا مصطحبة والدايّ للعلاج فتعاطف معي هو وموظفة الشباك «حلا» التي أصبحت بعد مدة من أهم صديقاتي المقربات .. وعندما تسلمت الجوازات مدموغاً عليها التأشيرة التي أخبرني عنها الطالب السعودي « ثامر » تذكرته على الفور وتذكرت كيف كان يحاول جاهداً شرح هذه التأشيرة التي هي مفتاح الدخول إلى أوروبا وكنت أتمنى لو كان بإمكاني اخباره بأنني حصلت عليها بعد شهرين من رؤيتي للتأشيرة في جوازه ، فالآن أصبحت أماثله بحصولي على نفس المفتاح تماماً ..

كنت أعمل جهدي للتوصل لأقصى حد من المعلومات حول المدينة التي سنذهب إليها وبها المركز والمستشفى المختص بالأطراف الاصطناعية .. وأخذت معي للضرورة أرقام السفارة القطرية في ألمانيا والملحقية الطبية هناك .. وقررأخي مرافقتنا في أول أسبوعين لنا هناك ثم يرجع للدوحة لأتحمل مسؤولية والديّ وحدي .. كان القرار صعباً بعض الشيء بالنسبة لي فكيف لي أن أبقى وحيدة دون أن يؤزرني أحد في تحمل مسؤولية مريضين هما والدي ووالدتي .. ولكن لا يمكنني الرفض أيضاً لأنه سينتهي كل ما خططت له إن رفضت وكان عليّ التسليم بالأمر ، فأنا صاحبة الفكرة وعليّ تحمل تبعات أفكاري الفذة فتجربة ألمانيا هي التي ستثبت نجاحي أو فشلي في تجارب حياتي القادمة ..

وقبل سفري بأيام بعد أن ودعت كل من عرفتهم في حياتي تذكرت السيدة التي عرفتها في بريطانيا ، فأرسلت رسالة من

هاتفي المحمول أودعها وأسألها إن كانت لها رغبة في شيء أو طلب ما في ألمانيا ففوجئت باتصالها وطلبها مني زيارتها قبل السفر .. فحددت لي موعداً للقاءها في بيتها وعندما وصلت وجدت بناتها مستقبلات لي بحفاوة بالغة ثم أخذت مجلسها بعد بأن رحبت بي وبرؤيتي لها قبل رحيلي للسفر إلى ألمانيا .. ثم أخبرتني أن لقاءها بي في (برايتون) كان مقدراً ليس أكثر لكي يتعرفن عليّ في (برايتون) ، فبعدما تركتهن ورجعت لقاعة الدراسة ساعتها لم يمكثن في الفندق فلم تعجبهن الغرف ورجعن إلى لندن حيث يقيمن وقالت السيدة إن إحدى بناتي استعجبت ما حصل قائلةً وكأن القدر أخذ لنا موعداً مع هذه الفتاة القطرية لنتعرف عليها في تلك الدقائق ونعود إلى لندن حيث أتينا منها ثم استطردت في حديثنا قائلة : وكان هناك سر لم تكتشفيه حينها ولكني سأبوح به الآن ، ففي تلك الأثناء كنت في حالة يرثى لها لفقداني ابني العزيز على قلبي فقد مات في حادث مروري مروع.. وكنت متألمة جداً لفراقه ، فقد كان قريباً مني كثيراً لم ينتهي حزني حتى جددته وفاة حفيدي الصغير وابن بنتي في نفس الفترة أيضاً ، فتلقيت الضربة الثانية الأكثر إيلاماً لي بإنكسار آخر.. لانفطار قلب ابنتي على فقدان ابنها الغض ولأنني عرفت وجع الأم عندما تفقد فلذة من فلذات قلبها ولا كبدها .. فذويت وخفت روحي وإزداد مرضي فاقترح أبنائي المجيء بي إلى بريطانيا فقد أنسى علتي ويبرأ جرحي على من فقدتهم منذ أيام قليلة .. وعندما التقيت بكِ صدفةً لا أعرف لماذا انشرح قلبي لك

فأخذتكِ من يديك لأعرفكِ على، بناتي فبوجودك معنا مسحتِ لسويعات قليلة الحزن الذي سكن قلوبنا منذ زمن وأنسيتنا وجعنا الذي أدمى مآقينا .. فكانت البنات سعيدات وهن يرونني وأنا أنسى دموعي معك .. فأضفتِ لذلك اليوم سروراً وذكرى جميلة نتذكره بحديثنا عنك كلما اشتقنا للفرح.. أو إذا ما نسينا أن نضحك منذ زمن ..

تصرف تلك السيدة الجليلة أثر فيّ كثيراً .. فمن منا يستطيع مداراة دموعه التي تذرف بحرقة ليغطيها ببارقة أمل وفرح .. فلم أدرك أنها امرأة بهذه القوة والبأس، ففي الوقت الذي كان قلبها ينزف حزناً على من فقدتهم كان ثغرها باسماً طوال الوقت وصوتها يجلجل في المكان وهي تشرح لي بإسهاب مبحرةً بي بقلبها الموجوع نحو ماضيها وزمن صباها الذي أخذها الحنين إليه لتلقي روحها على شواطئه .. وليلامس قلبها المفطور ويجبر كسره ..

فأهدتني هذه السيدة الجليلة جوهرة ثمينة .. أضيفها إلى مجموعتي وصندوق مجواهرتي، فقد علمتني السيدة بتصرفها هذا كيف أكون إنسانة نبيلة ..

في ألمانيا وفي مدينة «ويرزبرج» وجدت ضالتي وبعد عناء وبما أنه لا يوجد في هذه المدينة مطار مباشر كان عليّ أن أبحث عن أقرب مدينة بها مطار وقريبة لها .. وبعد بحثي المطول وتنقيبي وقع اختياري على مدينة فرانكفورت .. وسافرنا إليها في

يوم ١٠ اكتوبر ٢٠٠٨ لتحط طائرتنا بعجلاتها على مدرج مطار فرانكفورت الدولي، ثم انطلق بنا تاكسي نحو مدينة «ويرزبرج» حيث يعيش بيتر العجوز وهو الذي دلني على مركز ومستشفى الأطراف الاصطناعية فيها .. وبحمد الله وصلنا الفندق واستعدنا لليوم المرتقب في الغد كي نلتقي بالذين سيحاولون معي تحقيق حلم والدي للوقوف على رجله والمشي من جديد ..

في ذلك الصباح اتجهنا إلى المركز واستقبلنا العاملون فيه بكل ترحاب .. وقاموا بأخذ القياسات بأجهزة لم أر مثلها في حياتي واستعجبت لمدى دقتهم في كل شيء ، فقد وضعوا تصوراً للوضعية التي سيكون عليها والدي فيما بعد.. وفي غمرة أخذ القياسات .. كنت ألاحظ الفرح العارم في وجه والدي الذي بدا لي كطفل سعيد بحذائه الجديد .. فحمدت الله الذي أعطاني القدرة على استرداد ابتسامة والدي يوماً ..

فقال لنا أحد المختصين إن الطرف الاصطناعي الذي يقومون بتصنيعه يتطلب القليل من الوقت حتى يتم تجربته لاحقاً وأننا يمكننا السفر للدول القريبة من ألمانيا حتى تتم الانتهاء من إنجاز الطرف الاصطناعي بالكامل .. فأستأجرنا سيارة قادها أخي وسافر بنا إلى فرنسا لنزور أخي الثاني الذي كان يدرس هناك .. طبعاً أخي الذي كان في فرنسا لم يصدق الإنجاز الذي قمت به .. ولم يصدق بأنني أخيراً وصلت بوالدي إلى ألمانيا ، حيث وجدت فيها مبتغاه.. فقضينا ثلاثة أيام معه في باريس .. رأينا فيها

أهم معالمها ونحن نجوب شوارعها الحديثة والعتيقة .. ولكن كانت مشاويرنا كلها بالسيارة ، فلم أشعر بأنني اكتشفت كل شيء فيها وخاصة أنني من عشاق رياضة المشي وحرمت من ممارسة ذلك العشق ، لأن وضع والدي كان لا يسمح لي بأن أنوء بنفسي بعيدةً عنهم لاكتشاف باريس ، ولكن تمنيت أن أفعلها في زيارة ثانية ..

في أحد الأيام وبينما كنت أجلس بصحبة والدي في مقهى فوكيت الشهير وجاءنا النادل بقائمته الفرنسية ، فعملت قصارى جهدي لقراءة المكتوب فيها من أطعمة حتى أطلب لي ولوالدي فقد كنا جائعين كثيراً ولكن مجهودي ضاع هباءً فقد عجزت عن فك طلاسم القائمة ، فشعرت بالجهل حينها وخطرت لي فكرة وبناءً عليها أخذت قراري وهوالبدء في دراسة وتعلم اللغة الفرنسية بمجرد الرجوع للدوحة فتعلم اللغات هو أبسط هواياتي التي أحب ممارستها ..

في طريق العودة لألمانيا .. كان لابد لنا المرورعلى هولندا ، لذلك قررنا قضاء يومين في امستردام .. كانا أجمل يومين قضيناهما فيها .. فكان لي نصيب أن أدخل متحف (مدام توسو) الشمعي دون الوقوف في طابور طويل مع المنتظرين لأخذ التذاكر ، بل كان كل شيء سهلاً يسيراً وسنحت لي الفرصة لأخذ صور مع المشاهير والفنانين والرؤساء .. وتناولت هناك الجبن الهولندي المشهور بأنواعه وأكلت البطاطا المقلية الغريبة في

شكلها واللذيذة في طعمها .. وركبنا العربة التي تجرها الأحصنة كما في الأفلام وطفنا شوارع وأزقة امستردام المليئة بقنوات المياه الراكدة وعواماتها التي أصبحت بمثابة بيوت لأغلب سكان المدينة .. ورأيت أيضاً بعض الأشياء التي هي ممنوعة في جميع دول العالم إلا أنها مباحة هنا في مدينة امستردام وعلى مرأى الملأ ، فقد كانت تعمل بمقولة الممنوع مرغوب في هولندا .. عجيبة أنتِ يا أرض دون كيشوت بطواحينك الحمراء الهوائية ..

على فكرة دون كيشوت شخصية اسبانية ومنذ طفولتنا ونحن نعتقد أنه هولندي ، لأنه أراد محاربة طواحين الهواء .. ظناً منا أن طواحين الهواء موجودة فقط في هولندا ..

واجهت في اليوم الأخير لنا في مدينة امستردام موقفاً غريباً بعض الشيء ، فقد تركت والديّ في الفندق ليرتاحا من المشوار الذي قضيناه في إحدى ساحاتها وكنت قد لمحت أحد المتاجر القريبة التي كانت تبيع حلويات ذات نوعيات رائعة وممتازة من الشكولاته.. ففكرت بشراء كمية لا بأس بها لأوزعها على من أحب من معارفي .. وبينما أنا أمشي في طريقي رأيت أحد الأشخاص يمشى معي ويماثلني في وسع خطواتي فألتفت إليه فوجدته شاباً طويلاً يتحلى بوسامة بعض الشيء ، في البداية توقعته خليجياً لسمار بشرته البرونزية .. وجرأته على المشي معي جنباً إلى جنب .. فتوقفت عن المشي ونظرت إليه استفهم منه مشيه معي ؟ فقال : لي «هالو» حينها عرفت أنه ليس عربياً فسألته

بالإنجليزية لماذا يمشي معي ؟ فقال لي ممكن أن أدعوك على فنجان قهوة .. نظرت إليه باستغراب وحنق ولكن في داخلي كنت سعيدة ، فهذه أول مرة في عمري يدعوني أحدهم على فنجان قهوة ولكن لا يعرف الشخص الذي كان واقفاً أمامي أن طلبه مرفوضٌ مرفوضٌ .. فهو لم يكن يعرف على من عرض طلبه.. فأنا إذا كنت أجد المطعم مختلطاً أشعر بالحرج للأكل فيه، والآن حان الوقت كي أسود صفحات حياتي البيضاء بقهوته السمراء مثله ، مسكين هذا الرجل يضيع وقته معي دون علمه بمن أكون ..فرد متسائلاً من أين أنتِ ؟ فقلت له إنني من قطر.. يبدو أنه لم يفهم ماهي قطر .. فرد علي طلبه مرة أخرى وهو هائم ينظر إلى ملامح وجهي فانتبهت له غاضبة وقلت له آسفة أنا عربية والبنات لا يجلسن في المقاهي مع الشباب، فقال لي أنا أريد أن أتعرف عليك وغرضي واضح وصريح وهو الارتباط و الزواج ثم سألني هل أنتِ من الهند أو باكستان فلا يهمني المهم أننا من نفس الملة فأدركت حينها أنه شاب هندي ، فكدت أضحك أمامه وقاومت رغبتي فقد قلت له أنا عربية ولكن هو مصر على أنني إما من الهند أو باكستان بقوله لي أنتِ هندية أم باكستانية وأيضاً يفكر بالزاوج مني في القريب العاجل جداً .. ففكرت في المنتظرين عودتي ، والديّ مع أخي بينما أنا هنا أخطط لمشروع خطبة مع هذا الأسمر الطويل .. الذي أقول له (ثور فيقول لي أحلبوه) فعدلت له من وقفتي قائلةً له : أنا سائحة عربية ولست من هذا البلد ولا أعيش فيه وسأعود لألمانيا بعد ساعتين من الآن وأنا في

طريقي لذلك المحل الذي يبيع الشكولاته والحلويات فأنا متأسفة، فأنا لا هندية ولا هم يحزنون .. فشعر الشاب المسكين بخيبة أمل وكان ذلك واضحاً في عينيه وقال لي معتذراً إنه يتمنى أن يجد فتاة من جنسيته ليتزوجها .. فهو لا يريد الزواج بأجنبيه لا تفهم عادات الشرقيين وعندما لمحني وأنا أمشي ظن أنني من الهند والبلدان التي من نواحيها ، فركض مهرولاً نحو نصيبه ولكنه لم يتوقع أبداً أنني قد أكون غير ذلك .. فودعته وهو يكرر دعوته لي مرة أخرى في احتساء القهوة معاً في يوم ما مع زوجته الهندية التي مازال يبحث عنها إلى الآن ..

وبينما كنت أمشي فكرت في عقلية هذا الشاب المغترب الذي يريد الزواج من واحدة من جنسيته ويحبذا لو من بلده .. على غير عقلية شبابنا الخليجيين الذين ينظرون إلى البنات الخليجيات كعيون البومة وعند مواجهتهم بالحقيقة يصيبهم مرض الخرس وإذا أراد واحد منهم الزواج فيتزوج من دول شرق آسيا أو المغرب أو الأمريكتين .. كتغيير في نوع السلالة متعذراً بالمهر والتزامات الزواج من بنت البلد ثم عندما يشيخ ويشبع ممن تزوجهن ترى عينيه تلتفتان يمنة ويسرة على بنات بلده .. فقد اشتاق لرائحة دهن الورد التي تفوح منهن ..

عندما رجعت وأخبرت أهلي بما جرى لي بدأوا يضحكون عليّ ممازحين .. وأخيراً بان حظك وآخرتك هندي .. فكنت أرد عليهم قائلة: ولكنه وسيم وطويل .. فأخذوا يضحكون على

الموقف بتعليقات هزلية .. بينما كنت حينها واقفة أمام المرآة أنظر فيها إلى جبهتي .. فسألني أخي بغرابة لماذا تفحصين جبهتك .. فأجبته بأنني أفتش إن كانت تتوسطها نقطة حمراء ..

في أحد الأيام حددت موعداً للقاء الرجل الذي كان له الفضل في مساعدة والدي .. الألماني بيتر وزوجته لأشكره على صنيعه معي وأعرفه على من كانوا معي والداي وأخي .. ثم أهديته مجسماً ذهبياً لأحد المراكب القديمة وزينته بعلم قطر وما أن رآه حتى فرح به كثيراً قائلاً إنه ذكره بالمراكب الراسية على شاطىء بحر الكورنيش في الدوحة ، ثم ابتهج قائلاً لا بل سأضعه على طاولة مكتبي ليذكرني بكِ كابنة بارة بوالديها وبقطر التي أنجبت مثلك .. كلماته أسعدتني وحملتني أمانة أن أكون سفيرة لكل شيء أمثله هناك من دين أو هوية أو بلد .. وعرفت من نظراته لي حجم اشتياقه لابنه الوحيد الذي تركه بعدما تزوج واستقل عنهم في مدينة كولونيا التي تبعد عنهم كثيراً وكل بداية عام يسافرون إليه للاطمئنان على أوضاعه بعيداً عنهم ..

مضى أسبوعان على وجودنا في ألمانيا ، تحتم على أخي العودة للدوحة لأبقى أنا في ألمانيا وفي يدي زمام الأمور كلها وازدادت المسؤوليات الملقاة على عاتقي .. فبعد يومين بالضبط من رجوع أخي للدوحة .. اكتشفت بمحض الصدفة أن أدوية والدي الخاصة بكليته المزروعة كافية لثلاثة أيام فقط وإلا ستتوقف كليته عن العمل إن توقف عن تناول أدويته وكنت قد

وكلت والدتي بإحضار الأدوية وأعلمتها بالكمية التي سيحتاجها والدي ولكنها نسيت وأحضرت ما يكفي لأسبوعين فقط .. فاتصلت مُذعورة بأخي أسأله ما العمل في المصيبة التي أنا فيها ، فحاول مساعدتي بإرسال الأدوية بالبريد المستعجل .. ولكن مكتب البريد رفض الاستلام ..لأن ألمانيا من الدول التي ترفض إدخال أدوية وعقاقير إلى أراضيها .. وهو لم يعد باستطاعته العودة إلينا مرة أخرى ، وكان عليّ حل مشكلتي بنفسي لأنني لم أتابعها بنفسي منذ البداية ووكلت الأمره إلى والدتي هذا ما قاله لي غاضباً وبعدها أقفل الخط في وجهي .. فجلست على أرضية الغرفة أحضن نفسي وأبكي على موت والدي المحتوم بعد ثلاثة أيام وبعد بكائي قررت أن أقوم وأفتش عن الحل .. فلن أتركه يموت هنا ..فقد جئت به إلى هنا لأعطيه أملاً في الحياة .. لا لكي أرجعه في تابوت الموت .. فنزلت إلى قسم الاستقبال في الفندق لأسألهم عن أقرب صيدلية في المنطقة فأعطوني عنواناً لصيدليتين.. فخرجت أجوب الشوارع أبحث عن الصيدليتين اللتين وصفهما لي الموظف.. فوجدتهما مغلقتين وعندما سألت عن سبب الإغلاق قيل لي أن اليوم ويوم غد من الأيام الدينية المقدسة عندهم ويعتبران اجازة رسمية في الدولة ككل .. وقع الخبر جعلني أحس بمطرقة ثقيلة حطت على رأسي فهشمته ، فلا أرى طريقي بعد الضربة التي تلقيتها .. فقد أصابتني الضربة بالعمى تماماً .. ولا أعرف كيف أتصرف الآن في المعضلة الجديدة ، فحاولت أن أتماسك وأخبر والديّ بالموضوع .. ثم

خطرت لي فكرة بينما كنت أخبرهما فقلت لهما فلنستقل تاكسي ونسأل السائق عن أية صيدلية مناوبة في هذا الوقت وخاصةً أنني أمر بحالة طوارئ .. فركبنا التاكسي وأخذنا السائق بالفعل لإحدى الصيدليات المناوبة والقريبة ، فدخلنا الصيدلية وجلس والديّ عند باب المدخل بعيدين عني بعض الشيء بينما كنت أنا منشغلة مع الصيدلانية في شرح المشكلة وكيفية الحصول على الأدوية وإذا بصوت امرأة ألمانية كبيرة في السن .. كانت قد دخلت الصيدلية وعندما رأت والدي ظنته ألمانياً مثلها فأخذت تتكلم معه وتشكو له الحال ، بينما كان والديّ ينظران إليها في دهشة متعجبين انفعالها في الشرح والشكوى وهي توجه كلامها كله لوالدي المدهوش لحظتها .. وكان الاثنان لا يفقهان كلمة مما قالت ، فهما يعرفان فقط قول شكراً بالألمانية ..

فانتبهت لما يدور بعيداً عنا فوجهت لها الصيدلانية كلمتين توقفت بعدهما عن الحديث وهي تحدق في والدي باستغراب وتنظر إلينا كلنا غير مؤمنة بما قالته لها .. فقد قالت لها الصيدلانية بالألمانية ومازلت أتذكر الكلمتين .. (ناين دوتش) .. يعني بلغتهم الألمانية الدارجة .. أنهم ليسوا ألماناً ثم استدرت نحوها ووجهت لها كلامي قائلةً بالعربية «هذا المسكين الذي تشكين له همك سيموت دون أدوية وأنت حسبتيه من جماعتك وأفضتِ بمشكلتك له ولكن على الأقل أعملي حساب لزوجته التي تجلس بجانبه».. فوجدت والديّ يضحكان على تعليقي على الموقف

الذي تعرضا له .. بينما كنت ساعتها أحاول الحصول على حل لمشكلة والدي .. ثم وجدت الصيدلانية تطلب مني ضرورة إحضار وصفة طبية مختومة وموقعة من أي طبيب معالج حتى تصرف لي الأدوية التي سيتم احضارها من مدينة أخرى خصيصاً لنا ويمكنني الحصول عليها بعد يومين من الآن لكون ألمانيا كلها في إجازة هذين اليومين .. فأستعطفتها قائلة ولكن أنا لا أعرف أي طبيب أو عيادة هنا وإن وجدت لابد أنها ستكون مغلقة مثل جميع الأماكن التي زرتها اليوم .. فكانت في غاية اللطف معي ، فقد أمسكت بيدي وخرجت معها إلى الشارع ، حيث وقفت جانباً ثم بدأت تشير إلى الشارع الآخر الذي يقع مقابل الصيدلية لتقول لي اذهبي هناك حيث توجد عيادة مفتوحة وبها طبيب عام وعليكِ إحضار الوصفة الطبية منه ومختومة بختمه كي اصرف الأدوية لوالدك .. فدفعت كرسي والدي المتحرك وخرجنا من الصيدلية متجهين إلى العيادة التي أشارت إليها الصيدلانية في منتصف الطريق كي آتيها بالوصفة الطبية كما طلبت .. ودخلنا العيادة الصغيرة جداً والموجودة في زقاق ضيق في زاوية الشارع القريب من الصيدلية المناوبة .. فاستأذنت الممرضة بضرورة إدخالنا على الطبيب ، فالحالة مستعجلة ونحن نريد الوصفة الطبية فقط ولا نحتاج لعلاجات، أخرى ثم أخرجت لها أشرطة الحبوب وعلب الأدوية الفارغة التي كانت معي لتستوعب ما أقول .. فغابت لحظات ثم عادت إلينا ثم قالت إن الطبيب يطلب منك الدخول وحيدة فتعجبت من طلبه فوالدي هو المريض

وليس أنا ولابد منه معاينة المريض وليس المرافق ولكن أمري لله سأدخل وأرى الطبيب المعجزة هذا .. فدخلت غرفته وفبدا الطبيب كبيراً جداً في السن ثم اكتشفت المفاجأة الكبرى الطبيب من الجيل القديم ويكلمني بالألمانية ولا يفقه في الإنجليزية شيئاً .. أي أنه لم يفهم كلمة مما قلته له .. فاستنجدت بالله أن يساعدني في هذه المشكلة وطرأت لي فكرة الكلام معه بلغة الأشارة التي وجدتها الأسهل في التعبير عما أوده .. فوقفت أمامه كمن تود الشروع في البدء بالعرض التشويقي لمعرفة اللغز ، فألغيت أهم حاستين من حواسي لأصبح من أبناء جمعية الصم والبكم .. بتأشيري على كليتي تارة ثم أرسم له بالاشارة طريقة استئصال كلية من أحدهم وزرعها فيّ كمريضة تارة أخرى .. أعني بذلك عملية زراعة الكلى ثم أخرجت له أيضاً ما كنت أحمله معي من أشرطة الحبوب وعلب الأدوية الفارغة .. شعرت حينها كأنني ممثلة على خشبة مسرح بحركاتي تلك وهو أحد الجماهيرالمتابعة لما أفعل وقد شَخص بنظره نحوي بعدما ملأت وجهه علامات التعجب والاستفهام وكان شكلي حينها مضحكاً.. ولكن لم يكن يهمني ذلك فقد كان الأهم عندي أن يفهم الطبيب المبجل الجالس في وجوم أمامي العرض الترفيهي والفني الذي قدمته بإتقان لإيصال المعلومة إليه كي يرأف بي ويكتب الوصفة الطبية التي طلبتها وحينها يتحدد مصير والدي في الحياة بعد هذين اليومين اللذين هما المدة التي أمهلنا القدر بها ، إما أن يعيش بعدها والدي أو ينتهي اليومان بموته .. ولا أعرف إن

كانت المعلومة قد وصلت إليه بعد أدائي لهذا العرض البهلواني المضحك .. وتأكد نجاحي عندما رأيته أخذ ورقة وقلماً وطلب مني العلب الفارغة والأشرطة لينسخ أسماءها على الورقة ثم وقعها وختمها ولكن لكي يسلمها لي ، عليّ دفع رسوم الاستشارة للممرضة خارج الغرفة .. وأي استشارة يطلب مني أن أدفع ثمنها فهو لم يقم بشيء عدا أنه قام بنسخ أسماء الأدوية في الوصفة الطبية ، بينما أنا التي قدمت له عرضاً تمثيلياً صامتاً أبدعت فيه وتفوقت على الأسطورة «شارلي شابلن» بحركاتي تلك .. وما أن سلمني الورقة وقبل أن يجف حبرها كنت أركض نحو باب الصيدلية أسلمها للصيدلانية الموجودة فيها وأرجوها .. أن تشدد على إحضار الأدوية قبل هذين اليومين إن أمكن لأنها مسألة حياة أو موت.. وعندما هممت بالخروج من الصيدلية .. طلب مني والدي أن أسال الصيدلانية سؤالاً شعرت أنه محرج جداً أن أسأل هذا السؤال في هذا المكان لأن إجابته بديهية .. ترى على ماذا كان يود أن يسأل والدي العزيز .. تخيلوا معي ..

قال لي ونحن في غمرة ما مررنا به من ظرف سيئ .. أسأليها إن كان عندهم صبغاً خاصاً للشنب .. فجاوبته : «هاه» فتحت فاهي على آخره .. متعجبة لما سمعت وقلت في نفسي ربما لم أسمعه جيداً .. فكرر طلبه مرة أخرى وهو يؤشر لي على شنبه الذي ملأه الشيب فأصبح أبيضاً .. فقلت له : والدي الحبيب نحن أين وأنت أين فنحن في جهنم ونارها وأنت في الجنة

ونعيمها .. يا أخي أنا خائفة إنك تموت بعد هاليومين .. وأنت تفكر في صبغ شنبك ثم هذه صيدلية للأدوية ولا أتوقع أنهم سيبيعون فيها ألواناً وأصباغاً للشعر والشنب .. قال لي محتجاً : ولكن في الدوحة يبيعون في الصيدليات كل شيء حتى الأصباغ وأكيد هنا نفس الشيء .. ثم أنه سؤال ولن تخسري شيئاً إذا سألتيه.. وكنت واقفة مترددة وأنا أنظر حولي على الأرفف إذا ما كانت هناك عبوة صبغ أو لون للشعر .. فلم أجد ولكن لم أرد أن أكسر بخاطره وهو ينظر إليّ متى سأنطق وأخرج الدرة من فمي .. فرجعت إلى الصيدلانية لأسألها وكلي حياء من طلبي الغريب وغير المرئي فقد كانت الأرفف خلفها مليئة بأشكال وألوان من الأدوية المختلفة أنواعها .. فصعقها ما سمعته مني عندما نطقت بسؤالي ، فقد بدوت كمن أهانها ولم أحترم المعطف الأبيض الذي كانت ترتديه .. فتغيرت تعابير وجهها على الفور ثم ابتسمت على سذاجة سؤالي لتشير بسبابتها إلى المحل المقابل لها بالضبط .. قائلة : ذاك المحل يبيع جميع الأمور المختصة بالشعر وخلافه .. وهنا صيدلية للأدوية فقط .. أحسست أن بسؤالي هذا مسست كرامتها المهنية وربما ظنت أنني بلهاء لا استطيع التمييز بين المحلين اللذين يقابلان بعضهما بعضاً بينما أوضحت لي الفرق الشاسع بينهما .. ولكن ماذا أفعل فتلك هي ضريبة الحب فأنا مستعدة لفعل أي شيء يسعده .. فأنا أعشق هذا الرجل بجنون ..

دخلنا المحل المقابل للصيدلية والمتخصص في أدوات الشعر من الألف إلى الياء .. وطلبت منها ما أراد والدي .. صبغاً لشنبه.. فاختارت البائعة الشابة لوناً له يخفي الشيب الذي في شنبه وهو البني المحروق القريب من لون شعره .. وعلمتني كيف أصبغه له.. وخرجنا من المحل ومعنويات والدي مرتفعة جداً ونسي تماماً موضوع الدواء .. بينما أنا لم أنس وبقيت أتحرق ليومين انتظر فيهما اتصالاً من الصيدلانية في أية لحظة .. إلى أن فعلتها وبشرتني بوصول أدوية والدي .. فهرولت إليها مسرعة ودفعت لها ما أرادت وأخذت الأدوية منها بعدما ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي وشكرتها على إنقاذها حياة والدي وإنهاء أزمتي وعندما رجعت الفندق .. فرح والدي بالخبر ومن شدة فرحه طلب مني أن أصبغ له شنبه .. ففعلت ما طلب مني وفي البداية فوجئ قليلاً بشكله الجديد وبعد مضي اليوم بأكمله تقبل الأمر ولكن في صباح اليوم التالي فوجئت بعكس ذلك ، فقد كان لنا موعد مع الممرضة المختصة بالعلاج الطبيعي والتي كانت تقوم بشكل دوري بتمرين عضلاته لتصبح أقوى للمشي وتقبل الطرف الاصطناعي الجديد في جلسات متكررة .. ولكن يومها كان حزيناً وغير راضٍ عن شكله ويريد أن يرجع لون شنبه كما كان .. آه يا إلهي كيف لي أن أقنعه أن ذلك مستحيل وحاولت معه مراراً ولكن لم يقبل وطلب مني أن آخذه إلى نفس المحل لتعطيني البائعة الشابة مادةً تزيل اللون عن شنبه ليعود كما كان وعندما نفذت ما أراد ودخلنا المحل بدت البائعة الشابة

سعيدة بنتيجة الصبغ وعندما أخبرتها بأن والدي لا يرغب فيه ويريد أن يعيد لون شنبه كما كان في السابق ، أصيبت بصدمة ، فقالت إن ذلك محال ولكي يخف اللون ويبهت يجب عليه تكرار الغسل أكثر من مرة إلى أن يرجع اللون كما كان في السابق وهذا هو الحل الوحيد الذي نصحتنا به .. حينها بدا والدي يأئساً في ازالة الصبغ نهائياً عن شنبه .. ثم رفض حضور جلسة تمارين العلاج الطبيعي مع الممرضة .. معانداً كالطفل ، فقد كانت حجته القوية خوفه من قد يراه اختصاصيوالطرف الصناعي ويفاجأوا بالتغيير الذي حصل في وجهه وهو لا يحب أن يرمقوه بنظرات الاستغراب والدهشة .. حينها دعوت الله أن يساعدني على أن اقنع طفلي الكبير للذهاب معي إلى جلسته والحمدلله أن ربي استجاب لي واقتنع بالذهاب بعد توسلات عدة فقد أخبرته بأنني سأقوم بإدخاله لقسم العلاج الطبيعي من الباب الخلفي حتى لا يلحظه أحد والحمدلله اقتنع بفكرتي .. وبعد عدة أيام تآلف مع شكله الجديد والجميل بالنسبة للجميع .. ثم طلب مني طلباً آخر.. فقلت له .. آه إذاً نحن هنا في رحلة صيانة لك .. تفضل فأنا مارد المصباح الذي خرج لك في ألمانيا .. وأخبرني بطلبه وهو إجراء فحص لعينيه فالسكر دمر أجزاء من شبكية إحدى عينيه.. فقمت بما طلب وأخذت له موعداً في مستشفى الجامعة الخاص بالمدينة والذي كان يعتبر أفضل مستشفياتها .. ووجدنا رقيهم في التعامل معنا ، فقد كان عدد كبير منهم يتحدث الإنجليزية بطلاقة .. وكانت الطبيبة ماهرة جداً فقامت بفحص

والدي فحصاً دقيقاً ، فقد كانت شديدة الاهتمام بكل تفاصيل مرضه وعلى إثر ذلك قدمت لوالدي العلاج اللازم .. فاتجهت بعدها إلى الصيدلية لصرف الأدوية واتصلت بشركة مواصلاتهم طالبة تاكسي ليرجعنا إلى الفندق .. وبينما نحن جلوس على كراسي الحديقة الموجودة في باحة المستشفى ننتظرالتاكسي أخذنا جمال منظر الأشجارالمورقة بتدرجات ألوان الخريف البرتقالية إلى عالم آخر ، فكنا مستمتعين جداً به فهو منظر لم نألفه في حياتنا فلم نر امتزاج لون السماء برتوش خفيفة لغيمات بيضاء صغيرة تعانقها الأشجارالضخمة والطويلة ، فكانت الألوان مختلطة مع بعضها البعض ، فزرقة السماء الصافية اختلطت بأوراق الشجر الذهبية والبرتقالية والحمراء لترسم لوحة في غاية الروعة وقد كانت بعض الأوراق ذات الألوان النارية متناثرة على الأرضية الخضراء بعشبها الرطب .. كنا في تلك الأثناء في حالة هيام مفتونين بطبيعة بلادهم الرائعة .. والذي أيقظنا من سباتنا ذاك هو سؤال سائق التاكسي لنا إن كنا نحن من طلبناه .. فركب والديّ السيارة وعندما جاء دوري توقفت ولم استطع الركوب معهما لأنني تذكرت فجأة أنني لم أدفع رسوم العلاج ولم يسألني أحد عن رسوم الاستشارة ايضاً .. فمنظرالحديقة التي كانت تبدو كالخيال أخذ عقلي ونقلني إلى عالم روحاني أخاذ .. كان ذلك بالنسبة لي بلسماً لما مررت به وعايشته من أوقات صعبة .. ولكن يجب عليّ الرجوع ودفع الرسوم حتى وإن نسوا أن يسألوني عنها ، فالإسلام ديني ولا تُقبل فيه السرقة أوالغش حتى

وإن كانت سرقتي هي لحفنة من اليورو فعذاب الضمير لن يتركني أهنأ مدى عمري .. فرجعت للمستشفى ودخلت غرفة الكشف لأسأل الطبيبة عن كيفية دفع رسوم العلاج .. فاستغربت عدم وجود والديّ معي ..فسألتني عنهما فأخبرتها بأنهما ينتظراني في التاكسي ريثما أدفع رسوم العلاج والاستشارة .. فقد نسيت الدفع ولم أتذكر إلا في اللحظة الأخيرة عندما وصل التاكسي ، فأين أتوجه لأدفع ما علي من رسوم ؟ نظرت إليّ بتعجب ونظرت إليّ نظرة حانية وقالت: غريبة كان بإمكانك أن تذهبي دون دفع المبلغ أو الرسوم التي كانت عليك ولن يلاحظ أحد عدم دفعك ، فلماذا رجعت مصرة على الدفع ؟ نظرت إليها مندهشة من سؤالها.. وأجبتها قائلة : أنا مسلمة وديني علمني أن هناك في يوم الحساب ستعرض أعمالنا أمام الخلق جميعاً على شاشة عظيمة جداً وسيشاهد العالم أجمع شريط حياتنا وما فعلناه من حسنة أو إثم .. وأنا لا أريد يومها أن أشعر بالخزي وأنا واقفة بين يدي الله.. والكل يشهد سرقتي لحقك وحق العاملين في المستشفى ، فهذا حرام في الإسلام ورسولنا الكريم وصانا بالصدق والأمانة .. فأين اذهب لدفع أمانتكم التي عندي؟ وجدتها استبشرت وارتاحت لحديثي معها .. ففتحت قلبها لتقول لم أعرف أن الدين الإسلامي به هذا السمو الأخلاقي .. فكنت أظنه دين وحشية وإرهاب وقمع للنساء .. ولكن النظرة تلك شككت في أمرها عندما رأيتك في الوهلة الأولى وعرفت أنك مسلمة من حجابك ولبسك المحتشم .. فظننت أن الإسلام حجاب

واحتشام بالرغم من أن حجابك لم يكن يطغي على جمالك الهادئ وتناسق قوامك .. ثم رأيت والديك معك ولاحظت أنك تدفعين عربة والدك الثقيلة بكل قوتك وما أنتِ إلا شابة صغيرة في مقتبل العمر.. عرفت منها أنكم المسلمين ترأفون وتهتمون بأمر الوالدين كثيراً ثم بطلاقة لغتك في شرح حالة والدك لي .. عرفت أن المسلمات متعلمات ولسن بجاهلات كما كنت أظن ولكن استماتتك وإخلاصك في الرجوع لدفع مبلغ العلاج المستحق عليك .. جعلاني أدرك جمالية دينك من خلال هذا الصنيع .. فعرفت أن الإسلام ليس حجاباً واحتشاماً فقط إنه أخلاقُ أيضاً.. فشكراً لتوضيحكِ للصورة المشوشة التي كانت في ذهني عنكم كمسلمين، ثم قامت من على كرسيها لتصافحني بحرارة وهي تشد على يدي بقوة وفي عينيها نظرة سعادة لتوصلها للحقيقة التي تمثلت أمامها للتو عن الإسلام .. فخرجت من عندها إلى قسم المحاسبة و دفعت لهم مستحقاتهم، ثم بدأت أمشى نحو باب الخروج متجهة صوب التاكسي، بينما فكري كان مشغولاً بكل كلمة قالتها لي الطبيبة .. فلم أحسب أن مجرد تشبثي بالصدق والأمانة حملني مسؤولية إعطاء فكرة كاملة عن أمة ظلمها الإعلام وفئة ضالة من أبنائها .. فالحمدلله الذي منحني القدرة على إعطاء صورة حسنة فيما أؤمن به ..

يا سبحان الله على الرغم من أنني وجدت الإسلام في ديار غير المسلمين كما وجده العالم الجليل محمد عبده عندما زار

الغرب.. فألمانيا كانت من الدول التي لمست فيها رقي جيلها الجديد ومرونة قوانينها مع المهاجرين إليها .. وهذا ما أكده لي سائق تاكسي فلسطيني الجنسية ، الذي التقيته مرة عندما أوصلنا إلى المستشفى في أحد الأيام ، فقد حدثنا عن تجربة حياته في ألمانيا وارتياحه التام في التكيف والعيش فيها وكان لهذا السائق موقف أحبُ ذكره لكم .. فقد كان شهماً معي في إحدى المرات التي واجهت فيها لحظات صعبة هناك .. ففي آخر توصيلة له أعطاني رقم هاتفه لأستعين به في أية حالة طارئة تمر بي .. وبالفعل واجهت حالة طارئة في اليوم الأخير لي في ألمانيا واتصلت به عندما شعرت بعجزي في وسط المدينة وضاقت بي السبل لإيجاد محل يبيع حقائب سفر كبيرة للأغراض الكثيرة التي توالدت وتكاثرت في نهاية الرحلة .. فجلست على الرصيف أبكي وأندب حظي ، فقد تعبت من البحث والسؤال عن محل يفي بغرضي ولكن لم يستطع أحد فهمي أو إرشادي لما أريد ، ولم يكن لدي متسع من الوقت لإضاعته في البحث عن محل لحقائب كبيرة ، بينما كان والديّ ينتظران عودتي للفندق ومعي ما خرجت من أجله وفي نفس الوقت لم أرد ازعاج بيتر العجوز بالاتصال به لعلمي بانشغاله الدائم بتجارته وأعماله ، فلا أريد ارهاقه بطلبي الغبي هذا .. وكنت أخاف أن أتعامل مع أي شخص غريب ، فأنا لا أعرف نوايا الناس التي يبطنونها ، فاتصلت به وأنا شديدة الحذر من المكان الذي سيأخذني إليه بعد أن أوضحت له في الهاتف ما كنت أريد .. فجاء السائق الفلسطيني وأذكر أنه كان

يعرج في مشيه بسبب إعاقة كانت في قدمه ، فأشار لي إلى المحل الذي كنت أجلس عند بابه على الرصيف قائلاً إن المحل به عدد من الحقائب التي أبحث عنها ورآني والعبرة تخنقني ، فقال : لا تخافي هذا هو أقرب محل يبيع حقائب سفر وسأدخل معك إن شئتِ وسأترجم لك أيضاً ما تريدين استيضاحه من البائعين ..

فاهدأئي فسوف تحصلين على ما تودين بإذن الله ودخل معي المسكين المحل ليسألهم عما أردت ، فأخذونا على الفور إلى الطابق الذي به تشكيلة من الحقائب وكنت سعيدة لعثوري على الحقائب التي أردتها رغم غلاء أسعارهما ولكنني كنت احتاجهما فاشتريت اثنتين منهما .. ثم حملهما السائق عني إلى سيارته المتوقفة عند المدخل وأثناء قيادته ليعيدني إلى الفندق .. قال لي خبراً لم أتوقعه أبداً فقال لي مودعاً بأنني قد لا أراه مرة أخرى ، فهذا اليوم هو اليوم الأخير له هنا في مدينة «وريزبرج» التي عاش فيها لفترة لم تكن قصيرة ، لأنه سينتقل للاستقرار في مدينة «دوسلدورف» التي رحلت إليها زوجته وأبناؤه في الأسبوع الماضي وسيلحق بهم يوم غد .. واختارمدينة «دوسلدورف» بالذات لأن بها أقلية مسلمة عددها معقول وتحتوي على جامع كبير يجتمع فيه المسلمون ويحتفون بمناسباتهم الدينية في جو يعم فيه الترابط والوئام وقد اشتاق كثيراً لتلك الأجواء.. وكنت سعيدة حظ باتصالي به اليوم ولو جربت الاتصال به في اليوم التالي لما استطاع مساعدتي حينها وهو في مدينة أخرى ..

فحمدت الله على عظيم لطفه بي وارشادي للاستعانة بهذا الرجل الشهم وقمت بتوديعه عند مدخل الفندق وأنا أدعو له بالهناء في مدينة «دوسلدورف» الألمانية، حيث سيعيش فيها هو وأسرته الكريمة ..

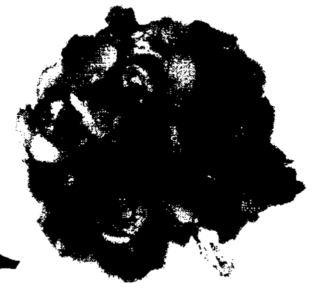
وأخيراً وبعد عدة جلسات لتجربة الطرف الاصطناعي الذي صنع خصيصاً لوالدي .. استطاع والدي الوقوف على رجله ممسكاً عكازاً رباعياً .. وكان هذا بحد ذاته إنجازاً كبيراً في تحقيق جزء من حلمه بالوقوف والمشي مجدداً ، فبدأ يتحرك لمسافات قصيرة رويداً رويداً مستعيناً بعكازه الرباعي وتطايرت دموع السعادة من عينيه ، فلم يصدق نفسه أنه سيقف عليها يوماً ، وقضيت ليلتها سجوداً وشكراً لله الذي رد لوالدي بسمته واعطاني المقدرة على إسعاده .. فقمت بالاستعداد والترتيب للعودة إلى الدوحة ، فاتصلت بالملحق الطبي المختص بشؤون المرضى القطريين لكي يساعدني في تأكيد حجز التذاكر بعدما كنا قد أجلناها لأيام أخرى وفقاً لمتطلبات علاجه ولكن عندما أخبرتني الموظفة بعدم توافر مقاعد شاغرة على درجة رجال الأعمال أو حتى الدرجة الأولى وهذا يتطلب منا أن نكون على قائمة الانتظار حتى يتم اخطارنا بوجود مقاعد على هاتين الدرجتين .. شعرت حينها بالصدمة وخفت من تكرار مشهد مبيتنا في مطار أتاتورك الدولي ، كما حدث في تركيا ، فحاولت الاستبسال ومعالجة الموضوع قبل التوجه لمطار فرانكفورت

ونحن على كف عفريت ، فلا نعرف إن كنا من المسافرين أو من المتفرجين على الذين سيرجعون إلى بلدانهم .. آه كم أخاف أن تتكرر مشكلة تركيا معي مرة أخرى ، فلن أسامح نفسي أبداً أن تكررت هنا.. فرجوت الموظفة المسؤولة في الملحق الطبي مساعدتي لأنني واجهت الظرف نفسه في تركيا ومن الصعب عليّ أن انتقل بهما من مدينتنا التي تبعد عن مدينة فرانكفورت ثلاث ساعات مسافة الطريق ، حيث المطار هناك ، خاصةً انهما مريضان وكبيران في السن ومن ثم يكونان على قائمة الانتظار ، وقد لا يسمح لهما بالسفر لعدم وجود مقاعد شاغرة وحالة الاثنين لا تسمح لهما بالجلوس في الدرجة السياحية وبالتالي نقضي ليلتنا على مقاعد المطار كالعادة ، فقد أصبحت خبيرة بنتائج هذه الأمور ولن أسمح بتكرار التجربة التي مررنا بها قبلاً في تركيا لنعيدها هنا في ألمانيا.. فهدأت من مخاوفي بعد أن أفصحت بوجود فندق للمسافرين في المطار ويمكنني المكوث فيه إذا اضطررنا لذلك في حالة عدم وجود شواغر، بينما هي ستعمل جاهدة للتوصل لحل وأذكر حينها كانت خطوط الطيران التابعة لدولتي الحبيبة قطر غير متعاونة أبداً معنا وصرح لي بذلك مسؤول كبير في السفارة والملحقية الطبية وجربت ذلك بنفسي عدة مرات ولم أجد منها ما يشجعني للسفر عليها مرة أخرى .. وطلبت مني الموظفة تجريب المحاولة ، فقد يوفقني الله ويحقق أمنيتي في الحصول على ثلاثة كراسي لنعود إلى الدوحة وأرسل الملحق الطبي بدوره كمساعدة لنا سيارته ليقلنا إلى مدينة

(فرانكفورت) ونحن كما قلت مسبقاً لا ندري هل سنرجع إلى الدوحة في هذا التاريخ المميز ١١ نوفمبر ٢٠٠٨ أم سنبقى بحسرتنا في ألمانيا ننتظر الفرج.. وبعد الدعاء والتضرع لله وعدة مناقشات مع شركة الطيران توصلنا لحل واحد عقيم وهو العودة إلى الدوحة على مقعدي في الدرجة السياحية لي ولوالدتي ، بينما يجلس والدي على المقعد الوحيد الشاغر في درجة رجال الأعمال كونه أكثر شخص يحتاج لعناية خاصة .. فلم يكن أمامي إلا قبول العرض على مضض ، بينما كانت والدتي طوال الرحلة تتأوه وجعاً من ألم ظهرها المزمن وتوجه لي الملامة على موافقتي للجلوس في الدرجة السياحية على الرغم من أن حجزنا للتذاكر لم يكن كذلك ولكن بالنسبة لي حتى لو اجلسوني على جناح الطائرة لقبلت ، فالمهم كان عندي الرجوع بأية طريقة ، فوجهت لها تساؤلي قائلةً : لو أنها كانت مكاني هل تفضل البقاء في المطار وهي في حالة ترقب وقلق لتعرف إذا ما كان لها نصيب في أحد المقاعد المرفهة والمريحة على الطائرة أم ستقبل كما فعلت بالمتوافر على الطائرة المتجهة إلى الدوحة في سبيل العودة بالمريض بأية طريقة .. ردت عليّ بآهة من آهاتها دون التعليق على كلامي وصمتها كان كافياً ودليلاً على رجاحة عقلي واختياري ..

وعند وصولنا مطار الدوحة .. كل من استقبل والدي من معارفنا في صالة القادمين لم يعرفه من الوهلة الأولى .. فقد تغير

شكله عن السابق كثيراً .. فقد أرجعته بلمساتي السحرية عشر سنوات للوراء وكانت ترتسم على ثغره ابتسامة تقول: وإن كنت أخطو خطواتي برجل اصطناعية .. فها أنا أقف وأمشي على رجلي وسأعيشك يا حياة بكل تحدٍ وإصرار ..



حكاية الزهرة العاشرة

أصبت في شهر أبريل من عام ٢٠٠٩ بانتكاسة قوية في صحتي، فقدت على أثرها كثيراً من وزني وطاقتي .. فقد كان الألم ينقض عليّ فجأةً ليوقظني من نومي دون سابق إنذار ، ليبدأ معي سلسلة عذابه اليومي وعندما حاولت مواجهته بسلاح الدواء احتار الأطباء في تفسير أسبابه ولم يستطيعوا حمايتي منه بأدويتهم إلى الساعة ولم يتوصلوا للسبب الحقيقي الذي يجعل الألم يداهمني بشكل فجائي ليعلن إذلالي لعقاقيره التي طالما حاولت الصمود أمامها كي لا تدخل جسمي ولكن كان لابد منها عندما أكون جاثية بكامل جسمي على أرضية الغرفة وقد تساقط على الرخام دموع عيني لتشكل برك صغيرة ، بينما أتوسل إلى الوجع للتوقف عن إيلامي أكثر وأن يمهلني قليلاً من الوقت حتى أبوح بأسراري .. ووجدت أنه الأفضل لي أن أرتجل عن صهوة الروتين الذي أعايشه كل يوم لأرتاح قليلاً من مقاومة دوامة الظروف القاسية التي مررت بها في تلك الفترة بسيطة .. فاخترت إيطاليا .. لأنسى نفسي فيها .. وأجرب فترة النقاهة للعيش في سلام روحي .. واختارت إحدى صديقاتي المجيء معي .. بعد

أن وافق والدي مضطراً على هذه الرحلة ورق قلبه للحالة التي وصلت إليها خاصةً أنني كفتاة لم يكن مصرحاً لي السفر إلا ضمن مجموعة أو مع أحد الإخوة أو صديقة مقربة جداً للعائلة .. وتفهم والدي حالتي التي يئس الجميع من إخراجي منها وتنبه لحاجتي للراحة والاستشفاء الروحي .. فأذن لي بالسفر لإيطاليا لعشرة أيام أرجع بعدها كما كنت من قبل في قمة حيويتي واشراقي .. واتجهت للسفارة الإيطالية لاستخراج تأشيرة السفر منها وشاء القدر أن أقابل السفير شخصياً وأشاركه إحتساء القهوة بمكتبه الفخم جداً في السفارة ، حيث كان لا يسمح بدخوله لأي كان من الأفراد ولكن دخلتها عندما فتحت لي مصراعيها والسبب كان للسعي لإيجاد حل لمشكلة صديقتي الشخصية بعد أن طلب منا مقابلته شخصياً وبمكتبه في السفارة وبعد أن تم إنهاء الأزمة في ختام الزيارة طلب منا أن نعلمه بانطباعنا عن إيطاليا وشعبها ..

وحتى أزور أهم مدنها في عشرة أيام كان عليّ التخطيط في توزيع الأيام عليها ، فبدأتها بمدينة روما التي قضيت فيها ثلاث ليال.. واخترت السكن في فندق يقع في قلب ساحة كنيسة الفاتيكان التي كانت تفتح أبوابها لي كسائحة لأشاهد الفن المعماري الرهيب الذي كان فيها ، فرأيت العديد من القاعات التي زُينت أسقُفها باللوحات المنقوشة بجمالية رائعة بالموزايك وأخرى مرسومة بدقة متناهية من قبل أشهر رساميها المبدعين ، مجسدة قصصاً وملاحم بطولية مضت منذ زمن وقضت عليها

السنون وفيها شاهدت أيضاً طقوس الصلوات التي كانت تقام حينها وسمعت ترانيمها لأول مرة في حياتي .. وعند الخروج من عالم الفن الراقي إلى فضاء ساحة الكنيسة في الخارج حيث تجد عالماً آخر من متع الدنيا بألوانها الكثيرة لتخرجك من أجواء الصفاء السائد هناك في الكنيسة إلى عالم البيتزا والجيلاتو المنتشر بكثرة خارج أسوارها.. فعندما تتجه بنظرك يميناً تواجهك مجموعة من محلات خبز البيتزا وبيعها بالوزن ، حيث كانت البيتزا تباع على شكل عجينة مخبوزة بالطول و تباع بالكيلو ، فقد كانت هذه أول مرة في حياتي أرى ميزاناً يقيس كتلة قطعة صغيرة ومربعة من عجين مخبوزة وعليها مسحة ناعمة من صلصة طماطم حمراء وموزع عليها بتناسق وريقات الريحان الخضراء مع انتشار دوائر صغيرة مشكلة من لونين الأبيض والأحمر لحبات طماطم كرزية الحجم وكرات من جبنة الموزاريلا الهلامية .. مشكلة بألوانها تلك لوحة مخبوزة بالفرن لعلم إيطاليا .. بصراحة كان طعمها لذيذاً جداً ، بينما في الجانب الآخر المعاكس لها توجد محلات متخصصة في صناعة أفضل وألذ أنواع البوظة الإيطالية أو التي تسمى بلغتهم جيلاتو .. فأحببت أن أجربها ، فقد كنت محظوظةٌ لوجودي في عقر دار صناعة أشهر بوظة في العالم ، فقلت في نفسي لابد لي من تذوق أفضل نكهاتها فاخترت نكهة التراميسو لأنها أشهر طبق حلوى عندهم وخصوصاً أن القهوة من أهم محتوياتها ، فتعمدت عن قصد هذه النكهة للأسباب التي ذكرتها من قبل وبالفعل شكل لي

البائع كرة ثلجية شهية من جيلاتو الترامیسو وعندما حاولت تقريبها من فمي شممت رائحة كحول غير محبذة ومنبعثة من الكرة الثلجية المثبتة بإتقان على قمع البسكويت الأنيق .. فسألت البائع عن سبب الرائحة المنبعثة من الجيلاتو وأنا أبين له نفوري منها ، فأندهش قائلاً إنها الأكثر طلباً كونها لذيذة لاحتوائها على نسبة بسيطة من الكحول .. فاستغربت قائلة له : حتى الآيس كريم لم يسلم عندكم من الكحول إذاً ماذا يتناول أطفالكم هنا إذا كان هذا الآيس كريم ممتزجاً بالكحول ، فهل هذه طريقة تعودونهم بها منذ الصغرعلى شرب الكحول .. فلا حول ولا قوة إلا بالله ورميتها دون أسف عليها في سلة المهملات القريبة من المحل .. فتعجب لفعلتي وقال موضحاً إن الترامیسو سواء كان جيلاتو أو جاتو لابد أن تحتوي على نسبة من الكحول ، إنما نكهات الفواكه أوالمكسرات فبعضها خال تماماً من الكحول واقترح عليّ أن أجرب غير الترامیسو التي اخترتها من قبل فقلت له أريد أن أتذوق نكهة خالية تماماً من الكحول فناولني ملعقة صغيرة من جيلاتو الفستق الحلبي الأخضر وحتى لونه كان مبهجاً وأحسست بحبات الفستق المطحونة في فمي وبعد أن تذوقته وأعجبني طعمه كثيراً صرت مدمنةً له طوال العشرة أيام التي قضيتها في إيطاليا .. وفي الليلة تلك فكرت حينها ماذا لو لم أسأل البائع عن الرائحة الغريبة المنبعثة من جيلاتو الترامیسو .. بالتأكيد كنت الآن في حالة سُكر واضحة أمشي مترنحة وأغني منتشية في شوارع روما المزدحمة بالسياح ..

روما مدينة تشتهر بالنوافير الكثيرة التي تتوسط ميادين وساحات شاسعة وجميعها تشكل تحفاً فنية فائقة الجمال وتعطي إحساساً بالانتعاش بمجرد رؤية المياه المتدفقة من حول التماثيل المرمرية مختلفة الاشكال .. فقد تكون تمثالاً لعروس البحر أو أسداً ثائراً أو نصباً تذكارياً لأحد الشخصيات المخلدة في تاريخهم .. وبدوري قمت بزيارة أشهر نافورة في روما التي تسمى بـ«فونتنا دي تريفي».. وهي نفسها التي صور عندها الفنان عادل امام فيلمه (عنتر شايل سيفه) عندما يدخل بركة النافورة ليجمع العملات النقدية الراكدة في قاعها بينما يسرق أحدهم جلبابه الذي تركه خارج البركة كي لا يتبلل فيترك بركة النافورة بما فيها من عملات نقدية ليركض خلف السارق في مشهد كوميدي ضاحك وتذكرت هذا المشهد عندما رميت قطعتي النقدية في بركتها ورميت خلفها جميع أمنياتي كما يفعل كل من يزور روما أملاً في العودة إليها مرة أخرى ..

وغنيت بمحاذاة «فونتنا دي تريفي» الأغنية الشهيرة «قولي أحبك كي تزيد وسامتي» أقلد فيها كاظم الساهر عندما صور أغنيته تلك والعرائس يرقصن من حوله عندها ..

وفي مدينة فلورنسا التي قضينا فيها يومين متتابعين أعجبني كثيراً شكل البيوت الصغيرة المنتشرة على سفح الجبل الكبير المطل على أحد أهم أنهار المدينة ويتوسط سفح الجبل الكبير تمثال بالحجم الطبيعي للفنان مايكل أنجلو مصنوع من البرونز بكامل تفاصيله الدقيقة .. والتي أصبحت الآن مزاراً للسياح من

شتى دول العالم .. وفلورنسا مدينة مشهورة بمحلات المعاطف الجلدية ، حيث تجد المحلات منتشرة بشكل كبير في الأزقة القديمة للمدينة .. فأغراني أحد محلاتها بشراء حقيبة يد نسائية راقية جداً .. وصار عندي طقس جديد أمارسه في كل مدينة إيطالية أزورها ، فقد كنت أجرب طعم جيلاتو الفستق في كل مدينة ومن أكثر من محل ، لاكتشف أن الذي تذوقته في روما كان ألذ جيلاتو في إيطاليا ..

لم نجد أية صعوبة في انتقالنا بين المدن ، فقد كنا نستخدم القطار كأسهل وسيلة إلى أن وصلنا إلى فينيسيا أوالبندقية كما يطلق عليها أيضاً والتي قضينا فيها يومين لنكتشف أن القطار هو الوسيلة الوحيدة التي تسير على الأرض وعدا ذلك كل وسائل المواصلات مائية بحتة فتبدأ بالجندول وهي رمز وشعارالمدينة ووسيلة النقل الموجودة منذ الأزل في تلك المدينة ثم مع تطور الزمن .. تواجدت المراكب ذات المحركات السريعة وكان الأقل كلفة عن جميع الوسائل والأكثر استخداماً بالرغم من بطئه هوالباص المائي الذي يتوقف لدقائق عند كل ميناء لينزل ركابه ويصعد آخرون في المحطة ثم يتحرك ويبحر نحو المحطة التالية ويفعل نفس الشيء .. كانت فينيسا مدينة غير عادية في كل شيء .. ولاحظت أن أغلب المعروضات في واجهات المحلات في فينيسيا هي مصنوعة من الزجاج بجميع ألوانها وأشكالها .. كل شيء من الزجاج حتى المجوهرات والأكسسوار مصنوعة من الزجاج وعرفت السبب بعد السؤال والاستفسارمن موظف

الفندق حين اقترح علينا أنا وصديقتي أن نقوم بزيارة أحد أشهر جزرها السياحية لوجود أكبر مصنع مختص بصناعة الزجاجيات في تلك الجزيرة وبالتالي هذا سبب رؤية كل شيء فيها زجاجياً فقد كانت فينيسيا ككل مدينة خيالية بمعنى الكلمة .. فهي تحتوي على ما يقارب ١٥٠ قناة مائية و ٤٠٠ جسر تربط المدينة ببعضها البعض والتي هي في الأساس مقسمة إلى ٦ مناطق تعرف بـ«سيستيري».. وتتوسط المدينة ساحة مشهورة يطلق عليها ساحة سان ماركو توجد فيها مقاهٍ مثل جميع المقاهي في العالم ولكن تتميزهذه المقاهي بوجود منصة مرتفعة عن الأرض وخاصة بكل مقهى لوحده وعلى هذه المنصة عازفون لفرقة أوركسترا ضخمة ، تقوم بدورها بعزف أعذب المقطوعات الموسيقية على مدار الساعة وفي الهواء الطلق .. وعند الجلوس في هذا النوع من المقاهي تأتيك الفاتورة مشتملة على ثمن القهوة وثمن ما سمعته من مقطوعات موسيقية .. فلكل شيء ثمنه في هذه المدينة الساحرة ..

وأخيراً ميلان التي كانت آخر مدينة زرتها في إيطاليا ولم تشبع فضولي ، لأنني لم أستطع اكتشافها عن قرب بسبب الجو البارد جداً والأمطار الغزيرة التي ظلت تهطل باستمرار وعلى مدار الثلاثة أيام التي وجدنا فيها هناك .. والتي استطعت التعرف فيها على ساحة كنيسة «الدواموا» الكبيرة التي بالقرب منها مجمع تجاري ذو صيت وكان موقعه في مركز المدينة ويتميز بقبة بارزة كبيرة وهي على مقربة من ساحة «الدواموا» المشهورة في

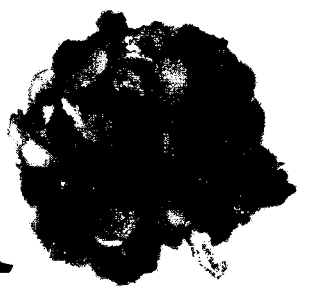
ميلان.. واكتشفت شيئاً عجيباً في هذا المجمع وهو أنه عندما كان يلفحني برد شديد بسبب هبوب رياح شتوية قارسة تجمدني في مكاني من شدتها على الرغم أنني توقعت أن فصل الربيع يبدأ في إيطاليا منذ الشهر الرابع ، ولكن خابت توقعاتي هذه المرة بسبب الهواء البارد في داخل المجمع أيضاً ، فكنت أقوم بالبحث في أي ركن من أركانها عن الدفء ، ثم اكتشفت فجأة بعد بحثي الطويل أن المجمع مفتوح من جهاته الأربع ..

في الفندق وفي آخر ليلة لي في ميلان .. هالني منظر لم آلفه في حياتي من شاب كان يتحلى بشيء من الوسامة ويبدو أنه ذو تعليم راق ، لم يلحظ وقوفي بجانبه وأنا أنتظر لأتسلم مفتاح الغرفة من موظف الاستقبال .. بينما كنت ألاحظه جيداً ولاحظت الصديقة الاجنبية التي جلبها معه وتاركاً لها الحبل على الغارب لتتكلم مع موظف الاستقبال ، تحدد وتختار ثم تطلب الرحلات السياحية التي تريد القيام بها وتختارما تشاء من القائمة ، بينما هو صامت كالثور يجر حقيبتها خلفه ثم سلمها لعامل الفندق بعد ذلك .. وشبك يده بيدها وتوجها نحو الباب للخروج واكتشاف ميلان ، ولاكتشف أنا بعد تسليمه جواز سفره للموظف أننا نحمل نفس الجنسية .. أشعرني تصرفه هذا بالاشمئزاز منه ومما كان يفعل وتساءلت في نفسي ..ألهذا يحجم شبابنا عن الزواج من بناتنا العفيفات وتكون حجتهم واهية بلا أساس؟ هل سبب الإحجام هذا هو تلك العيون الملونة وأشكال البنات المنحطة اللاتي لا يُعرف لهن نسب إن كن بنات حلال أو بنات زنى أو في كم حضنٍ ارتمين ..

عند مدخل الفندق الذي أقمنا فيه كان هناك رجل عربي من أصول مغاربية يعمل بواباً في الفندق وبمجرد رؤيته لنا ونحن نخرج من الباب حتى يأتي إلينا متطوعاً من نفسه ليقدم لنا الوصايا العشر في أخذ الحذر والحيطة من اللصوص المتربصة بالسياح في شوارع ميلان وعلينا المحافظة على متعلقاتنا الشخصية من السرقة بالحرص عليها .. ومن كثرة ترديده لوصاياه وبشكل يومي كان يشعرني بإحساس أحاول تفنيده طوال الوقت ، ولكن لا أدري كنت أنا وصديقتي نشك في كونه إما لصاً سابقاً وتاب عن السرقة أو إنه يعمل ضمن شبكة من السارقين والنشالين وأصبح خبيراً بما يفعلونه بالسياح واكتشفت الإجابة في آخر يوم لي في الفندق في ميلان ..

فعندما جاءنا سائق سيارة الليموزين الذي حجزناه من قبل ليوصلنا للمطار وذهبنا لنركب في السيارة .. ظهر أمامنا البواب العربي مجدداً عند المدخل قائلاً : لا داعي للقلق سأحضر الحقائب من الردهة في الحال بينما أنتم تركبون السيارة وكان يساعد السائق في وضعها في شنطة السيارة ونحن نراقبه من المرآة العاكسة في السيارة بعدما سمعنا كلامه ووثقنا به وجلسنا في السيارة مستعدين للتوجه للمطار وكنت حينها أحمل بيدي كوباً ورقياً به قهوة وأردت أن أرميه في سلة المهملات فخرجت من السيارة أبحث عن مكان سلة المهملات .. وعندما هممت بالركوب في السيارة مرة ثانية لفت انتباهي عدم وجود حقيبتي الحمراء الكبيرة في شنطة السيارة وكان السائق يستعد ليحرك

السيارة متجهين إلى المطار.. فأستوقفته فجأة ونزلت من السيارة أتساءل عن حقيبتي الحمراء الكبيرة فنحن مسافرتان ، فأين اختفت الحقيبة الأخرى ؟ فهي حقيبة سفر كبيرة يستحيل أن يسرقها أحد في الفندق ويركض بها دون أن يلاحظه أحد رجال أمن الفندق .. فوجدته يضرب مقدمة رأسه يدعي النسيان وإنه فاته تذكر الحقيبة الثانية في ردهة الفندق ليوهمني بصفاء سريرته ونسيانه لها دون قصد منه .. فذهبت معه لأجد حقيبتي مرمية في زاوية بعيدة في ردهة الفندق .. فوجهت له كلاماً متمنيةً أن يكون فهم قصدي منه .. فقلت : له صدق الذي قال إذا أردت أن تسرق فأسرق جملاً .. وهذه الحقيبة ليست بجمل بل إنها ثروة للسارقين والنشالين الذين كنت تنصحنا أن نحتاط منهم والمنتشرين هنا وهناك ولم تعلمنا أن السرقات أيضاً تحدث أمام أعين الناس في الفندق المشهورعالمياً .. وصحت فيه بغضب ضع الحقيبة في شنطة السيارة الآن وأمام عيني .. فسحبها إلى السيارة مطرقاً برأسه نحو الأرض خجلاً من فعلته .. وكان عليه أن يخجل من نفسه فلم يعد شاباً معتوهاً صغيراً في العمر كي لا يلام على فعلته ولكنه كان رجلاً في نهاية الخمسين من عمره .. أي أنه حان وقت توبته الآن من هذه الأفعال الشائنة .. ولكن ماذا أقول في نفوس دنيئة غرتها الدنيا بزينتها وتناست خشية الله بعدما مُسحت من قلوبها مخافته يوم السؤال ..



حكاية الزهرة الحادية عشرة

بعد مرور عام على رحلتي لإيطاليا .. انشغلت بأخذ دروسٍ في اللغة الفرنسية كما وعدت نفسي بذلك عندما كنت مع والدي في مقهى فوكيت وواجهتني مشكلة اللغة في فرنسا .. وفكرت بعد أن تعلمت بعض أساسيات اللغة تجربة الدراسة في البلد الأم لاكتسب اللغة بشكل مكثف وأسرع ولتتعود أذني على سماع مفردات اللغة من الشعب نفسه وعن قربٍ أيضاً وهي فرصة لي للاستمتاع بالطبيعة والأجواء الباريسية التي طالما سمعت عنها .. ولأنني متأكدة من عدم ممانعة والدي لسفري إلى فرنسا وذلك لوجود أخي فيها للدراسة .. فلن أكون وحدي في باريس .. والحمدلله لم أجد معارضة من أحد في تنفيذ خطتي التي ستكون مدتها شهران ومسارها قرابة الشهر أو أقل في باريس وأربعة أيام في لندن ويوم في دبي لأنني سأكون في رحلة ترانزيت

لأرجع إلى الدوحة وأقضي فيها يوماً للاستعداد للسفر مستكملةً رحلتي مع والديّ إلى تايلاند لقضاء أسبوعين فيها كنوع من الترويح عنهما وإجراء الفحوصات لهما .. فقمت بالترتيب للرحلات تلك التي تبدأ من برج إيفل في فرنسا وحديقة

الهايدبارك في بريطانيا ولتنتهي بجولة على ظهر أحد الفيلة في منتجعات تايلاند الإستوائية فاستعدت لذلك بالحجز المسبق للفنادق وتذاكر السفر ، فقمت بإجراء اتصالاتي بالسفارات في تلك الدول حتى تساعدني في بعض الأمور التي تحتاج مساعدة منهما ، فمن السفارات من تعاون معي بكل احترام وتفانٍ ومنهما من رد عليّ باسلوب فظ خلا من الدبلوماسية والأدب ومنهما من نقض وعده في آخر ثانية وتكاسل عن أداء واجبه تجاهنا كمواطنين يمرون بلحظات حرجة .. فعرفت بذلك الكثير من الأسرار عن كواليس العمل في سفارات ترفع على مدخلها علم بلادي قطر ..

في أول الأمر بدأت بتجهيزاتي لمدينة باريس وهي المحطة الأولى والرقم واحد في خطتي ، فبعد البحث والتقصي عن معهد لتعليم اللغة الفرنسية في باريس ، فوجدت ذلك في الإنترنت .. فقد كنت أريد جمع شيئين هما التعلم والسياحة في نفس الوقت.. وقد وجدت ضالتي بعد جهد مضنٍ من البحث والسؤال عن ذلك المعهد الذي كان يقع في وسط باريس وقريباً جداً من أكثر المتاحف شهرةً في العالم وهو متحف اللوفرالشهير بلوحاته ومقتنياته النادرة ، فقمت بمراسلتهم بالإيميل وأخذت كل المعلومات التي كانت تهمني عن المعهد من طريقة التدريس وساعات الدراسة وعنوان المبنى بالضبط .. ومن ثمَ طلبت من أخي الدارس هناك إيجاد سكن مناسب لي .. لأنني لم أرد السكن مع عائلة أو السكن في فندق يتغير نزلاؤه في كل يوم وأنا لا أعرف

الحالات التي سيكونون عليها في آخرالليل وذلك عن تجربة سابقة لي في (نيوكاسل) في بريطانيا .. فاختار لي شقة في مبنى متعدد الطوابق في شارع الشانزليزيه تقطنه عوائل خليجية غرضها العلاج في باريس ولأكون أيضاً على مقربة منه يفصلني عنه شارع واحد .. وكان ذلك ما أردته أنا أيضاً .. فعندها قمت بالترتيب للسفر، فحجزت التذاكر وعند الحجز واجهتني مشكلة صغيرة لم أعرف حلها إلا بعد جهد جهيد وهي أن الدرجة التي سأسافر عليها توفر خدمة سيارات الليموزين التي تستقبل المسافرين على متنها في جميع البلدان التي تتوجه إليها طائراتها إلا الرحلة المتوجهة من باريس إلى لندن لأنها لن تكون على خطوط الطيران نفسها ، إنما سيتم الحجز لي على خطوط الطيران الفرنسي «إير فرانس» وهي لا توفر خدمة الليموزين أبداً في جميع درجاتها .. وعليّ أن أقوم بإيجاد وسيلة تنقلني إلى مطار شارل ديغول بباريس وبأية طريقة وخصوصاً أن رحلتي المتوجهة إلى لندن ستقلع في الصباح الباكر.. وعليّ في مطار هيثرو أن أجد من يستقبلني .. لأنها المرة الأولى التي أدخل فيها لندن من بوابة المطارلأزور العاصمة البريطانية لندن وحيدة دون أن يرافقني أحد .. فأرقني التفكير في هذه المعضلة والبحث عن حل يلائمني، فقد أصبت بفوبيا من سائقي سيارات التاكسي ولاأريد المخاطرة في أكثرالمطارات أزدحاماً في باريس ولندن وخاصة إذا ما عرفوا أنني غريبة عن البلد ، فسوف أكون لهم صيداً ثميناً .. فأتعبني التفكير في حل هذه المشكلة وبالأخص لمطاري دولتين

لم أزرهما من قبل وتذكرت صدفة نصيحة أحد الزملاء بالاستعانة بالسفارة في حالة احتياجي لأي مساعدة ، لأنهم سوف يتكفلون بالأمر ويقدمون لي المساعدة على الفور .. فقررت تجربة الاتصال بالسفارتين وأطلب مساعدتهما لي ..

فاتصلت أولاً بالسفارة القطرية في باريس وشرحت للموظفة العربية التي كانت تعمل بالسفارة مشكلتي فأعطتني جُل اهتمامها بعد أن سمعتني بإهتمام وطلبت مني مراسلتهم على البريد الالكتروني للسفارة وأرسل كل تفاصيل الرحلة مرفقة بالبيانات الشخصية الخاصة بي ووعدت بالمساعدة وعمل اللازم لحل المشكلة ومن ناحيتي طلبت من أخي عنوان الشارع واسم ورقم المنطقة التي سأقيم فيها في باريس فبعث إلي خطأً عنوان سكنه ومكان إقامته وأنا بدوري أرسلته للسفارة القطرية بباريس على اعتبار أنه عنواني الذي سأقيم به لاحقاً .. وحمدت الله أنني وجدت من سعى لحل مشكلتي في باريس .. ولكن بقيت الخطوة الثانية مطارهيثرو في لندن .. فمن الذي يمكنني الوثوق به هناك ليرشدني ويحل مشكلتي .. فاتصلت بالسفارة القطرية في لندن وكنت واثقة من مساعدتهم لي ، لأنني حسب ما أذكر عندما كنت في رحلة السفر إلى برايتون مع طالبات المدرسة الثانوية في عام ٢٠٠٨ أرسلوا مندوباً من السفارة إلى مطار جاتويك المدينة البعيدة بعض الشيء عن لندن من أجل المساعدة وتخليص الإجراءات بعد علمه بوجود قريبة له في الرحلة معنا .. فاستبشرت بهم خيراً لأنني كنت أود منهم ارشادي لشركة آمنة

أوعلى الأقل أن يوفروا لي سيارة عن طريقهم وسأقوم بدفع تكاليف ذلك .. ولكن اتصالي بهم فاق غير فكرتي عنهم وأصابني بالدهشة من الأسلوب الوضيع الذي تحدث به الموظف معي والذي ادعى المواطنة وأنه نائب السفير، فقد كلمني بأسلوب فج وأشعرني باستحالة أن يكون قد دخل عالم السلك الدبلوماسي أصلاً ثم سألني قائلاً : ولماذا نساعدك ، فهل أنتِ ضمن وفد آتٍ من الدولة أو أنك مسؤولة مهمة في الدولة حتى نوفر لك أحداً يستقبلك ويرشدك ، نأسف فهذه ليست مهمتنا تجاه المواطنين العاديين ، فشعرت بالمحاباة حينها ، فما الذي كان يعنيه عندما جاءنا مندوبهم في رحلة برايتون إلى مطار جاتويك لمساعدة إحدى القريبات التي كانت طالبة معنا .. ثم وجدته لان في حديثه قائلاً : لماذا هذا القلق فأنتِ أمامك أيام كثيرة احتفظي برقمي عندك واتصلي بي قبلها بأيام وسأهتم بأمرك .. حينها ختمت مكالمتي قائلة له : أنا لا أطلب إحساناً منك أنا أطلب الإرشاد من سفارة بلدي في لندن وإن رفضتم مساعدتي سأتدبر أمري بنفسي ولا بد بأنني سأجد من يساعدني ، ثم أرسلت إيميلاً على عنوان السفارة القطرية في لندن موضحةً فيها مطلبي الوحيد ..

أملاً في أن أجد صدى مطلبي عند السفير نفسه وأرفقت مع الرسالة جميع البيانات عني وعن موعد الرحلة ولم يأتني رد منهم.. بل العكس تلقيت اتصالاً من موظفة عربية من السفارة نفسها تستنكر ارسالي لهذا الإيميل ولم تقدم لي أية مساعدة ، لا

هي ولا المسؤولون الذين عرفوا بظروفي .. وتأكدت حينها أن المحاباة وصلت عالم السفارات أيضاً .. ثم أستدللت على شركة مواصلات آمنة عن طريق صديقتي عائشة التي تزور لندن سنوياً وقد خافت عليّ من وجودي وحيدة في المطار.. فقلت لها سلميني بيد الرحمن ولا تخافي .. وحمدت ربي أنه ألهمني سؤال عائشة صديقتي التي حلت لي مشكلة مطار (هيثرو)..

في ١ مايو ٢٠١٠ وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً وصلت إلى مطار (شارل ديغول) الدولي في باريس .. خرجت من البوابة وأنا أحاول قراءة اللوحات التي ترشد المسافرين لمكان استلام حقائبهم ووجدت مجموعة من الناس يمشون فمشيت معهم فربما يكون مقصدهم مثلي وهواستلام الحقائب وبالفعل وجدت حقائبي تدورعلى الشريط المتحرك وتخرج من جهة وتدخل جهة ثانية ولا أعرف كيفية الوصول إليها وحملها بعيداً عن الشريط المتحرك .. وأحسست أن الوقت يضيع ولم يعرني أحد اهتمامه .. فأسرعت في مشيي مع الشريط المتحرك لآخره إلى أن توقف الشريط عن الحركة نهائياً فسحبت بكل قوتي إحدى حقائبي عنه وكدت أقع ولم ينتبه أحد لما أفعل وكنت أخجل من طلب المساعدة وخاصة أنهم أجانب وليسوا عرب أهل حمية وشهامة ، وعدا ذلك كل واحد لديه حقائبه ومشغول بحملها .. فأستطعت بصعوبة كبيرة وضع حقائبي على العربة وتمنيت لو كان سائق الليموزين موجوداً لحملها عني ومساعدتي لكن تلك كانت أمنية صعبة التحقيق ، فلن يسمح له أمن المطار بالدخول ..

فسلمت أمري لله ودفعت العربة نحو البوابة لأخرج إلى صالة القادمين ثم دققت النظر في اللافتات المكتوبة والمحمولة من قبل أشخاص يستقبلون مسافرين جاءوا من أجلهم .. إلى أن وجدت اسمي بين مكتوباً على لافتة وأشرت للسائق الذي كان فرنسياً بأنني صاحبة الاسم ..فتسلم مني الحقائب وقاد بي سيارته الفاخرة في جو ممطر إلى المكان الذي يقيم فيه أخي لأقابل صاحبة الشقة التي سأقيم فيها وأوقع معها العقد.. وعندما وصلنا نزل السائق يدق جرس الباب ولكن لم يفتح أحد ، فقمت بالإتصال به على هاتفه المحمول ولكن لم يرد عليّ .. فأعتذر لي السائق وأخبرني بأنه علي النزول هنا لأنه مرتبط بموعد آخر ولابد أن يذهب.. ولكم أن تتخيلوا معي منظري في جو ممطر وحقيبتان كبيرتان على الرصيف وفتاة محجبة من غير مظلة في وسط حارة ضيقة مليئة بالمارة من الناس ، واقفة والحيرة تعقد لساني وأنا أنظر حولي ولا أعرف ما العمل .. كانت تلك هي أولى اللحظات لي في باريس .. فوجدت مقهى صغيرفي زاوية الطريق فدسست نفسي فيه كي استظل بسقفه ووضعت حقائبي على جانبي المدخل وكانت صاحبة المقهى تراقبني وترمقني بنظراتها مندهشة ومستغربة فقد تكون أول مرةٍ فيها ترى فتاة تدخل المقهى وهي مذعورة لا تعرف كيف تتصرف وإلى أين تذهب ومعها حقيبتا سفر كبيرتان فتجاهلت نظراتها وجلست على أحد الكراسي الخشبية الموجودة عند النافذة لأتمالك أعصابي وآخذ أنفاسي وأكرر الاتصال بأخي كل خمس دقائق

تمرعليّ لكن لم يجبني .. ثم فوجئت بالنادلة تناولني قائمة للمشروبات والأكلات الخفيفة التي يقدمها المقهى ، فليس بإمكاني الجلوس في المقهى دون طلب شيء .. فأخذت منها القائمة وتصفحتها وتذكرت الموقف الذي مررت به عندما كنت مع والدي في مقهى فوكيت في زيارتي الأولى لفرنسا .. وكنت لاأزال أجد صعوبة في القراءة باللغة الفرنسية .. ثم قلت في نفسي لأجرب هذه المرة أيضاً الاتصال بأخي فقد يرد عليّ ويخرجني من هذا المأزق .. والحمدلله أخيراً جاوبني وأخبرته بمكاني بعدما عرفت منه أنه كان يستعد للقائي وهو متهندم ومتأنق ريثما ينتهي من حمامه الساخن ولم يتوقع وصولي بالسرعة هذه ، ثم أخذني إلى المبنى الذي ستكون به شقتي التي سأقيم فيها قرابة شهر أو أقل وقابلت في المبنى صاحبة العقار وسلمتني مفتاح الشقة بعدما وقعنا العقد معاً وعند خروجها فتحت حقائبي وأخرجت منها أغراضي وحاجياتي ورتبتها في الخزانة بأمان .. ثم أخذني أخي في جولة سريعة في ضواحي باريس بين ساحة الكونكورد وكنيسة لامادلين وصرح أوبرا وحديقة تولغي والحي اللاتيني والقائمة طويلة للأماكن التي أخذني إليها إلى أن استدللنا بعد بحثنا الطويل على عنوان المعهد الذي سأدرس فيه خمسة أيام في الأسبوع ولمدة ثلاثة أسابيع ورغم أن المعهد موقعه لا يبعد كثيراً عن مكان سكني إلا أنني أحببت تعلم كيفية استخدام مترو باريس وتعلمت من أخي كيفية تعبئة البطاقة الخاصة بالمتروأسبوعياً من خلال ماكينة تشبه ماكينة الصرف الآلي التي

توجد في كل محطات المترو ثم اصطحبني في اليوم التالي إلى المعهد للتسجيل فيه بعد أن أخترت الجدول الذي يلائمني .. فكان دوامي يبدأ من التاسعة صباحاً حتى الواحدة ظهراً لأرجع للشقة بعدها لتأدية صلاة الظهر وكانت معرفتي بمواقيت الصلاة يعود الفضل فيها إلى يوسف زميلي في القسم الذي قام بإعداد ملف به جميع مواعيد الصلاة وإتجاه القبلة في البلدان الثلاثة التي سأزورها لاحقاً ، فقد أهداني الملف بعد أن وصاني بالمحافظة على الصلاة في أوقاتها وعدم تأجيلها أوالتهاون فيها ، فكانت تلك نعم الوصية من أخ كريم .. وفي يوم ٣ مايو ٢٠١٠ اتجهت في الصباح إلى محطة المترولأستقل القطارإلى محطة تولوغي القريبة جداً من المعهد الذي سأدرس فيه .. ووضعت البطاقة الألكترونية التي أعطاني إياها أخي لتساعدني على المرور بسهولة من خلال البوابة الألكترونية الخاصة بتمريرالناس، ولكن في اليوم الأغبرهذا لم تكن تعمل، فجربت البوابة الأخرى المحاذية لها فلم تعمل أيضاً .. فجربت البطاقة مع كافة البوابات الموجودة في المحطة ولم تسمح لي بالمرور من خلالها وكنت في حينها متوترة جداً وفي عجلة من أمري ، فقد كنت متأخرة جداً على المعهد الذي سجلت فيه بالأمس فتنحيت جانباً أنظر للناس كيف يدخلون من خلال البوابة وهم يضعون بطاقاتهم بيسرعلى القطعة الألكترونية لترفع البوابة لهم الحاجز الحديدي ويمروا من خلاله بسلام ودونما مشكلة .. ففكرت أن أجرب البطاقة أكثر من مرة فقد أنجح في إحدى المرات ولكن دون

فائدة .. ولم يكن في هذه المحطة شباك تذاكر لأسأل أحدهم عن مشكلة البطاقة رغم أن أخي قام بتعبئتها أمامي يوم أمس ولم أكن أريد الاتصال به في ذلك الوقت لكيلا ينزعج بموضوع تافه كهذا بالنسبة له ومصيري بالنسبة لي وخصوصاً في ذلك الوقت الباكرمن الصباح لأنه بالتأكيد سيغضب مني ويشعر وجودي هنا في باريس سيخلق له العديد من المشاكل .. ففضلت حل مشكلتي هذه وحدي .. وبينما أنا واقفة أنظر إلى البوابة كيف كانت تسمح للناس بالمرور وتتوقف عندي فلا تسمح لي بالمرور مثلهم .. وإذا بشاب فرنسي حاول فتح البوابة الألكترونية ولكنه عجز مثلي ، ثم قام يفتش في جيوب بنطاله عن قطع معدنية ، فأخرج كل ما عنده ولكنها لم تكن كافية لشراء تذكرة من آلة بيع التذاكرالموجودة والتي كنت أقف بالقرب منها ثم انتبه إليّ وأنا أتابعه بنظراتي ، فأقترب مني يسألني ما مشكلتي وكانت لغته الإنجليزية ضعيفة جداً ثم فهم من حملي للكتب والدفاتر بين ذراعي بأنني طالبة ومتوجهة لمكان ما لأدرس .. وأعلمته بأن بطاقتي لا تعمل ولا أحمل معي عملات معدنية لادخلها في جهاز شراء التذاكر ثم رجعت لمكاني في الركن الذي كنت أقف فيه .. فرأيت أنه فتح أحد رجليه على آخرها وقفز قفزة قوية متخطياً الحاجز الحديدي بنجاح وأصبح في الجانب الآخر من البوابة بعيداً عني .. ثم رأيته يُشير لي بأن أعطيه ما أحمل من كتب ودفاتر ليساعدني على تخطي الحاجز .. فرفضت في البداية قائلةً له: بأنني سأنتظر مكاني ريثما أجد حلاً

آخر ولكنه أصر على مساعدتي وطلب مني تجربة القفز مثله، فلن يصعب عليّ كما هو فعل منذ لحظات .. فرضخت للأمر مجبرة لأنه عليّ استخدام المترو كي أصل في أسرع وقت ممكن ، فقد تأخرت عن موعد الحضور للمعهد نصف ساعة وإن سعيت بالذهاب إليه مشياً سأتأخر أكثر ولن أصل في الوقت المحدد وقد لا يسمح لي بالدخول من الأساس ، فبدأت بمحاولة القفز من على الحاجز وفشلت في المرة الأولى على الرغم من نجاح قفزاتي بجدارة في المدرسة وسبب فشلي هو أن الحاجز كان عالياً بعض الشيء وفقدت لياقتي بالقفز عن السابق لعدم تمرني لفترة طويلة .. ثم حاولت تخطيه بإخفاض جسمي كله والنزول تحت الحاجز والمرور من تحته ولم أستطع فعل ذلك أيضاً فقد كنت مضطربة جداً ولم أستوعب الذي كنت أفعله حينها ولكنني مضطرة لفعل ذلك لأنه عليّ الذهاب إلى محطة تولوغي بأية طريقة وخصوصاً لأنه اليوم الأول لي في المعهد، فالواجب عليّ تقديم صورة مشرفة عني منذ بدايتي معهم .. وبعد عدة محاولات من القفز المستمر في النهاية أستسلمت وأقتنعت بعدم مقدرتي على تجاوز الحاجزالحديدي ، فشكرت الشاب على حثه لي وطلبت منه إعادة ما يحمله بين يديه من كتب و دفاتر تخصني ولكنه رفض بشدة وأصر على تكرار المحاولة مشجعاً وقائلاً بأنني نحيفة وسوف استطيع تجاوز الحاجز إذا ما قفزت بكل ما عندي من قوة ، فاستغربت لإصراره الشديد، بينما في حقيقة الأمر كنت خجلة جداً منه ومن التصرف بهذا الشكل ،

فكيف لي القفز كطفلة شقية ، بينما أنا الآن أصبحت فتاة عاقلة ومتزنة ولم أعد الشقية تلك كما في السابق ، ولكنني أخيراً جازفت ونجحت في تخطي الحاجز لأصبح مثله في الجهة الثانية من الحاجز وركضت بسرعة إلى القطار المتجه إلى محطة تولوغي واندفعت بداخل القطار لأكون بين ركابه وعندما وصلت المحطة التي أريد ، خرجت أبحث عن الشارع الذي يؤدي إلى المعهد ولكني لم أتذكره ، فالشوارع كثيرة ومتماثلة كلها ، فضاع نصف ساعة آخر من الوقت وأنا أبحث وأحاول التخمين أي شارع أسلك وأيها قد تؤدي بي إلى المعهد إلى أن استفيت قلبي ليدلني على الطريق المؤدي إليه ووصلت عند باب المعهد وصعدت على سلالمه المتعرجة والتي تؤدي إلى صالة الاستقبال وبعد أن انقطع نفسي من البحث والركض في سبيل الوصول للمعهد ثم الصعود إلى الطابق الرابع على سلالم مخيفة وآيلة للسقوط فوصلت أخيراً وأنا بالكاد أستطيع التكلم وألتقط أنفاسي بعد ذلك المجهود المضني .. فجلست على الكراسي الجلدية الموجودة في صالة الاستقبال المربعة إلى أن أدخلتني الموظفة إلى قاعة الدراسة لآخذ مكاني فيها بجانب إحدى الطالبات البرازيليات ، فقد كانت القاعة مليئة بجنسيات مختلفة من الطلبة والطالبات من شتى الدول ، فكان هناك طلبة من البرازيل والبرتغال وأسبانيا وألمانيا واليابان والصين ، بينما كنت أنا العربية الوحيدة في القاعة وكانت مدرستنا سيدة عجوزاً لا تتكلم إلا الفرنسية ولكنها كانت لطيفة جداً معنا .. وفي أثناء الاستراحة

جلست في صالة الاستقبال أنظر إلى الطلبة والطالبات من الصفوف ومن المستويات الأخرى وهم ينتظرون دورهم بنظام في طابور مرتب عند ماكينة القهوة .. لأجد وجهاً طفولياً بشوشاً يقبل عليّ ويسألني بفرح : بالتأكيد أنتِ عربية من أي دولة أنتِ؟؟ فجاوبتها من قطر فردت عليّ معرفةً بنفسها : أنا أمل فلسطينية الأصل أردنية الجنسية .. أعيش هنا منذ قرابة ست سنوات وأعمل كمسؤولة مبيعات في متجر مشهورفي باريس .. وآخذ دروس تقوية هنا للغة الفرنسية ليسهل تواصلي مع العملاء ، فأنا مبتعثة من جانب عملي لهذا المعهد وقامت تدخل بأناملها الباردة إحدى شعيراتي العنيدة التي خرجت عنوة من تحت حجابي قائلة لي : لقد كنت ملتزمة بالحجاب مثلك ولكن خيروني إما نزعه أويقومون بفصلي من العمل وكنت وقتها أمر بمضايقات كثيرة وفي كل مكان حتى صاحبة السكن رفضت في ليلة من الليالي إدخالي الشقة التي أسكنها لأنني ارتدي الحجاب .. فقررت بعدها خلعه وأنا آسفة لفعل ذلك وتمنيت لو لم أخلعه ولكن قانون العمل في فرنسا يمنع ارتداء الحجاب نهائياً سواء في العمل أو المدارس الحكومية ، فالحجاب مرفوض هنا .. ثم دعتني لتناول الغداء معها في أحد المطاعم الاقتصادية التي أغلب روادها من الطلبة والموظفين ذوي الدخل المحدود وقصصت لها الموقف الصعب الذي مررت به في الصباح قبل مجيئي للمعهد.. فتوجست خوفاً قائلة لي : هل تعرفين أن ما قمتِ به يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون الفرنسي وآه عربية أنتِ أيضاً واخترقت

القانون إذاً لابد أنك إرهابية .. فأحمدالله لنجاتك من السجن بيد رجال أمن القطارات في محطة المترو في هذا الصباح ، فربك لطف بك في هذه المرة ولا أدري إن كررتها مرة أخرى فسوف يتم ترحيلك بلا أدنى شك من فرنسا كمجرمة وإرهابية .. فقلت لها وأنا ابتسم لا وهذا في أول يوم لي أتجول وحيدة في باريس ألصقت إليّ تهمة الارهاب .. فلو بقيت من هنا لآخر الشهر ماذا سأكون ؟؟ بن لادن على هيئة فتاة مثلاً لا أستبعد أن تلبسوني تهمة باطلة كتلك ، وبدأنا نضحك ونتخيل سيناريو تقوم الشرطة فيه بسحبي للسجن من أجل مخالفتي ودخولي قطارالمترو بدون تذكرة .. وأنهينا السيناريو بتحذير أمل لي بعدم تكرار ذلك لأن العاقبة ستكون وخيمة في مرات أخرى .. وأعلمتها بأنني أنوي الرجوع لشقتي لتأدية صلاة الظهر بعد أن ننتهي من تناولنا طعام الغداء لأنه سيحين وقتها .. فخافت أن يحدث معي مثلما حدث هذا الصباح بألا تعمل بطاقتي الألكترونية مجدداً فقالت: اطمئني سآتي معك لمحطة المترو لنجد حلاً للمشكلة التي حصلت معك هذا الصباح ، ففحصنا البطاقة الألكترونية معاً مع موظفة في المحطة فكانت سليمة ثم علمتني أمل كيف اشتري تذكرة المترو من الآلة الموجودة في المحطة في الحالات الطارئة وكيف أستنجد بالموظفين العاملين في المحطة عندما تتعطل البطاقة الألكترونية عن العمل .. ومن بعد هذا الموقف أصبحت أمل هي أختي التي ترشدني وتخاف عليّ وترافقني في رحلتي لاكتشاف باريس ومعالمها..

كنت في كل صباح في محطة قطار المترو أقف بالساعة أوالساعتين مستمتعة بأجمل المعزوفات التي تصدر، إما من عازف واحد أو فرقة موسيقية كاملة في الممر المؤدي نحو القطار، الذي يتوقف لعشرين ثانية ويتحرك بسرعة ليأتي بعده الآخر ويتوقف بنفس الطريقة.. لأكون حينها في صراع بين اللحاق بالقطار أو الارتواء من الألحان المخملية التي تبعث الدفء في أوصالي مع برودة الأجواء في كل صباح لأصل المعهد متأخرة نصف ساعة يومياً ، فتبدأ نظرات الطلبة والطالبات تجلدني بسياطها، مستفهمين عن سبب تأخيري اليومي وبالتأكيد لا أستطيع إخبار أحد بالسر الذي يستوقفني كل صباح عندما أستقل قطار المترو متجهة للمعهد.. فكنت أجلس بين الطالبات مختبئة وأتظاهر بالتركيز الشديد في الكتاب الذي أمامي وأشعر بالسيوف المسلطة عليّ ، وحاولت في إحدى المرات أن أصل في وقت مبكر لأحقق أمنية مدرستي ولو ليوم ولكنني تأخرت في ذلك اليوم فقط لربع ساعة وليس نصفاً كعادتي .. فماذا كان بيدي فعله ، فالموضوع برمته خارج عن سيطرتي، فالموسيقى تجذبني إليها رغماً عني ولأنني على يقين بأنني سأفتقد هذه الأشياء عندما أعود للدوحة ، فاشتريت اسطوانات بالمعزوفاتهم لتذكرني بهذه اللحظات الجميلة التي أقضيها وأنا أقف مع مجموعة قليلة من الناس نستمتع بالعزف الشجي من تلك الآلات ليلمس أوتار قلوبنا بحنية، بينما نحن متجمعون في أحد الممرات تحت الأرض والمؤدية إلى قطار المترو المتحرك على مدار الساعة دون

توقف .. وبالنسبة لدراستي في المعهد فقد أفادتني جداً ، حيث تعلمت في المعهد أشياء كثيرة ومررت بمواقف مضحكة وظريفة أيضاً ومنها أنها في أحد الأيام ولأن مدرستي العجوز كانت تظن أنني نابغة عصري وزماني في اللغة الفرنسية خاصة عندما كنت أقرأ لها جملاً من فقرات الكتاب محولة كل كلمة بها حرف الراء إلى حرف الغين بكل نباهة وحنكة فتحسب المسكينة بأنني فاهمة ومستوعبة كل كلمة أقرأها لها إما من على السبورة أو من الكتاب إلى أن سألتني في إحدى المرات بالفرنسية إذا كنت أحب شرب الكحول ؟؟ بينما أنا فهمتها إذا كنت أحب المدرسة وكلمة المدرسة قريبة جداً في اللفظ وعلى السمع من كلمة الكحول فأجبتها بصوت مرتفع .. «وي» .. وأعني نعم لأجدها تقول بالفرنسية أمام جميع الطلبة ولكن الكحول محرم في الإسلام وأنتِ مسلمة ولكن ربما هناك فئة من المسلمين يشربون غير آبهين لحرمته .. فرأيت كل الطلبة والطالبات ينظرون إليّ شزراً كوني مسلمة ومحجبة وأشرب الكحول وأخالف تعاليم ديني وأقولها بكل جرأة ودون حياء من نفسي .. وعلى الفور استدركت الخطأ الذي وقعت فيه وسوء الفهم الذي حصل ، فصحت قائلة لها: لا أنا لم أشرب الكحول في حياتي ، إنما فهمت مقصد سؤالها خطأً فقد ظننت أنها تسألني إن كنت أحب المدرسة أو المعهد الذي نحن ندرس فيه .. فضج المكان بالضحك عليّ بينما كنت ابتسم خجلة من الموقف ، فبالأمس كنت إرهابية واليوم أشرب الكحول ، هل هناك مزيد من التهم

الباطلة التي ستلصق بي في باريس .. فليحفظني الله في هذا البلد..

كنت بعد انتهائي من صلاة الظهر أقضي الوقت المتبقي من النهار سائحة في باريس ، أتمشى في حديقة تولوغي ، كما كانت الملكة ماري انطوانيت تفعل ، هذا ما أخبرتني به أمل ونحن نتمشى معاً في إحدى المرات قائلة : هل تعرفين أنك تمشين الآن في نفس الحديقة التي كانت تتمشى بها ملكات فرنسا ومنهن ماري انطوانيت ، فأمشي بخطوات واثقة كالملكة ويحيطك جمع من الحرس ، ومشينا إلى أن خرجنا من الحديقة نحو ساحة الكونكورد، حيث توجد على طرفيها نافورتان متجمع تحت إنائهما الكبير مجموعة حوريات كل واحدة فيهن تساعد في حمل الإناء الضخم الذي ينسكب منه الماء بانسياب عجيب وساحر.. كانت هاتان النافورتان على جانبي الساحة ، لتحتل المسلة المصرية العملاقة وسط ساحة الكونكورد الواسعة مزينة بالكتابة الهيروغليفية التي قدمها والي مصر العثماني محمد علي باشا هدية إلى فرنسا والمسلة هذه كان عمرها آنذاك نحو ٣٣٠٠ سنة وبعدما قدمها لملك فرنسا .. أمر الملك لويس فيليب بوضعها في ساحة الكونكورد في وسط باريس وهي نفس المكان الذي أعدم فيه الملك لويس السادس عشر والملكة ماري أنطوانيت بسكين المقصلة أثناء قيام الثورة الفرنسية .. ويبلغ ارتفاع العمود الجرانيتي الأحمر٢٣ متراً يزن أكثر من ٢٥٠ طناً..

وسميت الساحة بالكونكورد وتعني ساحة الحرية تيمناً بالحرية القادمة إلى أرض فرنسا .. فوجدت أمل اشمئزت من سيرة القتل والدم وقالت لي : يا عزيزتي في النهاية الحرية هي أجمل شيء في الدنيا فركزي عليها واتركي عنك القتل والدم ، ثم سألتني كيف أمضيت بقية النهار بالأمس بعد انتهاء الدراسة في المعهد ؟ فأجبتها بإنني أتمشى في شوارع باريس ، أتنفس الحرية فيها .. فضحكت ضحكة عالية وأخذت نفساً عميقاً لتستنشق الحرية معي ثم بدأت تشدو بهذه الأغنية التي سمعتها من أمل لأول مرة في حياتي:

أنا بتنفس حرية .... ما تقطع عني الهوا

ولا تزيد كتير علي ... أحسن ما نوقع سوا

ما بتقدر أبداً تلغيني

بدك تسمعني .. وتحكيني

وإذا فكرك عم بتداويني ..

مش هيدا هو الدوا

يا ريتك مني بتسمع .. بكفي كل اللي صار

القوة هي اللي بتوقع .. إن وقفت بوجه الأفكار

هالدنيا بتساع الكل .. وحدا الحقيقة بتضل

وإذا بدك منلاقي الحل

لولا منفكر سوا

صوت الحرية بيبقى أعلى من كل الأصوات
مهما تعصف ريح الظلم يغطي الليل المسافات
ما فيك تلون هالكون عبعضو بذات اللون
وتبدل نظام الأرض وتغير مجرى الهوا

ثم انهت غناءها لتقول لي إنها أغنية غنتها جوليا بطرس ، ثم اخرجت هاتفها المحمول من حقيبتها لتسمعني وتسمع كل من كان في ساحة الكونكورد صوت الحرية ..

في معظم الليالي كان يدعوني أخي لتناول العشاء معه ، فهو مثلي وحيد هناك ، يعيش بين كتبه الدراسية ، فكنت أحكي له عن المواقف الطريفة التي تحدث لي في المعهد مع الطلبة ومع مدرستي العجوز التي تبدو كمحل للمجوهرات ، فلم تترك أصبعاً من أصابعها إلا وزينتها بخاتم ذهبي ، فمدرستي تعيش عمرها وعمر غيرها ولكنها في النهاية كانت لطيفة مع الكل .. في أثناء عودتي لشقتي بعد العشاء مع أخي كنت أحس بوحدة ووحشة قاتلة .. لدرجة أنني كنت أشعر بأن هناك طرقاً خفيفاً على الباب ، فأقول في نفسي قد تكون إحدى جاراتي خلف الباب جاءت لتتعرف عليّ وبالفعل كنت أنهض فرحة من مكاني وما أن أفتح الباب اكتشف بأنه لا أحد يقف ببابي وما تلك إلا تهيوءات وتخيلات يوحي لي عقلي الباطن بوجود جيران يطرقون عليّ الباب ليسألوا عني في هذه الشقة الموحشة ، فكنت مراراً وتكراراً في كل ليلة ما أن أسمع طرقاً على الباب أنادي من الطارق

وأركض لأفتح الباب وكالعادة لا أجد أحداً يقف بالباب ينتظر أن أفتح له .. بينما كان حدسي يخبرني بأنه في أحد الأيام سيكون هناك بالفعل طارق على بابي فلا داعي لليأس ..

في أحد الأيام اقترحت عليّ أمل زيارة متحف اللوفر الشهير في العالم والذي يبعد عن المعهد بخطوات بسيطة ، لأنها ستكون مشغولة عني بالدراسة بقية النهار ولا تستطيع مرافقتي للمتحف ، لأن امتحانها اقترب موعده وعليها البدء بالمراجعة .. فقطعت تذكرة دخول للمتحف من داخل وسط الهرم الزجاجي ، حيث يقع مدخل المتحف هناك ونزلت بالدرج الكهربائي إلى الصالة التي تتوسط المتحف واخترت أحد الأقسام وتجولت فيه قرابة الساعة ، لأجد نفسي فجأة في ممر يقودني إلى الخارج ، حيث الشارع وكان حينها يمشي بمحاذاتي رجل بملامح عربية ورأى دهشتي عند باب الخروج : فسألني هل أنتِ عربية ؟؟ فجاوبته بنعم ، فأخبرني بأنه موظف بالمتحف وإنه يستطيع إرشادي إلى باب الدخول ، حيث هناك أقسام أخرى لم أزرها بعد وأخبرني بأنه لا داعي للذعر ، فلن أشتري تذكرة أخرى مادامت معي تذكرتي السابقة ، كل ما عليّ هو المرور من البوابة تلك وهو يشير إليها ثم مشى معي لنصل إلى المدخل وهو يمشي، بدأ التحقيق معي ليسألني إن كنت متزوجة أم لا ؟ فوقفت مكاني وأنا منزعجة قائلة : وما يخصك أنت إن كنت متزوجة أو مطلقة أو حتى أرملة .. إذا أردت مساعدتي فرجاءً بدون توجيه الاسئلة، ولكن إذا كنت تريد أن تستكمل التحقيق فلا داعي لأن ترافقني

لأنني سأعرف طريقي بنفسي .. فخاف الأخ العربي وقال أنا لا أقصد شيئاً وأخذ يسبل لي بعينيه وهو يحاول أن يوقعني في غرامه قائلاً أنا أرتحت لكِ كثيراً وأريد دعوتك على فنجان قهوة لنتعرف على بعضنا البعض عن قرب أكثر، فأنا أعجبت بك وبحجابك الذي يوحي بأنك شخصية وقورة رغم جمالك .. وقفت بثبات وصحت فيه وأنا غاضبة : من تظن نفسك .. ألا تخجل من الكلام الذي توجهه إليّ وألا توحي لك ملابسي بأنني شخصية محافظة جداً.. من فضلك توقف هنا ، فسوف أسلك طريقي وحدي ، فأنا أستطيع أن أقرأ المنشور وأسأل غيرك من الموظفين.. وجدته أحرج قائلاً : ممكن أن نتواصل معاً سواء بالهاتف أو البريد الالكتروني .. فحاولت كظم غيظي قائلة له: اسمع يا هذا سأقول لك سري الدفين .. فرأيته ينصت إليّ بكل جوارحه ، فقلت له أنا آسفة أن أقول لك إنني لا أحمل هاتفاً معي لأنني لا أعرف أن استخدمه أواستخدم الحاسب حتى يكون لي بريد الكتروني مثل كل الناس .. فبالرغم من أن مظهري أوحى لك عكس ذلك ولكن نصيحة لوجه الله أقدمها لك.. لا تغريك المظاهر أبداً ، فأنا أمية أي جاهلة عن دنياكم ولا أعرف استخدام تكنولوجيات العصر.. فوجدت الرجل تجمد بكل حواسه ولم يحرك ساكناً بينما تركته وأنا أسرع في المشي للدخول مرة أخرى للمتحف وكنت أضحك وأرى علامات الإشفاق بادية على وجه الرجل على حالي فقد كان واجماً مكانه كالصنم من هول الصدمة التي تلقاها.. وفي اليوم الثاني سردت حكايتي معه لأمل ،

فوجدتها دخلت في نوبة ضحك سالت معها دموع عينيها وهي تقول : والله إنك ذكية كيف ، تخلصت منه بلباقة وجعلت العاشق الوهمي يبكي حزناً على حالك وربما شعر بعد ذلك بأنه فشل في اختيار الصيدة التي كان سيصطادها .. وهل تعرفين أن الكلام الذي قاله لك هو أسطوانة يكررها بإستمرار على ألوف من البنات وخاصة الخليجيات .. والله إنك عبقرية ، يمكن بعد الذي سمعه منك تاب الرجل فأرحت البنات من أمثاله..

كنت أقضي معظم أوقات فراغي سائحة بين معالم باريس الشهيرة أو التسوق في شارع (سانت إنوغي) الذي يقع فيه المعهد الذي أدرس فيه كل يوم أوأمشى بين شارع (ريفولي) ومجمع (جاليرينا لافايت) والمحلات التي من حولها .. فلم أنس أحداً من هداياي وخاصةً إنها من باريس عاصمة النور..

في إحدى الليالي دعانا صديق أخي الحميم لزيارته بعدما علم بوجودي وكان قد قابلني مع والدي من قبل في زيارتنا الأولى لباريس .. فهو عربي الأصل فرنسي الجنسية وكان يود أن أتعرف على عائلته عن قرب والتي هي مكونة من زوجته الفرنسية سليفيا وابنته سارة ذات الثلاث سنوات ، فقد تعرف عليهم أخي من خلال مجال دراسته وعاش معهم فترة من الزمن بعدما أحاطوه بحب ودفء الأسرة وأصبح فرداً من عائلتهم .. فعند وصولنا استقبلونا بحفاوة بالغة هم وأصحابهم المقربون وقد قاموا بتحضير طعام العشاء احتفاءاً بنا.. ولأنها المرة الأولى التي أزورهم في بيتهم أحبوا تكريمي على وجه الخصوص ، فطلبوا لي

السوشي الياباني من أغلى وأشهر مطعم في باريس وخصيصاً لي أنا ، والسوشي هذا عبارة عن قطع أسطوانية من الأرز والسمك النئ ملفوف بورق أخضر رقيق من الأعشاب البحرية .. فطلب مني هو وزوجته الأكل وعدم الخجل منهم ، فبدأت بالأكل وبانت ابتسامة الرضا على وجهي ، بينما كانت عينيّ تمطران دموعاً فقد كنت محرجة من اخبار العائلة بأنني لا آكل السمك نيئاً .. وإنني مجبرة على أكله الآن ولكنني لا استطيع الافصاح عن ذلك لأن المضيف كان يسألني باستمرار في كل لحظة وأخرى.. هل أعجبك السوشي .. فأهز رأسي مبتسمة له وأنا أكاد أبلع اللقمة .. ليفهم بأنني آخر انبساط .. وإن دموعي تلك هي دليل حلاوة طعم السوشى المطعم بقطع من السمك النئ والتي لم ولن آكل مثلها في حياتي إن عشت بعد هذه المأدبة سالمة دون تسمم..

كنت في تلك السهرة أحاول تمرس اللغة الجديدة التي اكتسبتها مع العائلة ولكن الحمدلله كانوا يستطيعون التواصل معي بالإنجليزية وهذا الشيء ساعدني في فهمهم والتعرف عليهم أكثر.. فعرفت في تلك الزيارة العائلة الفرنسية عن قرب من الأنموذج الماثل أمامي وعرفت الروابط والعلاقات الاجتماعية التي تجمعهم ببعض وأفكارهم وثقافتهم عنا كمسلمين وكعرب واستدركت شيئاً جديداً عن ثقافتهم لم أكن أدركه من قبل ، فقد عرفت أن الشراب بنوعيه سواء كان النبيذ الأحمر أو الأبيض وأحد أنواعها الشمبانيا هو شيء مقدس عندهم وهما أكثر شيء يتلذذون باحتسائه مع تناولهم للطعام ويعتبران بالنسبة لهم أهم من

الماء نفسه فهما من الأشياء التي مهما غلا سعرها فيجب ألا يبخل المرء على نفسه بهذه المتعة .. فلم يكن للماء وجود على المائدة إلا في كأسين شفافتين كانتا تخصاننا نحن ضيفا الشرف أنا وأخي..

في إحدى الليالي أحببت أن أتناول عشائي في مطعم (بيتزا بينو) في الجادة المشهورة في الشانزليزيه والقريبة جداً من الشارع الذي أقيم فيه والمليء بأجواء الصخب والازدحام والطوابير الطويلة من الناس التي تنتظر دورها للحصول على طاولة فيها وبما إنني كنت أشعر بالوحدة في تلك الليلة قررت تناول العشاء فيه ومزاحمة الناس على هذا المكان المكتظ والأشبه بازدحام يوم العيد .. فأردت تلك الليلة خوض تجربة تناول العشاء دون أخي ، فقد اعتدت على تناولي العشاء معه في كل ليلة وفي مطاعم مختلفة في ضواحي باريس ولكن هذه الليلة أنا وحيدة وأحس بالضجر والملل ، فأخي قد سافر لمدينة (كان) ليشهد الحدث الكبير هناك وهو افتتاح مهرجان الأفلام السينمائية الذي يقام مرة في كل عام .. وأنا لا أريد أن أبين له أنني لا أستطيع تدبيرأمري دونه ، فوقفت مع المصطفين من الناس في طابور طويل أنتظر دوري مثلهم وكانت الجنسيات متنوعة وهذا كان يشبع فضولي لأسترق النظر في الوجوه وأخمن جنسياتها ، فتلك هي لعبتي المفضلة .. والآن قد وصل دوري .. أخذتني النادلة للطابق العلوي ثم تساءلت قائلة : يبدو أن زوجك سيأتي بعد قليل إذاً خذي مكانك على هذه الطاولة حتى يأتي .. كنت

أنظر لها وأنا مترددة، هل أقول لها إنني وحيدة، فسوف تقترح عليّ أخذ الطعام كطلبية خارجية للبيت كون الناس أحوج مني للطاولة أو أسكت وأرى ماذا سيحدث .. وفضلت السكوت واتجهت بهدوء إلى الطاولة الموجودة في أحد الأركان وأخذت مكاني عليها بينما رأيت أعناق أشرأبت لتحدق النظر إليّ وعندما نظرت إليهم عرفت أنهم مجموعة شباب من بني جلدتي ، فهم خليجيون مثلي ويريدون كالعادة التعرف على الغموض الذي يحيط ببنت تجلس وحدها ، وما أن وضعت النادلة طبقاً أمامي وآخر أمام الكرسي المقابل لي فهم المساكين أنني لست وحيدة وأن هناك من معي ، فانشغلوا بعشائهم وأنا ارتحت من نظراتهم لي .. وفي ذلك الحين كنت أفكر كيف سأخرج من هذه الورطة التي أوقعتني فيها النادلة ، فمن أين آتي في هذه الليلة بزوج لي لتصدقني النادلة وأتناول عشائي بسلام .. ثم جاءتني بقائمة الطعام المقدم في المطعم وطبعاً صار باستطاعتي الآن قراءة القائمة بالفرنسية وهذا أول إنجاز لي هناك ، فطلبت أحد أنواع البيتزا الموجودة في القائمة ثم غابت وما هي إلا ثوان حتى رجعت تسألني وماذا عن زوجك بإمكانك الاتصال به وسؤاله بالتالي لن يتأخر طلبكما، فنظرت إليها مندهشة أي زوج وأي طلب الذي سيتأخر إذا لم أطلبه الآن .. وفي عجالة وضعت أصبعي على أحد الأطباق وقلت لها هذا، فهذا الطبق هو المفضل عند زوجي وكان يبدو لي طبق سلطة فقلت في نفسي سأتسلى به حتى تأتيني النادلة بالبيتزا الدافئة ، فالجو يزيد برودة بالخارج على

الرغم من أننا في شهر مايو ومن المفترض أن تكون الأجواء ربيعية وليست باردة كبرد الشتاء إلى هذا الحد ومن شدة البرودة كنت أسأل أخي هذا السؤال دائماً «متى يأتي ربيعكم أو حتى صيفكم هل أنتم في خصام مع الشمس ؟».. فكان يضحك قائلاً كما يبدو لي فأن هذه السنة لن يكون هناك فصل صيف أساساً يا عزيزتي .. قلت له ما هذا الحظ أنا خططت أن أزور باريس في هذا الشهر بالذات لأنه سيكون موسم ربيع وأزهار وجو معتدل .. ولم أتوقع هذه البرودة التي تحد من استمتاعي بالمناظر ، غير أن رحلتي التالية بعد بريطانيا ستكون إلى إحدى دول شرق آسيا .. يعني إما حر تايلند أو برد فرنسا .. أعانني الله على ذلك .. المهم وأخيراً وصلت البيتزا ساخنة من الفرن إلى طاولتي على الفور فانتظرت إلى أن تبرد وتفقدت صحن السلطة الخاص بزوجي المزعوم والذي سيجلس على الطرف المقابل لي من الطاولة .. فوجدت النادلة أحضرت الطبق الثاني ووضعته في الجهة المقابلة لي لاكتشف أن ما طلبته لم يكن طبق سلطة بل طبق باستا محترم ومزين بالخضراوات وصلصة الطماطم المطبوخة بالأعشاب العطرية النفاذة .. بالفعل كانت مفاجأة لم أتوقعها ، فأنا بالكاد أستطيع تناول شريحتين من البيتزا التي طلبتها .. فمن الذي سيأكل الطبق الكبير والمليء بالباستا والخضراوات الزاهية .. المهم لم أعر الطبق الآخر أي اهتمام وانشغلت بأكل البيتزا اللذيذة لتأتي النادلة تنغص عليّ سعادتي بالبيتزا التي لا تقاوم متسائلة : هل زوجك سيتأخر سيدتي أخاف أن يبرد طعامه ؟ فرددت عليها

بحنق زوجي مشغول جداً واعتذرعن تناول العشاء معي .. فوجدتها تقول إذا سألف طعامه يا سيدتي لتأخذيه معك للبيت.. شهقت بلقمتي قائلة لها : للبيت وقد دمعت عيناي من أثر الغصة وكدت أن انكشف في حينها.. فأصلحت من وضعية جلوسي وتذكرت أن هذه النادلة زوجتني منذ اللحظة الأولى لدخولي المطعم وقد يولد لي أطفال وأصبح أماً بعد لحظات من خروجي من المطعم .. فأومأت لها بموافقتي .. وكنت أفكر بما الذي سأفعله بالطبق الذي ستسلمني إياه عند خروجي من المطعم .. آه أتمنى أن تنساه وتتصرف به بمعرفتها .. ثم طلبت الفاتورة ودفعت ثمن الطبقين الذي تناولته والذي لم أتناوله .. وسحبت نفسي نحو الباب بخطوات متسارعة لأسمعها تناديني وتسرع في مشيتها قائلة : سيدتي لقد نسيت عشاء زوجك وتسلمني كيساً كبيراً به طبق مغطى بغطاء بلاستيكي بشكل راق .. وقفت عند الإشارة الضوئية شاردة الذهن أفكر في الطبق الدافئ الذي أحمله معي فسمعت صوت أحدهم يقف خلفي ويوجه كلامه إليّ وكان يتكلم بالفرنسية ، فألتفت إليه فوجدته شاباً يتكلم بخجل وأدب و مهندماً جداً .. لم أعرف حينها ماذا كان يقول لي وخجلت أن أمد إليه الكيس ، فيصيح في قائلاً بأنه ليس محتاجاً أو فقيراً .. وخفت أيضاً أن يعبرالشارع معي ويتبعني إلى حيث أقيم .. فخطرت لي فكرة طريفة ..استدرت إليه بجسمي كله ونظرت إليه وأنا أؤشر بيدي على أذني وفمي بالنفي وكنت أعني بذلك بأنني فتاة صماء بكماء لأسمع ولا أتكلم .. ليتوقف الرجل

عن الكلام ويذهب من حيث أتى دون أن ينبس ببنت شفة .. فعبرت الشارع بأمان ومشيت في طريقي إلى شقتي وأنا أقول أنها آخر مرة أحاول تناول العشاء وحدي خارج الشقة .. ووجدت في طريقي أحد المتشردين مفترشاً الأرض وهو يغطي نفسه بلحاف سميك فأشفقت عليه وهو ممدد على الرصيف ومن حوله حاجياته ، فمددت إليه الكيس الذي بيدي أؤشر له بأنه طعام ليأكله .. وكنت أقف منحنية وقريبة جداً منه فرأيت زجاجة مشروب كحولي ملفوفة بكيس ورق بني بجانبه .. تراه هل سيأخذ مني الكيس الذي فيه الطعام الدافئ في ليلة يتجمد فيها الجماد ... الجواب لا ، أومأ لي بيده أنه لا يريدها أو خذيها عني بعيداً.. فقلت في نفسي ربما لم يفهمني أو مستغرب من فعلتي .. وأعدت عليه الجملة والحركة نفسها مرة أخرى ..فرأيت أنه صاد عني بنظره أصلاً ويشير لي بأصابعه الأربعة بأنه يرفضها ولا يريدها .. حينها غضبت وأشرت له على الزجاجة بأنها لو كانت تلك التي بيده لقبلها وأخذها مني .. ثم من بعد تلك الجملة أطلقت ساقيّ للريح مسرعةً بل كنت أطير بعيدةً عنه ، فقد كنت خائفة إن كان غضباناً مني وقد يرميني بشيء من أغراضه المتناثرة من حوله.. ولكن كنت سعيدة بأنني انتقمت لكرامتي التي أهينت من قبل هذا المتشرد ذي الرائحة النتنة .. ثم وضعت الكيس على الرصيف عند عربة القمامة فقد يجده أحدهم ويسد جوعه ..

وعندما دخلت المبنى الذي أسكن فيه .. التقطت أنفاسي فالآن أنا في أمان فالحمدلله حتى المبنى به مفتاح الكتروني

خاص يفتحه قاطنوا العمارة فقط .. وبينما أدرت مفتاح الشقة رن هاتفي المحمول فجأة لأسمع صوت أخي يغريني بالسفر إلى مدينة (كان).. حيث يوجد هناك فهو لم يتوقع أنها مدينة ساحرة و تصل إلى هذا الحد من الجمال .. وقد حاول أن يجد لي غرفة إضافية في فنادقها ، ولكن كانت كل الغرف محجوزة بالكامل.. وليلتها لم استطع النوم ، فقد كنت أفكر طيلة الليل كيف أبحث عن غرفة لي في فنادق مدينة (كان) أجمعها ، فألتفت إلى الكمبيوتر المحمول الخاص بي والموجود في ركن الغرفة وخطرت لي فكرة وهي أن أبحث بنفسي في شبكة الانترنت ، فقد أجد غرفة شاغرة لي فيها.. فليس بإمكاني السفر دون تأمين السكن الذي سأقضي فيه ليلتي .. وكان لي نصيب في السفر لمدينة (كان) فقد وجدت غرفة شاغرة في أحد فنادق مدينة (نيس) القريبة بكيلومترات قليلة عن مدينة (كان) ولكنها باهظة الثمن ، فقلت في نفسي يا بنت أنتِ هنا فالغالي سيرخص لك وتستحقين الغالي لأنك أهل له ، فقمت بالحجز فيه وبذلك أمنت مكان السكن في(كان) .. وفكرت بعدها بحجزتذاكر الطيران وبنفس الطريقة بحثت في شبكة الأنترنت ووجدت أثناء بحثي إحدى الشركات المحلية وكان توقيتها مناسباً جداً لي وسعرها معقولاً بالنسبة لي فاخترت الحجز فيها عوضاً عن الحجز على الخطوط الفرنسية «ايرفرانس» ودونت تفاصيل الرحلة كلها في ورقة صغيرة ووضعت الورقة في حقيبة اليد التي سآخذها معي يوم غد في رحلتي إلى مدينة (كان) وقمت بتجهيز حقيبة سفر

صغيرة نوعاً ما ووضعت فيها حاجياتي التي سوف أحتاجها في الأيام الثلاثة التي سأمضيها في مدينتي (كان) و(نيس) الفرنسية .. وفي صباح يوم السفر بعثت برسالة نصية على الهاتف المحمول الخاص بأمل وأخبرتها فيها بإنني سأسافر إلى مدينة (كان) اليوم ولتقم بتبليغ مدرسة المعهد بعدم حضوري لهذا الغرض .. وفي الساعة الواحدة من ظهيرة هذا اليوم انتهيت من صلاة الظهر وخرجت من الشقة اسحب من خلفي حقيبتي الصغيرة وأحمل على كتفي حقيبة الكمبيوترالمحمول واتجهت نحو سيارات التاكسي المتوقفة في الشارع المقابل تحت المبنى الذي يسكنه أخي وعندها تلقيت اتصالاً من أخي ، فأحببت أن أخبره بمفاجأتي له وبأنني في طريقي للتوجه للمطار للسفر إلى (كان) ، فسألني ليطمئن عليّ وهل تعرفين أي مطار ستتوجهين إليه ؟ فجاوبته بثقة طبعاً مطار (شارل ديغول) الذي أتيت منه من الدوحة، فطلب مني التأكد من اسم المطار ومن بعدها استقل تاكسي ولكم أن تتخيلوا كيف لي التأكد من اسم المطار وأنا موجودة في عرض الشارع ولم تكن تذكرتي على ورق مطبوع.. فما دونته في تلك الورقة الصغيرة كان عبارة عن رقم الرحلة واسم خطوط الطيران والوقت الذي يتوجب عليّ أن أكون فيه في المطار .. إذاً كان علي حينها العودة إلى الشقة مرة أخرى لأدخل على الإيميل الخاص بي وأقرأ ورقة الحجزالخاصة بي .. فكنت أركض في الشارع لأتلافى ضياع الوقت ، وما أن وصلت الشقة فتحت الإيميل وقرأت الحجز.. فوجدت اسم المطار ليس

(بشارل ديغول) بل هواسم لأول مرة في حياتي أراه وكان الاسم مطار (أورلي) أو (أوغلي) بالفرنسية .. ودونته في الورقة ذاتها وشكرت الله أن أخي اتصل بي في اللحظة الأخيرة وإلا ضاعت عليّ الرحلة بسبب تنقلي بين المطارات ، فاتجهت نحو سيارة من سيارات التاكسي المتوقفة عند المكان المخصص لها وقلت للسائق أريد الذهاب إلى مطار (أوغلي) ثم اتصلت بأخي أطمئنه بأنني الآن في السيارة ومتجهة إلى مطار (أوغلى) وإنه خيراً فعل باتصاله بي وتنبيهي لهذه النقطة.. وما أن أنهيت المكالمة حتى اجابني سائق التاكسي: سيدتي أنا عربي وسأساعدك لا تخافي وستصلين المطار في الوقت المناسب بإذن الله .. قلت له بصوت عال الحمدلله الذي وضعك في طريقي .. فبالرغم من ملامحه الأوروبية لم يخطر ببالي أن يكون عربياً.. فقال لي بالتأكيد أنتِ مستغربة من ملامحي أنا بربري الأصل ، لذلك أنا أشقر وعينايّ ملونتان ولكنني عربي ومسلم والحمدلله على نعمة الإسلام .. ثم أعطاني مجلة لأبحث فيها عن رقم البوابة الخاصة بخطوط الطيران الخاصة بي .. ثم طلب مني أن أعطيه المجلة حتى يتأكد بنفسه وكنا حينها دخلنا في أحد الانفاق وكان يقود بسرعة زائدة.. فقلت له وكنت خائفة : أرجوك خفف السرعة وانتبه إلى الطريق، فنحن في نفق ولا أريد أن أموت كما حدث للأميرة ديانا.. فضحك قائلاً : لا تخافي ، فقد كان سائقها ثملاً .. أما أنا لا أشرب الكحول أبداً .. استغربت من كلامه فقلت له من ملاحظتي للناس هنا ورغم الفترة القصيرة التي قضيتها في فرنسا

وجدت أنه شعبها الأكثر استهلاكاً للمشروبات الكحولية ، أما الماء فهولأغراض أخرى عدا الشرب .. فقال: بالرغم من أنني مسلم كنت أشرب النبيذ والكحول بأنواعها مع أصدقائي وعندما وجدت أنه لا فائدة منها فقد كانت تغيب عقلي وتجعلني أشبه بالحيوان وغير ذلك كنت أخسر صحتي ومالي بسببها فامتنعت نهائياً عنها.. وعلى الرغم ممن يشربون من حولي فإنني توقفت عن معاقرة الكحوليات منذ زمن طويل وهذا بفضل من ربي .. فقلت له الحمدلله على هدايتك.. وفي الوقت المناسب وصلنا البوابة الصحيحة.. فدفعت أجرته وشكرته على المساعدة ثم دخلت صالة المطار أبحث عن الكاونتر الخاص بخطوط الطيران الذي يجب أن أسافر عليها.. وعندما كنت أسأل أحدهم عن الكاونتر كان يجيبني باللغة الفرنسية العامية والتي وجدت صعوبة في فهمها، فكنت أمشي ذهاباً وإياباً في المطار أبحث عن الكاونتر حتى شارأحدهم عليّ بأنه قد يقع في الطابق الأرضي ولأول مرة أعرف أن هناك كاونتراً لادخال الحقائب تحت الأرض وبعد البحث وتتبع الناس وصلت لأجد الموظفة ترد عليّ بجفاء بأن الكاونتر قد أغلق منذ أربع دقائق، فقلت لها ولكنني كنت في المطارمنذ زمن أبحث عن كاونتر خطوط الطيران الخاصة بهم وهذا ما أضاع وقتي ، فأنا لست مواطنة فرنسية كما هو واضح من جواز سفري وهذه المرة الأولى التي أتواجد فيها في هذا المطار.. فلم ترحمني وكانت تتعامل معي بحقارة وقسوة لسبب بسيط هو جهلها باللغة الإنجليزية مما جعلها متعصبة

لبلدها وكأنني كنت أهينها عندما كنت أشرح لها بلغة غير لغتها .. فسحبت حقيبتي لأجر معها من خلفي أذيال الخيبة .. وذهبت لأشتري تذكرة جديدة بسبب الأربع دقائق التي أضعتها في مطارهم ذي الدهاليز.. والرجل الذي باع لي التذاكر آثر أن يتكلم معي بالعربية بعدما رثى لحالتي فقد كان فرنسياً من أصل عربي فقد رآني متأثرة جداً من الموقف الذي حدث لي مع الموظفة في الطابق الأرضي وكم كانت عنصرية حتي في تعاملها معي .. فحاول تهدئتي بقوله إنه مستعد لمساعدتي في المطار، فلا داعي للحزن فنحن أخوة ومن دين واحد وكان عليه سيماء الوقار .. فوكلت أمري لله وقلت له ربما هي خيرة من رب العالمين ألا اذهب في ذلك الوقت فالخيرة فيما اختاره لي .. ثم سألته إذا ما كان هناك مكان أصلي فيه العصر، فقد يحين وقته وأنا انتظر موعد الطائرة الثاني وأخاف أن تفوتني الصلاة ، فأخبرني مطمئناً إياي بوجود مصلى صغير في أسفل الدرج أستطيع الصلاة فيه متى شئت، فهناك حاجز تصلي النساء خلفه.. ساعتها ارتحت لسماعي هذا الخبر .. فبحثت عن المكان وانتظرت الصلاة فيه بقراءة القرآن وعندما حان وقتها أديت الصلاة وسألت الله أن أصل بالسلامة إلى حيث أسافر.. وحان وقت ادخال الحقائب لأفاجأ بوجود جهاز غريب على شكل صندوق مستطيل في وسط صالة ادخال الحقائب ولم يكن عليه أي مقياس للوزن ، فطلبت مني موظفة الكاونتر وضع حقيبتي فيه فاستغربت قائلة : ولكن أنا ليس لدي وزن زائد .. ولسوء التفاهم بيننا فكنت أكلمها عن

الوزن وكانت تكلمني عن الشكل واكتشفت بأنها جاهلة باللغة الإنجليزية ولا تستطيع شرح الموضوع لي سبب وضعي لحقيبتي في هذا الإطار أوالصندوق المعدني مستطيل الشكل .. فأنا لا أعرف ماهية هذا الصندوق وما الغرض منه .. فخيرتني إما أن أضع حقيبتي في الصندوق المعدني أو أدفع رسوماً كي يدخل في الشحن .. كانت قوانين شركة الطيران هذه مضحكة وغبية في آن واحد.. فقد أخبرني الموظف العربي في تلك الشركة بأن مهمة ذلك الصندوق هي قياس حجم الحقيبة وليس الوزن ، فالشركة لا يهمها الوزن فحتى إن حملتِ معك طناً من الأشياء فالأهم عندها الحجم يجب أن يكون ملائماً مع صندوق الطائرة .. ابتسمت عندما عرفت السبب فهذه أول مرة أعرف أن هناك شركة طيران تقيس الطول والعرض للحقائب عوضاً عن قياس كتلة الوزن.. فقلت في نفسي : عجباً يا فرنسا سأرى ما يشيب رأسي هنا في مطارك .. ثم دخلت صالة المسافرين لأنتظر النداءعلى رقم البوابة المشارإليها في بطاقة صعود الطائرة.. وانتظرت لساعات طوال إلى أن شعرت بأنه حان الوقت كما هو محدد في بطاقة الصعود ، فوقفت مع المصطفين في الطابورعند البوابة المعنية والتي دون رقمها في بطاقة الصعود نفسها وانتظرت دوري لدخول الطائرة وما أن وصلت وأخذ الموظف المسؤول عند البوابة بطاقتي ليقرأها حتى نبهني بأن هذه الطائرة متوجهة إلى (برلين) وليس إلى (كان).. وعليّ الانتظار، فلم يحن بعد موعد طائرتي .. فأشرت له على رقم البوابة والساعة الموجودة في بطاقة الصعود

والتي هي بالضبط مثل المعلن على الشاشة فوق البوابة .. فأخبرني بمعلومة جديدة وهي أن شركة الطيران هذه غير دقيقة أبداً في أوقاتها .. ورحلتي إلى (كان) ستتأخر كثيراً.. فقلت له بالعربية : آه بشرك الله بالخير.. فقد كدت أن أقع من طولي بعد سماعي هذا الخبر فقد كنت مرهقة جداً بسبب الانتظار وجاءني هذا الغراب بخبره النحس ليقول لي بأن طائرتي ستتأخر، فجعلني أتحطم وتتحطم معي آمالي .. كنت أقاوم تعبي لأبقى متيقظة حتى لا يفوتني سماع النداء على طائرتي .. وما أن سمعت النداء أحسست بأن أبواب الجنة فتحت لي ومن شدة تعبي غفوت في الطائرة طوال مدة الرحلة إلى أن وصلنا مطار (كان) .. حينها أخذت حقيبتي وخرجت أبحث عن سيارة تاكسي .. فوجدت سيدة تعمل سائقة تاكسي فاستبشرت خيراً وركبت السيارة وأنا مطمئنة وأعلمت أخي بوصولي (كان) حيث استشاط غضباً لتأخري في الوصول ، فقد وعدته بوصولي المفترض عصراً وليس في هذا الوقت المتأخر.. فقلت له: أحمد الله على سلامتي أولاً ثم أبدأ بمعاتبتي ، فقد كنت سأسافر إلى برلين بدلاً عن (كان).. والحمدلله إنني وصلت إليك بعد جهد جهيد ..

في تلك الليلة أخذني أخي في جولة حول مدينة (كان).. فأراني السجادة الحمراء التي يقف عليها نجوم الفن السابع في كل يوم من أيام المهرجان وأجمل الفنادق التي يقطنها النجوم .. وما جذب سمعي هدير الأمواج الموازية لتلك الفنادق ، فشاطئ البحر كان قريباً منها على شكل كورنيش طويل تزينه أشجار نخيل

الزيت الباسقة .. فدعاني ليلتها لتناول العشاء في أرقى مطاعمها وودعته بعدها لأرجع إلى (نيس) حيث أقيم .. وعندما أدخلني موظف الفندق الغرفة التي حجزتها من خلال موقع الانترنت، اكتشفت أن ما حجزته كان جناحاً فخماً بكافة ملحقاته .. ولم تكن غرفة عادية كما ظننت .. فحمدت الله على هذه الهدية وأديت الفروض التي فاتتني قبل أن اندس في الفراش الدافئ الوثيرلأغط في نوم عميق بعد يوم شاق .. في الصباح كنت أغالب الصحيان لأنني تلذذت نومي في الفراش المنعم بالريش ولكنني نهضت فجأة على أنغام موسيقية لطالما عشقتها لشهرتها وتتبعت مصدر الصوت ، فقد كان العزف على آلة الجيتار ويصاحبه صوت غناء لاتيني مع مجموعة من العازفين .. لم أصدق ما رأته عيناي ففتحت النافذة إلى أن تيقنت بأن هناك مجموعة من العازفين يقفون على منصة خشبية مكانها بالضبط تحت شرفتي ونافذة غرفة نومي، فقد كانوا يعزفون أجمل الألحان لنزلاء الفندق الذين كانوا يتناولون فطورهم في الهواء الطلق مستمتعين بمنظر البحيرة الجميل وطيور الأوز السابحة فيها ومنظر الجبال الخضراء التي في الخلف والتي تبدو كلوحة فنية رائعة من صنع الخالق .. كنت خائفة لأن أكون في عالم الأحلام وإنني سأستيقظ في ثوانٍ وينتهي حلمي ومتعتي هذه أوإنني في الجنة ، فهذا المنظر الخلاب الذي يبدو كالخيال بالتأكيد لا وجود له إلا في الجنة .. ترى قد تكون روحي فاضت إلى بارئها وتركت الدنيا للأبد والحمدلله إن كان جزائي هذه الجنة التي أمتعت ناظري بألوانها

فكيف لو سمح لي بالعيش فيها .. وحتى أتأكد من صحة ما أرى قمت من مكاني وغسلت وجهي لأتأكد بأنني مازلت في الدنيا ولم أخرج منها حتى الآن ، فهذا المنظر الماثل أمامي ليس في العالم الآخر بل إنها الدنيا المتعة المؤقتة.. فوقفت في الشرفة التي كانت تطل عليهم لأنظر إليهم وأستمتع بكل ذلك دون أن يرفع أحدهم رأسه ويلاحظ وجودي .. كانت تلك أجمل لحظات عشتها في (نيس).. فشعرت حينها بالدلال كما لو كنت جولييت بطلة قصة شكسبير أقف في الشرفة ليشدو روميو بعزفه وغنائه لي ولكن كنت محظوظة أكثر منها ، فقد وقف تحت شرفتي أكثر من روميو وكلهم لم يلاحظوا القمر الذي يطل عليهم من الشرفة .. فقد غطى على نوري شمس النهار حيث كنا حينها في وقت الظهيرة ..

أخرجني من ذلك العالم رنين الهاتف، فقد اتصل بي أخي متسائلاً عن سر بقائي إلى الآن في الفندق في (نيس) وطبعاً لم أخبره بسري .. فطلب مني المجيء إلى (كان)، فهي فرصة لا تفوت معايشة أجواء مهرجان (كان) السينمائي التي يحلم بها كثير من الناس وخاصة رؤية النجوم والنجمات وهم يمشون بخيلاء على السجادة الحمراء ويتزاحم حولهم المعجبون والمعجبات بالتدافع والتضارب بشكل جنوني لالتقاط صور معهم أوأخذ تواقيعهم ، فذلك هو سحر المهرجان .. فقد لا تسنح لي الفرصة مرة أخرى بمشاهدة هذه الأشياء في مدن أخرى وبما أنني موجودة في مدنية (نيس) التى لا تبعدعن (كان) إلا بدقائق معدودة فعليّ المجيء في الحال .. فقمت بتجهيز

نفسي وطلبت من الفندق تاكسي ليأخذني إلى (كان) ، حيث المهرجان منعقد هناك .. في الطريق لم استطع مقاومة شاطئ البحر، فقد أحسست أن هذا المنظر الأزرق سلبني روحي ولم أعد قادرة على الصبر لأصل إلى موقع المهرجان فشعرت بإحساس (مستر بين) عندما رأى شاطىء مدينة (كان) لأول وهلة، فغمرني الفرح مثله وأردت النزول من السيارة ، فلم أعد أطيق زحمة المرور التي علقنا فيها .. فسألت السائق كم من كيلو متراً باقية على مدينة (كان) ؟ فقال لي خمسة كيلو مترات ، فدفعت له أجرته ونزلت من السيارة لأغمر قدميّ في ماء البحر وعندها انتشت روحي وخصوصاً عندما لفح وجهي هواء البحرالرطب فزاد من انتعاشي .. ثم أكملت المسير مشياً جنباً إلى جنب مع رفيقي البحر الذي تسليت برقص أمواجه ولم أشعر بالمسافة الطويلة التي قطعتها إلى أن وصلت إلى موقع المهرجان في (كان) ورأيت نجوم السينما يقفون على السجادة الحمراء والكل يتهافت عليهم من المصورين والمعجبين والمعجبات لتتكاثر الهالة الفضية التي أحدثتها فلاشات الكاميرات وتعالت معها أصواتهم وهتافاتهم .. ففضلت الوقوف عند محل شهير لبيع الآيس كريم الذي يقابل السجادة الحمراء بالضبط لأعيش السعادة وأنا ألتهم الآيس كريم بلذة ونهم غير آبهة بالتدافع والصخب الذي يدور من حولي ، فأعيش أجواء مهرجان (كان) بنفس لذة الآيس كريم الذي بيدي ، مثلما قال لي أخي الذي كان مشغولاً باجتماعاته ولم أرد إزعاجه وحان دوري لاكتشاف

مدينة (كان) بنفسي .. وعندما انتهيت من تناول قمع الآيس كريم الذي كان بيدي .. قررت المشي على الكورنيش المحاذي لمكان المهرجان .. فكنت أمشي الهوينى حاملةً بيدي الكامير وأقوم بأخذ أجمل اللقطات من أكثر من زاوية وفي غمرة انشغالي بالتصوير فاجأني تقدم شاب في منتصف الثلاثينيات من عمره طويل ومهندم ويتحلى بوسامة شرقية نحوي وكلمني بالفرنسية كلمات لم أفهمها ، فظننت أنه شحاذ يحاول استدراجي لطلب المال، فصددت عنه دون إعطائه أية فرصة واختفيت من أمامه أسرع في مشيتي مبتعدة عن المكان الذي وجد فيه ثم تساءلت فيما بيني ولكن هذا الرجل يبدو من مظهره وهندامه أنه مقتدر وذو نفوذ ولايدل عليه العوز ولكن تراه ماذا كان يتمتم بالفرنسية موجهاً كلامه لي ثم أكملت سيري على الكورنيش متناسية ما حدث ثم أردت أخذ صورة ، فقلبت ظهرهاتفي المحمول الذي كان عاكساً كمرآة وأخرجت قلم أحمر الشفاة ووضعت شيئاً منه ولم ألاحظ مراقبة أحدهم لي ثم طلبت من رجل مسن وزوجته أن يلتقطا لي صورة بالكاميرا التي كانت معي ليظهرمن خلفي منظر شاطىء مدينة (كان) والناس مستلقون على رمله لغرضين للحصول على الدفء من شمسه الساطعة ولاكساب بشرتهم اللون البرونزي اللامع .. فشكرتهما بعد ذلك واستكملت مشواري وأنا أنظر إلى المناطيد الملونة في السماء الصافية لأشعر بهبوب رياح الصيف يومها .. وبينما أمشي وجدت الشاب نفسه يقف أمامي ويتوسل بي أن أقف لحظة وأسمعه وقد كان يتكلم

الفرنسية وكنت لحظتها استوعب ما يقول ولكنني لم أكن قد أجريت قبلها محادثة بالفرنسية .. فقلت له بإنجليزيتي بأنني لست فرنسية ولا أعرف التكلم بلغته وأدرت له ظهري ومشيت وتركته واستغربت ظهوره مرةً أخرى ، فهل يعقل أنه كان يتبعني طوال تلك المدة .. وكيف مشى خلفي هذا الرجل لساعة ونصف الساعة من دون أن أشعر به .. المهم إنني قمت بدوري وأوصلت إليه المعلومة وهي أنني لا أفهم ما يقول ولست من جنسيته أساساً وبالتأكيد تراجع عن ذلك بعد أن أضاع وقته هباء منثورا بالمشي خلفي دون بلوغ غايته .. ثم مشيت مسافة كافية حتى أطمأننت فيه لرحيله دون رجعة ثم توقفت عند واجهة محل من المحلات بعد أن لفت انتباهي فستان عروس راقٍ أحيك بالدانتيل الفرنسي الناعم ، فكنت أحاول جاهدة قراءة سعره المكتوب بشكل دقيق عند ذيل الفستان ليفزعني الشاب مرة أخرى بظهوره المفاجئ ودعوته لي بمشاركته شرب القهوة لدقيقة فقط.. قلت له بالإنجليزية وأنا أهز رأسي يمنة ويسرة : أنت بالتأكيد مصاب بالجنون .. فأنا لا أفهم ما الذي تريده مني .. وركضت من أمامه عابرة تقاطع الشارع لأصل للناحية الأخرى حيث السجادة الحمراء والممثلين وفلاشات الكاميرات والجموع المحتشدة ورجال الأمن .. قلت في نفسي سأكون هنا في مأمن عنه ولن يستطيع فعل شيء لي وسط هذا الحشد الكبير من الناس .. فرأيته مقبلاً كالبطل الهمام الذي لا يهاب شيئاً وهنا ارتعدت فرائصي وبدأت أخاف منه وتساءلت في نفسي ما بال هذا الرجل الغريب

الأطوار يلاحقني ، فأنا لباسي محترم ولم أضع إلا مسحة ناعمة من مساحيق التجميل ولم أكن أمشي بدلال وتصنع مثل بعض البنات فما الذي يجعله يلاحقني بهذا الشكل فأنا في بلدي لم أواجه هذا الشيء فكيف هنا ولأول مرة ؟؟

فوجدته وقف أمامي بثبات محاولاً أن يكسبني ثقته وينزع الخوف مني قائلاً بفرنسيته :أنا فرنسي من أصل تركي مسلم .. وسبب دعوتك على فنجان قهوة لأتعرف عليك عن قرب لأن غرضي من هذا التعرف شريف وهو الزواج بك فأنا لست بشاب عابث ولا أريد أن أقيم معك علاقة صداقة كما هو سائد بين الأوروبيين ، أنا أريد الاقتران بك لتكوني زوجتي ، فالواضح من حجابك واحتشامك أنك مسلمة وهذا رابط أساسي شدني إليك ورغم ذلك كله تتحلين بملامح شرقية ناعمة جعلني أفكر بالزواج منك بالحلال دون الدخول في مهاترات العلاقات الأخرى ، كنت لحظتها واقفة أنظر إليه بدهشة واستغراب وأفكر في كلامه وأتساءل يا ترى لماذا الرجال إلى هذه الدرجة من الأنانية ، فإذا ما أرادوا شيئاً أخذوه دون أن يفكروا ولو لحظة في الطرف الثاني ورغبته ولنقل أن هذا الرجل صادق وسليم النوايا ولكن أليس لي حق في الاختيار أنا أيضاً، فقد لا يعجبني لا شكلاً ولا منطقاً ولماذا لا يضع هذا الشيء في اعتباره ، ولكن للحق أعجبني الرجل في وضوحه معي منذ البداية ، فقد حاول تبرير فعلته هذه.. بعكس ما أسمع وأرى عن شبابنا الخليجيين ، فهو يدخلها في دهاليزغرامياته مدعياً تجربة نقائها ووفائها ، بينما هو كرجل

تنقصه صفة من أهم صفات الرجال وهي الغيرة على أعراض الناس ، فبدلاً من أن يحافظ على البنت يعبث بقلبها بإسم الصداقة والوعد الكاذب بالزواج ويتركها ليجد ضحية أخرى .. وعندها كنت آسفة بقولي له بأنني لست بفرنسية وأنا لا أستطيع التفاهم معه بلغته وإذا أصرعلى ملاحقتي سأنادي له الشرطة وأشرت حينها إلى رجال الشرطة الواقفة لحماية موكب الممثلين والممثلات أثناء الصعود إلى السجادة الحمراء وكانوا قريبين منا بخطوات، وطبعاً كنت أكلمه بالإنجليزية ، فكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي أوقفه بها ، فوجدته لم يبدِ أي اهتمام بل بالعكس كان متزناً ورد عليّ بالفرنسية بهدوء فلأناديهم فهولا يخاف من شيء لأنه لم يؤذني ولم يفعل جريمة يعاقب عليها عندما طلب شرب القهوة معه وعرض مقصده الشريف عليّ وتأكدت حينها من أنه صاحب نفوذ وجرئ في مطلبه ، لا بل وجدته عندما كنت أشير له على رجال الشرطة ينظر إليّ ويتفحصني وكأنه وجد قطعة فنية أو تحفة نادرة خرجت للتو من المتحف في حين أنني كنت منفعلة أفكر في كيفية الخلاص منه لأراه ينظر إلى بشرتي حيناً ثم إلى بياض عينيّ ثم إلى الشامة التي تحت إحداهما ، فصحت فيه بعنف قائلة : ماذا بك تنظر إليّ هكذا ثم أدخلت يدي في حقيبتي وأخرجت له هاتفي المحمول قائلة له سأتصل بزوجي إذا لم تذهب وطبعاً خطوط التواصل مقطوعة بيننا، فأنا أكلمه بالإنجليزية وهو يكلمني بالفرنسية .. وأنا بالكاد أفهمه ، بينما هو لا يفقه ما أقول وربما يعتقد بأنني

أتكلم الفرنسية ولكنني أتظاهر بعدم معرفتي لها .. فوجدت أنه من الأفضل أن أتواصل معه بلغة الإشارة ، فأشرت له إلى إصبعي بأنني متزوجة ، أي أرتدي خاتم الزواج ..أحسست أنه صعق ولم يستوعب الشاب وأخذ يصيح في بالفرنسية «ماغي» وهو محدق بي غير مصدق.. جاوبته بنعم «ماغي» .. فأحسن وضعية وقوفه وهوعلى يقين بأنني غير متزوجة قائلاً: بما فهمته منه بالفرنسية إن كنت متزوجة سأذهب في طريقي وإذا كنت غيرذلك فلن أبرح مكاني حتى تقبلي دعوتي .. فرددت قائلة : «ماغي» صدقني «ماغي» .. فردد عليّ نفس جملته السابقة .. ألا وهي إذا أنتِ متزوجة سأذهب في حال سبيلي وإذا لا سأبقى حتى تقبلي .. فجاوبته وأستخدم لغة الإشارة مرة أخرى وأقول «ماغي» وأشير على أحد أصابعي بوجود خاتم وأضفت قائلة له: وعندي «بيبي» وأنا أشير بيدي إلى الأرض قاصدة أن لدي أطفالاً صغاراً أيضاً.. فرأيته حزن كثيراً لهذا الخبر وقبل أن يمشي خائباً منكساً رأسه سألني قائلاً : أنتِ لا تعرفين التحدث بالفرنسية أبداً فأجبته بالنفي وأنا أحرك رأسي يمنة ويسرة إيماءً مني بعدم قدرتي على ذلك، فقال إذاً من أي دولة أنتِ فجاوبته بصوت عال الهند فتركني من دون كلمة وقد رسمت علامة استفهام كبيرة على وجهه توحي بعدم تصديقه لي ..

وبعد أن مضى الرجل في طريقه وقفت في مكاني وأنا أفكر لو أن أخي علم بكل ماحدث معي للتو لأعادني على الفور وعلى أول طائرة متجهة إلى الدوحة .. إذاً (هش) فهذا سر من الأسرار

ولا يعرفه أحد سواي..

وقتها فضلت البقاء مكاني محاولة إلهاء نفسي بالناس الذين يتفرجون على الممثلين وهم واقفون على السجادة الحمراء ملوحين للمعجبين .. بينما عقلي مشغول بالموقف الغريب الذي تعرضت له منذ لحظات ..

في المساء حضرت مع أخي إحدى حفلات المهرجان وقابلت نخبة من فنانين عرب ومشاهيرعالميين وملكات جمال من دول شتى ، شعرت ليلتها كأنني نجمة من النجمات اللاتي يظهرن على شاشات السينما ، فلم أتخيل يوماً بأنني سوف التقي بتلك الشخصيات التي طالما رأيتها خلف الشاشة ولم أتوقع لقاءها في الواقع وكان كل ذلك تخطيطاً من القدر لأتواجد في ذلك الوقت في مهرجان (كان) ..

في صباح اليوم التالي قررت الذهاب للتسوق وشراء بعض التذكارات من هذه المدينة التي لا تنسى .. فدخلت أحد محلات التحف والتذكارات القريبة من الشاطئ ومن دون انتباه وجدت أحد الأشخاص يوجه لي الكلام بالفرنسية.. فلم أعره اهتمامي ثم وجدته يتكلم بالعربية .. متسائلاً لو سمحتِ ، حضرتك من أي دولة ..تظاهرت بعدم سماعي له .. فوقف أمامي يعيد سؤاله فقلت له من الأردن .. استغرب ثم قال ولكن يبدو أنك عراقية .. لم أرد عليه وأخذت ما أردت شراءه ودفعت الثمن للبائعة وخرجت من المحل أسلك الطريق المختصرالذي سألتقي أخي عنده وجدت الشاب يسرع في مشيه ليصل إليّ ويسألني : هل

أنتِ وحدك هنا ؟؟ أجبته لا فأنا مع أخي وسأذهب للقائه الآن .. وكان كما يبدو لي أنه شامي الجنسية .. وتجاهلته لأستكمل طريقي ، فوجدته يمد إليّ بطاقة تعريفية عنه قائلاً : أنا طبيب أسنان وأود أن أتعرف على أخيك وسآتي معك لتعرفيني عليه .. توقفت حينها في مكاني ولا أعرف ماذا أفعل أضحك أو أبكي، فبالأمس حدث لي فيلم مع أحدهم واليوم استكمل الفيلم مع هذا الطبيب لا ويريد مني أن أقوم بتعريفه إلى أخي .. وأنا على يقين بأنه لو علم أخي بما سآتيه به لنحرني كالشاة أمامه .. فقلت له لو سمحت نحن عائلة محافظة وستتسبب بقتلي إن علم أحدهم بمجرد وقوفي والكلام معك ، أرجوك ابق حيثما أنت أو اذهب إلى حيث تريد ، ولكن من فضلك لا تتبعني ودعني أستكمل طريقي وحيدة.. استغرب المسكين كلامي قائلاً :على العموم بطاقتي معك إذا أردتِ التواصل معي ..

لم أجبه بشيء وتركته وسؤال واحد يدور في ذهني ، هل مدينة (كان) مدينة رومانسية إلى هذه الدرجة لأجد العشاق في كل زواياها ، إذاً سأفكربالأستقرارهنا وخاصةً أن أزقتها الضيقة أشبه بأزقة مدينة المحرق في البحرين عندما زرتها في صباي .. وعندما ذكرت لأخي ذلك التشبيه فوافقني الرأي قائلاً بأنه تشبيه بليغ ولكن بالطبع لم أخبره بما حدث لي مع الطبيب فهو سر أبدي ..

في اليوم التالي كنت أقوم بالاستعداد للذهاب إلى المطار فقد انتهت الثلاثة الأيام التي قابلت فيها المشاهير من الممثلين والممثلات وعشت مغامرات حلوة وبالأخص مع العاشقين

اللذين افتتنا بي كقيس بليلى وعنترة بعبلة.. واللذين قابلاني بالصدفة في شارع من شوارع مدينة (كان) ليعلقا آمالهما عليّ من أول نظرة .. طبعاً ليس من أجل سواد عيني ولا الهيام بي ولكن الله يعلم ما كان في نفسيهما!!

فغنيت حينها أغنية عبدالحليم الذي أسمع والدي دائماً يدندن بها في خفية.. «أول مرة تحب يا قلبي و أول يوم أتهنى ».. ربما صدق حليم في وصف مشاعرهما ..

في يوم عودتي لباريس ذهبت إلى المطار مبكراً تلافياً للمشاكل التي حصلت معي في المرة السابقة .. كنت في المطار في الساعة الواحدة ظهراً، بينما ستطير طائرتي في الرابعة والنصف.. قلت في نفسي سأتعرف على مكان الكاونتر دون استعجال ، ففي مطار (كان) قد لا يوجد رجل عربي يساعدني كما حصل معي في باريس.. فانتظرت لساعات أسلي نفسي بمشاهدة لغة الجسم الذي يمارسه الناس من كافة الأعمار والجنسيات تارةً أواشغل نفسي بالقراءة تارة أخرى إلى أن فتحوا الكاونتر لتسليم بطاقات الدخول للطائرة بعد ادخال حقائب المسافرين الذين يودون ذلك ، وكنت أول من أدخل حقائبه في الشحن بعد أن دفعت رسوم الادخال فمن شروط هذه الشركة الغريبة أنه يجب حمل حقيبة واحدة في اليد في الطائرة وأنا كنت أحمل حقيبة يدي وحقيبة الكمبيوتر المحمول الصغير الحجم ، فكيف لي ادماجهم أنه ببعض ، فكانت تلك الشركة أتعس شركة طيران رأيتها في حياتي ، فحملت الإثنين معي متظاهرة بعدم

درايتي بذلك القانون ، وعلى إثرها دخلت صالة المسافرين لأنتظر وأنتظر وبالفعل ضقت ذرعاً لطول انتظاري .. كي يحين موعد إقلاع طائرتي وعندما صارت الرابعة والنصف عند البوابة المذكور رقمها في بطاقة الصعود ووقفت كالآخرين في الصف إلى أن انتصف الصف فسألت أحد المصطفين معي إلى أين تتجه هذه الرحلة التي نحن مصطفون فيها ؟ فرد عليّ إلى برلين.. فقلت في نفسي يبدو أن ألمانيا تريد أن أزور عاصمتها برلين في هذه المرة ولذلك تسحبني إليها في كل مرة أتواجد فيها في المطار، لتكون مغامراتي القادمة في برلين .. وخرجت من الصف أسأل أمن المطارعن بوابتي ؟ ليقول لي لم يتم الإعلان عن البوابة إلى الآن .. ولكن إلى متى ، فقد حان موعدها .. وطلب مني رجل الأمن أن أبقي ناظري شاخصين على الشاشة الصغيرة في وسط القاعة والتي خطوطها تحتاج لتلسكوب هال الدقيق لرصد رقم البوابة بين مئات البوابات المعلنة عنها وظللت انتظر لمدة أربع ساعات لكي يعلنوا عن رقم البوابة ، إلى أن انفرجت بعون الله في الساعة التاسعة ليلاً وفي الطائرة لاحظت أن شركة الطيران هذه تقوم ببيع الطعام والشراب كما في القطار، فتمر المضيفة حاملةً معها قناني العصير والمرطبات والسندويتشات الخفيفة .. كي تبيعها للمسافرين ، كانت هذه الشركة تضحكني بقوانينها ، وإضافة إلى ذلك رأيت مضيفة من المضيفات ذات قوام ممتلئ وسمين ، حينها تذكرت أستاذة مقرر الإدارة بالجامعة عندما أخبرتنا بمعلومة مهمة عن شركات الطيران وسر اختيارها

للمضيفات النحيفات أو اللاتي يتميزن بالرشاقة والسر الكامن في ذلك هو كي يسهل عليهن الحركة بخفة وسرعة.. ولكن ما سر هذه المضيفة التي شذت عن قائمة شركات الطيران في العالم ، بصراحة لا علم لي بذلك ..

عندما وصلنا المطار في الساعة الثانية عشرة ليلاً .. كان واضحاً إننا آخر المسافرين وصولاً.. فالمطار خالٍ من كل البشر فلا يوجد موظفون ولا وجود حتى لعمال النظافة .. لدرجة أن الكافتيريا والسوق الحر كانتا مغلقتين والأضواء مطفأة أو خافتة وعلى وشك الاغلاق.. كانت تلك أول مرة أرى فيها مطاراً يغلق ويطفئ أضواءه أمام مسافريه.. فما أن خرجت حقيبتي من الشحن أخذتها وركضت نحو الباب ورأيت سيدة تبحث عن تاكسي ، فتبعتها لعلها تعلم بمكان وقوف سيارات التاكسي في هذا الليل البارد والمخيف ولكنني اكتشفت أنها نفسها لا تعرف المكان إلى أن أشار لنا أحدهم إلى مكان وجود سيارات التاكسي ، فوصلت ووقفت مع المصطفين في الطابور الطويل جداً وكنت الأخيرة ومضى الوقت ثقيلاً ، بينما نحن ننتظر أن يتحرك الطابور وكنت منهكة جداً وبالكاد أستطيع الوقوف على رجلي من التعب وبرودة الجو، فسمعت صوتاً آتياً من خلفي يسألني بالفرنسية: سيدتي هل تريدين تاكسي ؟ فالتفت لأجد أحدهم ذا ملامح عربية.. فقال مؤكداً : أنا أعمل سائق تاكسي وسأوصلك إن أردتِ .. فرحت جداً لسماعي ذلك ومن شدة تعبي جاوبته بالإيجاب وسألته عن مكان سيارة التاكسي الذي يخصه .. فقال

لـي إنـه بـالـخـلـف فـقـط عـلـيّ الـمشـي لـخـطـوات إلى مـواقـف السيارات.. كنت أثناءها لا أدري ما الذي حصل لي ، فقد كنت كالمسحورة أو المنومة مغناطيسياً.. فحاولت التحرك من مكاني وسـحـب حـقـيـبـتـي إلا أنـه اسـتـوقـفـنـي صـوت رجـل مر مصـادفـةً بمحاذاتي وسمع محادثتي مع هذا الرجل المصرعلى إيصالي ، فصـاح فـيـه طـالـبـاً مـنه أن يريه بطاقة أو رخصة سائقي سيارات التاكسي .. فتلعثم الرجل حينها وأظهر بطاقة كارتونية صغيرة راداً بنبرة متقطعة : نعم أنا سائق وسيارتي بالخلف وأخذ يتراجع بخطواته للخلف وأصبح بعيداً وعرفت حينها أنه ليس من شركة نظامية مأمونة بل لديه سيارة خصوصية يريد كسب الزبائن من خلالها وفهمت أن الرجل الذي سمع حديثنا لم يكن إلا شرطياً في مـلابس مـدنـيـة وعـنـدمـا سـألـه أمامي أراد أن أحترس منه .. فشكرته على صنيعه معي ولو أنه لم يفعل ذلك لذهبت معه ، فشدة البرد شلت عقلي عن التفكير وتنبهت بأن الرجل رجع إليّ مرة أخرى ليسألني إن أردت أن يوصلني ، فصددت عنه بجسمي بالكامل دون إجابة.. ثم حاول أن يجرب مع الرجل الأفريقي الذي جاء متأخراً ووقف خلفي ورد عليه بالنفي القاطع إلى أن جاء دوري وركبت التاكسي الموثوق والمؤمن وأمام ناظري شرطة المطار .. كان سائق التاكسي صيني الاصل ، فحكيت له ما حصل معي بالضبط كي أعرف إذا ما كان بالفعل توجد خدمة أخرى للتوصيل في المطار غير شركتهم .. فجاوبني قائلاً : أشكري الله على عدم ذهابك معه .. أتعرفين أنه في العام الماضي

فقدت فتاة سويدية استقلت إحدى السيارات حيث قام سائقها بإيهامها بأنه سائق تاكسي مأمون ليغتصبها ويقتلها ولم يترك أثراً لجريمته واستدلت الشرطة بعد ذلك على مقتلها بعد اكتشاف أسرتها اختفاء ابنتهم في المطار.. فاحذري من الركوب مع أشخاص ليسوا من شركات تاكسي أمينة وإرادة الله نبهتك إلى التريث وعدم الذهاب معه عندما استجوبه الشرطي .. وإلا ومن يدري فقد يكون مصيرك كتلك البنت التي اختفت .. بقيت صامتة طول الطريق ، إلا أن عينيّ كانتا تأبيان الصمت ، فكانتا تذرفان الدموع دون توقف وحفرت في منتصف وجنتيّ خطين تشهدان بأن عناية الله هي التي حفظتني ساعتها..

لم أخبر أحداً بما حصل معي في تلك الليلة وتذكرت أنه بقي لي أسبوع وأغادر باريس وعليّ الذهاب إلى السفارة القطرية في باريس لتذكيرهم بموعد طائرتي التي ستغادر مطار شارل ديغول في وقت مبكر من صباح يوم ٢٤ مايو ٢٠١٠ وعندما استشرت بذلك أخي نصحني بعدم الذهاب لأن ردهم سيكون كرد السفارة القطرية في لندن فلا داعي لإحراج نفسي وطلب المعروف من غير أهله و يمكنني أن أستقل تاكسي من موقف التكاسي الموجود تحت المبنى الذي يسكنه .. قلت له ولكني كلمتهم وراسلتهم قبلاً ،هم والسفارة القطرية في لندن .. ولكن السفارة في باريس وعدوني خيراً بينما السفارة في لندن كان ردهم جافاً من دون عذر وكأنني أطلب إحساناً منهم وعلى الرغم من أنني شهدت بنفسي تصرفهم السابق مع أقرانهم .. فرد عليّ قائلاً:

أنصحك بأن تنسي الموضوع تماماً ، فوجودهم هنا شعارلنا وهوية أما تقديم المساعدات أو غير ذلك فانسي ذلك..

في إحدى الليالي وعند عودتي من العشاء مع أخي .. خرجت من المصعد في الطابق الذي أسكن فيه لأشم رائحة بخور زكية عطرت الممر كله وما أن وصلت إلى باب الشقة حتى رأيت باب الشقة المحاذية لي مفتوحاً وتخرج منه سحائب دخان معطرة .. فوجدت سيدة بيدها مدخنة صغيرة تنفخ على الجمرة حتى تزداد احمراراً ليزيد معها نفث الدخان .. فسلمت عليها وكلي فرح وقلت لها إذاً أنتم جيراني الجدد ويالحظي العاثر، فها أنتم تسكنون بجواري في آخر أسبوع لي في باريس .. فقد كنت مشتاقة لوجود جيران يسكنون حولي أول ما أقمت في الشقة ولكن الحمدلله ، حتى وإن كان آخر أسبوع لي فأنا سعيدة بكم.. فوجدتها جاءت نحوي لتمد يدها للسلام عليّ ولتعرفني بنفسها قائلةً أنا عائشة من الكويت وهذا أخي محمد ونحن مع والدتنا في رحلة علاج ومراجعات مع الأطباء .. وقد جئنا منذ بداية الشهر ولكن سكنا في طابق آخر .. وكانت هذه الشقة هي شقتنا المفضلة التي دائماً نحب السكن فيها عندما نأتي لباريس وفضلنا أن نسكن فيها من جديد .. ولم نعرف بوجود جارة لطيفة مثلك هنا .. ووعدتهم بالزيارة عندما يستقرون في الشقة .. لم تسعني الفرحة في تلك الليلة .. فأخيراً سوف أستشعر بوجود بشر يعيشون حولي .. فكثيراً ما كنت أظن وأنا أمشي في الممر المؤدي إلى المصعد وعلى جانبيه تلك الأبواب الموصدة فيخيل

لي أن هناك خلفها أشباحاً وليسوا بشراً فلم أر ظلاً لهم ولم أسمع حسيسهم يوماً.. والحمدلله الذي غير حالي إلى أحسن حال بجيران جدد..

وابتهاجاً باقتراب موعد سفري دعتني رفيقتي الباريسية أمل لقضاء يومين معاً قبل الوداع لأرى باريس من خلال عينيها .. فأخذتني يوماً إلى معهد العالم العربي لاشتري كتب الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي الثلاثة ولمعرفتها بشغفي وحبي للقراءة.. قالت لي : عزيزتي هنا في باريس ستجدين كل شيء تبحثين عنه في العالم إلا أمكِ وأبوكِ هذا ما قالته أحلام مستغانمي في أحد كتبها التي تحملينها بين يديك.. ورأيت دمعة ساخنة تتراقص في عينيها وتأبى أن تسقط بعند ، فالدمعة كانت عنيدة مثل صاحبتها.. فبدأت حديثي بسؤالها بصوت هادئ أمل أشعر أحياناً كثيرة بحنينك لأهلك من خلال كلامك الدائم عنهم وكأنك لم تصدقي أن وجدت أحداً يكلمك بلغتك ويسمعك ويسمع ذكرياتك عن أخيك ربيع وأخواتك ووالديكِ الذين لطالما كلمتني عنهم كلهم ، فرسمت وجوههم في خيالي ، ألم يحن الوقت لتعودي إليهم وتنزعي دثار الوحدة والغربة التي تلتحفين به هنا ..

كنا نمشي في طريقنا وفجأة ظهرت أمامنا كنيسة نوتردام وتعني كنيسة سيدتنا .. المقصودة بها السيدة مريم عليها السلام..

فقالت أمل: تعالي لندخل الكنيسة وسأروي لك سبب وحدتي وتشبثي بالغربة هنا .. كانت الكنيسة واسعة جداً وكان يتلو القس ترانيمه على المنصة الخاصة به لتبدأ قصة أمل وسط تلك

الاجواء.. قائلة : أنا ككل البنات ، لي قلب أحب .. فأحببت شاباً كان يدرس معي في جامعة إربد وكان يبادلني الحب نفسه كان اسمه وسام .. طيلة سنوات دراستنا كبر حبنا معنا على وعد أن نكلل هذا الحب بالزواج بمجرد تخرجنا .. وأثناء تلك الفترة كان كثير من الخطاب يتوافدون على بيتنا يطلبون الزواج مني وكنت أرفض بسبب وفي بعض الاحيان بلا سبب حتى حاول والديّ معرفة السبب ولكن دون جدوى لم يستطيعا التوصل للسر المدفون في ثنايا قلبي ، إلى أن تخرجنا وحان موعد عودة كل منا إلى مدينته ، ففاتحته بموضوع ارتباطنا لأجده يبكي كالطفل أمامي ويرجوني أن أسامحه ، فقد أصر أهله على زواجه من بنات إحدى العوائل الثرية في العاصمة عَمان التي أختاروها له ولم يعد باستطاعته الوفاء بوعده لي .. فقلت له متسائلة وحبنا يا وسام الذي زرعته في قلبي لخمس سنوات، كيف أنساه بهذه البساطة ، إنها خمس سنوات قضيتها في معبد حبك ، فلم أر أحداً سواك ، أحببتك من كل قلبي وأعماني حبك عن الشك ولو لثانية في أن تأتي يوماً وتفطر قلبي بتركك لي .. فوجدته وقع على قدمي يرجوني أن أسامحه ، فهو ما زال يحبني لدرجة الموت فيّ ولكن لا يستطيع أن يغضب والديه من أجل الزواج بي ويتمنى لي أن أجد من هو أفضل منه وأشجع منه .. فأنا لا أستحق إنساناً ضعيفاً مثله لم يواجه الجميع بدفاعه عن حبه المستميت لي.. وتركنا بعض بعدما رجع كل واحد فينا إلى مدينته وحاولت قدر استطاعتي نسيانه ولكن صورته منقوشة على صدري ، فقد عشت

معه أجمل سنين عمري وأصبحت الآن أغلى ذكرياتي .. تساءل أهلي عن سبب مرضي وشرودي الدائم ولكن لم يستطيعوا معرفة الألم الكبير الذي أحمله بصدري ، وبالرغم من أنني كنت أعمل في وظيفة ذات دخل محترم بالأردن ولكن كان يصعب عليّ تنفس الهواء الذي يتنفسه أيضاً دون لقائه ولو لمرة ، فقد كنت في مرات عديدة أفكر في السفر إلى مدينته للقائه ومعاتبته لإيصالي لهذا الحد من الألم والوجع بعيدةً عنه .. فأصعب شيء في الدنيا هوأن تؤلمك روحك ولا تعرف مداواتها .. كدت أن أموت حزناً وكمداًعلى فراقه فرثى أهلي لحالتي ووافقوا على سفري رغماًعنهم ، فقد يكتب لي عمر جديد حتى وإن كنت بعيدةً عنهم.. وحصلت على وظيفة تؤهلني للسفر لألمانيا ثم عن طريقها جئت إلى فرنسا وتنقلت بين مدن عدة إلى أن استقررت برحالي في مدينة باريس طبعاً تنقلت في وظائف متعددة .. وتعرفت على أشكال متنوعة من البشر وأوقعني الحظ لنسيان وسام في حب الطبيب النفساني عاصم الذي تعرفت عليه هنا في فرنسا وكان مطلقاً ولكني أحببته وخاصة أننا من نفس الجنسية ، فأعجبت به وأحببته وتم إعلان الخطبة ولكنني وجدت في تصرفاته الكثير من الأنانية والشك والنظرة الدونية لي واستمرت خطبتنا لمدة ثلاث سنوات لتنتهي بالانفصال ولكن بعد ماذا؟ بعد أن طعنني في شرفي وفي كل العربيات اللاتي يعشن بالخارج .. ووصمني بكلام قبيح وجارح ترك أثراً وذكرى مؤلمة تعيش بداخلي بعدما كنت قد سلمته قلبي الجريح ، فبدلاً من أن يداويها

شوهها باتهاماته الباطلة التي بدت كمشارط تقطع أوصال قلبي .. كم أنا نادمة على الأيام التي ضيعتها مع شخص مثله وأتمنى لو لم ألتقي به في حياتي لكن ذلك أفضل لي بكثيرمن أن يترك فيّ هذا الشرخ تجاه كل الرجال العرب ، فلم تعد لي رغبة فيهم بعد هاتين التجربتين وقد أشارت عليّ إحدى صديقاتي التي تعيش هنا بالزواج بفرنسي مسلم .. فقد جربت هي الزواج بفرنسي من نفس ديانتها قائلةً لي بأنها تصحو وتنام على السعادة ، فهو يقدرها ويحترمها كثيرا وتنصحها بتجربة الزواج من غير العرب .. ثم تكمل كلامها قائلة أتعرفين بأنه لم تكن لي يوماً علاقة صداقة مع غيرالعرب فكيف لي الآن أن أحصل على زوج غيرعربي ، وسأخبرك بسري الذي لا يعرفه أهلي ، أتدرين أنني أحياناً كثيرة أشعر بالوحدة وأخاف أن أموت ولا يتم اكتشاف موتي إلا عندما يتعفن جسدي ، فتأخذه الجهات المسؤولة لإحراقه ما لم يتبين وجود أقرباء لي هنا فذلك هو العرف السائد والقانون المحتم في فرنسا ، إلا من أمن لنفسه مبلغاً خاصاً في البنك بغرض القيام بمراسم دفنه .. أو سيقومون بإحراق جثته ولذلك أوصيت أصدقاء لي بدفني برسوم التأمين التي وضعتها في البنك ولا يتركونهم يحرقون جثتي ..

أنا يا عزيزتي كباقي البنات أتمنى الستر والاستقرار ولا أنادي كباقي النساء بالمساواة وعمل المرأة ، لأنني جربتها ولم ترق لي الحياة دون رجل ، فأنا أريد أن أكوّن أسرة من أطفال وزوج يحميني ويخاف عليّ من نسمة هواء ، أريد رجلاً أقاسمه حلمه

في الحياة وأفني عمري معه .. أين أجد هذا الرجل ؟؟ فقلت لها وأنا مبتسمة ملء شدقي : هذا الرجل الذي تسألين عنه انقرض منذ زمن بعيد منذ انقراض الديناصورات ، فلا تبحثي عنه فبعد موت نزار قباني الذي قدس المرأة برومنسيته انقرض الحب ومات بعده.. وخرجنا من الكنيسة وهي تضحك على تعليقي وردي على سؤالها .. ثم أخذتني لتريني المبنى الذي يقيم فيه عشقها الأبدي في باريس، فهي تتابع كل أخباره وتعرف جدوله اليومي والشهري والسنوي، فحبها له لم يكن وليد اللحظة ..عدا ذلك الهدايا التي تشتريها له من راتبها الضئيل لتقدمها له في مناسباته الخاصة ومن كثرة ترددها على الشارع الذي يقع فيه بيته حفظت عدد أعمدة الإضاءة التي فيها وتستطيع التعرف على ما إذا كان موجوداً في البيت حينها أو مسافراً لإحدى دول العالم ليحيي حفلاته فيها.. فمعشوق أمل يغني لها دائماً وهي تقف تحت شرفته تنظر إلى ظله بلهفة «زيديني عشقاً زيديني يا أحلى نوبات جنوني ».. إنه كاظم الساهر..

وعندما حان وقت الغروب أخذتني أمل إلى هضبة (موماغت) الشهيرة حيث تقع على سفحها كنيسة قديمة ومشهورة جداً، ذهبت بي أمل إلى هناك لأنها كما تقول إن منظر الغروب من فوق سفح الهضبة يذكرها كثيراً بعَمان فتسترخي لتغمض عينيها وتتخيل نفسها في الأردن مستعيدة أجمل ذكرياتها مع عائلتها هناك .. ثم قالت لي في بعض الأحيان تمرعليّ أوقات عصيبة أكون فيه عاجزة وفاقدة لذة كل شيء جميل في الحياة ولكن

عندما أتذكر أن اسمي «أمل» استعيد ثقتي بنفسي وأستمد قوتي منه ويجعلني هذا أرفع هامتي وكلي تفاؤل وأمل بصلاح غدي مادام أنه بيد الله ربي ..

في المساء عندما عدت إلى الشقة بعد قضائي يوماً طويلاً مع أمل .. سمعت طرقاً على الباب ثم دق جرس الباب .. عرفت حينها أن حدسي صدق عندما أخبرني بحدوث ذلك يوماً ما ، وعندما فتحت الباب وجدت عائشة تدعوني لشرب القهوة عندهم والتعرف على الوالدة .. فتسامرت تلك الليلة عندهم وتعرفت على والدتها الحنونة التي كانت بلسم شفاء لمن يعرفها ففيها طيبة متناهية بشكل لا يوصف وتعرفت أيضاً على أخيها محمد واتفقت مع عائشة أن نذهب في صباح اليوم التالي معاً لنتسوق من المحلات القريبة من المعهد الذي أدرس فيه خاصةً أن لها ابنة سيكون موعد زواجها قريباً جداً وهي تريد أن تنتهز الفرصة وتشتري لها كل ما تحتاجه العروس من مستلزمات ، مادامت موجودة هنا في باريس المعروفة بفخامة أشيائها وأناقتها..

وفي الصباح كان موعدنا ،أخذتها إلى جميع المحلات التي ترددت عليها طوال مدة وجودي في باريس.. واشترينا ما اعجبنا من تصاميم تثير أي فتاة ذواقة مثل ابنتها وحتى نستريح قليلاً من المشي بين المحلات أخذتها إلى مقهى مفضل عندي في باريس يتميز ببيع الخبز الفرنسي الطازج بكافة أشكاله وأنواعه ولديه تشكيلة رائعة من الحلويات تجعلني كثيراً ما أقع في حيرة عند طلبي للحلو من قائمته لتأتيني مع قهوة فرنسية ذات نكهة ورائحة فريدتين..

افتتحت عائشة حديثها قائلة : إنها كانت تعمل اختصاصية اجتماعية في إحدى المدارس والآن هي سيدة متقاعدة ، جُل وقتها تقضيه في الاهتمام بحفيدتها الرضيعة التي هي ابنة ولدها الوحيد ولديها ثلاث بنات إحداهن ستتزوج خلال أشهر .. ثم صمتت لدقيقة وأكملت حديثها ودموعها بدأت تنهمر من عينيها والكلمات كانت تخرج منها كغصة بلعتها وهي تحكي لي قصة ابنتها التي تزوجها ابن عمها وبعد شهر من زواجهما جرح قلبها بورقة الطلاق ولم يفكر أنه هدم حياتها بزواجه منها بعدما كان قلبه معلقاً بحب إحدى صديقاته وأراد الرجوع لفساده بطلاقها.. فترك ابنتي تتألم بحسرة لقب مطلقة ، فهي لم تكن قد أكملت العشرين من عمرها ولكن ابن عمها غدر بها بلقب مطلقة والآن وبعد أربع سنوات من تجرعها الحزن تقدم لخطبتها أحد الأشخاص وكان يكبرها بعشر سنوات .. فطلبت من ابنتي التفكير مطولاً وبالأخص أن فارق العمر بينهما كبير، فردت عليّ ابنتي وهي تحاول أن تلملم بقاياها قائلة : لقد تزوجت الذي كان في نفس عمري ولم يقدرني كجوهرة بين يديه تاركاً إياي ليجري خلف طيشه ، فربما هذا الرجل قد علمته السنون كيف يحافظ عليّ ويسعدني وخاصةً أنه مر بتجربة مماثلة لي .. فقلت لها وأنا أحاول تهوين حزنها: الحمد لله يا عائشة فالله عوضها خيراً منه وأبدلها برجل يقدرها ويصونها كما أردتِ .. فردت عليّ ونزلت من عينها دمعة أخرى قائلة: ولكن حُسبت على ابنتي زيجة سابقة ظلماً فهي الآن سيدة مطلقة أمام هذا الرجل بالرغم من صغر

سنها.. وهنا انعقد لساني ولم أعرف كيف أهون عليها مصابها وآلمني كثيراً انكسار قلب عائشة على ابنتها شهد واستغربت كيف أستأمنتني على سرها وضعفها وباحت بالهم الذي يسكن عمق قلبها .. ثم مسحت دموعها وهي تقول: أرجوكِ الغي رحلتك إلى لندن ، فوالله لقد دخلت قلوبنا وأصبحت واحدة منا ويصعب علينا فراقك ، فقلت لها وأنا أربت على يدها وربي يشهد أنكم نعم الأهل لي هنا وكنتم عائلتي التي افتقدتها في غربتي ولا بد أنني سأزوركم يوماً ما في الكويت، فأنتظري زيارتي لكم عن قريب..

في آخر يوم لي في المعهد أهديت مدرستي العجوز هدية فرحت بها كثيراً.. ثم سألتني إحدى الطالبات البرازيليات بخجل عن سر جمال عينيّ؟ بصراحة سؤالها كان مفاجأة لي ، فلم أدرك أن عينيّ جميلتان إلى هذا الحد لتغرياها بسؤالي في أثناء انهماك المدرسة بشرح المنهج ، فقد كانت الفتاة تجلس ملاصقة لكرسيّ ورغم ذلك لم أعرف ماذا أجيبها ؟ ثم قالت لي : ممكن أن أهديك شيئاً ليس له دلالة دينية فهو عربون صداقة أحب أن أهديكِ إياه ومدت كفها لي وكان في وسطه قلادة صغيرة منقوش عليها صورة امرأة بغطاء رأس ثم أستأذنت إن كنت أسمح لها بأن تقبلني على وجنتي لتوديعي وتتمنى ألا أرفض هديتها وتبادلنا البريد الالكتروني الخاص بكل واحدة فينا ووعدتها بالتواصل ..

في نهاية اليوم الدراسي لي في المعهد سلمتني المديرة الشهادة ومع جزيل شكرها لاختياري الدراسة في هذا المعهد ، واحتفالاً

باستلامي للشهادة خططت أمل أن نجوب نهر السين على ظهر مركب يبحر بنا على مياهه في جولة أخيرة حول مدينة باريس وضواحيها ..

وفي لحظات إبحارنا على ظهر المركب تذكرت ما فعلته الفتاة البرازيلية معي ، فأظهرت لأمل القلادة التي أهدتني إياها الفتاة وقصصت لها ما فعلت ، فوجدت أمل مندهشة لتقول: يا لروعة القلادة .. أتعرفين ما هذا الشئ الذي أهدتكِ إياه هذه الفتاة فقلت: لها وما أدراني ، فالبنت وضعته في يدي وخجلت أن أردها لها وقالت لي بأنه ليس برمز ديني ، فردت عليّ أمل قائلة : سأفسر لك ما هذا لأن لدي صديقات مسيحيات كثيرات ، فأنا أعرف الذي تحملينه في وسط راحتك إنه شيء مقدس جداً عند المسيحيين كتقديسنا نحن المسلمين للقرآن الكريم إنها أعطتك قلادة مريم العذراء لتحفظك من كل شر هذا حسب اعتقادهم كما نعتقد نحن بالقرآن ليحفظنا ..هذه الفتاة تحبك وأنتِ عزيزة عليها ، لذلك أعطتك أغلى شيء في دينها .. فقلت لها سبحانك يارب .. إذا أحب الله أحداً حبب خلقه فيه ، فالحمدلله على هذه النعمة..

وعندما رسا بنا المركب عند قاعدة برج إيفل معلناً انتهاء رحلتنا النهرية جلسنا عند قاعدة البرج الشهير نأخذ صوراً ونستمتع بمنظر الحديقة من تحته .. فتذكرت أن أحكي لها قصة الشاب اللحوح الذي كان يمشي خلفي طوال الساعتين ليعبر لي

عن حبه على كورنيش مدينة (كان) وحكيت لها بالضبط كيف كنت أصده وانهره ولكن كان يستمر بتذلل شديد في دعوتي لاحتساء فنجان قهوة معه .. فرقت لحاله وقالت لماذا فعلت بالمسكين هكذا.. فالذي فعله معك دليل على صدقه فمن خبرتي وحياتي هنا ،الرجل لا يذل نفسه أبداً أمام امرأة إلى هذه الدرجة وبالخصوص في موضوع حساس مثل الزواج، مالذي فعلته حتى ظل يتبعك لساعة ونصف الساعة .. قلت لها لا شيء ربما لأنني كنت أرتدي الحجاب ولو كنت أعرف بملاحقته لهلكته جرياً ولكن لم أدرك أنه يتتبعني إلا متأخراً.. ثم قالت: ولماذا لم تعطيه فرصة ليعبرعما يكنه لك من مشاعر وحب ؟؟ فقلت لها: وأي فرصة أعطيه فقد كنا نبدو مثل خريجي مدرسة الصم والبكم فكلامنا كله كان بالإشارة هذا أولاً ، وثانياً أنا إنسانة مسؤولة عن أفواه وأرانب وهم والداي وأخوتي ، فلا أريد أن أخسر ثقتهم بتصرف طائش فهم يعرفون كم أنا عاقلة وأوازن الأمور بشكل صحيح .. ثم نهاية قولي إنني أعرف كيف سيكون مصيري معه.. لو قدر الله وتزوجته .. سأكون بالتأكيد أو كما تقولين بالفرنسية «بيان سوغ».. إما راقصة في ملهى أو فتاة ليل ..أنا أعرف المستقبل المكتوب مع هذه الأشكال.. فضج المكان بصوت ضحكتها العالية ، فهي لم تتوقع خيالي الواسع لدرجة أن أصير راقصة أو فتاة ليل بيد هذا الفرنسي ذي الأصول التركية..

في ليلة ٢٤ مايو ٢٠١٠ زُينت جادة الشانزليزيه بالأشجار والورود وأغلق الشارع بأكمله لتعليق الزهور والورود على أعمدة

الأنارة في الشارع .. فسألت أمل عن سبب ذلك ، فقالت لي بتعجب إنها المرة الأولى التي يحدث فيها هذا منذ وجودها في فرنسا قبل ست سنوات ، فلم تر اغلاقه إلا لمناسبة وطنية أو لمرور حاكم دولة أو ملك ، أما أن يغلق بالورود والزهور فهذا هو الغريب والعجيب وربما أرادت باريس أن تحتفل بك وتشكرك على زيارتك لها ، ففرشت لك الأرض زهوراً وروداً لتمشي عليها في طريقكِ للمطار ..

وبالفعل كان الناس مندهشين وهم يرون أن الحركة تلاشت تماماً في الشارع الأكثرحيوية وشهرة في العالم وقد وضعت على امتداده الشتلات والزروع والزهوروالورود بأشكال تسر المارة الناظرين إليها ولتثيرالبهجة بينهم .. وعلى رصيف جادة الشانزليزيه ودعت أمل واحتضنتها بقوة ليلتصق ببشرتي وملابسي عبق عطرها الذي كانت تفوح منه رائحة أزهار برتقال يافا وعطر زيتون القدس وشذا أوراق الزعتر البري الفلسطيني .. لأستنشقه كلما اشتقت إليها وإلى الأمل ..

قررت توديع أخي عند منتصف المسافة التي تكون بين شقتينا.. بالذات عند أتيليه مصمم الأزياء (إيلي صعب) الذي كنت دائماً أقف عند واجهة محله ،فأنشغل بالنظر للشرفة التي تبين جزءاً من تصاميمه، بينما كنت انتظر أخي فأتساءل في نفسي تراني سألبس يوماً من تصميماته الباهظة الثمن .. فلمعة أحجار الشوارسفيكي المطرزة في فساتينه المعروضة على جسد المانيكان تغريني لتجعلني أرفع ذقني عالياً لأتسلى بالنظر إلى

الواجهة الموجودة في الشرفة أعلى المحل لأمتع عيني بجمال الفستان .. فقد كان ملتقانا عند أتيليه (إيلي صعب) .. وسأختمها عنده أيضاً فسألته قبل رحيلي هل سأحصل على تاكسي بسهولة في يوم الغد وخصوصاً في الصباح الباكر لأنه تم إغلاق جزء كبير من شارع الشانزليزيه منذ الأمس ، فهل تعتقد أن موقف سيارات التاكسي الذي تحت شقتك لن يتأثر بإغلاق الشارع لأنه جزء من الشانزليزيه .. فرد عليّ أخي بثقة قائلاً : إن سيارات التاكسي لن تتأثر أبداً بالإغلاق الحاصل في الشانزليزيه اطمئني يا عزيزتي فهذه خدمة مهمة وسيارات التاكسي لن تختفي فجأة من الشارع، فهي من ضروريات الحياة ..

ودعت جيراني العائلة الكويتية وحزنت كثيراً لفراقهم وأوصاني محمدأخوعائشة إذا ما احتجت مساعدة ،عليّ ألا أخجل من طلبها منهم بدق الجرس في أي وقت كان .. فشكرته كثيراًعلى عرضه الكريم ..

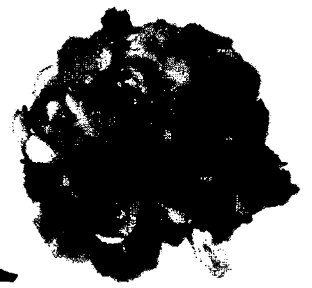
وليلتها جفاني النوم ، فقمت وجمعت أغراضي وحزمت حقائبي كلها وبقيت ساهرة متكومة على الأريكة أقرأ القرآن حتى يطلع الصبح وأرتاح من همي، فقد سلب القلق النوم من عينيّ رغم شعوري بالاجهاد والتعب في جسمي .. ولكن عليّ الصبر لسويعات وعند وصولي للندن سأرتاح من هم التوصيلات من وإلى المطار، لأن شركة الطيران ستتكفل بتوفير السيارة لي ، المهم هوألا تفوتني الطائرة إلى لندن .. وفي كل لحظة كنت أغفو

قليلاً لأصحو فزعة من أن يكون الوقت قد فات إلى أن لاحت نـجـمـة الـفـجـر ، فقـمـت وصـليت وغـيرت ملابسي واستعـددت للنزول وشعرت بالبرد فاستبطأت الخروج لاحضارالتاكسي من الموقف إلى شقتي ومن ثم يتجه بي إلى المطار.. فوجدت أخي يتصل بي ليسألني إذا ما كنت أريد شيئاً فقد استيقظ فجأة وجافاه النوم واتصل ليتأكد من تيقظي.. فجاوبته شاكرة له وقلت له بأنني لا أحتاج شيئاً ثم خطرت لي فكرة لتوفير الوقت والمجهود الذي سأبذله للاتيان بالتاكسي لشقتي ، فقلت له إذا كان بإمكانه احضار تاكسي لي من الموقف الذي يوجد أسفل شقته .. ريثما أنزل بالحقائب وانتظره عند مدخل المبنى ونزلت بالفعل انتظره، فاتصل بي قائلاً بأنه ينتظرني خارج المبنى، فنظرت من خلال زجاج الباب، فلم أجد تاكسي .. فرجعت مكاني ولم أحرك ساكناً.. فاتصل بي بعد خمس دقائق يتساءل عن تأخيري ، فقلت له بأنني أقف عند المدخل خلف الباب الزجاجي للمبنى ولا أرى تاكسي .. إنما أرى سيارة مرسيدس سوداء فخمة ومن أحدث طراز وأخاف أن تكون هناك مافيا تخطط لخطفي فما الذي يوقف سيارة كهذه عند باب المبنى في هذا الصباح الباكر والناس نيام وبالأخص أن اليوم إجازة أسبوعية .. يعني إذا تم خطفي لا من شاف ولا من درى .. فقهقه أخي بالضحك قائلاً : أي مافيا وأي خرابيط ، أنا جالس في السيارة المرسيدس فأخرجي فذعرت قائلة له : ماذا؟ ومن الذي قال لك بأنني أريد الذهاب للمطار بسيارة فخمة ، فأنا لا أريد تبذير الما باستئجارسيارة فخمة ، فلا

أحد يعرفني هنا ، المهم أن أبحث لي عن سيارة تاكسي اقتصادية.. فقال لي يا عزيزتي هذه سيارة السفارة سأنزل وأفهمك فقط أخرجي أنتِ من المبنى .. وعند سماعي لذلك رأيت كل شيء قلب رأساً على عقب ، فكل ما كان حولي كان مقلوباً من هول الصدمة .. فخرجت ليستقبلني السائق فاتحاً لي باب السيارة ووضع السائق الحقائب في شنطة السيارة ، بينما أخي يحاول شرح الوضع لي ، فقد أصابني الدوار من جراء كلامه ، لأبد بسؤاله.. ما دخل السفارة في موضوع سفري وذهابي للمطار في هذا الوقت الباكر؟ فحكى لي بأنه عندما نزل من شقته يبحث لي عن سيارة عند موقف سيارات التاكسي وجد الشارع يصفر بلا سيارات، فلا وجود للسيارات فيها إلا أنه لفت انتباهه السيارة المرسيدس السوداء والذي كان يعرف سائقها التابع للسفارة .. فسأله عن سبب وجوده في هذا الشارع و في هذا الوقت، فرد عليه قائلاً بأنه يبحث عن فتاة وأعطاه اسمي وإنها قد راسلت السفارة منذ فترة وقد اتصلت منذ أن كانت في الدوحة تطلب مساعدة السفارة في حل مشكلتها وأعطتنا هذا العنوان وحاولنا الاتصال بها على هاتفها المحمول ويبدو أن هناك رقماً ناقصاً يعيقنا في الاتصال بها واتصلنا على رقم مكتبها ولم ترد علينا أيضاً بالرغم من تركنا لها رسالة صوتية لتتصل بنا ثم أخبروني بقسم العلاقات العامة في السفارة بالذهاب حسب الموعد الذي حددته الفتاة وحسب العنوان الذي ذكرته لنا وانتظرها لنصف ساعة وإذا لم تأتِ بعد ذلك أرجع إلى السفارة بعد الوفاء لها

بوعدنا .. فأخبرته بأنك أختي وسأدله على عنوانك الصحيح الذي تنتظرينه فيه وبعد أن استمعت إلى هذا كله انفرجت أساريري وكدت أقع على الأرض ساجدةً شكراً لله .. فأي مصيبة كنت سأقع فيها لولا أن أنقذتني منها مشيئة رب العالمين في اللحظة الأخيرة ، وعندها اسندت ظهري جيداً للمقعد الخلفي لسيارة السفارة ليركب أخي بجانبي ويستعطفني بإيصاله لشقته في طريقنا .. فنظرت إليه نظرة أفحمته بها قائلة : لا وهذا أنت مصرعلى عدم اتصالي وذهابي للسفارة لطلب النجدة .. فلم ينقذني من هذا الموقف غير السفارة .. والآن بالفعل الشوارع كلها خاوية من جميع وسائل المواصلات ، بالله دبرني .. كيف كنت سأصل للمطار ؟ هل تعتقد مشياً على الأقدام ، فلولا العناية الإلهية ورحمة ربي بي لطارت الطائرة دوني وبقيت بحسرتي في الشارع .. فالمسكينة الجازي صدقت عندما قالت لكم بأنني مبروكة ولكن لم تصدقوها، فألتفت إليّ أخي وهو يمسح على كتفي قائلاً: بركاتك يا ست الحاجة ..

والحمدلله أوصلني السائق الشهم إلى مطار (شارل ديغول) عند بوابة طيران «إيرفرانس» في الوقت المناسب وكانت الإجراءات سهلة ويسيرة ليست كتلك التجربة العسيرة مع الشركة التعيسة والمطار البائس فغادرت فرنسا بعد أن تركت فيها حقيبة ذكريات ضخمة ومن العيار الثقيل ..



حكاية الزهرة الثانية عشرة

وصلت إلى مطار هيثرو في لندن في تمام الساعة العاشرة صباحاً.. وقفت مع المصطفين في طابور ختم الجوازات وكنت منشغلة بملء استمارة الدخول إلى أن وصل دوري، فأخذ موظف الجوازات جواز سفري وقام بتصفحه وكان الموظف مسناً ثم تساءل عن سبب وجودي وحيدة ، وإذا ما كان ينتظرني أحد من معارفي بالخارج ؟ فأجبته بأنني لا أعرف أحداً في لندن وجئتها هذه المرة سائحة، لأنني اشتقت لذكرياتي فيها ، فوجدت الموظف تعاطف لوحدتي ورمقني بنظرة أب يخاف ويحنوعلى ابنته قائلاً : إن شئتِ سأعطيك رقم هاتفي لتحتفظي به، فقد تحتاجين للمساعدة في هذه العاصمة الكبيرة والمليئة بأصناف البشر، فأنتِ صغيرة وغريبة عن لندن ، فأتمنى لك الاستمتاع في أيامك هنا بأمان وسلامة .. وتعجبت للطف هذا الرجل الذي التقي به لأول مرة في حياتي، فشكرته كثيراً لحرصه واحتفظت برقمه للحالات الطارئة والحمدلله إنني لم احتج إليها وكالعادة اتجهت لاستلام الحقائب ووجدت صعوبة في إنتشالها من على الشريط المتحرك بسرعة ، ولكن الحمدلله استجمعت قوتي

وكل قوة في الدنيا لسحب حقائبي ووضعها على عربة المطار.. فلم أجد أحداًمن العاملين في المطار والذين يقومون بمساعدة المسافرين في حمل حقائبهم ، فقد كان كل الناس يحملون حقائبهم بأنفسهم وفعلت مثلهم بالضبط وصارعندي عضلات صلبة وقوية بعد سحبي لهذه الحقائب ، المهم خرجت لأجد سائق الشركة الذي دلتني عليه صديقتي عائشة ينتظرني ممسكاً بيده لافتة مكتوباً عليها اسمي ، فالحمدلله استطعت تدبير أمري بالرغم من أن السفارة القطرية بلندن خذلتني .. فأوصلني السائق بأمان إلى الفندق الواقع في شارع (بارك لين)القريب جداً من (ماربل آرش) وشارع (أكسفورد استريت) الذي به مجمع (سليفرج) المختفي بين المباني الفخمة مثله وتوجد على امتداد الشارع كبرى المحلات العالمية ولكن اخضرار أشجار حديقة (الهايدبارك) التي كانت مواجهة لبوابة الفندق خطفت ناظري وعرفت بعدها أن متجر (هارودز) الشهير يقع في الجهة المعاكسة للفندق بعد الحديقة الشاسعة في الطرف الآخر ..

دخلت بهوالفندق وقدمت نفسي لموظف الاستقبال وسلمته أوراق الحجز الخاصة بي ، لأراه يغيب عني لدقائق ثم يعود إليّ بمديرالفندق نفسه الذي كان عربي الجنسية .. كان المديرهاشاً باشاً وهو مرحب بي بشكل مريب ، فاستغربت منه تصرفه والأدهى أنه ناداني باسمي قبل أن يقرأ أوراقي ، فما الذي أدراه من أكون أنا ومن أين جئت ؟ فسألته وأنا متوجسة عن سر هذا

الاستقبال الحار وغيرالعادي ليفاجئني بمفتاح الجناح المحجوز لي .. وهنا ازدادت حيرتي وأصبحت مصرة على معرفة سبب هذا كله ، فأنا لم أطلب حجز جناح ، فقد حجزت غرفة عادية حسب قدرتي المالية والتي هي لأربع ليال ، فلماذا هذا الاهتمام الخاص والزائد بي والذي يشعرني بأنني الملكة إليزابيث بشحمها ولحمها دخلت عليهم ومعي حاشيتي ترى ماهو سبب تصرفاتهم تلك؟؟ فرد عليّ مدير الفندق قائلاً :سيدتي إن هناك من وصى على الاهتمام بك بشكل خاص .. فسألته ومن صاحب هذه التوصية والمكرمة العظيمة لأشكره ؟؟ فسكت ولم يجبني ، فقلت له ولكنني حجزت في فندقكم عن طريق مكتب سياحي معروف ، فأنا من أهم زبائنه ودائماً ما أتعامل معهم .. فهل المكتب وصى عليّ مثلاً .. فوجدته يتهرب من الإجابة متظاهراً بانشغاله بترتيب أوراق الحجوزات المتكومة أمامه دونما النظر إليّ أو الإجابة حتى على استفساري ، ثم قلت له متسائلة هل صاحب التوصية شخص على معرفة بي ؟ رفض الإجابة مطرقاً برأسه .. فقلت له مفاجئةً إياه: آه لقد عرفته الآن .. فحدق بي غير مصدق لمعرفتي به وبأنني عرفت السر الذي يخفيه ولا يريد أن يصفح عنه .. فكررت عليه قولي .. صدقني لقد عرفته فلا داعي لأن تذكره لي .. في هذه اللحظة شك الرجل في نفسه .. فكيف عرفته وهو لم ينطق بحرف واحد ..فسألني متعجباً وهدفه الأساسي التأكد : من هو يا سيدتي ؟ فقلت له : إنه بلا شك صاحب الظل الطويل الذي في قصة جودي آبوت الكرتونية ..

فخرجت عينا المدير من مكانهما مثل أفلام الكرتون وخصوصاً عندما يشهق توم متفاجئاً.. ثم قلت له لماذا أضيع وقتي وأوجع رأسي وقلبي بالسؤال فلابد بإنني سأعرفه يوماً والمثل يقول «ياخبر بفلوس بكره ببلاش» .. أعطني المفتاح من فضلك لأنه سيغمى عليّ من شدة التعب وخاصةً أن يومي هذا كان مليئاً بالمفاجآت .. ثم اتجهت إلى الجناح المخصص لي مع أحد موظفي الفندق الذي كان موكلاً بمرافقتي للجناح وحريصاً على راحتي ورضاي .. وعندما دخلت المكان .. شعرت بنفس إحساس الآنسة سالي في مسلسلها الكرتوني والغرفة العجيبة التي كانت تسكنها في العِلية وكما يبدوأنني سأعود إلى الطفولة في لندن لكثرة مشاهد أفلام الكرتون التي مررت بها إلى الآن في هذا الفندق، فعندما دخلت الجناخ المزعوم رأيت السرير الذي بدا لي كمسرح كبير تتراقص عليه أحلامي من وسعه وزهاء مفارشه الوثيرة وفخامة ثرياته الذهبية المعلقة في السقف والتي تبدو كالعناقيد التي تغنت بها السيدة فيروز في أغنياتها ومرايا الغرفة الفضية كانت تناديني لأتزين فيها وأضوية الإنارة الكريستال الخافتة على جانبي السرير تدعوني للغوص في بحر السرير لاكتشاف لذة التوسد بالريش والتلحف بالحرير، ووجدت عند حافة السرير على الأرض خفاً قطنياً ناعماً مزيناً عند حوافه بفراء أبيض سكري اللون، وفي زاوية قريبة جداً توجد منضدة طعام من خشب التيك البني المحمر وتنتصفها سلة كبيرة متنوعة بتشكيلة فريدة من الفاكهة الاستوائية ذات الأصناف الكثيرة وإلى جانب

السلة علبة مغلفة بأشرطة ذهبية أنيقة بداخلها قطع جواهر منمقة من الشوكولاتة السويسرية الفاخرة وفي أقصى الغرفة توجد غرفة مرتبة ومنظمة بشكل فنتازي رائع تحتوي على خزائن بها مجموعة من مناشف مطرزة بورود وفراشات تشكل إسم الفندق ومتوافرة بمقاسات وأشكال متعددة ، ويقابل غرفة الملابس في الجانب الثاني غرفة الاغتسال التي تواجه الداخل إليها بحوضين من رخام إيطالي الصنع به تموجات وألوان عجيبة وغريبة ومتناثرُ حولها بتلات ورود زهرية اللون وشموع اسطوانية حليبية.. تنثر باشتعالها رائحة الفانيليا .. اللذيذة وإلى جوارها زجاجات الزيوت العطرية النفاذة وحبات الصابون الملونة والموزعة على أطراف البانيو بروعة متناهية وعدا ذلك كومة الرغوة المتشكلة على سطح البانيوعلى هيئة غيمة بيضاء كبيرة تسحب من ينظر إليها كدوامة لولبية وبالفعل استطاعت سحبي إلى داخلها دونما مقاومة لأسترخي فيها ملقيةً بجسدي المنهك تحت ضوء الشموع وطعم مثلجات الفانيليا التي أشم عبق رائحتها من ذوبان الشموع الحليبية ومن حولي أستمع إلى ألحان عذبة مصدرها جهاز مشغل السي دي الموجود على سطح المكتب في الغرفة ليصدح الفنان محمد عبدو غناءً (مجنونها)..

لعيونها ... بس لعيونها

قلبي سراب بدونها ..

قلبي سراب ... وعيني سراب

ما اقول أعشقها بعقل...

مجنونها...

البارحة مريت في أحلى الفصول
صيف وشتاء..
وناظرتها..
وقلبي يقول هذي العيون إلى متى

حبيبتي ياكثرها عيونك على هاالليل

وين ما التفت اشوفها ..
حبيبتي يازينها عيونك على هاالليل
سحرني برق سيوفها..
ما أقول أعشقها بعقل..
مجنونها..
قمري .. يا شمس الذهب
سفري وراء عيونك تعب
قلبي تعب... وصبري تعب

ومن الهدب لين الهدب...
بحر ومراكب من لهب
أمواج تبحر برضاه ..
وأمواج تلعب بي غضب

وبعد حمام الهنا ..غرقت في نوم عميق في سريري الواسع .. لأصحو على رنين الهاتف المزعج وأسمع صوت أخي الذي اتصل يطمئن على أحوالي وسلامة وصولي إلى لندن وكنت أشعر بفرحه الغامر فقد زال عن كاهله مسؤوليتي وانتهت مهمته معي .. فأخذ يوصيني بالوصايا العشرلأخذ الحرص والحذر في لندن وهو متأكد من إنني أكثر حرصاً منه على نفسي ، وبعد هذا الاتصال لم أستطع معاودة النوم ، فقد شعرت بشيئين اثنين وهما الاكتفاء من النوم والجوع ، فأنا لم آكل منذ أمس فنظرت إلى الساعة ، فكانت تشير إلى الرابعة عصراً وتذكرت أن والدتي طلبت مني أن أشتري لها مستحضراً تجميلياً من مجمع (سليفرج) القريب جداً من الفندق ومنها سوف أشتري شيئاً آكله في طريقي وأجلس في حديقة (الهايد بارك) مستمتعة بالأكل والمشاهدة مثلما كنت أفعل ذلك في باريس عندما أشتري حلوى المكرون بنكهات متنوعة.. شوكولا.. كراميل .. قهوة .. فستق .. من محل (لادوري) الفاخر وأمشي في حديقة (تولوغي) بين الأشجار مطلقة آهات من كل قلبي من شدة لذة طعمه ..

المهم في ردهة الفندق سألت الموظفين عن مكان مجمع (سيلفرج) المعروف هناك ، فأعطوني خريطة توضح الطريق إليه بسهولة إلى أن استدللت على مكانه ودخلت أبحث عن مطلب والدتي إلى أن وجدته .. ودفعت ثمنه ثم خطرت لي فكرة اكتشاف طوابق المجمع كلها ، فدخلت أحدها لأجد نفسي في طابق به صالة كبيرة مؤلفة من رفوف كثيرة ، كل رفٌ مصفوف

عليه أنواع شتى من الأحذية ، فلا يوجد شيء في المكان غير الأحذية ومن جميع الماركات العالمية وبألوان وموديلات عجيبة وغريبة .. أعتقد لو أن سندريلا أضاعت حذاءها هنا لما تزوجت الأمير وبقيت سجينة عند زوجة أبيها ، وفي لحظة ذهولي بكم الأحذية هذه سمعت صوتاً يأتي من خلفي ليسألني : «هاه شتسوين أهني».. فالتفت إلى مصدره فإذا بها حمدة صديقة المدرسة وابنة الجيران .. ضمتني إليها بشوق وفرح وهي تقول : هلا برائحة الطفولة الشقية.. هلا بعبق الذكريات .. قلت لها ممازحةً : «ليش يا حمدة داخلة متحف أثري» .. ضحكت قائلة: لنا مدة طويلة لم نتقابل ياعزيزتي.. ففاجأتها بسؤالي وأنتِ ما الذي تفعلينه هنا في لندن ؟ «هاه يا حمدوه اعترفي » .. قالت هذه قصة طويلة .. هل أنتِ متفرغة لسماعي أم إنكِ مرتبطة بأحد.. فقلت لها: لا يا عزيزتي فأنا لا عيل ولا تيل كما يقول المثل المصري فسحبتني من يدي لتقول إذاً تعالي لنجلس في الطابق الأرضي ، فسألتها قائلة :هل هناك مطعم لأنني بصراحة لا أستطيع سماعك وأنا جائعة .. استغربت لما قلته لها قائلة : وما دخل جوعك بسماع قصتي !! فقلت لها : لأن صوت عصافير بطني سيغطي على صوتك بكل تأكيد .. فهبت تضحك من قلبها قائلة : والله إنك عسل ثم قالت يا عزيزتي يوجد أكثر من مطعم في (سليفرج) وإذا لم يعجبكِ سآخذك للخارج حيث توجد على امتداد شارع أكسفورد مطاعم كثيرة ، فقط عليكِ الإختيار وأنا رهن إشارتك .. فقلت لها : أنا لا آكل طعاماً دسماً في كل

الأحوال .. وخاصةً إنني صحوت للتو من النوم فأريد أكلاً خفيفاً كقطعة فطيرة أو شريحة كيكة مع فنجان قهوة أو قدح شاي، فهذه الأشياء تسد جوعي وتشبعني لساعات فقالت : آه إذاً حماتك تحبك فقلت لها: إلى الآن ليس لدي حماة .. وأنا على يقين بأن حماتي ستحبني كثيراً لأنني شربات يا خواتي شربات .. فقالت إذاً أنسب مكان لك مقهى (لولا) المتخصص في صناعة الحلويات وأكواب الكيك أي(كب كيك) والموجود في الطابق الأرضي وهم مشهورون بالكيك المحلي المصنوع على الطريقة المنزلية .. قلت لها طبعاً فأنتِ خبيرة هنا إذاً فلنتوكل على الله .. ولنذهب إلى (لولا) .. وهناك كان المحل بسيطاً فأخترنا الجلوس في زاوية صغيرة في مجمع (سيلفرج)..فطلبت قدحاً كبيراً من الشاي معطراً بروح النعناع وثلاث حبات من أصغر الأحجام من الكب كيك بنكهات ثلاث.. بطعم التوت الأزرق والشكولاته وطعم الجزرلأنني بإختصارأرنبة لا أستغني أبداًعن كيكة الجزر وبالأخص إذا ماكانت بطريقة النكهة الإنجليزية ومصنوعة في البلد الأم ..

وبينما أنا مستلذة بطعم الكيك الذي في فمي .. قلت لها بفضول: حمدة ما الذي كنت تفعلينه في طابق الأحذية .. ابتسمت ابتسامة عريضة .. قائلة : تلك هي نقطة ضعفي .. ثم بدأت تحكي لي قصتها .. قائلة : أنا موجودة هنا منذ خمسة شهور مع والدتي بغرض العلاج .. وقد أخذت إجازة طويلة من

عملي لأرافق والدتي في فترة تلقيها العلاج ومن هنا صرت خبيرة بلندن أجوب المحلات في طريق عودتي للشقة ويستوقفني شيء واحد في واجهات المحلات وهو الأحذية .. قلت لها وأنا أبتسم :أحذية لماذا يا حبيبتي حمدة هل أنتِ الأمير الذي يبحث عن حذاء سندريلا .. قالت لا ولكنني سأخبرك بسر لا يعرفه أحد.. هل تعرفين عندما كنا في المدرسة في المرحلة الإعدادية .. كان حينها والدي دخله محدوداً ولا يستطيع تلبية متطلباتنا المدرسية في كل عام دراسي ، فنحن ستة أبناء وفي مراحل مختلفة ولنا طلبات تعجيزية .. فكنت أفرح كثيراً عندما أُنهي مرحلة دراسية معينة ،أتعلمين لماذا لأنني في أول سنة يكون عندي مريول واحد وفي السنة الثانية يكون عندي اثنان ، واحد جديد والثاني قديم ثم السنة الثالثة يكون عندي ثلاثة واحد جديد واثنان لبستهما من قبل في سنواتٍ سابقة .. إلا شيئاً واحداً كنت لا أستطيع تغييره طيلة السنوات الثلاث .. الحذاء .. وكانت تتعمد والدتي شراء حذاء رياضي حتى ألبسه طيلة السنة والسنوات القادمة فلا أرهقها بطلب حذاء آخر لمادة الرياضة .. وبذلك وفرت الكثير من المصروفات ومع الزمن والاستعمال اليومي كان لابد لحذائي أن يهترئ طيلة الثلاث سنوات وكنت أخاف إخبار والدتي باهتراء حذائي ورغبتي في حذاء جديد كي لا تصرخ فيّ معنفةً إياي بالإهمال ، فقد كانت كثيراً ما تحرجني لأتفه الأسباب.. لذلك عليّ تلافي تعنيفها لي بأن أفكر في حل لمشكلتي إلى أن وجدتها بالصدفة ، فقد كنت أقوم بقص ورق

الكرتون البني القاسي وأبطن به حذائي الرياضي المهترئ المتعب مثلي ، هل تذكرينه ، لقد كان زيتي اللون وكنت في كل مرة تذوب فيها بطانته أضع ورق كرتون آخر جديداً إلى أن رآني أخي أفعل ذلك في إحدى المرات.. فقال لي مندهشاً ومعنفاً بأنه عليّ إخبار والدتي بشراء حذاء جديد فقد أهترأ الحذاء كثيراً فسكتُ دون أن أرد عليه لأنني أعرف أن تعنيف والدتي لي سيكون أشد منه.. فسوف أصبر حتى تأتي السنة القادمة ، فربما سيكون لدي في العام المقبل حذاء جديد وبالرغم من ذلك كنت دائماً من الطالبات المتفوقات وكم مرة تم اختياري الطالبة المثالية من بين الكثير من الطالبات وبنفس الحذاء .. فحذائي هذا كنت أهتم بغسله وتعريضه للشمس على سطح المنزل في كل إجازة أسبوعية فقد احتملني هذا الحذاء كثيراً وصبر معي .. وعندما كانت مديرة المدرسة تقوم بالتفتيش على الزي في الطابور الصباحي .. كنت أموت من الخوف لأن يكتشف أحد أمر الحذاء المهترئ الذي أتعب قدميّ وتعب الحذاء نفسه من تحمل همي لثلاث سنوات ، والآن بعد أن أنهيت دراستي في الجامعة وحصلت على وظيفة مرموقة وأصبح لدي المال الكافي لشراء أحذية وليس حذاء واحداً فأقوم بين فترة وأخرى بمكافأة نفسي بشراء أجمل الأحذية وأغلاها ثمناً لأشعر بنشوة عارمة وأنا أمشي منكسةً رأسي نحو الأرض والناس من حولي ينظرون إليّ وهم يظنون أنني أتحاشى نظراتهم خجلاً أو ورعاً ولا يعرفون السر بأنني أكون منشغلة بالنظر لحذائي الذي تنتعله قدماي وفخري بهما فقد

صارتا تنتعلان أفخم الأحذية بعد الصبر الطويل معي في مشوار حياتي المليء بالشوك.. فهما سري وتستحقان هداياي ولذلك ستجدين عند باب غرفتي خزانة كبيرة بها كافة أنواع وألوان وأشكال الأحذية .. وأول شيء أفعله قبل دخولي الغرفة نزع الحذاء بهدوء من قدمي ووضعه في مكانه الصحيح في الخزانة .. وغسل قدميّ جيداً ودهنهما بكريم مرطب .. لا تحكمي عليّ بإصابتي بعقدة نفسية جراء تجربة صعبة في طفولتي ، فأنا لست مهووسة بالأحذية مثل أميلدا ماركوس زوجة رئيس الفلبين المشهورة باقتنائها للأحذية .. إنما أنا أحب أن أقدر قدميّ كثيراً بعدما أنعم الله عليّ بنعمة الاقتدار .. بعد سماعي لسرها عقدت الدهشة لساني .. فلم أتوقع أن قدمي حمدة تحملان معها سراً خطيراً كهذا.. إذاً هذا سبب وجودها في ذلك الطابق المتخصص بالأحذية فقط .. وبعد قضائي وقتاً جميلاً معها ودعتها عند البوابة الخارجية لمجمع (سيلفرج) وأنا أغمز بعيني لها بشقاوة بريئة وأنا انظر إلى حذائها وإلى الشخص الآتي من خلفها قائلة لها انتبهي يا حمدة وانظري للخلف فأحدهم يحمل زوجاً من أحذيتك الكثيرة وقد يكون الأمير الذي يبحث عنكِ ليتزوجك .. وما أن التفتت إليه حمدة حتى كنت قد اختفيت من أمامها كالسراب ..

قررت أن أمشي قليلاً في حديقة (الهايد بارك) المقابلة للفندق الذي أقيم فيه لأجلس على أحد كراسيها واستمتع بمنظر أشجار

الصفصاف اللندنية والبحيرة التي تتوسط الحديقة والبجع السابح فيها بغنج ودلال في وقت الغروب وخطرت لي فكرة تذوق آيس كريم الفانيليا في هذا الطقس الربيعي المنعش .. فتوقفت عند أحد الأكشاك عند بوابة الحديقة واشتريت ما أردته .. مستكملةً طريقي إلى داخل الحديقة لأرى عينين تشخصان بالنظر نحوي وتقول لي صاحبتهما :إذاً وصلت لندن ولم تتصلي بي يا خائنة .. فصحت غير مصدقة فقد عرفتها إنها هيا صديقة العمر والقريبة من القلب .. سلمت عليها وقبلتها قبلة قطرية .. وأنا أحاول تبرير موقفي بإخبارها بانني وصلت اليوم وأنا لي فقط سويعات قليلة خرجت فيها من الفندق فأحتضنتني قائلة : خلاص سامحتك وشبكت ذراعها بذراعي وتنهدت تنهيدة من القلب قائلة : آه وأخيراً وجدت أحداً أعرفه في لندن .. نظرت إليها مستغربة ثم سألتها : ولماذا تتمشين وحيدة ألم يأتِ أحدٌ من أهلك معك في هذه الدورة الدراسية ؟ قالت : أخي معي هنا ولكنه مشغول عني باجتماعات عمله ولم يأتِ أحد معي من أخوتي ، لأن الدورة مدتها قصيرة جداً وسيأتون للتصييف في لندن بعد رجوعي بمدة بسيطة ولا يريدون أن يتكلفوا عناء السفر مرتين وأنا الآن كبرت ولم أعد صغيرة كالسابق ويعتمد عليّ ، فالحياة علمتني الكثير .. أحسست بمرارة كلماتها الأخيرة .. فسألتها عن سبب هذه النبرة الحزينة التي في صوتها فأنا أعرفها منذ أيام الجامعة ، فهي صاحبة روح مرحة وضحوكة طوال الوقت فصديقتي هيا إنسانة تحب الفرح والانبساط جداً والوقت يمضي معها كالبرق وكنا على

تواصل دائم مع بعض ، ولكن في الآونة الأخيرة انعزلت عن الحياة الاجتماعية فجأة ولم اسمع عن اخبارها منذ زمن .. ولكن قبل سفري إلى باريس اتصلت بها لأودعها .. فقالت لي بأنها قد تسافر إلى لندن في دورة دراسية مبتعثة من جهة عملها في الفترة نفسها عند وجودي فيها وقد نلتقي هناك ونمضي بعض الوقت معاً .. ولأستفهم عن سبب عزوفها عن الحياة كما في السابق ، سألتها : هيا لماذا اختفى الوهج الذي كان في عينيك ؟ لماذا أنزوت عنكِ الحيوية والنشاط الذي كنت متميزة به ؟ أين ضحكاتك الرنانة ؟ وأين الحياة المبهجة التي كنت تعيشينها أنتِ وتعيشينا معك فيها ؟ لماذا كل شيء هدأ فجأة وسكت دون إنذار مسبق ؟ لماذا ماتت الفرحة التي كانت تطير من عينيكِ ؟ لماذا ؟ أخبريني عن السبب، فأنتِ أختي وصديقتي ويؤلمني حالك هذا.. أريد أن ترجعي هيا التي أعرفها.. هيا المتفائلة .. هيا الفرحانة .. هيا من تراه الذي قتل فرحتك .. هيا من الذي جعلك جسداً بلا روح .. هيا من الذي قتلك ؟؟ فوجدتها تجلسني على أحد الكراسي الموجودة في الحديقة وتضع رأسها على كتفي بصمت ودمعة ساخنة تسيل من على خدها لتقول لي وكأن شيئاً عالقاً في حلقها إنه .. خالد ..

نظرت إلى وجهها وهي محدقة في العشب وطيور الحمام التي كانت تبحث عن الطعام بين أقدامنا .. فضممتها نحو صدري ولمست كتفها بحنان .. لأسمع صوت نشيج بكائها يخترق صمت قلبي ومن دون أن أشعر بنفسي بكيت معها وأنا احتضنها

كطفلة لجأت إلى حضني .. فهدأت من روعها .. وقلت لها من هو خالد هذا وما قصته ؟؟

فبدأت هيا تنبش في جرحها من جديد .. الذي تحاول جاهدة أن تداويه بالنسيان ولكن هيهات .. فهي لم تنسه ولم يبرأ جرحها بعد .. فقد شعرت بألمها من الدموع التي كانت تذرفها بغزارة لكي تطفئ الجمرة التي تكوي قلبها وتؤلمها فقالت: حينما عرفته كنت مشغولة جداً بعملي بل منغمسة به حتى أذني ولم أكن على علم بشخصه ، فقد كان يعمل في قسم آخر وفي طابق آخر بعيداً عني ولكن يجمعنا مبنى واحد .. ففي سنتي الأولى في البنك كان أغلب العمل الذي يجمعني بخالد كنت أنجزه إما بمهاتفته أو بالبريد الالكتروني الخاص بالعمل ولم يشأ القدر أن نجتمع مع بعضنا البعض ، فلم نتقابل وجهاً لوجه أبداً.. ولم يكن هاجسنا اللقاء أو المقابلة أبداً فلكل منا مشاغله التي تلهيه عن التفكير في الأمور الأخرى في الحياة ، فقد كنا جادين كثيراً في العمل ولم نتطرق يوماً إلى موضوع خارج إطار عملنا الذي نوليه جُل اهتمامنا وبالنسبة لي و بطبعي كنت لا أختلط أبداً بأحد من الشباب القطريين الذين هم قلة قليلة جداً في البنك ، فالأغلبية من حولي أجانب أوروبين في سن التقاعد ولكن في أحد الأيام اضطررت للخروج من البنك والذهاب لتأدية امتحان في أحد المعاهد القريبة من البنك والذي كنت أدرس فيه في الفترة المسائية وبعد انتهائي من الامتحان عدت مباشرةً إلى البنك.. وحينها كنت انتظر دخول المصعد حالي كحال الناس الذين

يتنظرون مثلي وما أن فتح المصعد بابه حتى دخلت فيه ودخل جَمعٌ من الناس إلا واحداً كان متردداً في الدخول وتردده زاد من حنقي وغضبي ، فإما أن يدخل ونصعد أو يتركنا نصعد دونه وخاصةً أن الجو كان حاراً وكنت أريد الوصول إلى الطابق الذي فيه مكتبي بأقصى سرعة .. والحمدلله قرر أخونا التكرم والدخول في المصعد وكانت هيئته رثة ، فكما يبدو إنه لم يحلق شاربه ولم يقص شعره منذ زمن وكان يرتدي قميصاً قطنياً أسود مرسوماً عليه وجوه صفراء مبتسمة.. أضحكني بقميصه هذا فقد ذكرني بقميص ابن أخي ذي الخمس سنوات ، ثم كان يرتدي بنطلوناً وحذاء رياضياً أسود.. فكان يبدو لي رجلاً في منتصف الثلاثين بقلب طفل ووقف أمامي ولم أشعر بنفسي إلا وقد وقع نظري على أنفه الكبير وعينيه الضيقتين جداً ، فقد كان وجهه غريباً عليّ ولم أره من قبل ومن ثم سرحت لحظتها في أسئلة الامتحان الذي أديته للتو ولم انتبه لسرحاني وإطالتي بالنظر إليه وتنبهت بعد مدة إلى عينيه تفترسان عينيّ بغضب ، فانزعجت من تصرفه وكدت أن اسمعه كلمة تجعله يحيد النظر إليّ إلا أنني في اللحظة الأخيرة تداركت الأمر بعد أن دققت النظر إلى عينيه فتبين لي بأنه قطري وليس من جنسية أخرى تتفهم غضبي .. فخفت حينها من ملاسنته، ففي النهاية أنا المخطئة فقد أطلت التحديق بأنفه الغريب والذي جعلني أسرح وأخرج من عالم المصعد إلى عالمي الذي جئت منه للتو وهو الامتحان وأسئلته فأطرقت بعدها برأسي نحوالأرض انتظر أن يفرج المصعد عن سجني فيه.. وما

أن وصل المصعد إلى الطابق الذي أريد هربت منه إلى مكتبي ، بينما هو بقي داخل المصعد مع جمهور من الناس محاولاً حفظ الوجه الذي كان يتابع تقاطيع وقسمات وجهه .. وفي أحد الأيام طلبني مدير أحد الأقسام للاجتماع معه في مكتبه وبينما كنت انتظر عند الباب في الممر.. لمحت في المكتب الذي يحاذي غرفة الاجتماع وجهاً مألوفاً بالنسبة لي وكان صاحبه منشغلاً بجهاز الكمبيوتر الذي أمامه دون أن يلحظ نظراتي إليه.. وكنت أحاول تذكر المكان الذي رأيته فيها.. حتى تذكرت صورة الشاب ذي العينين الضيقتين والأنف الكبير .. آه نعم إنه صاحب الأنف الغريب الذي رأيته في المصعد.. ترى ما اسمه؟؟

وعندما قرأت اسمه عقدت المفاجأة لساني ..لاكتشف أنني تعاملت معه كثيراً منذ سنة .. فقد كان يميزه صوت قوي جهور يخرق أذني وبالأخص عندما كان يضحك ضحكاته الخجولة على أخطائي في العمل .. فكنت أبعد سماعة الهاتف عن أذني حفاظاً عليها من الصمم .. ورغم ذلك كان شاباً مؤدباً ومتعاوناً مع الجميع في العمل ..

وفي إحدى المرات تم تكليفي بإعداد تقريرعن كل المهام التي أقوم بها بشكل مفصل ودقيق فأتممت جزءاً كبيراً من التقرير وبقيت الجزئية الخاصة بخالد والتي تخص عملنا معاً فكنت أتحاشى طلب المعلومات منه .. فبدايتي معه كانت بداية غير طيبة.. فكيف التقيه بعد ذلك الموقف المحرج الذي حصل لي

معه.. ولكن المسؤولة عن تدريبي في العمل أصرت على مجابهة مخاوفي ومقابلته لتكملة التقرير وبعد إصرارها .. طلبت منه تحديد موعد لنجتمع معاً من أجل أن أحصل منه على معلومات تفيد التقريرالمطلوب مني إعداده وإنهاؤه في أسرع وقت .. ولكن كان يماطل في الرد عليّ ولم يكلف نفسه أساساً حتى بالاعتذارأوالتأسف بانشغاله .. كنت في أحيان كثيرة أشعر بغروره وتعاليه وكانت تلك هي الصفة التي أمقتها فيه وفي كل رجل.. إلى أن تنازل عن كبريائه في أحد الأيام واتصل بي يطلب مني الحضور إلى مكتبه وإنهاء موضوع التقرير .. حينها شعرت بالخوف منه وكنت أحس بإنني مجبرة على إنهاء هذا التقرير معه.. ولكن لم تكن بيدي حيلة وتم لقاؤنا لأول مرة ووجهاً لوجه بعد أن أجلسني في زاوية ضيقة في مكتبه كي لا يلمحني أحد ، فقد كان حريصاً جداً على ألا نكون موضوعاً مستجداً في ساحة النميمة بين الموظفين..

المهم طوال فترة جلوسي معه لم يستطع أن يزيح بصره عني .. فقد أحسست بأنني تملكت حواسه كلها بانشغاله بي .. ومن شدة خجلي كنت أحاول تحاشي النظر إليه وتكرار ما حدث معي في المصعد .. فكنت استمع لشرحه وأشغل نفسي بتدوين ملاحظاتي والمعلومات في الملف الكبير الذي كنت أحمله بين ذراعي ، بينما كنت أشعر بنظراته المختلسة والفاحصة لي وكأنني بضاعة أمامه يريد أن يفحصني جيداً قبل إبداء موافقته على

الشراء.. فقد كان أخونا يتابع كل حركة فيّ حتى رمشة عيني التي كنت أرمشها ككل البشر كانت تشده إليّ .. كان ينسى نفسه في بعض الأحيان وهو يسبح ويغوص في محيط وجهي العميق ، كنت أقول في نفسي مابال خالد ينظر إليّ هكذا وكأنني مخلوق فضائي يراه لأول مرة .. ثم تذكرت أن عادة النظر هذه وبالخصوص البحلقة ..عادة متأصلة منذ القدم في هذا النوع من الجنس البشري ..فقد سمعت هذه المعلومة من الدكتورة (فوزية الدريع) في أحد برامجها المشهورة.. حين قالت إن الرجال كائنات مبحلقة .. تبحلق وتبحلق وتبحلق .. إذاً خالد هو أحد تلك الكائنات المبحلقة التي تحدثت عنها ولكن لماذا لم يكن يفعل الشيء ذاته مع الموظفات الأخريات ؟ فهو دائماً يطرق بنظره نحو الأرض عندما يرى إحداهن متظاهراً بغضه للبصر والورع .. ولكن لسان حالي يقول: ولله في خلقه شؤون ..

ومرت الأيام بعد ذلك اليوم وبعد عدة أشهر رأيته يبحث في الطابق الذي أنا فيه عن مكان مكتبي وهو يقرأ لوحات الأسماء على المكاتب إلى أن وجدته يقف مطولاً عند باب المكتب الذي يخصني ويتفحص مكاني فيه دون أن يدري أنني أقف في مكتب آخر أختلس النظر إليه من دون أن يشعر بي وشاءت الصدفة ألا يراني بالرغم من وقوفي قريبةً جداً منه وكنت مندهشة لوجوده عندنا في القسم دون ميعاد أو أوراق بيده.: غريب أمر هذا الشاب تراه ما الذي يخطط له ؟ فلم أره يوماً يمر هنا عند مكتبي .. ولكن

حدسي كان يخبرني بشيء سيحدث ولكن كنت أكذبه وأرفض تصديقه .. لأتذكر أغنية تصف شعوري نحوه كانت قد غنتها السيدة فيروز .. وهي:

في شي عم بيصير
بتسأل علي كتير و بتحبني
بعرف هالحكي حافظة هالحكي
كل الحكي حلو و مع انو حلو
ليش بيضلو إحساس يقلي لأ
في شي بدو يصير في شي عم بيصير
تمرق علي كتير و بتخصني
بعرف هالقصص حافظة هالقصص
كل القلتو حلو و مع انو حلو
ليش بيضلو إحساس يقلي لأ
في شي بدو يصير في شي عم بيصير

ومرت الأيام والشهور ليرشحني المدير لحضور إحدى الدورات التي ستكون لمدة يومين في إحدى قاعات المعاهد المجاورة للمبنى الذي نعمل فيه وحين دخلت القاعة كانت ممتلئة بالموظفين والموظفات من كافة الأقسام ، فاختار كل واحد منهم مكانه ، بينما جلست أنا بجانب إحدى صديقاتي الموظفات في جهة من جهات الطاولة الممتدة في المنتصف ..

وبقي الكرسي الذي يقابلني في الجهة الأخرى شاغراً.. حتى دخل خالد متأخراً بربع ساعة وجلس أمامي بالضبط على الكرسي الشاغر الوحيد .. وطبعاً كنت أشعر بنظراته المنصبة عليّ .. فكنت أقول في نفسي لعله مضطر لذلك ، لكوني أجلس مقابلاً له ولا خيار أمامه إلا أن تقع عيناه عليّ ..

إلى أن جاء الموقف الذي كرهت الدنيا بسببه .. فقد طلبت منا استاذة الدورة اختيار أرقام عشوائية .. وقمت و بناءً على ترتيبي الذي كان الرابع باختيار رقم أربعة .. ولمحت متابعته لي ولاختياري إلى أن وصل دوره للاختيار فاختار الرقم ذاته «أربعة».. كل شيء عادي إلى الآن .. إلى أن وصلنا إلى المرحلة التالية ، حيث أخبرتنا الاستاذة بأن كل شخص عليه أن يجلس مع الشخص الذي يماثله في الرقم للمشاركة في حل الأسئلة ..وهنا وقعت الفأس بالرأس .. أحسست حينها بالإحراج .. فقد كنا نحن الاثنين نحمل نفس الأرقام دون غيرنا .. فتمنيت لحظتها لو تنشق الأرض وتبلعني لأتخلص من هذا الموقف .. فدفنت رأسي في الأوراق التي كانت أمامي متظاهرة بالقراءة ومتناسية أمر شريكي .. لتسأله الاستاذة عن رقمه والشخص الذي يحمل نفس رقمه للجلوس معاً للمشاركة في حل الأسئلة .. فقال لها رقمه وادعي أنه لا يعرف من الذي يحمل نفس رقمه .. وطبعاً كانت كل البنات مجتمعات مع بعضهن البعض حسب أرقامهن وكل الشباب نفس الشيء وبقيت أنا وهو وحيدين دون شريك ..

لتسأل هي عمن يحمل نفس رقمه ، فأطرقت برأسي خجلاً متحاشية الإجابة .. لتجيب إحداهن وقد كانت معجبة به بينما هوكان يقوم بصدها على الدوام .. فادعت أنها صاحبة الرقم فتنفست الصعداء حينها فوجدته اعترض فجأةً وخرج عن صمته مشيراً بإصبعه إليّ وأنني أنا صاحبة الرقم وليست هي .. لتطلب مني الاستاذة الاسراع في الانتقال والجلوس بجانبه ومشاركته حل الأسئلة ، فقد كانت الاستاذة أمريكية الجنسية وموضوع الاختلاط أمر عادي وبديهي في مجتمعهم ، بينما بالنسبة لي كان أمراً مقلقاً فلم أعتد عليه وربما هو أيضاً كان الأمر بالنسبة له عادي، فقد درس في بلدها ولا يهمه إن جلس بجانبه بنت أو ولد.. ولكن أنا كنت متوترة جداً وقلبي كان يرجف من الخوف ، فلم أعتد على مخالطة الجنس الآخر، فجلست إلى جواره وقد تظاهرت بانشغالي بالقراءة، فما أن أشعر بأنه أخذ نفساً عميقاً ليبدأ الحديث معي ، أدس رأسي في الكتيب الذي أمامي لأبين له جل تركيزي وكأنني أرجوه ألا يقطع حبل أفكاري ليتراجع حينها المسكين عن المبادرة.. ثم تمرلحظات بعدها أتشجع وأحاول إنهاء الحصار الذي فرضته على نفسي فأرفع رأسي وآخذ نفساً أعمق منه موضحةً له استعدادي قبول مبادرته ، فأجده قد غير رأيه وقرر التظاهر بالقراءة مثلي فقد كنا نحن الاثنين متوترين وبين شد وجذب من الذي يبدأ بكسرالصمت والخجل الذي بيننا ، ومضى الوقت طويلاً ونحن لم نحل شيئاً من الأسئلة ولاحظت أن الاستاذة قامت من مكانها و بدأت تلف على المجموعات وتتابع

كل مجموعة على حدة وتسأل ماذا وكيف حلوا الأسئلة .. فقلت في نفسي يا ترى ماذا سيكون ردنا على الاستاذة ؟ نقول لها إننا نخجل من بعضنا.. فتجرأت وبادرت بشرح ما فاته من معلومات عندما كان متأخراً وشاركته الحل .. وطوال الوقت كنت أركز النظر في الكتيب الموجود أمامي .. وأخيراً نطق أبوالهول ليسألني :من الذي سيقرأ فينا الفقرة أمام الجميع ويجاوب عن الأسئلة بصوت عال ؟ فجاوبته.. أنت طبعاً.. فوجدته سعيداً بتفضيلي له ولحظتها رفع ذقنه المحلوق وعينيه نحو السقف يضحك بصوت عال خارقاً أذني، وفرح بفرض شخصيته عليّ منذ البداية .. ولم يدرك أن صوتي من الخجل قد ذهب دون رجعة منذ أن جلست بجانبه .. وبعد أن انتهى من القراءة والإجابة بصوته الجهور، أحسست بأنه زال توتره وبدأ يستخدم أغراضي دونما استئذان .. فقد شعر بأنني صرت ملكه بمجرد جلوسي بجانبه .. ثم بدأ يتلصص إليّ بنظره إلى يدي وإلى ما ألبس ..لدرجة أنه أوقع شيئاً على الأرض ليري ما ألبسه في رجلي، كنت أقول في نفسي لماذا هذا الرجل أصبحت أنا هاجسه الوحيد في القاعة ، لماذا لا يركز على الشرح أو على واحدة أخرى من البنات الموجودات في القاعة ؟ كنت أتمنى حينها لو تسمح لي الاستاذة بالرجوع إلى مكاني ولكنها لم تتخذ هذا القرار إلى أن تمكن من فحصي قطعة قطعة .. وعندما أذنت لي بالرجوع إلى مكاني لاحظت الحزن بادياً على وجهه لمفارقته شريكته .. وبدأ بنظراته الفاحصة هذه المرة من الأمام بعد أن

انتهى من الجنب عندما كنت أجلس بجواره .. وفي اليوم التالي للدورة جلس في نفس المكان وفي نفس الجهة المقابلة لي ولكن بحركة جديدة لم يفعلها من قبل في حياته .. جلس أمامي بقميص مفتوح الأزرة عند فتحة الصدر، وقد أظهر كم شعرة من الشعيرات النابتة في صدره .. كحركة إغراء يبين فيها رجولته .. وبقيت طوال مدة الدورة منكسة رأسي لا استطيع النظر إلى أمامي.. فقد كان شكله يضحكني .. ليبدو لي كمراهق يحاول إيقاعي في حبه .. فأشفقت على هذا الطفل الكبير الجالس أمامي..

ومع الأيام زادت حركات التمويه والغموض التي يفعلها معي فأحياناً كان يتصل ليسألني عن أحد الأشخاص ثم اكتشف أنه قد أتصل به قبل أن يتصل بي ، فلم تكن إلا حجة منه ليسمع صوتي أو في أحيانٍ يسأل عن أوراق عمل لا أساس لوجودها .. وعلى ذلك المنوال ولعدة أشهر..

كنت حينها لم أعلق عليه الآمال فكنت أعتقد بأنه ليس إلا طيش شباب وتصرفات مراهق للفت الانتباه نحوه ، فهو يريد أن يكون ضمن دائرة اهتماماتي .. فصرفت النظر عنه وعن تصرفاته وعلمت أنه ليس كما توقعت، فهو يستحيل أن يحبني ولو كان ذلك لصارحني قبل أن أطير من بين يديه ..

ثم وجدت فرصة عمل ملائمة وممتازة في إحدى الشركات وكنت بصدد توقيع العقد وترك العمل في البنك .. وخطرت لي

فكرة أن أترك له رسالة صوتية أخبره فيها بأنني سأترك العمل معهم وأود شكره على مساعدته لي طيلة فترة عملي معه وقد لا يراني مجدداً بعدها .. وفعلاً خرجت في إجازة طويلة جداً.. وشاء القدرألا أوفق في العمل في تلك الشركة الجديدة وفضلت الرجوع إلى عملي السابق في البنك.. بينما هو لم يحرك ساكناً.. ولم يكلف نفسه عناء السؤال عني أو حتى يودعني برسالة أو مكالمة .. فاتخذت قراراً بألا أحتك به نهائياً فهو لا يستحق مني أي احترام .. وليكن التعامل فيما بيننا بالبريد الألكتروني في شؤون العمل .. حتى مكالماته سأتوقف عن الرد عليها.. وسأكون جدية أكثر في تعاملي معه ، بل إنني أفضل أن أكون معه جافة ورسمية لأقصى حد.. فأنا لا أحب أن يتعالى عليّ أحد مهما كان منصبه أو عمله .. وبالفعل لاحظ الفرق الشاسع في تصرفاتي نحوه .. فكنت أشعر كأنني أثيرغيظه وأكسرغروره بجمودي وتجاهلي له والتركيزعلى عملي أكثر، لأني فقدت الرجاء منه ولن أعطيه أكثر من حجمه .. ليفاجئني في إحدى المرات بحيلة من حيله الكثيرة ، فأتى مكتبي يسترضيني بطرقه غير المباشرة والملتوية .. محاولاً إقحامي بأحد المواضيع الذي يعرف شغفي بها متظاهراً بأنه مكلف بعمل ضروري ومن أجل ذلك العمل أتى لزيارتي .. أحسست بجديته في إرجاع الود الذي كان بيننا في السابق.. فرق قلبي له وليته لم يرق وقلت في نفسي سأعطيه فرصة ثانية .. فقد يكون استشعر خطأه وجاء يعتذر بطريقة غيرمباشرة.. وبينت له قبولي اعتذاره .. فشعرت بمدى فرحه وسعادته الغامرة

لرجوع المياه إلى مجاريها .. والأيام مرت والسنون وأنا انتظر أن ينطق بالدرة .. فقد مال قلبي له وأحببته وصرت انتظر مجيئه كل صباح بذهابي إلى مواقف السيارات الخاص بالبنك لأتحجج بأخذي غرضاً إلى سيارتي لأتأكد من أنه بخير وأنه داوم معنا ولم يأخذ إجازته بعد .. وعندما كان يذهب في إجازة كنت انتظره وأنا أحسب الأيام المتبقية لرجوعه وأتخيل أنه سيتحين أية فرصة لملاقاتي ، فقد يكون مشتاقاً لي كثيراً كما اشتقت له .. وكثيراً ما كنت أفرح عندما تجمعني الصدف معه في المصعد.. فيحاول جذبي إلى أي موضوع للحديث معه .. وكم كان يتمنى أن يتعطل بنا المصعد كي يمتع نفسه بالنظر في عينيّ العاكستين لصورته واللتين كان يرى فيهما امتزاج صورته مع مشاعر الفرح والخجل لأشاركه الأمنية نفسها وهي أن تطول مدة وقوفنا مع بعضنا البعض بالرغم من وجود العذول ولكنه كان يتجاهل كل شيء أثناء وجودي ..

وكنت أدعو الله في كل صباح أن التقيه في يومي هذا لأسعد طول اليوم بذلك اللقاء .. كنت في أحيان كثيرة أشعر بأنه أشبه ما يكون بموج البحر في حالات مده وجزره .. فيأتيني في بعض الأوقات ويقترب مني ومن قلبي كثيراً فينتشلني ويحملني معه إلى عالمه لأعيش الحب معه وأتذوق الهناء من يديه وأحلم برباط قوي يجمعنا معاً .. فكم كنت أتخيل الطفل الذي سيجمع في جسده تقاطيع ملامحي بعيوني العسلية وملامحه بأنفه الكبير وليحمل دمي أنا ويحيا بروحه هو ولأمنحه أبوته .. كم كنت

انتظر اليوم الذي أكون له وحده جوهرته المصونة .. بينما في أوقات أخرى كان يبتعد ويغيب وينساني لمدة ثم يعود ليجدني انتظره.. وانتظره بشوق ولهفة .. كلهفة الأرض لحبات المطر.. فقد سجنني خالد في زنزانة حبه .. وما أن يدق بابي خاطب حتى أقارنه بخالد.. فيكون الفوز حليفه هو .. فخالد حظي بقلبي لأبقى العمر كله منتظرة منه تتويجه لحبنا العميق لبعضنا البعض وها قد مرت أربع سنوات ومازلت انتظره .. كانت هناك عين تراقبني وتترصد حركاتي..كانت تلك هي عين سامر، فقد كان يلاحظ كل حركاتي وسكناتي وما الذي كنت أفعله في كل صباح وعرف سري الذي أخفيه عن الأعين في صدري .. فقد استشف زميلي سامر الذي كان مكتبه يقابل مكتبي إحساسي بحب أحدهم .. وهو الوحيد الذي افصحت له عن حبي لخالد وكان ينتظر معي أن يخطو خالد خطوة أجرأ ويبوح بمكنون ما يخفيه مثلي .. سامر كان رجلاً في نهاية الأربعين من عمره ، أنجب ثلاثة أبناء ولم ينعم عليه الله بالبنات وكان يشعر بالفعل كأنني ابنته التي تمنى أن ينجبها ، وفي مرة من المرات أخبرني بأمنيته فقد كان يتمنى أن يراني عروساً بفستان أبيض ، تلك كانت أمنيته ، التي يصعب عليّ تحقيقها له .. فلم يكن بيدي شيء .. فلا استطيع أن أذهب إلى خالد واستعطفه ليتزوجني ولا استطيع أن انتظر أكثر ، بينما كان الشك يساورإخوتي حول رفضي لموضوع الزواج وبعد ضغوط كثيرة من قبل أهلي وإخوتي رضخت لهم ولمطلبهم بالزواج ممن تقدم لي وقد رآني في

إحدى المرات مع والدتي المريضة في أحد المستشفيات الخاصة، فقد كان طبيباً يعمل فيها.. وأعجب بي بينما لم ألحظه ولم انتبه بإنشغاله بي واستطاع التوصل وجمع المعلومات عني وعن أهلي .. إلى أن تقدم لخطبتي منهم رسمياً .. وأنا لم أكن أعرف عنه أي شيء إلا أنه طبيب وقد رآني وأختارني من بين كثير من البنات اللاتي من حوله وعند إصراري على الرفض مجدداً تعرضت للإهانة بالضرب من قبل إخوتي الذين كانوا يودون معرفة السبب الرئيسي لرفضي للزواج من الأساس وتحت تلك الظروف وافقت بشرط أن تكون الخطبة غير رسمية وحتى يتم بيننا التعارف وإلى أن تهدأ نفسي وتحبه برضا دون إجباري عليه.. ووافقوا على مطلبي ولكن دون أن تكون بيننا مقابلة .. إلا في حالة موافقتي على عقد القران مقدماً، فرفضت عرضهم وقبلت بالتعارف أولاً وكان المسموح لي بتبادل الحديث معه بالهاتف من أجل التفاهم حول أمور حياتنا ولكي نتعرف على بعضنا البعض عن قرب أكثر ومن ثم نتوصل إلى الحب والوئام وبعدها نتفق على عقد القران والزواج .. كنت أشعر وقتها بأنني أخون خالد بهذا الميثاق .. ولا استطيع أن أراه بعيني بعد هذه الخطوة المهمة في حياتي .. ولكن في مرة صادف دخوله كافتيريا مبنى البنك مع وجودي مع إحدى الزميلات وكنا نجلس بعيداً على إحدى الطاولات فاقترب منا وسلم وطلب أن يشاركنا الجلوس فوافقت الزميلة بينما كنت ملتزمة الصمت .. فقد كنت مستغربة فعلته هذه فهو حريص جداً في تصرفاته ويتجنب إثارة

الأقاويل حولنا ولكن هذه المرة كان غير آبه بنظرات الناس فسحب الكرسي بقوة وجلس معنا كان أغلب الوقت يوجه الكلام إليّ ليحدثني ويسألني بينما لم يفعل ذلك معي من قبل.. وعندما انتهيت مما كنت أشرب وأردت العودة إلى مكتبي خرج معنا من الكافتيريا .. محاولاً المشي معي وبجواري خطوة بخطوة فكنت أتعمد البطء ليسرع هو في مشيه ، فأجده كان يبطيء هو أيضاً وأسارع في مشيتي فيسرع أيضاً.. كنت لا أعرف ما الذي كان يدور في ذهنه .. وكانت أيادينا تكاد أن تتلامس وتتشابك لشدة قربه مني وعندما دخلنا المصعد كانت حواسه كلها منصبة عليّ واهتماماً بي .. تصرفه معي بهذا الشكل جعلني أتألم أكثر .. فما أن وصلت الطابق الذي يقع فيه مكتبي حتى دخلت غرفة الاغتسال وانهرت باكية .. فقد كنت أبكي بحرقة لخيانتي له فأنا أحب هذا الرجل الذي فرض عليّ حبه منذ أربع سنوات واعتدت عليه ولا استطيع فراقه فهو روحي وسأموت إن فارقته وهربت إلى أحضان المجهول الذي ينتظرني ليغرس فيّ حبه عنوة .. حاولت كثيراً تقبل خطيبي وفتح صفحة جديدة في حياتي وتقبل حبه ولكن دائماً ما كان يحدث عكس ذلك ، فقد كنت أنفر منه ومن تصرفاته معي ، ففي أحيان كثيرة كان يهزأ بي وبالأشياء التي كنت أحبها وأتشارك في حبها مع خالد .. كان زوجي المفترض والمغصوب عليّ يسخر مني ويشعرني بأنني شخص تافه في عالمه .. بينما هو شخصية مرموقة قد تفضل عليّ وأحظاني بنيل الشرف العظيم عندما اختارني زوجة له .. كنت أشعر بأنني

سأسجن نفسي وأعاقبها بزواجي من هذا الإنسان .. وكنت سأحكم على نفسي بالفناء بهذا الزواج .. فخططت لرؤيته في أحد الأماكن العامة .. لأتوصل إلى القرار الصحيح الذي سأتحمل تبعاته فيما بعد، فقد أتقبله وأتغاضى عن كل ما صدر عنه عندما أراه وينشرح له قلبي ، ولكن عكس ما توقعته حدث فما أن رأيته وهو يشير لي من بعيد حتى أنقبض قلبي وشعرت بأنني كنت سأظلم نفسي معه ، فهو لا شكلاً ومضموناً استطيع قبوله.. فبالرغم من أن خالد من الممكن أن يكون له أنف لافت إلا أن له ابتسامة مشرقة يجعله قريباً من القلب.. ومن بعد مدة قصيرة من تعارفي بخطيبي المزعوم عرفت أنه متزوج ويريدني زوجة ثانية له.. حينها قررت تحرير نفسي من هذا الرجل وكان بصعوبة شديدة وحمدت ربي إنه لم يعقد قرانه عليّ و ساعتها كان أذاقني الويل والحسرة.. ورغم ذلك لم أخرج من معركتي للخلاص منه سليمة فقد أصابتني القرحة في معدتي .. وأصبحت الآلام تباغتني على الدوام .. وأصبح جسمي ضئيلاً وكأنني مصابة بمرض عضال وأثار حولي الكثير من التساؤلات ولذلك حاولت نفض غبار الماضي عني بالنسيان والنظر للمستقبل بتفاؤل ولكي أنسى حزني والأيام السوداء التي مرت عليّ فكرت بالسفر لإحدى الدول المجاورة للترويح عن نفسي .. ووقت الرجوع للدوحة في المطار.. واجهت موقفاً لم أتوقع حدوثه ، ففي أثناء وقوفي وحيدة عند الكاونتر، بينما أختي ووالدتي فضلتا أن تجلسا على المقاعد تنتظرانني كي أنهي إجراءات إدخال الحقائب وبينما أنا

واقفة في الصف لمحت وجود خالد في الكاونتر المجاورلي وكان يقف وظهره نحوي ومنشغل مع صديقه الأجنبي بإدخال حقائبهم .. فأنزويت بعيداً أحاول إخفاء نفسي بين المصطفين من الناس كي لا يراني أو يلاحظ وجودي معه في نفس المكان فقد تصادفت بلقائه في أكثر من مرة وفي أكثر من مكان فيأتيني فرحاً وهو يسلم عليّ ويبدي استغرابه للصدفة التي تجمعنا ولكن هذه المرة الحمد لله تأكدت من أنه لم يرني .. فبعدما انتهى من مهمته اتجه مع صديقه نحو موظف الجوازات ليدخل قاعة المسافرين بعد ختم جوازه .. وبعدما رأيته متجهاً بالفعل حينها زال توتري وانفرجت أساريري وانشغلت بالكلام مع الموظفة وأنا أشعر بالراحة ، فقد انتهى الموقف الصعب الذي كنت اتجنبه .. وفي غمرة انشغالي معها التفت صدفةً للخلف لأراه يقف بالقرب مني كي تلتقي أعيننا ببعض ويبدأ بعده السلام والكلام وحدث ما كان يخطط له .. فما أن وقعت عيني عليه حتى أقبل عليّ سعيداً قائلاً : إذاً أنتِ معي في نفس الرحلة .. جاوبته بإيجاب وأنا اتساءل كيف رجع إليّ ولاحظ وجودي عند كاونتر إدخال الحقائب فقد رأيته يقف في طابورفحص الجوازات هو وصديقه وما الذي أتى به مرة أخرى هنا عند الكاونتر ويداه خاويتان وصديقه ينتظره واقفاً في زاوية بعيدة متظاهراً بقراءته للتذاكر .. ثم أشار لي على صديقه قائلاً بأنه هنا مرافق لصديقه لكي يُعلمني بأنه عكس الشباب الآخرين الذين يأتون وغرضهم ممارسة الرذيلة في الاجازات الاسبوعية ، إنما هوآت معه صديقه الأجنبي الذي كان زميله أيام

الدراسة في الجامعة وقد أتى به إلى دبي لأنها الزيارة الأولى له في الشرق الأوسط ..استغربت تبرير خالد لي سبب وجوده في المطار، فأنا لا أمثل له شيئاً في حياته ولماذا خاف أن أظن فيه السوء ثم أردف يسألني إذا ما كنت وحيدة في المطار، فمظهري يدل على ذلك ، فقلت له بأنني مع والدتي وأختي .. فقال : لا أرى أحداً معك.. فوقفت إلى جانبه وأنا أشير عليهما لأريه مكانهما .. فقال لي : إنه لا يرى أحداً.. فقلت له : إذاً تعال معي لأعرفك عليهما .. فلم يصدق ما قلت وما نويت فعله.. فقلت له: إذا أحببت التعرف عليهما فذلك لا يسبب لي أي إحراج.. فمشينا معاً إلى المكان الذي تجلس فيه والدتي وأختي وسلم عليهما بينما هما كانتا في قمة الدهشة مني ومن الرجل الذي اصطحبته معي للسلام عليهما .. ثم رجعنا نمشي معاً إلى حيث المكان الذي كنت أقف عنده وبينما نمشي سألته عن اسم الفندق الذي أقام فيه وأعلمته بمكان إقامتي.. ووقفنا لدقائق ليكون الصمت سيد الموقف فقد كان كل واحد فينا يقابل الآخر وينظر إليه.. فأنهيت وقوفنا بالدعاء له بالتوفيق ومضى في طريقه وهالة الفرح والسعادة تشع من عينيه ، فقد رأى حبيبة القلب أمامه .. وكان هذا اللقاء هواللقاء الأخير الذي جمعني به لأرى وجهه في عمري المتبقي من بعده..

في صباح اليوم الأول لي في المكتب بعد إجازتي .. قصصت كل ما حدث معي في المطار وبالتفصيل على الأب الروحي

سامر.. ليساعدني في فك طلاسم الغموض الذي يحيط بخالد وتصرفاته تلك ، فإذا كانت كل تصرفاته معي توحي بحبه الكبير لي فلماذا لا يتقدم لخطبتي وطلب الزواج ؟ ألا يخاف أن يتقدم أحد الأشخاص للزواج مني؟ وإذا كان أمري لا يعنيه ، فلماذا هذه المشاعر الجياشة نحوي بمجرد رؤية ظلي ؟ فالموضوع لا يتوقف عند تبادل نظرات الإعجاب والابتسامات ، بل كان الموضوع أكبر من ذلك والدليل استمراره لأربع سنوات وإزدياد وتيرته مع الوقت ، فقال لي سامر: بالبرغم من صعوبة ما سأقوم به ولكنني سأفعله من أجلك، فليس سهلاً الحديث في هذه المواضيع الحساسة مع الشباب ، فقد يكون رده جارحاً لي ولكن لن أرضى أن يستمر عذابك لأكثر من أربع سنوات.. فقد ذقت من نفس الكأس التي تتذوقين مرارتها الآن ثم حكى لي قصة حب حياته .. كأنه حدث بالأمس ، وقال لي عندما أرى الحيرة في عينيك أرجع للوراء ثلاثين عاماً مضت من عمري وأتذكر حبي الأول الذي عاش معي وكبر .. نادين هو اسم ابنة الجيران التي كانت تسكن في أحد الطوابق من نفس المبنى الذي كنت أعيش فيه مع عائلتي .. فقد نشأ بيننا الحب .. وكثيراً ما كنا نتقابل على سطح المبنى .. فالمسكينة كانت تتعذر بنشرالغسيل لملاقاتي فوق السطح وكانت في بعض الأحيان تنشر الغسيل وعندما يجف ترجع تبلله مرة أخرى لتذهب وتنشره مرة أخرى ، فقد كانت تفعل ذلك أكثر من مرة في اليوم وقد تصل في بعض الأحيان إلى الخمس أو الست مرات والسبب في ذلك ليتم لقاؤنا في مكان

آمن وبعيد عن الأعين والسطح كان يفي بالغرض .. في بعض الأوقات كانت تأتي إلى أمي بطلبات غريبة .. فمرة تطلب حبة بطاطه .. ثم ترجع في اليوم الآخر وتطلب فنجاناً واحداً من السكر .. كانت أمي تستغرب طلبها لحبة واحدة من أشياء كثيرة.. فهي تعلم أن حالتهم المادية جيدة جداً وميسورة ولا تجعلهم يحتاجون لتلك الأغراض .. كنت أنا الوحيد الذي أعرف سبب زياراتها وطلباتها الغريبة ، فقد كانت نادين تأتي من أجل الاتفاق معي على ساعة اللقاء في المكان المعهود .. هل تعرفين أنني مازلت أحتفظ بإحدى خصلات شعرها الكستنائي مع الرسائل والهدايا والتذكارات التي كنا نتبادلها مع بعضنا البعض.. إنني أحتفظ بكل ما يتعلق بها حتى صورة صغيرة وقديمة لها بالرغم من اصفرار تلك الصورة وتشقق أطرافها ولكنني مازلت أحتفظ بها في صندوق خشبي مقفل بمفتاح لا يعرف مكانه أحد.. سألته متعجبة ولماذا لم تتزوجها وقد كان بينكما هذا الحب الملتهب؟ فرد عليّ قائلاً : على الرغم من سنوات دراستي في أمريكا استمررنا بتبادل الرسائل فيما بيننا ، فقد كانت تدرس الطب في بريطانيا وعندما أنهيت دراستي ورجعت عاد بي الحنين للقائها وطلبها للزواج وفاتحت أهلي بالموضوع لأفاجأ بممانعة أمي لهذا الزواج وعدم قبولها زوجة لي من دون ذكرأسباب تعوق زواجي بها .. فقط لأنها لم تنل رضا وإعجاب أمي بها على الرغم من أن هذه الفتاة هي حب حياتي .. فبقيت في حيرة بين نارين .. نار الحب ونار رضا أمي .. وفضلت

الأخير مرضاةً لربي ولكي لا أكسر القلب الذي عطف عليّ يوماً وأرضعني الحنان دهراً.. بينما خسرت التي نبت حبها في أعماق روحي لسنوات طوال وبقى حبها يعيش في وجداني إلى الآن .. وما أن أرى أية قصة حب بين فتاة وشاب .. أتذكر الذي جرى بيني وبين نادين المرأة الوحيدة التي تحمل هذا الاسم في عالمي الخاص.. ألم تلاحظي أنني أحب سماع هذه الأغنية لفيروز .. لتطابق كلماتها لما فعلته بنادين وأنا أتخيلها ترد عليّ بهذه الكلمات..

لا أنت حبيبي و لا ربينا سوى
وقصتنا الغريبي شعلها الهوى
وصرت عنك غريبي انساني يا حبيبي
إمبارح تلاقينا قعدنا عاحجر
برد وحوالينا عريان الشجر
خزقنا الصور و محينا القمر
ردتلو مكاتيبو وردلي مكاتيبي
كل من طوي شراعو و راح بهالمدى
ولدين و ضاعوا عاجسر الصدى
تفرقنا بهدا و الدنيي هدا
بخاطري صليلي تسعد يا حبيبي

ثم مسح دمعة كانت تقاوم الخروج من مقلتيه ، فكما يبدو لي أنها كانت مدفونة فيهما منذ زمن .. ثم استجمع قواه قائلاً: سأذهب إلى خالد لأستشف بقلبي إن كان يحبك ويريد الزواج بك .. أم يعبث بك ولا أتوقع ذلك منه ، فهو شاب خلوق وجاد في علاقاته مع من حوله..

كنت انتظر رجوع سامر من عنده على أحر من الجمر .. وعندما رجع من عند خالد ، فقلت له وأنا أحسده على تلك الدقائق التي جلس فيها معه .. يا بختك يا سامر، فقد جلست معه وكلمته .. لأجده ينظر إليّ بجدية قائلاً :هيا انسيه .. بل امحيه من ذاكرتك .. في بداية الأمر ظننته يمازحني كعادته .. فقال :لا أنا جادٌ أرجوكِ انسيه .. فهو لا يستحق لهفة قلبك عليه .. سألته عن السبب قائلةً : له لماذا ؟هل هو متزوج وكان يعبث معي ؟ قال : لا يا هيا .. هولا يفكر في الزواج أبداً.. على الرغم من أنك ربطتِ نفسك به لأربع سنوات دون فائدة .. فلا خير في انتظاره أكثر .. فجاوبته وأنا مستهجنة كلامه ورافضة لما يقوله لي بقولي سامر لا يوجد انسان في الكون كله لا يريد الاستقرار والزواج وإذا كان كلامك عنه صحيحاً فلماذا كان يتصرف معي بذاك الشكل المريب.. لماذا كان لا يفعل الشيء مثله مع البنات الأخريات في المبنى؟ لماذا اختارني أنا ليعذبني بحب وهمي؟ يستحيل ذلك لا أتصور أنه كان يعبث بي طوال الوقت متظاهراً بعشقه لظلي أو ربما خجل من أن يفصح لك عن حبه لي ، فأنا أعرف طبعه الخجول والمتحفظ والذي يوحي بإنطوائه على نفسه .. فربما لم

يرد أن يكشف لك عن أدق خصوصياته .. فهو متأمرك نوعاً ما بسبب دراسته في أمريكا فترة من عمره وقد أخذ من طباعهم الكثير .. فقال لي سامر محاولاً إخراجي من صدمتي واقناعي بعدم رغبة خالد فيّ زوجةً له ، يا هيا يا عزيزتي خالد هذا لا يحلم بك .. ولم يفكر بكِ قط كل أحلامه بيت كبير فخم يملأه بسيارات رياضية كثيرة باهظة الثمن .. فهويحلم بالمال وبالسيارات وليس بهيا الجوهرة التي تنتظره لسنوات طوال.. قلت له وأنا غير مستوعبة تفكيره بتلك الأشياء ..هل يعقل أنني لم أدرك تفاهته وحقارة فكره رغم تلك السنوات ؟ ولماذا استأثرني بحبه وملاحقته لي في أي مكان يراني فيه ؟ أليس له أخوات يخاف عليهن ؟ أم وجدني فتاة رخيصة وسهلة للعبث معها.. فقال سامر مدافعاً عنه لا تسيئي فهمه فقد يكون حبك له حباً من طرف واحد وقد تكونين أسأت فهم تصرفاته معك ولا تنسي أنكِ أجمل بنت في المبنى وهو ربما شعر بعقدة أنفه فأراد أن تعجب به أجمل بنات المبنى .. أنتِ لا تعرفين أن هناك بيننا من البشر من لهم نفوس معقدة ووضيعة .. ولا نصدق بأنهم قد يصلون لهذا المستوى من الدونية ، فربما هو منهم أو كما أخبرتك ربما ما حصل بينكما هو نتاج سوء فهم ليس إلا .. فأرجوكِ أن تنسيه فهو لا يستحق فتاة مثلك فقد أضاع جوهرة غالية من بين يديه دون أن يعرف قيمتها وستعرفه الأيام الخسران الكبيرالذي وقع فيه .. وسيعلم بمرور الزمن كيف أنه فقد قلباً أحبه بتفان وصدق .. أعلم يا هيا أنك قد أحببته من كل قلبك بصدقك ونقائك وأعلم

الآن ألمك الشديد ونزف روحك بسببه فأتمنى يا ابنتي أن يعوضك الله خيراً منه ..

كنت أشعر حينها بأن الدنيا كانت تتلاعب بي ككرة بين الأيدي فمرة تقذفني بيد الخطيب الطبيب ناصر والآن قذفتني بيد الحبيب خالد.. لم استطع تصديق أن يفعل خالد بي ذلك..

فقررت أن أواجهه بما فعله معي ولكنني أخجل من مناقشته في موضوع كهذا .. فخطرت لي فكرة ترك رسالة صوتية على هاتف مكتبه .. فهو أول من أوحى لي بتلك الفكرة عندما ترك لي في إحدى المرات رسالة صوتية يخبرني فيها بأن أحد الأشخاص سيقوم بمهام عمله الذي كنا نتعاون لانجازه معاً .. وكان دائماً يختار الساعة الخامسة عصراً في نهاية الدوام ليتصل أو يترك رسالة بصوته لي .. فعملت الشيء نفسه.. بعدما تأكدت من خروجه من المكتب فتركت له رسالة بصوتي على هاتف المكتب.. وسألته فيها عن سر تصرفاته تلك معي.. ولماذا كان يخصني أنا بتلك التصرفات دون بنات البنك الأخريات ؟ ولماذا أنا بالذات عندما يلقاني خارج مكان العمل في مركز تجاري أو كما حدث معنا بالمطار.. يأتيني ؟ فقد كان بإمكانه أن يتغاضى عن وجودي ويستكمل المسير.. لماذا رجع ليريني نفسه .. فبإمكانه تجاهلي فلماذاعاد إليّ متخبطاً لا يدري كيف تفتح موضوعاً يجرني للحديث معه .. ثم طلبت منه أن يخبرني إن كان يخفي لي في قلبه إحساساً صادقاً فليخبرني به فسوف أصبر معه

وأتفهم ظروفه .. أما إن كان لا يوجد شيء وكنت طوال تلك المدة أتوهم .. فليتوقف عن التسلل إلى مكتبي أو ليتجنب محادثتي ، فذلك سيفهمني قصده ويزيد من احترامي وتقديري له.. وسأتجنب الظهور في الأماكن التي من المحتمل أن يوجد فيها كي لا يكون محرجاً مني .. سأترك له الساحة ليحيا وحده فيها ولو كان بيدي لتركت الدنيا كلها له .. وأخبرته برغبتي في استكمال دراستي بالخارج في أقصى الأرض بعيداً عنه ولن يرى وجهي بعدها مرة أخرى .. وبعد تركي للرسالة رجعت لي نوبة آلام القرحة مرة أخرى وبقيت طريحة الفراش لأيام عدة .. وعندما تعافيت بعض الشيء.. رجعت لأُشغل نفسي بالعمل والتقيت في الممر بإحدى الزميلات لتخبرني باستقالة خالد وانتقاله للعمل في مكان آخر .. حينها كاد أن يغمى عليّ فتظاهرت بالتماسك والثبات أمامها بينما أحسست أن الألم يعصر قلبي ويدميه .. ركضت نحو مكتب سامر لأخبره بأن خالد سيترك العمل بسببي ، فأنا من وضعته في هذا الموقف ، فوجدت سامر يحاول التخفيف من وقع الخبر عليّ قائلاً : هوني عليك يا هيا لست أنتِ السبب فقد كنت أعرف مسبقاً خبر تركه للعمل في اليوم الذي ذهبت إليه واستفهمت منه سبب عزوفه عن الزواج .. لست أنتِ السبب ورسالتك لا دخل لها بموضوع تركه أو بقائه معنا.. فسألته لماذا لم تخبرني في ذلك اليوم بأنه سيتركنا ويذهب للعمل في مكان آخر ؟ قال: هل كنتِ تعتقدين أنه كان سهلاً عليّ إخبارك بأنه لا يحبك ولا يفكر بالزواج منك لأعلمك بالخبر

الذي كان حتماً سيودي بحياتك وهو تركه للعمل معنا .. ألم يكفِ وجع الضربة الأولى لأوجعك بالثانية ، لا لم استطع أن أقسو عليك أكثر.. سامحيني يا ابنتي واعذريني لعدم اخبارك.. عدت إلى مكتبي لأجلس وأتمالك نفسي لهول الخبر الذي وقع علي كالصاعقة وعندما فتحت البريد الألكتروني الخاص بي وجدت رسالة من خالد وقد وصلت منذ يومين من تركي له رسالتي الصوتية على هاتف مكتبه فكانت رسالته الموجهة إليّ بلا عنوان .. وقد كتبها بإنجليزية ذات مصطلحات قاموسية صعبة ليريني فيها مهارته وتفوقه اللغوي عليّ .. رد على تساؤلاتي قائلاً: بأنه كان شغوفاً بحبي كصديقة له ، لأنني كنت اذكره بأخته الصغرى وأن تصرفاته معي كانت عادية جداً ولم تكن خارجة عن نطاق الصداقة والأدب وربما اختلط عليه أمرالصداقة هنا لكونه عاش فترة من الزمن في أمريكا ومن الطبيعي أن يكون له أصدقاء كثر من كلا الجنسين إناثاً وذكوراً.. ولم يكن بتصرفاته تلك قاصداً خداعي أو تضليلي .. ولكنني سأبقى أخته الصغرى وأفضل صديقاته.. وتمنى لي التوفيق فيما أخطط له في حياتي .. خاتماً رسالته بأول حرف من اسمه .. وكأنه استكثرعليّ باقي حروف اسمه ..

حينها كنت أقرأ رسالته بصعوبة ، فلم استطع رؤية الحروف جيداً بسبب دموعي فعيناني كانتا مغرورقتين ببحرالدموع وكنت أنهج باكية ولحظتها طبعت الرسالة وأخذتها فوراً إلى مكتب سامر لأعطيه إياها ليقرأها ، فقد أكون اخطأت قراءتها ولم افهم

فحواها جيداً.. فقال لي : هيا كفاك حزناً عليه ، إن خالد لا يود أن يعترف بحبك يا ابنتي وأنه لا يشعربالذنب الذي ارتكبه في حقك، فأنتِ بالنسبة له صديقة من صديقاته أو كأخت له كما يذكرذلك في رسالته .. وحينها صدى الألم الذي بداخلي توسل إليّ بعدم كتمانه وفيضان دموعي صاح قائلاً : وما دخلي أنا بأخواته .. سامر أنا انثى وأفهم مشاعر الانسان الواقف أمامي وأعرف إذا ما كان الشخص ينظر إليّ كأخته أو كحبيبته .. فقد تعاملت مع الكثيرين من البشر وأعرف معاملة وغرض كل واحد منهم .. ويستحيل أن أكون مخطئة ولم أفهم تصرفاً واحداً من تصرفاته تلك معي والتي كانت على مدى الأربع سنوات.. فمن المستحيل أن يقف منتظراً عند باب أحد المحلات في أحد المجمعات لمجرد أن رآني فيه ثم يدخل للسلام عليّ ويبدأ الحديث معي .. من المستحيل أن أكذب صورته المعكوسة على مرآة المصعد وأنا انتظر خارجه بينما هو موجود خلف الباب الزجاجي الذي يظهر صورته وهو واقف عند آلة نسخ الأوارق وقد لمحني واقفة بالخارج بينما كان هو يحاول أن يقاوم رغبته بفتح الباب بالذهاب بعيداً عن الباب ثم الرجوع إليه مرةً أخرى وهو يفكر كيف يختلق عذراً ليكلمني ويشبع شوق عينيه بلقاء حبيبة قلبه قبل أن تختفي بدخولها المصعد.. من المستحيل عندما أكون واقفة في المصعد فأراه يقترب مني بخباثة ليشم عطري.. ومستحيل أن ينظر إلى شفتايّ ويشتهيهما ليقول لي بأنني اذكره بأخته .. مستحيل ذلك مستحيل ودخلت في نوبة بكاء

كالمجنونة وكأن أحداً من أقاربي مات أو فقدت عزيزاً لديّ .. وعندما رأى سامر انهياري طلب مني أخذ إجازة لأيام أخرى إلى أن تهدأ نفسي وترتاح لنسيانه ويكون خالد قد باشرعمله الجديد في مكان بعيد عني .. ثم أغلق بابه من خلفي ليقول بحزن : إنه لن يستطيع اكمال يومه هذا فقد حطمته رسالة خالد وفاقت توقعه ..

وبقيت طوال الليل أبكيه وأبكي ألم القرحة الذي عاودني على حين غرة وقد استثارته الرسالة اللعينة .. بينما لم يعرف أحد من أهلي بأنه كان يغمى عليّ من البكاء عليه وأنا أتوجع ألف مرة من طعناته في صدري واتهامه لي بتوهم الحب والجنون ..

كانت النيران المشتعلة في جوفي تحرقني وتحرق روحي الحائرة معي ..فحاولت الابتعاد والسفر كي انساه ولكنني طوال الوقت في السفر كانت عيناي لا تتوقفان عن البوح بنزفي وإجهاض حبي الذي سرى في دمي لأربع سنوات وذرفي للدموع لم تكن إلا بسبب موته في رحم ذاكرتي ، فقد كنت أتذكره في كل شيء من حولي .. حتى في مرآتي وأنا ناظرة إلى نفسي وأرى عينيّ باكيتين عليه فأقول في نفسي ألم تكن يوماً يا خالد تحب أن تبحر في عينيّ وبين رمشي .. ألم تشتق إليهما كما هما الآن مشتاقتان لك.. وها قد سامحك قلبي وغفر لك طعناتك له .. أتدرين عندما كنت أمسك بالقلم فأقول لنفسي هل تذكرين يا هيا هذا القلم إنه هو نفسه الذي حمله بين اصابعه ذات يوم عندما كنا معاً في تلك الدورة .. هل تعرفين أنني عندما أشم رائحة القهوة

أجده فيها وأقول إننا كنا نتشارك في حب شرب القهوة من المحل ذاته والآن بعد أن تركني خالد منعني الطبيب من شرب القهوة نهائياً إن أردت أن أحيا دون وجع فأية رشفة منه ستكون كالسم الذي سينهي حياتي في الحال ، فبعد أن كنت أتلذذ بشرب السم معه ليطول عمري سعادة ، صارت القهوة قاضيةً على حياتي إن شربتها دونه .. هل تصدقيني إن قلت لك بأنه عندما أنثر العطر على جسدي أتذكره وأتذكر محاولاته المستميتة لشم عطري ولم يكن يعلم إنه بوسعه شمها إذا ما اقترب مني وهمس في أذني لأنني أضع قطرات منه عند صدغي ..

وعندما أحاول وضع الكحل في عيني تبكي المكحلة لأنها تعرف مدى حب خالد لرؤية الكحل في عيني..

كان كل شيء حولي يذكرني به ويبكي لفراقه فأشاركها النحيب عليه..

وزاد وجعي أكثر رفض إخوتي طلبي لاستكمال دراستي بالخارج لأبقى حبيسة ذكرياته هنا.. فعندما أقف في المصعد وحيدة أتذكر الأماكن والزوايا التي كان يقف فيها ليصورني بعينيه وأتذكر كل كلمة قالها لي أو تعليق أضحكني به أو تعمد إضحاكي، فقد كان يعشق كثيراً سماع صوت ضحكاتي الخجولة ، فقد كانت لا تخرج إلا له وهو ينظر بعجب إلى صف اللآلىء التي بانت له .. دعيني أبكي على حمقي وغبائي في تلك اللحظات..

هل تعلمين أنه غادر البنك من دون أن يكلف نفسه أن يرفع الهاتف لوداعي أو التعذر بأي عذر لإلقاء النظرة الأخيرة على نعشي وجثماني .. لم أتوقع هذا الجفاء وقسوة القلب منه .. ولم أدرك غروره وتكبره لأنني كنت مشغولة وقتها بحبه.. وعرفت ذلك متأخراً جداً عندما هجرني خالد للأبد..

في ذلك المساء بعد أن قصت عليّ هيا حكايتها لم استطع أن أتركها تعود لتبيت ليلتها على تلك الحالة ، فقد لفظت آخر أنفاسها ورثاءها حينما لفظت آخر أحلامها به وبكت خلفه كثيراً لتقتنع بموته في قلبها النضر..

اتصلت ليلتها بأخيها واستأذنته في مبيتها عندي في الفندق حيث سنذهب في صباح يوم الغد في رحلة استجمام إلى مدينة برايتون حيث شاطىء البحر.. فوافق على ذلك مشكوراً..

نامت هيا بجانبي في السرير كطفلة وديعة.. بعد أن أخرجت سيلاً من الحزن المدفون في قلبها..

في الصباح وجدتها في حالة أحسن عن البارحة .. وبينما أستعد للخروج بوضع بعض الرتوش على وجهي من أحمر خدود وخلافه من المكياج وجدتها جالسة تتابعني بالنظر إليّ في المرآة وتدندن لي مغنيةً أغنية الأماكن .. فتركت ما كنت مشغولة به وقمت بتشغيل جهاز مشغل السي دي لأهديها الأغنية بصوت محمد عبده نفسه.

فرأيتها انتشت فرحاً لتشدو معه..
الأماكن كلها مشــتاقة لك
والعيون اللي انرسم فيها خيالك
والحنين اللي سرى بروحي وجالك
ماهو بس أنا حبيبي
الأماكن كلها مشتاقة لك

*

كل شي حولي يذكرني بشيء
حتى صوتي وضحكتي لك فيها شيء
لو تغيب الدنيا عمرك ما تغيب

شوف حالي آه من تطري علي
الأماكن كلها مشتاقة لك

*

الأماكن اللي مريت أنت فيها
عايشة بروحي وأبيها
بس لكن ما لقيتك..
جيت قبل العطر يبرد
قبل حتى يذوب في صمتي الكلام

واحتريتك..
كنت أظن الريح جابك
عطرك يسلم علي
كنت أظن الشوق جابك
تجلس بجنبي شوي
كنت أظن.. وكنت أظن
وخاب ظني
ومابقى بالعمر شيء
واحتريتك..
الأماكن كلها مشتاقة لك.

*

المشاعر في غيابك ذاب
فيها كل صوت
والليالي من عذابك
عذبت فيني السكوت
وصرت خايف لا تجيني
لحظة يذبل فيها قلبي
وكل اوراقي تموت
آه لو تدري حبيبي

كيف أيامي بدونك
تسرق العمر وتفوت
الأمان وين الأمان
وأنا قلبي من رحلت
ماعرف طعم الأمان
وليه كل ماجيت أسأل
ها المكان
اسمع الماضي يقول
ماهو بس أنا حبيبي
الأماكن كلها مشتاقة لك

بعد أن تناولنا الفطور في مطعم الفندق طلبنا تاكسي ليتجه بنا نحو محطة فكتوريا .. لنستقل أول قطار يسافر إلى مدينة برايتون حيث درست فيها مدة شهر كامل في اغسطس ٢٠٠٨ والآن قد اشتقت لهواء بحرها وهدوء مينائها ، فهي المدينة الوحيدة التي أعرف شاطئها جيداً .. فهي قريبة أيضاً من لندن بحوالي ساعة بالقطار.. فاخترت أن أصبح دليلاً سياحياً لصديقتي الموجوعة هيا لأرجع إليها مرحها وحيويتها برؤيتها لشاطئ البحر ، فهي أيضاً من عشاقه .. وعندما وصلنا مدينة برايتون خرجنا من المحطة لأجد هيا تلوح مستوقفة تاكسي فسحبتها قائلة لها : هيا معك دليل سياحي شامل لمدينة برايتون وهي أنا وتودين أن

تستقلي تاكسي في هذه المدينة الصغيرة .. كل ما هو عليك الاعتماد التام عليّ فأنا على معرفة بكل شوارعها وازقتها .. فوجدتها تعلقت بذراعي بعدما ألقت بثقلها عليّ متسائلة لماذا جئتِ بنا إلى هنا أو بالأخص إلى هذه المدينة فجاوبتها قائلة: بصراحة شعرت بالحنين للأيام الحلوة التي قضيتها مع بنات المدرسة هنا .. وقد ألهبتِ شوقي إليها عندما استمعت معك لمحمد عبده شادياً للأماكن التي عشقتها أرواحنا.. فقلبتِ فيّ المواجع وزاد حنين أذني لسماع صدى ضحكات البنات ممتزجة مع أصوات طيورالنورس المحلقة في سماء برايتون الصافية .. وأثناء ما كنا نمشي بين الطرقات لمحنا في أحد المنافذ انعكاس لون أزرق فاكتشفنا عندها اقترابنا من شاطىء البحر.. فصحت منفعلة لأقول لها : هيا لقد اقتربنا من الهدف.. وركضت معها نحو المنفذ المؤدي لتلك الزرقة وعندما وصلنا إلى الشاطئ رميت بنفسي على الحصوات المتناثرة والمتناهية الصغر ثم جلست متربعة ومستقيمة الظهر كمن تمارس اليوغا واغمضت عينيّ لآخذ نفساً عميقاً مستنشقة اليود المنبعث من نسيم البحر والذي كان يلامس صفحات وجهي برقة ولطافة وكانت تقترب مني الأمواج متلاطمة مداً وجزراً .. آه ما أجمل صوت البحر وهو يناغيني كطفل في مهده .. لأخرج من عالم الماديات إلى صفاء الروحانيات.. مسترخية تماماً لعالم البحر قائلة: لهيا سلميه نفسك المتعبة وقلبك النازف فسوف يبرئ البحر بملوحة مياهه الجرح الذي في صدرك بإذن الله .. عندها وثبت واقفة على

رجليها لتفتح ذراعيها صوب البحر مقدمةً لي مشهداً تمثيلياً غنائياً رائعاً كي تخدع حزنها على شهيدها وفقيدها بغنائها بأعلى صوتها للسيدة فيروز..

شايف البحر شو كبير كبر البحر بحبك

شايف السما شو بعيدي بعد السما بحبك

كبر البحر و بعد السما بحبك يا حبيبي بحبك

نطرتك أنا ندهتك أنا رسمتك على المشاوير

يا هم العمر يا دمع الزهر يا مواسم العصافير

ما أوسع الغابة وسع الغابة قلبي

يا مصور عبابي و مصور بقلبي

نطرتك سنى يا طول السني و اسأل شجر الجوز

و شوفك بالصحو جايي من الصحو و ضايع بورق اللوز

ما أصغر الدمعة أنا دمعة بدربك

بدي أندر شمعة و تخليني حبك

وعندما انهت نحيبها نكست رأسها جالسةً بجانبي تبكي ، فتساءلت عن سبب بكائها المفاجئ .. فقد كنت سعيدة وأنا أراها قد استعادت مرحها وحيويتها شيئاً فشيئاً بتلك الحركات .. فأعدت سؤالي عليها مرةً أخرى قائلة : هيا ما الذي حدث .. وما الذي أبكاكِ من جديد ؟؟ فردت عليّ قائلة : لقد تذكرت خالد عندما حكى لي عن زيارته لهذه المدينة مع أخواته البنات منذ

أعوام مضت.. مخبراً إياي بأنه كان يجري على شطآنها ، تراه أين جلس وقتها وعلى أي بقعة وقف حينها .. ليت طيور النورس هذه المحلقة بجانب الشاطئ تنطق وتحكي لي عنه .. ليت هذه الأحجار الصغيرة التي في راحة كفي تخبرني عن حبيبي الذي تركني دون وداع .. ثم ضعفت نبرة صوتها لتختلط الكلمات بدموع عينيها لتسألني : هل سأصبر للقائه إلى يوم الحساب ؟ صدقيني إن التقيته لن أحاسبه على صنيعه بي .. فقد غفر قلبي جرمه لأنه مازال يحبه بحمق .. ودخلت إثرها في نوبة بكاء مر بعدما دفنت رأسها بين ركبتيها.. لتنغلق عن العالم الخارجي الذي رثى على حالها .. فحاولت جاهدة انتشالها مما كانت فيه فمسحت على رأسها .. طالبةً منها نسيانه .. فالنسيان هو أفضل دواء لها .. فردت علي وقد انهك قواها البكاء فأصبحت عاجزة عن الكلام وهي تشهق قائلة: لقد حاولت كثيراً نسيان خالد ولكن لم يفدني كدواء ليدمل جرحي الكبير.. لأنه يتراءى لي دائماً وجهه مذكراً إياي بآخر مرة تقابلنا فيها .. لأبكي ندماً وأقول لنفسي ليتها طالت مدة وقوفي معك في صالة المطار، ليتني لم أبرح مكاني لحظتها .. فلم أكن على علم بأن تلك الدقائق التي جمعتني به كانت هي الدقائق الأخيرة التي أراه فيها وأن مشهد المطار كان هو مسك الختام لإسدال الستارعلى قصة حب تنتهي بنكران وجودها من الأساس ..

حاولت تهدئتها.. ولكنني لم أعرف.. فكيف استطيع محو خالد هذا من تاريخ حياتها .. ليت بيدي عصاً سحرية تفعل

ذلك.. فلا استطيع رؤيتها على هذا الحال أكثر..فطلبت منها أن توكل أمرها إلى الله الرؤوف بعباده واللجوء إليه وحده ، فهو جابر القلوب .. فبيده جبر خاطرها بمن ينسيها كسرة قلبها على خالد .. وتذكرت بأنني أحمل معي في حقيبتي كتاباً قد يكون بلسماً شافياً لحالتها.. فوضعت بين يديها كتاب «نسيان .com» لأحلام مستغانمي الذي كنت قداشتريته من باريس عندما كنت مع أمل من إحدى المكتبات القريبة من معهد العالم العربي .. وقد قرأت جزءاً من صفحاته في الطائرة أثناء سفري إلى لندن وأعجبتني الكاتبة عندما تناولت موضوع النسيان وركزت على اللجوء إلى الله والتشبث به في أضعف حالاتنا وبحثنا عن الدواء فقرأت على هيا.. هذه الكلمات من كتاب «نسيان .com» لأحلام مستغانمي ، التي تقول فيه:

صلي .. ففي سجود قلبك نسيانه

عليك بالصلاة ، إن صليت صلاة يحضر فيها قلبك فسيغيب عن فكرك أي أحد وأي شيء عدا الله ، وتكونين قد تجاوزت النسيان إلى الطمأنينة ، وهي أعلى مراتب السعادة النفسية . (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

أطيلي صلاتك حتى لا تعودي وتنتبهي إلى من سرق قلبك ، إن كان أخذه .. أم رده.

كلما أقبلت على الله خاشعة صَغُرَ كل شيء حولك وفي قلبك .

فكل تكبيرة بين يدي الله تعيد ما عداه إلى حجمه الأصغر ، تُذكرك بأن لا جبار إلا الله ، وأن كل رجل متجبر ، حتى في حبه ، هو رجل قليل الإيمان متكبر .. فالمؤمن رحيم حنون بطبعه لأنه يخاف الله .

أبكي نفسك إلى الله وأنتِ بين يديه في حضرة رجل يخال نفسه إلهاً ، يتحكم بحياتك وموتك ، ويمن عليك بالسعادة والشقاء متى شاء .

البكاء بين يدي الله تقوى والشكوى لغيره مذلة . هل فكرت يوماً أنكِ غالية على الله ؟

اسعدي بكل موعد صلاة .. إن الله بجلاله ينتظرك خمس مرات في اليوم .. وثمة مخلوق بشري يدب على الأرض يخيل عليك بصوته وبكلمة طيبة .

ما حاجتك إلى (صدقة) هاتفية من رجل . إن كانت المآذن ترفع أذانها من أجلك ، وتقول لك خمس مرات في اليوم إن رب هذا الكون ينتظرك ويحبك..

وجدت نظرة تفكر وسكون في محيا هيا ، فقد أثرت فيها كل كلمة قرأتها عليها من الكتاب .. ثم وضعته بين يديها لأهديها إياه، فهي أكثر شخص يحتاج لهمسات الكاتبة أحلام مستغانمي في هذا الكتاب حتى تسترد هيا ذاتها وتقوى على الحياة دونه..

ثم حاولت نصحها بهذه الوصايا التي كنت قد قرأتها منذ فترة

في أحد المنتديات عن الطريقة المثلى لعلاج الألم العاطفي .. فبدأت وصيتي:

١ - باللجوء إلى الله .. والصلاة في ثلث الليل الأخير .. والدعاء في السجود.

٢ - لاتتجاهلي عيوبه.. فكل إنسان يشوبه كم وافر من العيوب والأخطاء.. تذكريعيوبه جيداً..

٣ - اعلمي أن الذي خلقه خلق من هو أفضل منه بمراحل، فهو إنسان عادي لم يأت من المريخ ولا الزهرة ،هو مجرد إنسان أرضي..

٤ - رددي بينك وبين نفسك عبارة (هو لا يستحق حبي..أنا أفضل منه) ..

٥ - حطمي تمثاله...وابحثي تحت أنقاض التمثال عن عيوبه الصغيرة .. مثلا .. لون اسنانه.. وزنه الزائد ولو قليلاً ذوقه السمج في اللبس .. القشرة في شعره.. فلا يوجد في هذه الدنيا مثال للكمال..

٦ - لا تفكري - وهذا مهم - بأنه سيذهب لامرأة غيرك .. وإن فكرتِ فاشفقي عليها ، فلا بد أن تكون مثله.. وإن كانت مثلك أو أفضل فهي من سيمضي ويتركه..

٧ - لا تتذكري أيامكما الجميلة معاً .. فهي أيام مضت.. وستأتي - بإذن الله - أيام أجمل مع غيره.. فلا تيأسي من الحياة ..

٨ ـ تذكري كل الأيام السيئة ـ إن خطر في بالك ـ معه ولا تسقطي حتى المواقف البسيطة التي جعلت يوماً من أيام حياتك سيئاً بسببه..

٩ ـ التصقي بصديقاتك المخلصات واطلبي منهن أن يقفن معك في كرهه وذكر عيوبه ..

١٠ ـ تخلصي من كل العطورات التي كنت تستخدمينها والأغنيات التي كنت تسمعينها في أيام حبك له.. وجددي عطوراتك وأغنياتك لأن الأنف والأذن هما أكثر حاستين مسؤولتين عن التذكر..

١١ ـ مثلي السعادة.. وأنكري الحزن..لأن الحزن لا يجرؤأن يمس من يقهقهون حتى لو كان تمثيلاً .. والسعادة ستكون الرفيق المحب لمن أحبها ..

١٢ ـ التحقي بنادٍ رياضي .. أومارسي رياضة المشي لفترات طويلة .. وهنا ستضربين عصفورين بحجر واحد.. فلا شيء يجعل النفس تصفو كالرياضة والمشي.. ولا شيء يجعل الجسم صحياً مثلهما..

١٣ ـ حاولي الاهتمام بنفسك أكثر من أي وقت..اهتمي ببشرتك..شعرك..أظفارك..تابعي الموضة..

١٤ ـ مارسي في الليل هواية عقلية كالقراءة أو الكتابة .. أو حتى بعض الألعاب المسلية ..

١٥ - غيري أرقام هواتفك .. كي لا تظلي أسيرة الانتظار لاتصال منه يبدد قوتك ويشل تفكيرك..

١٦ - قيسي الأشياء بالمسطرة .. واجعلي الواقع والمنطق المتحكمين في حياتك .. وذلك لفترة المرض وحتى النقاهة..

١٧ - ابحثي عن عمل إن لم تكوني تعملين.. وإن كنت كذلك فجددي عملك ..اجتهدي فيه اكثرلأن التقدير الذي ستجدينه بعد ذلك سينعكس إيجاباً عليك في هذه الفترة .. فترة التخلص من الحب..

١٨ - تحدثي أمام كل من تستطيعين الحديث معهم ..عن تجربتك...وشددي على أنها تجربة سابقة وانتهت..لا تتجاهليها وتضعيها تحت السجادة بل اعرضيها للضوء لتستفيدي منها مستقبلاً في تجاربك الأخرى..

١٩ - ابحثي عن فكرة أو حلم حتى لو كان بسيطاً وأشغلي فكرك المتعب به..

٢٠ - لا أروع من السفر..لا تفوتي أي فرصة للسفر ..فالسفر في هذه الظروف أفضل علاج .. هناك ستقابلين أشياء مختلفة بدءاًمن الناس وانتهاءً بالمناظر الجميلة..

٢١ - وأهم شيء لا تقضي ساعات يومك الطويلة تتساءلين هل نسيته أم لا وهل ستستطيعين نسيانه.. فهذا سيهدم كل محاولاتك في نسيانه عليكِ أن تتجنبي التفكير فيه مطلقاً وبأي شكل..

بعد تلك الوصايا وجدت هيا قد كفكفت دموعها وجلست في حالة هدوء وسلام تام .. لتسألني سؤالاً أنا نفسي لم أجرؤعلى التفكير فيه أو حتى لم يخطر عليّ ، فبدأت قولها كيف شعرتِ بما كنت أحس من عذاب وظمأ ، فهذه الكلمات أراحت روحي و روت عطشها.. هل سبق وأن أحببتِ.. وشخصت ناظريها نحوي تنتظر مني الاجابة.. فارتسمت ابتسامة عريضة على وجهي مندهشة من سؤالها هذا فأنا نفسي لم أفكر في ذلك .. فجاوبتها بالنفي فوجدتها تغير وضعية جلوسها.. لتجلس القرفصاء وتقول لا أصدق نفيك ، فذلك هو المستحيل بعينه .. ثم تساءلت قائلة ألم يعشق أحد هاتين العينين اللتين تبدوان كسكاكر الكراميل البنية الشهية ؟ ألم ير أحد الورود المرسومة على خديك .. ألم يلاحظ أحد طابع الحسن في ذقنك.. هل الرجال أصيبوا بالعمى حتى لا يلاحظوا ذلك كله.. مستحيل..لا اعتقد أنك لم تختلطي مع جنس بشري آخر من قبل .. لا أصدق بأنه لم يحبك أحد إلى الآن .. أو ربما تكذبين عليّ ولا تصدقيني القول..فحلفت لها بالله بأنني لم أجد أحداً يقف ببابي عاشقاً ينتظرأن يرى خيال ظلي .. وشدوت لها مغنيةً ..

واقف على بابكم ولهان ومسير

اسأل عن اللي سأل محبوبي لصغير

يومين مروا علي

سنتين لو أكثر

ما قدرت يامنيتي

عن شوفتك أصبر

هذا النصيب انكتب

أحب انا أصغيرون

يحبني لكن هله

يخاف لا يدرون

فضحتني ياهوى.. تالي كشفت الراس

محدا درى بعلتي.. والحين كل الناس

خليتني ياهوا.. أوقف على أليبان

من حرةً بالحشا.. ومن كثرة الأشجان

ثم قالت لا أصدق .. قلت لها بل صدقيني .. ربما أشغلتني الدراسة ومرض والدي عن خوض تجربة حب .. فلم تكن لي تجربة حتى في فترة مراهقتي وغمرة شقاوتي .. أوربما رحمني القدر من تجرع عذاب الحب ومرارته .. ثم إنني لم أجد رجلاً واحداً يقاتل من أجل أن يفتتح حصن قلبي ويقحم حبه فيه .. لم أجد رجلاً بحث عني أو حتى بحث عن قلبي المغروس كلؤلؤة بداخل محارة ضئيلة في قاع سحيق مظلم في بحر الحياة .. وإلى اللحظة لم يتجرأ أحد على الغوص وخوض المغامرة وانتشال درتي من القاع إلى السطح حيث نور الشمس يسطع ..

لم أجد رجلاً هُماماً حارب من أجل أن يظفر بي ويحبني كما

فعل نزار قباني الدمشقي مع بلقيس الراوي البغدادية .. حينما رثاها في قصيدة مطولة بمجرد تسليمه إياه حقيبة اليد التي تخص زوجته وشريكة أنفاسه والتي وجدوها تحت الأنقاض .. فكتب مرثية بعنوان (٢٥ وردة في شعر بلقيس) واصفاً تألمه الشديد على فراقها.. فقال:

كنت دائماً أُحس أنها ذاهبة..

وكان في عينيها دائماً

قلوعٌ تستعد للرحيل..

وطياراتٌ جاثمةٌ على أهدابِها

تستعدُّ للإقلاع.

وفي حقيبة يدها ـ منذُ تزوجتُها ـ

كان هناك جوازُ سفرٍ .. وتذكرةُ طيران

وتأشيراتُ دخولٍ إلى بلادٍ لم تزُرها..

وعندما كنت أسألُها :

ولماذا تضعينَ كل هذه الأوراق في حقيبة يدِك ؟

كانت تُجيب :

لأنني على موعدٍ مع قوَسِ قُزح ..

....

بعدما سَلموني حقيبةَ يدها..

التي عثروا عليها تحت الأنقاض

ورأيت جواز السَفَر..
وتذكرة الطائرة ..
وتأشيراتِ الدخول..
عرفت أني لم أتزوج بلقيس الراوي
وإنما تزوجتُ قَوسَ قُزح..

هاتي لي رجلاً واحداً إن أستعصى عليه أن يصفني بالطيف أو حتى بقوس قزح .. أن يقول لي بأنني شمس حياته كأقل وصف..

وأخيراً آمنت هيا بي وبصدقي قائلة لي بأنني سأنتظر كثيراً كي يحبني رجل اختفى منذ الأزل بل إنه انقرض في عصرنا الحالي ..

قضينا يومنا كله على شواطئ مدينة برايتون نضحك حيناً ونبكي حيناً ونلعب مع البحر حيناً آخر، فقد كانت الأمواج تقذفنا للشاطئ و بينما كنا نركض إلى داخل البحر لنثيرها بأصوات ضحكاتنا.. عشت يومي هذا في برايتون مع هيا وقصة حبها المدفون في مقلتيها، فباحت لي بسرها المخبأ بين أضلعها ، ثم رجعت وخبأته للأبد.. وعلى الرغم من تألمي لما حصل لها ولكنني سعدتُ كثيراً عندما رأيتها تضحك ملء قلبها ، فعلمت بأنني استطعت استعادة الضحكة التي سُلبت منها..

في قطارنا العائد إلى لندن تشاركت مع هيا المقعد و سماعات الأي بود التي كانت تضعه في أذنها .. لأستمع معها إلى شجن محمد عبده بغنائه للبرواز..

أسرار فتاة قطرية

قلتيلي إنسى
ومن يومها وأنا كل ليلة قدامي البرواز
حبر العيون ودمع القلم في دفتري
وصورتك رغم الألم
ورغم إنها خذت من أطباعك كثير وخانت البرواز
أشوفها في خاطري
حبيبتي ما بيدي حيلة
لا صرتي الصورة وعيوني البرواز
وشلون ابنسى

أتعبتي الصورة مشاوير
وتعبت أنا بلقى لغدرك معاذير
وصورتك اللي سجنت بروازها طول السنين
كانت جسد وبروازها الروح
ويوم نزعت منه الجسد تجرحت أطرافها
وبجروحها راحت لمين .. لبروازها الثاني
مسكين .. بيسجنك ويبقى سجين
تشبهلك أقداره خانته
وصورتك يجي يوم وتخونه
حبيبتي .. أو للأسف حبيبته

أسرار فتاة قطرية

لا صرتي الصورة وجفونه البرواز
وشلون ينسى

حبيبتي لأجل أنسى جرحك واستريح
بأبكي .. وبعد البكى بأبكي
وأكيد في لحظة بتجي وبيجف دمعي
وعندها صورتك اللي في عيوني
بتعاف برواز الضمى
بتصير صحرا وهو سما
بتمرني الدمعة الأخيرة
تاخذ معاها صورتك وتطيح
وكني بهالدمعة سكين جرحها وجهي
وكني بالمسافة تطول ما بين عيني ودمعتي وخدي
وكني بقلب الحاير المسكين نبضه يقول
لا تودع الفرقى .. الدمع ما يرقى
وعندها لا نزلت الدمعة من الجرح الأخير
وفارقت وجهي أنا
بغمض عيوني وأكسر البرواز
وأكيد بنسى
....

عندما وصل بنا القطار مدينتنا لندن استقللت تاكسي لأوصلها في طريقي ثم أكمل الطريق عائدة إلى الفندق واتفقت معها في نهاية اللقاء على أن تزورني في ليلتي الأخيرة في لندن وقبل سفري وعودتي للدوحة بعد غد ..

عندما دخلت ردهة الفندق وقفت اسأل العامل في الفندق إذا ما كان يعرف كم المسافة التي يبعد فيها (محل شوكت) عن فندقنا .. فشوكت محل أقمشة مشهور ببيعه لأنواع الصوف الإنجليزي الخام و خصوصاً الصوف الرجالي .. وقد وصاني والدي بقماش صوفي نيلي اللون من عند شوكت بالخصوص.. فقد قابل شوكت هذا شخصياً عندما زار لندن في إحدى السنوات.. وأنا هذه المرة الأولى التي آتي فيها إلى لندن وحيدة.. ولا أعرف شكل المحل أصلاً ، فقط ما عندي هو اسم الشارع ورقم المحل .. يا ترى هل سأنجح في المهمة التي كلفني والدي بها.. يارب ساعدني على أن أفرحه برجوعي ومعي ما طلب.. فهذا هو مسار خطتي ليوم غد .. ففكر العامل بأن يسأل لي أي شخص عربي جالس هنا في قاعة الانتظار في الفندق ، فبالتأكيد سيعرف مكانه ما دام أنه أشهر محل يشتري منه الكثير من العرب.. فوجد آنسة محجبة تسند ظهرها لكرسي من الكراسي الموجودة في القاعة ، فأتجه نحوها ليسألها.. ثم وجدته يشير إلي.. لتلتفت الفتاة بظهرها نحوي وتمعن النظر فيّ وتقول هذه أنتِ التي تسألين .. ثم وقفت فعرفت أنها حصة معرفة قديمة من

المدرسة إلى الجامعة .. فمشيت نحوها وسلمت عليها وحضنتها وأنا أقول: يا سبحان الله في الدوحة لم التق بك يوماً حتى ولو بالصدفة وهنا في لندن كل ما أمشي خطوة في أي مكان أرى أعز الصديقات.. يبدوأن لندن مجمعة الصديقات ومفرقة الأعداء.. يا إلهي منذ متى لم نلتقِ في الدوحة واليوم ألقاكِ هنا في الغربة وفي نفس الفندق الذي أقيم فيه لا أصدق ما أرى .. فوجدتها ترد عليّ بابتسامة ماكرة.. وتقول نعم لتلتقي بي وأشهد على جريمتك الشنيعة أيضاً .. قلت لها وأي جريمة قالت وهي تغمز لي بإحدى عينيها متسائلة : إذاً ما هوغرضك من محل شوكت.. هل تريدين شراء صوف لزوجك .. إذاً تزوجتِ يا الخائنة ولم ترسلي لي دعوة لحضورعرسك.. فقلت لها أي عرس وأي بطيخ .. أنا لم أتزوج بعد .. هو صحيح أنني تلقيت عرضين للزواج في مدينة (كان) في فرنسا ولكن كل واحد أتعس من الآخر .. وبعد الذي سمعته مؤخراً عن الحب والزواج .. أقولها لكِ بالمصري (أعدت الحزنى ولا زواجة الندامة) (والتي تقول يا زواج آلهي تحترق بالكاز) .. فتضحك وتقول إذاً لو سمعتِ حكايتي والذي حصل لي ماذا ستفعلين .. أكيد ستفكرين بالتحول وتغيرين جنسك من أنثى إلى ذكر .. فقلت لها بصراحة الفكرة واردة على ذهني وهي قيد التنفيذ وأكيد سأكون بعدها أوسم شاب رأيته .. فتقول طبعاً وتأكيداً على ذلك سأتزوجك ولن أتركك لغيري .. فصحت فيها ضاحكة أعوذ بالله من غضب الله .. لا غيرت رأي الأنوثة أجمل بكثير من حياة الرجال وغزوالشعر في الوجه والجسم .. لالا

أريد أن أكون رجلاً.. فضحكت حصة قائلة : الله يقطع أبليسك من وصفك للرجال .. ثم قلت لها : حصة وقبل أن انسى ماذا الذي تفعلينه أنتِ هنا في لندن ؟ هاه شهر عسل !! قالت: شهر بصل وأنتِ صادقة .. قلت لها: لم أفهمك ؟ قالت سأحكي لك غداً عندما ألقاك على الفطور.. قلت لها ولكنني سأذهب غداً للبحث عن (محل شوكت) وقد لا ألقاكِ .. فقالت لا تخافي سأذهب معك غداً وأعرف سر لهفتك على (محل شوكت هذا) الناس يذهبون لمتجر (هاردوز) و(سليفرج) ليصطادوهم الشباب الحلوين..وأنتِ مثل العجائز تريدين الذهاب إلى (محل شوكت).. عرفت لماذا لم يخطفك أحد إلى الآن .. فقلت لها وأنا متظاهرة بالغباء .. ومن الذي قال بأنني لم أتعرض لمحاولة خطف فقد كنت على وشك ذلك في مطار (أوغلي) في باريس والله قدّر ولطف.. قالت حبيبتي أقصد أحد يخطف قلبك يا الذكية .. قلت لها بثقة وبفم مليان ..هذا صعب جداً فإلى الآن لم تتوصل البشرية جمعاء إلى كيفية الدخول إلى قلبي والتربع فيه.. فقالت مستهزئة.. نعم صحيح في هذا صدقتِ.. إذاً أراكِ في الصباح وسأتصل بك لأوقظك..أعطيني رقم غرفتك .. قلت لها تقصدين الجناح .. صاحت بصوت عال .. جناح مرة واحدة .. لاالموضوع فيه إن .. تعالي إلى هنا وقولي لي أنتِ مع من هنا .. وكل هذا وتتظاهرين لي بالبراءة .. قلت لها وربي إنني بلا رفيق هنا .. قالت إذا كنت وحيدة لماذا سكنتِ في جناح ، فالغرفة بالنسبة لك كافية ووافية ثم لماذا هذا التبذير .. قلت لها ولكنني

أنا لم أحجز لي جناحاً فقد حجزت في غرفة عادية جداً فقالت متعجبة إذاً لماذا تقيمين في جناح إذا كان حجزك غرفة يعني تمويهاً وما سبب التمويه هذا.. فكان ردي عليها إنها هبة من صاحب الظل الطويل .. فقالت لي وهي تهز رأسها ضاحكةً لا حول ولا قوة إلا بالله .. فقد حسبت أنني أمزح معها ثم قالت لي: تصبحين على خير يا جودي آبوت .. وتبادلنا الأرقام ومضت كل واحدة منا لتنام على أمل اللقاء على الفطور.. لتبدأ بعدها المغامرات في شوارع لندن ..

تن تن تن إنها دقات أجراس ساعة بيج بن .. تجبرني على النهوض من السرير الدافئ .. وازاحة الستارعن النافذة لبدء يومي الذي خططت له منذ الأمس وهوالذهاب لشراء قماش أزرق نيلي اللون ذي خيوط دقيقة وخفيفة من أجود أنواع الصوف الإنجليزي والذي يبيعه (محل شوكت) وهذا ما طلبه والدي..

واتصلت بي حصة لتوقظني كما وعدت ، بينما كنت أستعد لأخذ حمام بارد يبعث النشاط فيّ وفي أوصالي المتعبة..

صديقتي حصة كانت تدرس معي في المرحلتين الابتدائية والإعدادية إلى أن تفرقنا في الثانوية والتقيتها ثانيةً في الجامعة ، فهي خريجة كلية الإدارة والاقتصاد .. حصة فتاة طيبة جداً لأبعد الحدود وتتمتع بقلب كبير يسع الكل .. وتميزها خفة دم رهيبة .. فعندما كانت معنا في المدرسة كنا نتعامل معها بترفع بعض الشيء في بداية صداقتنا لها لا ندري لماذا ربما لأنها كانت طيبة جداً،

فقد كانت تمازح الكل وتضحك معهم لدرجة أنها كانت تطلق التعليقات على نفسها وعلى شكلها لكي تضحكنا .. إنني أحب هذه الفتاة كثيراً ولا أدري كيف سارت أمورها بعد التخرج ..

عندما كنا نتناول الفطور معاً.. سألتها بقولي حصة لم تجاوبي على سؤالي البارحة مع من أنت ِفي لندن ؟؟.. فأنا أعرف أهلك جيداً فهم محافظون جداً ولن يسمحوا بسفرك وحدك وأنا لا أرى أحداً يرافقك هنا .. ما خطبك هل طلبتِ اللجوء السياسي في بريطانيا .. قالت ضاحكةً كلامك صحيح فإخواني الذكور لو أنني أكاد أموت أمامهم لما سمحوا لي بالسفر دونهم .. لأنهم هم الذين يمارسون سلوكيات محرمة بحق بنات الناس ويظنون أن كل البنات دون المستوى وفاسدات فهم يدعون بأنهم يحافظون علينا بمنعنا من ممارسة ابسط حقوقنا ، بينما هم يمارسون حب السيطرة ضدنا لا أكثر.. وبالفعل أنا هنا مع أحد إخواني من أجل زيارة أختي مريم الموجودة في لندن منذ أشهر هي وزوجها وابنتهما الصغيرة هميان التي تخضع للعلاج في مستشفيات لندن.. وطلبت من أخي أن نقيم في الفندق لأنني لا أريد إحراج أختي مع زوجها بإقامتنا معهما في شقتهما الضيقة ولا أريد أن أكون ضيفة ثقيلة على أحد وفي نفس الوقت سأكون مرتاحة بخصوصيتي في غرفتي .. فقلت لها وماذا عن خطيبك ، لقد سمعت من فترة بخطوبتك .. فردت قائلة : آه لا تذكريني بالفاجعة الكبرى التي دمرت دنياي ، لقد كسرني هذا الرجل

وكسر كل المعاني الجميلة التي تربيت ووعيت عليها .. لم أتخيل في حياتي أن هناك أُناساً بهذه القذارة إلى أن عرفته ، لقد تقدم لخطبتي عن طريق أحد أصدقاء إخواني الشباب.. وكنت حينها أبلغ الواحد والعشرين ، كنت شابة غضة وبريئة لا أعرف عن دنيا الرجال شيئاً .. فوجد إخواني أن زواجي منه أنسب طريقة لتخلصهم من تحمل مسؤوليتي وهذا هو النصيب قد جاء ولا داعي للسؤال عنه وخير البر عاجله ، هذا ما قالوه لي فأستعجلوا عقد القران بينما أنا رافضة هذه الزيجة من الأساس وخاصةً إن صلاة الإستخارة كانت تشعرني بعدم الراحة في الارتباط به .. كنت أتمنى أن يحدث مكروه ليتوقف كل شيء ويغير إخواني رأيهم بتزويجي له .. ففي اليوم الذي أرادوا فيه إتمام عقد القران لم يستطع الشيخ الذي من وظيفته عقد النكاح الحضور وذلك لمرضه ولم يتراجعوا عن ذلك أيضاً فأخذوني للمحكمة الشرعية ليعقدواقراني فيها .. وفوجئوا بإغلاقها لأحد الاسباب.. كانت كل تلك العلامات تشير لي بسوء حظي معه.. إلا أن إصرارهم على إتمام الزواج أعماهم عن الرأفة بي .. فلو أن أبي كان حياً لما حدث لي هذا كله.. ثم صمتت بشكل مفاجيء وتنبهت لدموعها تتكلم عوضاً عنها فعرفت مدى الألم الذي أحسته جراء خطبتها لذلك الرجل ، فأكملت حديثها قائلة : أتعرفين بأنني لا أخجل أن أضعف وأبكي أمامك..فأنتِ الوحيدة التي إن انسكبت دموعي بين يديك لمسحتها بحبك وحنانك .. فنحن كبرنا مع بعض وفرحنا مع بعض وتألمنا مع بعض .. فلن تهزئي

بدموع قلبي وستصدقينها فأنا أعلم مدى حبك لي وستحفظين سري في قلبك كما حفظته ودفنته أنا..

ثم أكملت قصتها لتقول: كنت أحاول التكيف مع عبدالعزيز خطيبي لأقنع نفسي بأنني ربما باستطاعتي مساعدته على الهداية والعودة إلى الله .. فقد اتصل بي في إحدى المرات ليخبرني بأنه سيزورني في المساء ويريد تناول العشاء من يدي .. فدخلت المطبخ من أجل أن أعد له ما لذ وطاب من الطعام وانتظرت مجيئه الليل كله إلى الصباح .. وعندما كنت اتصل به مخافة أن يكون حدث له مكروه كان يرد عليّ ويطمئنني بأنه سيأتي خلال ساعات ويطلب مني انتظاره .. وفي اليوم التالي عندما اسأله عن سبب عدم مجيئه يرد علي برد تافه مثله فيقول لي إنه مقلب من مقالبه ليعرف مدى حبي له ..اكتشفت بعد فترة وجيزة كثرة سفراته إلى دبي وبالأخص في نهايات الأسبوع ، فعرفت بعدها سبب ذلك وهو العربدة .. وقد حاول في مرات عدة استدراجي للخروج معه مطالباً مني ممارسة حقه الشرعي ولكن كانت خططه تبوء بالفشل لأنني لم أكن اقتنع بفكرة الخروج معه في الأساس .. لقد أذاقني الويل وكنت أصبر واحتسب أمري إلى الله.. وزادت مقالبه السخيفة ليزيد معها استهتاره بكرامتي .. فسألته متعجبة من تصرفاته تلك معي فلماذا يهدم كل جسر أمده إليه.. لماذا يكسر مجاديفي عندما أحاول الوصول به إلى بر الأمان .. لماذا يوجعني عندما أحاول اسعاده .. فأجابني بجواب

حطمني وحطم ثقتي بالرجال كلهم .. قائلاً : أنتِ طيبة وطيبة جداً وليتك لم تكوني هكذا معي .. ليتك قسوتِ عليّ.. لربما أعدت حساباتي فقلت له إذاً أنت ترى إن طيبتي الزائدة هي عيبي الوحيد.. إذاً طلقني وأطلق سراحي من سجن عُقدك الذي حبستني فيه.. فقال لي من دون حياء وكم المبلغ الذي ستدفعينه لي اضافةً إلى ذلك تنازلك عن حقك في مؤخر الصداق.. كلامه لي كان صدمة قوية عليّ فلم أتوقع أن تصل حقارته إلى هذا الحد الدنيء لأذلالي في طلب الطلاق والاستفادة مني مادياً .. فبالتأكيد لم يكن عبدالعزيز بشراً بل كان وحشاً آدمياً يسير بيننا ويتمثل بالبشر.. وعلى الرغم من أنني لم أكن أعرف طريق المحاكم من قبل إلا أنني فضلت دخولي في قضايا ومحاكم من أجل الخلاص منه بأية وسيلة فلم يكن عندي خيار آخر كي يعتقني من قيد أسره.. ولأنني أنا التي فضلت الطلاق والخلاص من عبدالعزيز، حاربني إخواني لتجرئي على فعل ذلك ، لا بل قاطعوني أيضاً كي أخضع لمطالبه .. فعندما دخلت على القاضي وحيدة دون سند استغرب في بداية الأمر صغر سني ومجيئي من دون أحد فسألني عن ولي أمري فأجهشت بالبكاء أمامه ، فلم استطع مقاومة دموعي ، فقلت له بعد أن هدأت بأنني يتيمة الأب وإخواني الشباب تخلوا عني وأنا واقفة أمامه أطلب الانفصال عن الفاسد الذي ربطتني الظروف به .. وليس عندي أحد يقف معي ويأخذ حقي من هذا المنحط إلا الله الذي أخذ والدي عنده فهو الذي تكفل بالدفاع عن اليتامى والمظلومين .. وهذا الشخص ظلمني

بتصرفاته وأنا يتيمة وليس لي أحد يدافع عني ويسندني .. ألم يوصِ الله في كتابه باليتيم بقوله (فأما اليتيم فلا تقهر) فلماذا هذا الظلم والقهر الواقعان عليّ ؟ وانهرت أكثر من مرة جزعةً على وحدتي في تلك الجلسات التي أدافع فيها عن حقي بالخلاص منه إلى أن حكم القاضي بطلاقي.. فأحسست من بعدها بأنني جئت إلى الدنيا من جديد .. فقد تغيرت كثيراً من بعد تلك التجربة وخرجت من تلك المعضلة لأدرك أن وراء كل رجل سراً عظيماً يخفيه فمهما تظاهر بصفاء النية.. فهناك شيء في قلبه يستره ويخفيه .. ولم يتركني عبدالعزيز دون أن يهديني شيئاً يذكرني به ، فقد أصبت بتهيج القولون العصبي جراء تلك الظروف التي مررت بها .. ففي ليالٍ سوداء كنت استفرغ فيها كبدي كنت اتمنى استفراغ عبدالعزيز معها من شدة تألمي .. فقد شرخها بذكرياته المؤلمة .. فأجلس على أرضية الحمام لأتساءل ما الذنب الذي ارتكبته في حقه كي ينهي حياتي بهذا الشكل ويقتل الدنيا الجميلة التي كنت أعيشها .. لم أعد أمزح كالسابق وأصبحت جادة وصارمة في تعاملي مع من حولي .. فقد خفت أن يصفوني بالطيبة والساذجة كما وصمني عبدالعزيز بهما وأعتبرهما عيباً فيّ.. فقد أصبحت الطيبة في هذا الزمن ضعفاً وخطأً فادحاً يُرتكب في حق الناس..

لم استطع مقاومة احساسي ، فقمت من مكاني واحتضنتها بقوة وأنا أقول لها مساندةً لا يا حصة أنتِ صح والعالم بأجمعه خطأ.. فأنتِ يا حصة نادرة ومن الزمن الجميل الذي عاشه أبي

وأجدادي.. أنتِ الطيبة كلها وهم الشر المنبوذ..فإذا وجدنا في طريقنا بؤرة فاسدة فلا يعني ذلك أن الحياة كلها ظلام وسواد ووباء..فأبدئي صفحة جديدة وعيشي حياتك بسعادة ولا تديري بالاً لتلك التجربة المُرة ..

قالت: أتدرين في إحدى المرات وأنا أمشي في مجمع تجاري وجدت طفلة تعلقت بعباءتي من الخلف..لأجد صوتاً من بعيد يناديني حصة .. فعندما التفت إلى المصدرالآتي منه النداء وجدت عينيّ عبدالعزيز تنظران إلى الطفلة .. ثم نظر إليّ متفاجئاً بي وهو يرى طفلته متشبثة بعباءتي بكل قوتها.. فقال لقد اسميت طفلتي باسمك ولا أرضى أن يناديني أحد باسمٍ غيره فأنا أبو حصة .. فقد علمتني يا حصة درساً قاسياً في الحياة .. فأدرت له ظهري تاركةً إياه في حيرته من دون الرد عليه بكلمة لأنه لا يستحق حتى شفقتي عليه.. فقد نبتت في صدري بذرة القسوة التي زرعها فيّ.. ثم من الذي قسى على الآخر أنا أم هو؟؟

فسكتُ لبرهة .. ثم فكرت أن أغير مزاجها الجاد بمداعبتها بأغنية فغنيت لطلال سلامة .. كي تتفاجأ من ردة فعلي غير المتوقعة لتضحك .. فتنحنحت بصوتي لأغني:

آه ياقو قلبك

تجرحني من قلب وتروح

آه قولي وربك

من علمك درس الجروح

ماجاك مني يجرحك

ولاجاك مني يألمك

لليه القسى

قلبك نسى

اتعبتني وليه التعب

واجهني لو مره بسبب

قولي شسويت فيك

هذا وانا قلبي عليك

ليه الجفا وكلي وفا

فوجدتها دخلت في نوبة من الضحك وقد غرقت عيناها في بحر من الدموع لأن تلك الكلمات لمست الجرح الذي في قلبها فكانت تتظاهر بالضحك ، بينما كانت أساساً تبكي لتألمها وتذكرها عبدالعزيز.. وعندما استدركت ذلك قلت لها .. قومي معي يا حصة لنبحث عن (محل شوكت) .. فأنا لن أبرح أرض لندن حتى أجد شوكت ومحله .. فضحكت مجدداً ، فقلت لها أليس هذا أفضل من هذه المحزنة التي عيشتني فيها..اضحكي فالدنيا زائلة .. ونحن فانون منها في أية لحظة.. فلنضحك في هذين اليومين اللذين نعيشهما فيها.. وسحبت يدها بأقصى ما عندي من قوة لأُقيمها من مكانها ونتجه صوب الباب كي نخرج من الفندق..

فسألتني حصة مستفسرة عما إذا كان معي العنوان فقلت لها إيجاباً معي اسم الشارع ورقم المحل .. فركبنا تاكسي بعد أن أعطيت السائق الورقة التي دونت فيها الاسم ورقم المحل.. ليصل بنا إلى الشارع الموجود فيه متجر (هارودز) فنزلت من السيارة وأنا أسأل السائق أين مكان المحل ليشير لي على أرقام المحلات قائلاً تابعي تسلسل الأرقام وستجدينه .. استغربت فتسلسل الأرقام صحيح ولكن لا يوجد اسم المحل على اللوحة.. بل الموجود هو مطعم إيطالي كبير .. وكلت أمري لله ونزلت .. فقالت لي حصة ممازحة : شكراً عازمتني على الغدا .. أنا آسفة تناولت فطوري للتو.. فقلت لها حصة :هل تعتقدين أن المحل تمت إزالته ولم يعد لمحل (شوكت) وجود في لندن .. قالت فلنتأكد أولاً بسؤالنا للنادلة الإيطالية عن العنوان .. فدخلنا المطعم وجاءت المسكينة بقائمة الطعام فطلبنا منها المساعدة وأخبرناها بأننا نبحث عن محل لبيع القماش واسمه (شوكت) فاكتشفنا انها لا تجيد الإنجليزية بطلاقة .. ولكنها حاولت المساعدة أن نادت لنا مدير المطعم .. الذي اكتشف بدوره بأننا في الشارع الخطأ وهناك تشابه بسيط في اسم الشارعين .. فقالت حصة .. حسبي الله ونعم الوكيل فيك أيها السائق العجوز .. أخذ فلوسنا وأنزلنا في مكان خطأ .. فشكرنا المدير .. وخرجنا من المطعم نسأل المارة .. فأقترحت علينا سيدة عربية أن نستقل أحد الباصات ونذهب لذلك الشارع الذي فيه المحل .. فجلست حصة في محطة الباصات تقارع قائلة : هاه نركب في هذا الباص أم ذاك

وبدوري اخترت أحدها ثم دخلت الباص وأعطيت الورقة للسائق الآسيوي .. فقال لي اركبا وسوف أنزلكما في المحطة التي تقف فيها الباصات الذاهبة لذلك الشارع.. فوقفنا في الباص وطبعاً الكل ينظر إلينا بغرابة .. وكان يجلس شاب خليجي على أحد المقاعد الأمامية في الباص فقام أدباً منه تاركاً مكانه لنا.. فجلست بينما فضلت حصة الوقوف.. ثم أشار علينا السائق النزول في هذه المحطة.. فسألته عن أجرة التذكرة .. فقال لا داعي للدفع فقط اذهبي وستجدين المحل الذي تودينه .. شكرته كثيراً وعند خروجنا من الباص وجدت حصة تنظر إليّ باستغراب لتسألني لماذا لم يأخذ منك ثمن التذكرة.. فقلت لها لا أدري فأنا مثلك سألت نفسي السؤال ذاته .. فانفجرت ضاحكة وهي تضرب يداً بيد وتقول .. أوه لا .. لا يكون أعجب بك وظن أنك من الجماعة يعني هندية .. فتلقت مني ضربات محترمة على كلامها .. ثم قالت لي : يا الذكية لماذا لم تسألي الشاب الخليجي المحترم الذي ترك مكانه لنا.. ربما أعجب بواحدة منا وكان له النصيب .. لماذا لم تتحرشي فيه بسؤالك عن (محل شوكت) هذا الذي دوختني به .. فقلت لها أنا في دنيا وأنتِ في دنيا ثانية .. ثم قلت عندما يأتي النصيب يأتي على غفلة كالموت .. فلا تستعجلي نصيبك .. فردت قائلة: الموت فال الله ولا فالك .. أنا أقول لك دنيا وأنتِ تقولين لي الآخرة .. صحيح الذي يده في الماء ليس كمن يده في النار.. وكيف لا أستعجل والعمر يمضي وكل سنة نكبر والخيارات أمامنا تقل..والشبابأصبحوا يبحثون عن

الصغيرات والمراهقات من البنات .. فمهما كان يوحي شكلك بالصغر بمجرد إخبارهم عن العمر يصيبهم الذعر وكأنك أخبرتهم بإصابتك بمرض خطير.. فيفرون من أمامك فراً.. فقلت لها : يا حصة يا حبيبتي .. هذه النوعية من الرجال ينطبق عليهم العبارة التي تقول «كل ساقط له لاقط» .. والذي هو ابن حلال وبه صلاح سيعرف قيمة الجوهرة التي سيتزوجها، فصبرك بالله ولا تيأسي .. فالله يحب سماع صوتك وأنت تطلبينه كعصفور يغرد ويناجيه .. فلوأعطى أحداً في الحال فهذا لا يعني أنه يحبه أكثر من باقي خلقه ولذلك استجاب له بسرعة ، لا فقد يكون رب العالمين نفر من قلبه السيئ ونهيق صوته.. فيعطيه ليسكت وينشغل بما طلبه لأنه يدرك أنه سينساه بمجرد حصوله على مبتغاه ولن يحمده ويشكر فضله عليه ، فقد يكون إنساناً جاحداً.. إنما المؤمن يحب الله أن يرزقه بتواتر لعلمه بوفاء هذا الإنسان بشكره الأبدي وتذكر فضله عليه .. فاحمدي الله على كل شيء، فهو يعلم سر عطائه لمن ومتى وكيف فبيده هو وحده الأسباب..

قالت: كلامك هذا كالدواء الذي يشفي نزف الروح .. لماذا لم يكن اسمك بلسم .. قلت لها وأنا مبتسمة : تقصدين بلسم اثنين في واحد.. شامبو أنا .. فقرصت حصة خدي بقوة.. قائلة دائماً : متميزة بشقاوتك..

وحينها كنا نمشي في الشارع ونرى سفارات الدنيا حولنا .. إلى أن وقفنا عند السفارة العُمانية .. فقالت : تعالي ندخل

السفارة العُمانية ونسألهم ومنها سيضيفوننا بالقهوة والحلوى العمانية ، فهم أهل كرم وضيافة وبصراحة أنا اشتهيت حلوتهم اللذيذة .. قلت لها: آه على ذكر عُمان ذكرتني بصديقتي ثريا التي كنت أدرس معها في الثانوية والتي عندما سافرت احتضنتني باكية لتقول لي : لديكِ أجمل قلب عرفته في حياتي واستمررنا بتبادل الرسائل طوال فترة الجامعة ومازلت أحتفظ بكل رسائلها وإلى الآن ونحن على تواصل دائم ، ثم قلت لها : أتدرين يا حصة أن صديقتي ثريا اتصلت بي في العام الماضي لتخبرني بأن إرادة الله شاءت أن تنجب ابنتها في نفس يوم ميلادي وقد أسمتها فاطمة الزهراء تيمناً باسم ابنة الرسول الكريم .. فردت حصة قائلة :هاه إذاً هذه فكرة خطيرة لدخول السفارة.. لندخل معاً واسألي أنتِ بدورك عن صديقتك ثريا ريثما هم يقيمون مراسم الضيافة بتقديمهم لنا الحلوى العُمانية مع فنجان قهوة تعدل المزاج .. فصحت بها قائلة : هل جننتِ يا حصة فكيف أسأل عن ثريا في لندن لأزورها في مدينة صحم في ولاية الباطنة في عُمان .. بالتأكيد هوسك بالحلوى العُمانية أثرعلى فيوزات مخك..

وبينما نكمل تجوالنا ونحن نسأل المارة عن الشارع المؤدي إلى (محل شوكت) .. قابلنا أشكالاً وجنسيات وأعماراً مختلفة ، فقد كنا نمشي في شارع به كمية لابأس بها من مباني سفارات الدول بأعلامها البارزة .. فسألنا أحد المراهقين الإنجليز، فوصف لنا المكان مستدلاً على الشارع بوكالة سيارات

اللمبرجيني الرياضية .. وكنا نمشي ونسأل الناس عن وكالة (اللمبرجيني) ، فكانوا يستغربون سؤالنا وذلك لعدم وجود هذه الوكالة أساساً في الشارع الذي نحن فيه .. فالموجود هو وكالة سيارات (فيراري).. فأدركنا متأخراً أن المراهق خانه التعبير ويبدو أنه من عشاق سيارات (اللمبرجيني) أكثر من (الفيراري) ، فأضاع وقتنا ونحن نبحث عن سراب حلمه .. وطبعاً أمضينا نهارنا ونحن نسأل ألف مرة وأكثر من شخص حتى استدللنا إلى المحل ووصلنا .. فإذا به محل صغير ذو واجهة زجاجية بسيطة بين تجمع سكني من البيوت اللندنية المتراصة بكثرة من كل النواحي .. فقالت لي حصة : هذا هو المحل.. الله يقطع ابليسك.. هذا هو (محل شوكت).. حرام عليكِ .. تعبتيني في هذا المشوارالطويل لتصلي إلى هذا المحل «المكحكح ».. قلت يمكن يكون محلاً مرموقاً وراح أشوف شخصيات عليها الصيت وآخرتها هذا المحل الذي معظم بضائعه في سرداب تحت الأرض .. أنتِ التي فيوزاتك ضاربة وليس أنا .. ثم تعالي وقولي لي في شخص في الدنيا يترك (هارودز) و(سليفرج) وما بها من محلات راقية ويأتي إلى هنا إلى محل العجائز والمسنين ولو اننا قضينا يومنا في حديقة الهايد بارك القريبة من الفندق لكان أفضل لنا .. ثم قولي لي ما هوغرضك من هذا المحل القديم قدم الفراعنة ؟ ومن الذي دلك عليه في الأصل ؟ وليس باستطاعتي تخيلك وأنتِ تشترين شيئاً من متحف القماش هذا !!

فسكت ولم أرد عليها .. فقالت لماذا لا تردين ؟؟ جاوبيني من الذي أعطاكِ العنوان؟؟ رددت عليها بصوت بالكاد يخرج : إنه والدي .. والدي أحب أن أستعيد ذكريات أجمل أيام سنوات عمره التي قضاها في لندن ، فبزيارتي لهذا المكان سأشاركه ذكرياته وخاصة عندما أعود إليه لأحكي له كيف وجدته ورأيي فيه .. فقد يكون والدي قد مشى في نفس الشوارع التي مشينا فيها اليوم ونحن نبحث عن المحل ، فهو يدرك أنني سأحمل له بعينيّ الصورة التي وصلت إليها لندن بعد فترة الثمانينات من القرن الذي فات ، عندما كان هنا إلى هذه السنة التي نحن فيها الآن ألفين وعشرة « ٢٠١٠ » أي بعد ثلاثين عاماً من آخر زيارة له للعاصمة البريطانية، فبعد تلك الفترة لم يزر لندن أبداً.. أنا على يقين بأنه يتساءل فيما بينه كيف أصبحت لندن الآن بعد هذا العمر.. وحتى أبرهن له زيارتي للأماكن الكثيرة التي طلب مني رؤيتها .. أحببت أن أفاجئه بشيء يحبه من أحد المحلات التي كان يرتادها وقت وجوده فيها.. فرأيت قماش الصوف الإنجليزي بلونه المفضل هو أجمل هدية أقدمها له من لندن .. فأنا أحب والدي ومتيمة به لحد العشق .. فهو الذي أعطاني جناح الحرية لأطير وأرى العالم الذي كنت أتمنى رؤيتها في الأحلام .. بعدما زرع فيّ الأخلاق والثقة .. فحقق لي أمنية كانت غالية عليّ وصعبة على أي بنت.. فوجدتها تبكي وهي تحتضنني قائلة : هنيئاً لك هذا الأب .. وأسأل الله أن يحفظه لك ويمده بطول العمر .. فكلامك هذا عن والدكِ جعلني أشتاق لأبي

الحبيب ، فقد افتقدت وجوده معي في ظروف كثيرة.. فلو كان حياً لما حدث لي ما حدث ولما أسودت دنياي بعيني من بعده، فالأب مثل الشجرة التي تظللنا بأوراقها وتطعمنا من ثمارها وتلاعبنا على أغصانها وتقطع من نفسها لتعطينا وتمنعنا من الحاجة والعوز للغير .. فالأب يحميك من جورالأيام .. الأب سند وقوة للفتاة .. وبفقدانه تفقدين عمود ظهرك الذي يحملك ويحمل جسمك كله وبخسرانه تشل كل أجزائك .. فليحفظ الله لك والدك من كل سوء ..

فدعوت الله أن يرزق حصة بزوج كريم يعوضها حب أبيها الذي فقدته بالرغم من أن الوالدين لا يعوضان بكنوز الدنيا ..

في ختام يومي الحافل معها أعلمت حصة بأنني أدعوها لحفلة التعارف والوداع البسيطة التي سأقيمها في جناحي في مساء الغد وعليها الحضور رغماً عنها إن شاءت أم أبت ، فهذا عُرف أتبعه دائماً مع كل صديقاتي ، فعندما توجد مجموعة منهن في نفس المكان أحب أن أعرفهن على بعض ليصبحن من بعدي شلة أومجموعة وأريد منهن أن يجتمعن مع بعضهن البعض حتى وأن لم أكن موجودة معهن وما شاء الله قابلت في لندن إلى الآن ثلاثاً منهن والرابعة سأتأكد من وجودها في لندن لأدعوها للحفلة فصديقتي الرابعة لها نكهة خاصة ومختلفة عنا جميعاً ، فقد تعرفت عليها مؤخراً أثناء تدريبها عندنا في الشركة ، فقد كانت تعمل كطالبة تحت التدريب في فترة الصيف ، فهي في الأساس

طالبة تدرس في إحدى الجامعات الأمريكية في المدينة التعليمية.. إنها ببساطة منيرة التي بلغت الواحد والعشرين منذ أشهر .. خليفتي القادمة بقوة وفتاة المغامرات من الدرجة الأولى.. ورغم أنها ملتزمة دينياً.. فإن فضولها لكشف حقيقة الجنس الآخر يؤرقها ويجعلها تخوض المغامرة بتأنٍ وجلد من أجل التوصل إلى السر الذي يخفيه كل الرجال عن نساء الأرض وما أن تتوصل إليه تفشيه لي على الفور وهي مندهشه للعالم الجديد الذي اكتشفته للتو ..«الرهيبة» وهذا الوصف الذي أطلقه دائماً على صديقتي الجديدة منيرة ..

في الليلة الأخيرة لي في لندن .. اجتمعت البنات الأربع في جناحي وهن يضحكن مستهزئات بقصة الجناح ، فتبدأ هيا وتقول : ونحن طوال تلك الفترة عندما كنا أطفالاً كنا نحسب أن صاحب الظل الطويل .. ما هو إلا شخصية خيالية من قصص أفلام الكرتون.. وأخيراً تأكدنا من حقيقة وجوده لا وأين في لندن ليحجز للسنيورة جودي آبوت الجديدة .. وهي تشير عليّ .. هذا الجناح الفخم .. فتنظر إليّ حمدة .. لتقول: الله يخليك عرفينا عليه لربما حقق لكل منا أمانيها .. فقلت لها مجاوبة : من وين يا حسرة .. خليني أنا أعرفه بالأول .. بس بصراحة أموت وأعرف من اللي حاجز لي هذا الجناح .. الفضول راح يذبحني .. فترد عليّ حصة بلهجة مصرية صعيدية أصيلة «أحمدي ربك يا بت .. ناس محصلة وناس مش محصلة واصل وإحنا التنين في نفس

الفندق» قلت لها : قل أعوذ برب الفلق .. الرزاق في السما والحاسد في الأرض .. وفجأة سمعنا طرقاً على الباب .. فقمت أريد فتح الباب لأجد هيا وحصة تجلسانني بقوة على كرسي قائلتين : أتقومين من مكانك ونحن هنا .. أبداً لن تتحركي فاستغربت هذا الحب المفاجئ .. فوجدت حمدة تصيح بأعلى صوتها مشاركة إياهما .. ماري افتحي الباب .. فعرفت حينها أنها مزحة من مزحاتهم الشقية .. فقلت لهن وأنا أحاول تخليص نفسي من بين أيديهن .. قوموا عني وخلوني افتح الباب فلا ماري موجودة هنا ولا بيبي .. وعندما شرعت الباب.. كانت منيرة الرهيبة تقف بالباب وهي مبتسمة.. لتسلم بدلع وغنج وفي فمها علكتها كالعادة وهي تنفخ فيها كي تصنع منها بالوناً رقيقاً ثم تنقض على البالون بأسنانها لتعلكه مرةً أخرى .. دفعتها بسرعة إلى الداخل وعرفتها على المافيا الموجودة في الجناح .. فقالت لي بصوت مندهش وبلكنة إنجليزية .. واو الجناح يجنن .. شنو هذه الرفاهية والفخامة .. لتحصل على الإجابة وبصوت واحد من بقراتي الثلاث أقصد صديقاتي الثلاث .. إنها هبة من صاحب الظل الطويل .. فتضحك .. ضحكة نعومة مميزة.. لتسألني بسخرية صحيح يا جودي آبوت .. فقلت لها منيرة الله يخليك هذا رابع مرة أن سئل نفس السؤال .. وأنا لا أعرف الإجابة.. آه لو كنت أعرفه ..على قولة الأفلام المصرية .. كنت قطعته بأسناني.. فترد حصة .. هذا جزاء الإحسان .. يا الغشيمة .. قلت لها : أنا بس أبغي أعرف ليش أنا .. و بعدين إذا ما عرفته في

القريب العاجل راح أعرفه يوم القيامة .. فقالت هيا .. يا ربي راح ننتظر ليوم القيامة عشان نعرف صاحب المكرمة الأميرية هذه .. قلت لها : ما عندي حل ثانٍ .. فضحكت البنات وأنا أقول أفوض أمري فيك إلى الله يا صاحب الظل الطويل ..

بعد أن تناولنا العشاء معاً.. فتحت منيرة شنطتها وأعطت هيا قرص السي دي لتضعه في الجهاز المشغل له .. قائلةً :هذا فيه كلكشن رائع من الأغاني القديمة والجديدة .. وصدح الجهاز مغنياً بأغانٍ شتى .. فسألت منيرة عن أختها إذا ما اشترت كل ما تحتاجه من تجهيزات كعروس من لندن أم ستسافرإلى دولة أخرى.. فقالت ربما ستسافر إلى باريس لترى كولكشن الموضة هناك .. فقلت وأنا أُشير إلى الثلاث الجالسات يسمعن باهتمام وإنصات .. عقبال الثلاث وردات الجالسات على سريري .. كي يسمعن ويقمن من العبث بفراشي .. ولكن أبداً لا إحساس ولا مشاعر انهزت ليرحن سريري الذي يتعب ويشقى باحتضاني طوال الليل والآن أصبح متكأً مريحاً للشمعات الثلاث .. فقلت بصوت عال : منيرة احكي.. لحبيباتي حمدة وهيا وحصة .. قصة سلطان معك .. فوجدت كل واحدة منهن عدلت في جلستها .. لتستمع للقصة بتركيز .. فبدأت منيرة حكايتها بغنج مصطنع وهي ترقق في صوتها وكأنها هيفاء وهبي .. لتقول: كان يا مكان في السعودية في حديث الزمان في رحلة العمرة .. فقد ذهبت مع الجامعة في رحلة إلى العمرة .. بصحبة مجموعة مكونة من ست

بنات وكل واحدة معها والدتها أو والدها ، المهم أن يكون معها ولي أمرها ومسؤول عنها.. ومعنا أيضاً ثلاثة من شباب الجامعة.. والحمدلله أدينا مناسك العمرة بيسر وسهولة ومن دون تعب كما هو المتعارف دائماً وبعدها سافرنا إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول والسلام عليه «عليه الصلاة و السلام» وفي اليومين الأخيرين لنا في المدينة.. خرجت مع أمي لنتسوق و نشتري الهدايا التي لم نشترها من مكة وكنت يومها ألبس عدساتي الخضراء الطبية .. لأنني تكاسلت في تبديل النظارة بطبية ثم شمسية واستسهلت العدسات وبينما نمشي أنا وأمي في أسواق المدينة .. كنت أشعر بأن أحد الأشخاص يتبعنا ويمشي معنا وعندما التفت إليه لأراه وجدته شاباً يافعاً في مقتبل العمر .. فلاحظت أنه عندما ندخل كل محل يدخل معنا ويشتري منه أيضاً وفي بعض الأحيان يحاول أن يتفاوض مع البائع ليخفض السعر لنا.. و بمجرد أن لاحظنا تلك الحركة خرجنا من المحل ولكن وجدناه يشتري ما كنا سنشتريه ونحن نفاصل البائع .. المهم قلت لوالدتي ما العمل لماذا هذا الشاب يلاحقنا من محل لآخر وما الذي يريده منا .. فقالت أمي لا نريد فضائح ونحن غرباء عن المكان .. فدعينا نرجع للفندق حيث سنكون في مأمن عنه ولكن قبلاً سنجعله يتوه عن فندقنا بدخولنا في ساحة الحرم والخروج من الجهة الأخرى للفندق .. وبالفعل دخلنا .. بينما كان الشاب يمشي بمحاذاتنا في الجانب الآخر من سور الحرم .. ونحن نحسب أنه تاه عنا ولم نعلم أونشعر به وهو يسير معنا طوال

الوقت يفصلنا عنه سور الحرم .. وعندما دخلنا الفندق دخل معنا بكل جرأة وكأنه نزيل فيه .. هذا الشيء زاد من حنقي وغضبي .. بينما خافت عليّ أمي كثيراً.. فأدخلتني المصعد مع الجموع ودخلت معي .. فوجدته دخل معنا بكل صلافة ووقاحة .. فدفعتني أمي لخارج المصعد.. فخرج معنا أيضاً .. إلى هنا طفح الكيل اتجهنا إلى أمن الفندق وأخبرناه بما يفعله الشاب من تصرفات مريبة .. فرد علينا رجل أمن الفندق بأنه سيتصرف معه.. وعندما فتح المصعد بابه دخلنا فيه مرة أخرى ، فحاول الشاب أن يدخل معنا أيضاً ولكن رجال أمن الفندق أمسكوه عنوةً ومنعوه من الدخول في المصعد ، بينما أنا وأمي كنا بداخله ونرى كيف يقاوم الشاب رجال الأمن إلى أن رمى بكل الأكياس التي كان يحملها بيده والتي أشتراها معنا من نفس المحلات في المصعد ووصلت عند أقدامي ، فبكيت فزعة مما فعل ، بينما كان هو يصيح قائلاً: خذيها إنها لك .. خذيها فكل تلك الأشياء اشتريتها لك أنتِ وأغلق باب المصعد وأنا أرى وجهه وهو يقاوم رجال أمن الفندق بكل ما أوتي من قوة .. دخلنا الغرفة و أنا محتضنة أمي باكية مما حصل .. فقد ذعرت مما جرى بسببي للشاب .. ثم تلقينا مكالمة .. من أمن الفندق .. يطلبون مني مقابلة رجال الشرطة .. فقلت لهم بأنني لا أريد تقديم شكوى ضده ولا أريد أن تتدخل الشرطة لسجنه أو جلده .. فقط أتركوه يذهب في حال سبيله و لابد أنه أدرك خطأه .. ولكنهم أصروا علي نزولي إلى بهو الفندق ومقابلة الشرطة والتعرف على الشاب .. شعرت حينها

بأنني افتقد وجود أبي وإخواني هنا ، فأنا احتاجهم لينقذوني من هذا الموقف الصعب ، الذي لم أواجه مثله في حياتي .. وكنت أبكي وأنا ممسكة بيد أمي وأقول لها : لا أريد أن أرى الشاب مرة أخرى ، لماذا يجبرونني على ذلك ، ليتني لم أسافر دون عزوتي أبي وإخواني .. آه كم أنا محتاجة لظهري وسندي .. ماذا أفعل في هذه المصيبة .. فأخبرنا الشباب الذين كانوا معي في الرحلة .. فحاولوا تهدئتنا أنا وأمي ووعدوا بمساعدتي وحمايتي تحت أي ظرف ، فقط كل ما عليّ التعرف على الشاب وتسهيل مهمة الشرطة وإنهاء المشكلة التي وترت الكل .. وبعد إلحاحهم ووعدهم بوقوفهم على مقربة مني قابلت الشرطة وأخذت أقوالي وحانت اللحظة المصيرية وهي التعرف على الشاب .. فقادوني إلى سيارة الشرطة المتوقفة بباب الفندق .. وأخرجوا الشاب من السيارة .. للحظة وما أن اقترب من وجهي لينطق بشيء حتى دفعوه بقوة في السيارة ولم أسمع ما كان يود أن يخبرني به .. وإلى الآن أتساءل في نفسي تراه ماذا كان سيقول لي وهو مقترب جداً مني بهذا الشكل .. لا يزال هذا السؤال يدور بخلدي .. وبعد سؤال الشرطة له تبين أن هذا الشاب من سكان مدينة الرياض وكان ذلك اليوم هو أول يوم وصل فيه المدينة المنورة .. وعندما مشى معنا في السوق .. كانت تلك اللحظات هي الساعات الأولى له في المدينة .. واتضح أن اسمه سلطان .. وأنا من بعدها صار عندي فوبيا من شيء اسمه سلطان .. فأفزع خوفاً بمجرد سماعي لاسم سلطان ..أتدرون يابنات أنني ندمت على

شيء واحد فقط وهو عدم أخذي للأكياس التي ارتمت تحت قدمي وتوتة توتة خلصت الحدوتة.. فنظرت في وجوه البنات .. حمدة وهيا وحصة والوجوم كان بادياً عليهن من التأثر بقصة منيرة ولم يسمعن جملتها الأخيرة التي حاولت إضحاكهن بها.. فغافلت الثلاث برمي المخدة في وجوههن فجأة .. لتبدأ من هنا حرب المخدات ولينناثر الريش من حولنا ونحن نتقاذف المخدات كي تصيب كل واحدة الأخرى بالضربة القاضية وكانت الأغاني التي تصدر من جهاز مشغل السي دي تبدو كموسيقى تصويرية لما يحدث.. فتزيد من حماسنا لتشعل الحرب الدائرة بين خمس فراشات .. يتطايرن بأجنحتهن في كل أنحاء الجناح الواسع محدثات جلبة وضوضاء بالضحك والصراخ في الطابق الكلاسيكي الذي يسكنه كبار ضيوف الفندق .. ليهنأوا بالراحة والهدوء .. بينما كنا نحدث فيه ضجة وصخباً ولم نتوقف عن تقاذف المخدات بالريش المتناثر فيما بيننا إلا عندما تكومت هيا فجأة على الأرض لتبكي ، بينما عقدت الدهشة لسان حمدة وحصة ومنيرة .. وتوقفن عن الحركة مصعوقات ، بينما أنا عرفت لماذا بكت هيا فجأة .. كان بكاؤها بسبب راشد الماجد .. الذي بدأ يغني ..

الحب خالد وحبـــي خالد وباقي

للي أحبه وأحب دار سكن فيها

شلته فعيني وشلت الحب باعماقي

والروح بالشوق غنتله أغانيها

راقي بذوقه وقلبه بالوفا راقي
لو وزع الطيب بين الناس يكفيها
ربي متوج وفاه بحسن الاخلاقي
وأغلى الجواهر بأوصافه يحليها

لوحه غرامي وزهر الحب بأوراقي
تظماه عيني وشوفه بس يسقيها
أحمل خفوقي وأسافر له بأشواقي
وأغلف اجمل مشاعر الحب وأهديه

الله يكمل بشوفه فرحه أحداقي
وتقر عيني بوصل إللي مهنيها
يا حبي خالد في قلبي راسخ وباقي
وأحلى وأغلى من الدنيا وما فيها

فهدأتها وأنا أقول الحمدلله لا توجد أغانٍ أخرى باسم عبدالعزيز أو سلطان مثلاً ففهمت الأخريات سبب بكاء هيا المفاجئ .. فقلت لمنيرة .. الله يخليك يا منيرة ..أديري هذه الأغنية التي بدوري أهديها إلى المجروحتين من الذئاب البشرية

.. هيا وحصة .. وأتمنى أن يكون على لسانهما هذا الدعاء على الدوام .. منك لله .. فأدارت منيرة الأغنية .. لنستمع إلى شيرين وهي تقولها للذي غدر بقلبها وأوجعها .. منك لله ..

ماتحسبنيش على ذنب عملته أنت يا حبيبى ومتلومنيش

طول عمرى بخاف أنى أجرح يوم إحساسك

ماتسبنى أعيش أنا رافضة أرجعلك بعد خيانتك ليا مافيش

عمري ماشكيت لو حتى ثانية فى اخلاصك

ياما قولت عليك أن أنت أناني مابتفكرش غير في روحك

بتقولى عايش لك وأنت عايش بس لروحك

أنت شوفت عينيك وكمان بتكدب عيني وجاي تقول حكايات

كل ما أقربلك تبعد عني مسافات

منك لله

منك لله قلبي بيتألم من اللي أنا حساه

ماشيه ومش شايفه أنا قدامى ولا حواليا

بقى سهل عليك أنك تجرحني وتظلمني أنا هونت عليك

كان نفسي تجرب إحساسي صعب عليا

عندما انتهت الأغنية .. أغلقت منيرة الجهاز .. وجلست على

ركبتيها على السرير لتقول بصوت هامس بنات .. دعوني أخبركم عن آخر مغامراتي وحصيلة آخر مغامرة قمت بها في عالم الذكور الذي يسكنه الغموض .. قلت لها عطري مسامعنا يا منيرة باكتشافاتك أسرار الرجال الخفية .. والتي يتشطرون فيها علينا بذكائهم وفطنتهم نحن معشر النساء .. هاتي ما عندك من خزي لهم يا خليفتي وولية العهد من بعدي ..

فتقول منيرة : أحببت أن اكتشف عالم الفيس بوك .. فكل الناس تتكلم عنه .. فهل يعقل أن أكون جاهلة به وأنا منيرة الرهيبة.. هَزُلت ..فدخلت عالم الفيس بوك وفتحت لي «أكونت» يعني موقع أو خانة .. مثل كل الناس والعالم وأضفت أحدهم من الشباب.. عندي في الصفحة .. وطبعاً بدأت معه التحقيق .. ولعلمكم المسبق الرجل عاقل ومثقف وواعٍ وفي الثلاثينيات من عمره .. سألته .. أول سؤال مباشرة وبدون مقدمات أو إطالة .. مع كم بنت رقدت حديثاً.. فشهقنا أربعتنا خجلاً.. ونقول لها حسبي الله على ابليسك يا منيرة .. فتقول : أسمعوا الباقي .. لتشهقوا بعمق أكثر .. ثم أكملت منيرة قائلة : لقد رد علي الشاب المحترم بقوله ست وبرضاهن وكن كلهن صديقاته .. ثم قال: دون أي مقابل مادي قائلاً : أنا لا أحب أن أعرض على البنت فلوساً أو أي شيء آخر، فأنا لا أستمتع بهذا الشكل ولا أخرج مع واحدة قذرة كعاهرة أو ما شابه.. أنا أختار المحترمة التي هي بنت ناس فأصادقها وأعرفها جيداً .. ثم أجرها إلى المنحنى الذي أنا أريده .. فأنا لا يعجبني أي شيء .. أنا أنتقي

البنات نقاوة .. وحسب مميزات وثم أصادقها بمعرفتي وطرقي الخاصة .. سألته .. هل يعني ذلك بأنه لا يوجد هناك رجل مستقيم في الدنيا.. رد عليّ و كأنه استهجن سؤالي ومستغرب من سؤال كهذا .. قائلاً : عفواً .. إذا أنا عندي طاقة جنسية وأخرجتها .. لا يعني ذلك بأنني لست مستقيماً.. فأنا لا أشرب المسكرات من الخمور وخلافها ولا أذهب للمراقص للهو.. أنا فقط إنسان أفكر في الجنس كثيراً.. وهذا لا دخل له في الاستقامة..

ثم صمتت شهرزاد أقصد منيرة عن الكلام المباح قائلةً : وهنا أترك لكم باب التعليق مفتوحاً .. جلسنا لحظة صمت على روح هذا المريض عقلياً.. ونحن نقول لا حول ولا قوة إلا بالله .. بدأت حمدة استخفافها بعقلية الشاب قائلة : الآن هذا الرجل يمارس أكبر الكبائر ويقول بكل شجاعة بأنه لا يفعل شيئاً يغضب الله .. فالله عزوجل .. هول من جريمة الزنا وحدها دون غيرها فقد ورد في القرآن الكريم بالشرح والتفصيل عقوبة من يتجرأ ويرتكب فاحشة الزنا التي هي من كبائر الذنوب .. وهذا الفاسق أباحها وبتبريرات خاصة به .. متحدياً حكم الله بجهله فقد ذكر في سورة النور .. قال تعالى: **﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

ثم قالت هيا صدق الله العظيم ويستهين بحكم الله هذا الفاسق دونما خجل أو حياء مبرراً الطاقة الحيوانية التي فيه بتفريغها بارتكابه الحرام .. لاغياً دور العقل وأهميته .. فقد سكرته هذه الشهوة أكثر من الذي يعاقر الخمور .. فلا فرق بين الاثنين .. ألا يعرف شيئاً في حياته اسمه العفة والشرف واحترام أعراض الناس .. يا إلهي لم أتوقع وجود أناس بهذه الخسة والقذارة .. وكأنهم حيوانات ضالة هدفها إشباع غرائزها والانتقال من فريسة لأخرى.. هل بالفعل يعيش بيننا أناس بهذا المستوى من الانحطاط والدونية .. أكاد لا أستوعب ما قلته لنا عن هذا الشاب يا منيرة ..

ردت عليها حصة : نعم فبيننا الكثير من الوحوش والذين يتسترون بلبس قناع الإنسانية والاحترام .. ويتظاهرون بالعلم والثقافة وأحياناً بالدين .. فالمهم عندهم .. الغاية تبرر الوسيلة .. كالوحش الذي نفدت بجلدي منه قبل أن ارتبط به و أكون زوجته.. فقلت لها كي لا تتذكر هي الأخرى عذابها وتخر باكية ومحاولة تغيير الأجواء بقولي فعلاً يا حصة .. أنتِ الجميلة الناعمة تتزوجين بذلك الوحش .. ستكونين مثل بطلة القصة المشهورة .. الجميلة والوحش .. فردت عليّ بتحدٍ على الأقل أحسن من أن أكون جودي آبوت وغموض سر صاحب الظل الطويل .. فقهقهت حمدة بأعلى صوتها لتضحك ساخرة فقلت لها: يا سبحان الله من الذي يضحك فينا حمدوه «نسينا ما كلينا» يا سندريلا العصر وأميرك الذي يبحث عنك في طابق مليء

بأزواج الأحذية في أحد أكبر المجمعات وأنا أغمز لها بعيني .. لتوكزني منيرة وتسأل لماذا هيا سارحة بفكرها في عالمها الخاص بعيدةً عنا ، قلت لها : هيا هذه هي الأميرة النائمة التي تنتظر أن يأتيها حبيبها ليوقظها من سبات حزنها وتفكرها الدائم فيه.. ووخزت هيا بأحد الدبابيس الموجودة على طاولة التسريحة.. لتصرخ متأوهة من وجع الدبوس .. وأنا أقول لها .. مات خالد .. وقد مات حبك له فقط انسيه يا بنت الناس انسيه هناك غيره الكثير من الشباب .. فهناك خليفة وخليل وخلفان وخميس .. كل الذين تبدأ أسماؤهم بحرف الخاء حتى الخروف إن أردت .. فتضحك البنات وتضحك هيا معهن .. قائلة : آه يا زمن لقد جارت عليّ الدنيا لأحب خروفاً بعد خالد .. قلت لها : وما ضير الخروف في ذلك ، فهو على الأقل أحسن منه ، فهو حيوان أليف متواضع وفي حاله ينفعك ولا يضرك ، فالمسكين يطعمك لحمه ويدفيك برداء صوفه .. هاه ماذا قررت يا عروس موافقة .. فصاحت بصوت عال أضحكتنا كلنا.. مااااااااا مقلدة ثغاء الخروف ..

ثم ببراءة طفولية مصطنعة سألتني منيرة .. وأنا هل لي نصيب في الأفلام الكرتونية التي شاهدتها بمخيلتكن ؟؟ قلت لها .. أوه.. أنتِ العزيزة الغالية .. أنتِ أليس ..التي تأتيني بقصص مغامراتك العجيبة واكتشافات الأخيرة فيما يحدث في عوالم الرجال .. فكيف أنسى أليس في بلاد العجائب .. فترمش بعينيها

رمشات دلوعة .. وبصوت مغناج تقول لقد أخجلتم تواضعنا .. ومن بعدها ضج المكان بأصوات ضحك خمس إناث من أجمل نساء الأرض.. كما كان يغني صابر الرباعي مدحاً فينا نحن الخمس فقط..

أجمل نساء الدنيا جوه عيوني إنتي..
أجمل نساء الدنيا إنتي يا حبيبتي ..

خدني الغرام خدني لحكاية حب حلوه ..
عشت ليها شفت فيها أجمل حياه ..
أنا مش مصدق نفسي إنك بين إديا
من يوم ما حبك خدني مش بتنام عنيا
جوايا شوق قد الحنان إللي فعنيكي
روحي فيكي نظري ليكي هي الحياه ..

أجمل نساء الدنيا في عنيا أنا
قدرت تاخدني في ثانيه من روحي أنا ..
وعد مني ما أحب غيرك فالوجود
إحساس جميل جوايا أكبر من الغرام
وإللي مابيني وبينك أكبر من الكلام
إحساس جديد خدنا لبعيد مالوش حدود

يا أجمل من كل النساااء

......

فكنا نتمايل مع أنغام الموسيقى بانسجام تام .. بعدما أذابتنا تلك الكلمات .. كخمس مثلجات الآيس كريم بنكهات مختلفة وألوان متنوعة وكلنا في منتهى اللذة ..

ولكن من الذي يقدر تلك الهدايا النازلة من السماء ويقتنيها ؟؟

في نهاية الحفلة الوداعية التي أقمتها في تلك الليلة .. استخلصت الأربع بنات بعد سماع كل واحدة فيهن تجربة الأخرى .. إلى الحقيقة المُرة وهي فناء الرجل المحترم عن دنيانا .. فالموجودون من حولنا ما هم إلا كائنات مبحلقة .. تبحلق .. وتبحلق .. وتبحلق .. وذلك بتوصية من الدكتورة فوزية الدريع الخبيرة بعوالم الحب وسيرتها وهي تصف بتلك الكلمات إحدى الحالات المنفردة لبعض الرجال لواحدة من المتابعات الدائمات لبرنامجها المشهور..

فعارضت البنات رأيي الذي كان مختلفاً عنهن فقد طلبت منهن ألا ينظرن إلى الدنيا بتشاؤم وسوداوية .. فهناك من الرجال من فيهم الخير والبركة .. ويفرح الواحد لوجود تلك النماذج بيننا في الحياة .. فردت عليّ منيرة التي خاضت المغامرات في عالمهم رغم سنها الصغيرة متحدية أن أجيبها عن سؤالها لتقول : هل قابلت في هذه السنوات الأخيرة من حياتك رجلاً واحداً

محترماً .. قلت لها وكنت أفكر من يا ترى .. من يا ترى.. نعم .. يوسف .. يوسف شاب متزوج حديثا ويتمتع بخصال وصفات حميدة ويعمل معي في نفس القسم وفي المكتب ويفصلنا جدار وهو من الشباب الخيرين الذين رأيتهم في حياتي .. وهو محافظ على الصلاة في أوقاتها ويعاملني ويعامل كل الزملاء في القسم باحترام ولم أر منه ما ينفرني من التعامل معه .. بل بالعكس .. عندما أردت السفر إلى فرنسا .. أعد لي ملفاً خاصاً بمواعيد الصلاة وعلمني كيفية تحديد اتجاه القبلة .. كي لا أترك الصلاة وأتقاعس عن تأديتها .. فهو من النماذج الجميلة التي قابلتها حتى الآن في حياتي .. فأردفت منيرة بردها المفحم لي قائلة : يوسف هذا الذي تتحدثين عنه بفخر .. يا عزيزتي ..هو آخر الرجال المحترمين وقد يكون في الدنيا بكاملها.. فقلت لها وأنا أحاول السيطرة على نفسي بعدم الضحك في وجهها بينما كانت ترمقني باستغراب .. قلت لها يوجد واحد آخر غير يوسف يا منيرة .. قالت من هو وهل نعرفه نحن .. قلت لها: أوه مشهور جداً هذا الرجل .. فكن يحاولن كشفه قبل أن أنطق باسمه فقلت لهن : إنه الممثل نور الشريف في فيلمه الذي كان بعنوان (آخر الرجال المحترمين) .. فضحكت كل البنات حتى منيرة نفسها لم تتوقع الرد فهو حقيقة ولم آتي بشيء جديد فقالت هيا والله كنت أفكر بأنك جادة في حديثك .. ولم أتوقع أبداً إنك تمزحين .. خطيرة لا يستطيع أحد أن يغلبك ..

ثم رفعت صوتي لأسمع منيرة وأنا أنظر إلى البنات هيا وحمدة وحصة .. قائلةً : بنات موعد لقائنا القادم سيكون في الدوحة وهذه المرة على الغداء وفي .. وغمزت بعيني لهن في مطعم سلطان إبراهيم .. لتشهق منيرة وتقول : لا الله يخليكم اختاروا أي مطعم آخر إلا هذا .. فقالت حصة وهي تقلد منيرة في طريقة كلامها : أوه نو نسينا أن عندك حساسية من سمك السلطان إبراهيم .. فتدخلت حمدة بقولها : لا داعي للغداء لنلتقي ونشرب القهوة في مقهى سلطانه .. ثم شبكت هيا كفيها ببعض وهي تنظر للسقف لتدعو الله.. قائلة .. آه .. لو أتزوج سلطان بروناي الثري.. لتصرخ منيرة بصوت عال قائلة : حرام عليكم ارحموني من هذا الاسم .. ثم نظرت إلينا بعيون متحدية كما التي في بورتريه الرسام القطري المعروف «يوسف الشريف» في لوحته الرائعة «التحدي» والتي رسمها ليتحدى المرض اللعين الذي قضى على جسده وأخذه عن دنيانا في ريعان شبابه ..

لتخبرنا منيرة الرهيبة بأنها تنوي في المستقبل في حال زواجها وإنجابها ولداً أن تسميه سلطان نكاية فينا وتكفيراً للذنب الذي لم ترتكبه ..

وبعد أن نفضنا معاً الغبارعن ذاكرتنا وأستعدنا أجمل الذكريات التي عشناها معاً بلعبنا وغنائنا في تلك الليلة .. وقد حان موعد الرحيل وانتهاء أحلى سمرة قضيتها مع أكثر الشمعات نوراً في قلبي وهن حمدة وهيا وحصة ومنيرة الرهيبة .. فودعتهن وأنا

أحضن كل واحدة بقوة وأدعو لها همساً بقلبي أن يهنأ الله بالها ويحقق آمالها التي تصبو إليها ..

بينما كنت جالسة في سيارة الليموزين التي ستأخذني إلى مطار هيثرو كنت حينها أنظر من خلال النافذة إلى وجه لندن كما جسدها .. الدكتور غازي القصيبي .. في قصيدته .. قراءة في وجه لندن .. فتذكرت بكلماته الوصف الدقيق للأربعة الأيام التي قضيتها في ربوع العاصمة البريطانية لندن .. فوصفها قائلاً :

وجهُ لندن

واجمُ .. تكسوه حباتُ المطر

وجهُها .. وجهُ حبيبٍ

راعه يومُ الفراق

فتغضن

وجه لندن

ظل طول الليل .. يشكو

غُربة العُشاق في هذا الزمن

زمن السوق الذي أصبح فيه

كلُ شيء .. بثمن

البُكا .. والضحكُ .. والأبناءُ..

والفكرُ الُموشى .. والبَدَن

افتحَي الشباك !

ما أجمل إيقاع المطر
صوتُ طفلٍ يتكون
صوتُ مخلوقٍ من الحزن ..
خريفي .. خُرافي .. رقيقٍ .. ووديع
هاربٍ من نَزَق الصيف ..
ومن طيش الربيع
آه ! ما أروع هذا الحُزنَ ..
هذا الشَجَن الطفلَ .. الذي بعثر قلبي في المطر
وسقى منه ملايين البشر

في رحلة عودتي للدوحة تعمدت قضاء يوم في دبي .. وقبل توجهي للمطار كنت قد اشتريت ما أشتهيته من كتب من إحدى مكتباتها التي أداوم على زيارتها من حين لآخر..

وما أن علمت صديقتي الجازي بوصولي للدوحة حتى جاءت مستقبلةً إياي بباقة ورد كبيرة لتزورني في البيت .. وهي تغني لي طرباً بهذه الكلمات والتي كانت أغنية لمقدمة المسلسل الخليجي أوراق الحب..

صدفة والقاء صدفة..عيني تلتقي بعينك
قلبي يسالك وينك..صدفة وياحلوها
عيني تلتقي بعينك..قلبي يسالك وينك
آه ياخوفي وحنينك.. وآه ماجمل سنينك

فسألتها عن سبب غنائها وابتسامتها العريضة .. فسألتني بقولها : هاه بشريني بالخبر .. وجدت شيئاً في باريس أو لندن .. وأنا متأكدة بأنك وجدته في لندن .. فقلت لها مستغربة ولكنني لم أضيع شيئاً كي أجده .. قالت لي يا الذكية أقصد عريساً .. خطيباً .. حبيباً .. مثل مهرة عندما وجدت حمد في حديقة الهايد بارك كما في مسلسل أوراق الحب .. هاه أخبريني من وجدت هناك .. قلت لها : وجدت مها وهيا وحصة ومنيرة الرهيبة .. قالت وهي تفرك يدها حسرة وندماً .. طاح حظك أقول .. متعرفة لي على بنات .. إيش أسوي بالبنات .. المفروض السفرة الجاية أنا أكون معاك .. وسنظفر بأفضل الرجال المحترمين .. يالمبروكة .. فضحكت حينها ، فقد ذكرتني الجازي بجملتها الأخيرة بالجدل الدائر في تلك الليلة بين البنات حول وجود أم انقراض آخر الرجال المحترمين .. والتي ستظفر به الجازي عن قريب ..



حكاية الزهرة الثالثة عشرة

قضيت يوماً واحداً في الدوحة وبعده استكملت رحلتي إلى تايلاند ولكن هذه المرة اصطحبت معي أثمن ما عندي في الدنيا.. والدي ووالدتي .. اللذين اختارا زيارتها لكثرة سماعهما عن المستشفيات والعلاج فيها .. فقمت بمراسلاتي واتصالاتي مع السفارة القطرية في بانكوك عاصمة تايلاند وبالأخص الملحق الطبي هناك وذلك في الفترة التي سبقت سفري إلى باريس ولندن.. وعندما رجعت من هناك اتصلت بهم مرة أخرى تذكيراً لهم بموعد استقبالنا في المطار ، فوعدني الموظف المسؤول بالملحق الطبي بإرسال موفد منها كي يساعدنا في إتمام إجراءات المطار ونقلنا إلى الفندق لكوني أرافق مريضين كبيرين في السن..

وعند وصولنا مطار بانكوك لم نجد أحداً في انتظارنا وعندما اتصلت بالموظف الذي اتفقت معه مسبقاً والذي يعمل بالملحق الطبي التابع للسفارة القطرية .. نقض وعده وتخلى عني في أرض المطار دون عذر مقنع .. فاتصلت بالسفارة أرجو مساعدتها لأنني كنت في ورطة .. فقد صعب عليّ الحصول على تاكسي

تسعنا وتسع ما معنا من حقائب وأغراض .. وحاولت السفارة تدبير الأمر بعد ساعة من وقوفنا عند بوابة الخروج في المطار إلى أن وصلنا إلى الفندق سالمين غانمين ..بعد تعرضي لهذا الموقف المحرج مع والديّ والذي وضعني فيه الموظف الكسلان في الملحق الطبي الخاص بشؤون المرضى القطريين في بانكوك ..

في اليوم التالي من وصولنا لبانكوك ذهبنا ثلاثتنا إلى المستشفى القريب من الفندق لإجراء فحوصات شاملة وفي نفس اليوم انتهينا من مقابلة الطبيب وحصلنا على نتائج الفحص وأخذنا العلاجات اللازمة ..

في اليوم التالي فكرت بأخذهما في رحلة سياحية إلى جزيرة (بوكيت) الذائعة الصيت .. وذلك من أجل الترويح عنهما ولنسيان ماحدث معنا في أول يوم لنا في تايلاند .. فقمت بحجز الفندق وشراء تذاكر الطائرة مخططةً قضاء أربعة أيام في جزيرة (بوكيت) ثم الرجوع إلى العاصمة بانكوك لنكمل اكتشافاتنا فيها..

كانت رحلة الطائرة المتجهة إلى (بوكيت) قصيرة ومريحة ولم نشعر بها ، فالحمدلله على ذلك .. وصلنا الفندق الذي كنت قد حجزت فيه والذي يقع في منطقة حيوية جداً في جزيرة (بوكيت) تسمى (باتونج بيش) .. كان الفندق واقعاً على البحر وتفصلنا عنه مسافة بسيطة ولهذا السبب اخترت الحجز في هذا الفندق بالذات.. فما أن رأيت الشاطئ من بعيد ركضت كالمجنونة نحوه

حافية القدمين وكأنني أريد أن أحتضن حبيباً لي ورميت نفسي فيه وعندها تبللت بالكامل وتبللت ثيابي التي لم أكن قد نزعتها منذ وصولنا من المطار ولم اكترث بذلك وخاصةً أن الوقت كان ليلاً والدنيا ظلام.. ففرحتي برؤية البحر أعمت بصيرتي عن التفكير في الوقت والناس وما الذي كنت أفعله.. ولم يستغرب والدي ما كنت أفعل .. فوالدي بالذات كان على علم بشغفي وجنوني بالبحر .. لأنني في إحدى المرات عندما كنت طفلة أسررت له بأمنيتي بالموت غرقاً في البحر .. ففوجئ والدي بالذي يدور في رأس طفلة في عمر الورد ، فنهرني بشدة واستنكر الفكرة التي في ذهني .. ثم سألني عن السبب الذي يجعلني أفكر بالحلم بهذا الشيء فقلت له بأنني أحب البحر كثيراً إلى حد تمني الموت فيه لأتحول إلى عروس بحر، فأغوص في أعماق القيعان مع صديقاتي الأسماك بأشكال وأحجام كثيرة وملونة بألوان الطيف ، فأكون حرة بلا قيود الأكسجين وسيجدني في الأعماق السحيقة هناك أميري لأعيش بصحبته في عالم البحار في قصر من الشعاب المرجانية المحمرة كحمرة الشفق ، فأسبح معه بانسيابية كعروس بحر اسطورية إلى الآن اختلف الناس على حقيقة وجودها .. كانت تلك أمنية طفلة تحلم ببراءتها بالحياة في عالم البحار ولكنني كبرت وبقي شيء من آثار هذه الأمنية في أعماقي ، فلا يندهش والدي إذا ما ذهبت إلى أي مكان ذي طبيعة بحرية أو إذا ما زرت أكبر الأحواض المائية التي تروي لي عن العالم الذي تمنيت الحياة فيه عندما كنت طفلة .. ودليل شغفي بذلك العالم

هو اقتنائي لأي شيء له صلة بذلك العالم فتجدون بعض القواقع والأصداف المتناثرة هنا وهناك في غرفتي ولابد من وجود حوض سمك صغير في إحدى زوايا البيت ولا استطيع الاستغناء عنه حتى في المكتب ، لأنني أقضي معظم يومي فيه ، فعند احساسي بالضجر وضغوطات العمل الجأ إلى مداعبة أسماكي الذهبية التي تسبح في حوض صغير وقريب من جهازالكمبيوتر، فتقوم بتسليتي برقصها يمنة ويسرة عندما أحاول إطعامها رقائق هشة من أكل خاص بها ..

عند باب الفندق الذي سكنا فيه في منطقة (باتونج بيش)في جزيرة بوكيت كان يوجد مطعم عربي معروف جداً وأغلب زبائنه عائلات عربية .. كان يعمل فيه رجل كبير في العمر عربي مصري الجنسية.. حاول مساعدتنا في الحصول على الحجوزات للرحلات البحرية إلى الجزر كونه صاحب خبرة لعمله لمدة طويلة في الجزيرة ، فأصبح عارفاً بكل شاردة وواردة فيها .. كنا نتساءل أنا ووالدتي عن سر وجوده في هذه الجزيرة السياحية رغم أنه لا يتقن حتى لغتها جيداً فالمفروض فيمن يكون في سنه أن يقيم في بلده ووسط عائلته .. ففسرت لوالديّ بفذلكة وفلسفة سبب وجوده بقولي ربما أبو علي عليه ثأر في بلده وهو هارب من جماعة معينة كي لا يقتلوه و يأخذوا بثأرهم من جريمة ارتكبها ، فلا يمكنني تخيل وجود مصري في أقصى بقاع الأرض وفي بلد مثل تايلند لا ووجوده في جزيرة تعتمد على مواسم

السياحة فقط مثل (بوكيت) يثير الكثير من الشكوك حوله وآلاف الاستفهامات لوجوده هنا وأنا وبعد تحليل وتدقيق أرى أن الثأر هو السبب الرئيسي لوجود رجل مسن كأبوعلي هنا في بوكيت ليخفي نفسه عن الانظار وبالتالي لا يصل إليه أحد .. فوجدت والدي يرد عليّ قائلا : ربما لكثرة مشاهدتك للمسلسلات الصعيدية دور في تحليل سبب وجود أبوعلي في بوكيت .. فابتسمت خجلاً فلم أكن أتوقع هذا الاستخفاف بتحليلي لحالة أبو علي والذي أنا على يقين بصحته ..

ولخبرته بتلك الأمور طلبت منه حجز رحلة بحرية لنا على ظهرأحد اليخوت ليأخذنا في جولة حول الجزر المعروفة هناك مع التأكيد عليه بتوفير خدمات مريحة لوالديّ حتى يستمتعا بالرحلة دون مشقة وخاصة أننا سنقضي يومنا كله في عرض البحر اليوم متنقلين بين أكثر من جزيرة ..فوعد باعداد كل ما طلبته منه..

في يوم الرحلة أيقظت والديّ في الصباح الباكر لنستعد قبل أن يحين موعد لقائنا بأبو علي ، فتناولنا الفطور وانتظرنا في بهو الفندق.. وبينما نحن ننتظر رأينا فتاة من سكان المنطقة في هيئة غير مرتبة وكأنها مستيقظة للتو من النوم واتجهت صوب موظف الاستقبال لتأخذ هويتها.. فرأيت والديّ ينظران إليها بدهشة الأطفال .. فوجهت إليّ والدتي سؤالاً لتقول: وما هذا الشيء الذي رأيناه ؟ قلت لها وأنا في قمة الإحراج : فتاة ليل .. قالت هل نحن نسكن مع هذه الأشكال .. ونهرتني قائلة : ارجعي إلى

موظفة الفندق وألغي حجزنا الآن فلا نريد أن نرى تلك الاشكال تسكن معنا .. قلت لها أن هذه الأشكال لا تسكن الفنادق ، فهي قد أنهت مهمتها المقززة مع أحد نزلاء الفندق وستذهب في حال سبيلها .. وإذا أردت إلغاء الحجز إذاً سننام في الشارع .. لأن الفنادق كلها تستقبل هذه الحاويات القذرة من أجل نزلائها .. واقتصاد بلادهم قائم على هذا النوع من التجارة المحرمة في كل الملل والأديان .. تجارة المتعة المحرمة والبغاء .. عندها جاءنا أبو علي .. ليزف إلينا خبر وصول الحافلة التي ستنقلنا إلى الميناء.. ورأى الوجوم على وجوهنا فأخبرناه بما رأيناه قبل وصوله .. فرد قائلاً : بأن هذا أمر طبيعي جداً في تايلاند .. فأغلب الناس يأتونها لممارسة الرذيلة والحرام .. وقال سأقص عليكم قصة أحد الشباب الخليجيين الآتي من دولة خليجية متشددة نوعاً ما في الدين .. كان هذا الشاب يتظاهر بالتزامه وتدينه بتعاليم الاسلام ولكن الله أعلم بخفايا قلبه المريض وحينها كنا في شهر رمضان .. فدخل عندنا المطعم ليتناول الإفطار فيه وعندما انهى قراءته لقائمة الطعام ، سألني ليتأكد إذا ما كان اللحم الذي نطبخه حلالاً ، أي مذبوح على الطريقة الإسلامية أم لا .. فأكدت له مستشهداً له بصاحب المطعم المسلم والذي لا يبيع إلا الطعام الحلال .. ولكثرة سؤاله وإصراره على التأكد من حلية اللحم أم حرمته جعلني أحلف له على المصحف الشريف بأن اللحم الذي نبيعه حلال ومذبوح على الطريقة الإسلامية .. وعند انتصاف الليل رأيت نفس الشاب

الذي سألني نهاراً عما إذا ما كان اللحم المقدم في وجباتنا حلالاً داخلاً فندقه وبذراعه فتاة تايلاندية لتدخل معه في الفندق .. أي تناقض هذا الذي فعله هذا الشاب الملتحي والذي تظاهر أمامي بالورع وتحري الحلال والحرام في مأكله ومشربه بينما يخدع نفسه بممارسته للحرام ليلاً وطلب الاستغفار نهاراً .. فهل يعتقد بأن الله موجود بالنهار ولا يراه في آخر الليل .. ودليل على عدم خشيته من الله فعلته الشائنة في هذا الشهر المعظم الذي ينشغل الناس فيه بالتوبة وطلب الغفران .. هل تعرفون أن الأغلبية الغالبة من الشباب لا يأتون تايلاند لأداء العمرة فيها معاذ الله .. إنما يأتون منساقين وراء اللذة المحرمة والعياذ بالله والقلة القليلة من الشباب من يأتي للسياحة أو للعلاج ..

وعندما حاولت ركوب الحافلة فوجئت بوجود سبعة شباب من دولة خليجية معروفة بتفتحها اليبرالي .. وفوجئوا هم أيضاً بوجودي .. فجلس خمسة منهم بالخلف بشكل متراص وجلس واحد منهم في المقعد الأمامي في مقدمة الحافلة .. وبقي واحد اضطروا أن يجلسوه على الكرسي الذي بجانبي .. فقد استيقظ متأخراً وكان آخر من لحق بالحافلة .. كان هذا الشاب طوال الوقت وهو جالس بجانبي ينظر إليّ بطرفي عينيه كي لا أشعر به.. فقد كان يراقب كل شيء فيّ حتى جفني فعندما كنت أرمش بعينيّ ككل البشر كان يفتح عينيه على آخرها متفاجئاً .. فقد كان غير مصدق أن التي تجلس بجواره فتاة من لحم ودم ، فالمسكين كان

يظن أنه مايزال نائماً ويرى حلماً سعيداً على الرغم من استيقاظه من النوم للتو ، فلم يتوقع حُسن حظه لجلوسه بجوار دمية أو تمثال شمعي على هيئة فتاة .. ففي لحظة وأخرى يلقي بنظراته نحوي وكأنها ماسحات ضوئية ، بينما كنت حينها في قمة الاحتراس منه بصمتي وعقد حاجبيّ .. فلم يكن يتحرك شيء فيّ غير جفنيّ اللذين كانا يرمشان طوال الوقت .. فقد كنت غاضبة جداً من أبو علي .. لعدم تنبيهي واخباري بوجود هؤلاء الشباب معنا في الرحلة .. فقد كانت نظراتهم كلها مسلطة عليّ فقد كنت السبب الذي جعل النوم يغادر أحداقهم وحال دون تكملة غفوتهم في الحافلة .. وشعرت بنظرات الغبطة التي كانوا يوجهونها إلى صديقهم الذي جاء متأخراً ليكون محظوظاً ويجلس بجوار دمية الشمع التي هي أنا لسوء حظي..

عندما وصلنا إلى الميناء .. ركب الجميع اليخت الصغير وبقينا ننتظر أحداً يساعدنا من العاملين .. فوجدنا الشباب السبعة هبوا لمساعدة والديّ وكأننا نعرفهم منذ زمن .. فلم أتوقع هذه الغيرة والشهامة منهم .. فكانوا يحاولون إحاطة والدي بعطفهم ومحبتهم.. وكانوا طوال الرحلة يحاولون تخمين من أي دولة خليجية نحن .. إلى أن اضطررنا في إحدى الجزر إلى أن نجلس معهم على نفس الطاولة لتناول الغداء لكوننا من نفس الفندق ونفس الحافلة .. فجلست بجانب والديّ في الجهة المقابلة لهم.. بينما كانوا ينظرون إلينا وحياء السؤال كان بادياً على

وجوههم .. فنطقت بأننا عائلة قطرية كي يرتاح بالهم .. وأدركت حينها بأنهم فشلوا في تخمين ذلك ولم يخطر في ذهنهم بأنني قطرية وأن معي والديّ .. ثم بدأت أنا بسؤالهم إن كانوا طلبة ، فالموسم ليس بموسم إجازات الصيف .. وقد كان واضحاً أنهم ليسوا كذلك من أشكالهم وأعمارهم .. فأخبرني واحد منهم وكان ضئيل الحجم دائم السرور والابتهاج .. بأنهم موظفون في الجهة الأمنية في بلدهم .. وقال ممازحاً إياي بأنهم مستقرون هنا.. فوكزه أحد الشباب لإفساده الصورة التي قد أكون أخذتها عنهم .. فقال مصححاً أقصد بالاستقرار بأننا نتردد على هذه البلاد باستمرار، فأصبحنا خبراء بكل ما فيها من مناطق .. فابتسم الباقون ابتسامة ساذجة مؤيدين له .. وبالفعل لم أر أي سلوك منحرف منهم طوال الفترة التي قضيناها في جزيرة بوكيت .. وكما تقول والدتي : كل واحد سينام في قبره ويحاسب على فعله ورب العباد أعلم بنيات الشباب هؤلاء وأفعالهم..

في أثناء إبحارنا بين الجزر .. تعرضنا لعاصفة قوية على ظهر اليخت الصغير وكادت العاصفة أن تودي بحياتنا وندخل التاريخ غرقاً مثل ضحايا سفينة تايتنك ، لولا أن نجانا الله ولطف بنا .. فقد كانت الأمواج الغاضبة ترتفع بنا بأقصى ما عندها من قوة نحو السماء لتهبط بنا بشكل أقوى فقد كنا على وشك أن نتناثر من اليخت في عرض البحر بفعل قوتها وعندما دخلنا مجبرين في أعماق دوامة بحرية زخت السماء علينا مطراً شديداً وهواءً عاصفاً

جلد وجوهنا من شدته .. وازرق معصمي جراء قبض والدي عليها بكل ما أوتي من قوة .. فقد كان خائفاً أن أنفلت من مكاني فجأة وانتهي في البحر لتلقفني الأمواج الهائجة وخصوصاً لجلوسي في مؤخرة اليخت ، فاليخت كان يفتقر لوجود أدوات السلامة والنجاة من أطواق أو معاطف الإنقاذ الفسفورية.. وكنت مندهشة لهذا الاستهتار بالأرواح دون مراعاة أهم ضوابط السلامة في عرض البحر .. وفي أجواء الخوف و الفزع التي مررنا بها في وسط العاصفة تذكرت مصيبة النبي يونس عليه السلام عندما التقمه الحوت وظل في بطنه سنين يدعو الله أن يغفر له ويخرجه منه.. فهل تخيَّلتم يوماً ما أن تُلقوا في ظلمات البحر فيلتهمكم حوت عملاق يزن أكثر من مائة طن .. ماذا ستفعلون حينها ، ومن ستنادون، وبمن تستنجدون وهل تتصورون أن من تنادونه قادرعلى الإجابة .. هذه التساؤلات كانت تخطر ببالي عندما كنتُ أتأمل قصة النبي يونس عليه السلام، مقارنة بالتجربة التي مررنا بها على ظهر اليخت .. فقال الله تعالى في سورة الصافات:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾

بعد رجوعنا من تلك الرحلة البحرية شبه ميتين من شدة

الإرهاق والفزع .. كان لوالدتي رأي آخر ، فقد أعجبتها المغامرة البحرية تلك وطلبت تكرارها لأماكن أخرى .. بالفعل والدتي امرأة غريبة الأطوار ، فبينما أجمعنا أنا ووالدي على عدم خوض مثل تلك المغامرات مرة أخرى خوفاً عليها وجدتها لها رأي مغاير تماماً عنا .. فضلت قضاء بقية الأيام في جزيرة (بوكيت) زيارة كل الحدائق الموجودة فيها ، فزرنا حديقة الفيلة والتماسيح والثعابين والدلافين وأسود البحر وحتى حديقة خاصة بأرق الكائنات على وجه الأرض وهي الفراشات .. كنت أرى في عيون والديّ لمعة فرح طفولية .. فقد كانا يتابعان العروض التي تقدمها تلك الحيوانات بانتباه شديد ويندمجن بالتصفيق تشجيعاً لها لإتقانها العرض .. كنت أنظر إليهما وأتساءل ، تراني عندما أكبر بالعمر وأشيخ سأكون بهذه البراءة والصفاء لأرجع لعالم الطفولة كي تسعدني تلك الحركات التي كنت أشعر بسذاجتها الآن وأنا في ريعان الشباب .. ولساني دائماً يلهج بالدعاء لهما بأن يحفظهما الله لي وليساعدني على البر بهما وعندما أراهما في غاية الفرح والسرور.. أقرأ هذه الآية مذكرة نفسي ..

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

فليس باستطاعتي نسيان من علمني أن أخط بالقلم كي اكتب

اسمي أو مشط شعري أو نمت بين ذراعيه أياماً ..

«عدنا والعَود أحمد» إلى العاصمة التايلندية بانكوك ولكن هذه المرة لنزور أشهر المعالم السياحية التي فيها ، فاستأجرت مرشداً سياحياً حتى يقوم بمهمته ، فقمنا بزيارة السوق العائم والذي كان أقدم سوق لبيع المنتجات فيها وزرنا مزرعة خاصة بأشجار جوزالهند ورأينا كيف يتم إستخراج السكر من ثمارالجوز فيها وتجولنا في حديقة السفاري المعروفة بالحيوانات السائبة وتوغلنا في منطقة الأدغال التي تبعد عن العاصمة بساعة ، فرأينا الحيوانات في محميتها الطبيعية بين الجبال الشاهقة إلى أن وصلنا عند سفح الجبل العظيم ، فقال لنا المرشد السياحي عندها : مرحباً بكم في سويسرا الشرق .. فعلاً كانت الجبال خضراء تشق السماء وتعانقها بضخامتها وروعة منظرها .. استكملنا الرحلة بين زيارة القصر الملكي والمعابد القديمة على ظهر الفيل الذي تطلب امتطاؤه مني شجاعة ورباطة جأش كي استطيع ركوب ظهرأضخم الحيوانات حجماً ليتوغل بي بين أشجار الغابة حتى يريني تمثال بوذا ممدداً على الأرض متكئاً على مرفقه واضعاً خده على كفه والناس من حوله متجمعون وهم يضعون أكاليل الزهور والورود إلى جانب تمثاله الجبسي المنحوت بحرفية ثم يشعلون أعواد البخورالدقيقة منخرطين في سكينة تامة للصلاة له .. فلم أر إلغاء الإنسان لعقله وقلبه إلا هناك حيث الجهل المفرط كان مسيطراً على الناس ..

في ليلة السفر وبعد أن انتهيت من جمع الأغراض وحزم الحقائب.. أرادت والدتي إفشاء سر من أسرارها .. فيمكن أن نستطيع تفهم الموقف الذي مرت به .. فقالت : أتدرون في آخر مرة زرت فيها عيادة الأسنان التي تقابل الفندق الذي نسكن فيه .. أحببت عند انتهائي من العلاج .. شكر الدكتورة والسكرتيرات اللواتي يعملن في العيادة بطريقتي الخاصة .. وبما أنني أحمل دائماً في حقيبة يدي أظرفاً صغيرة دعائية لقطرات من عطور باريسية غالية فأردت أن أعبرعن امتناني لهن بالشكرالجزيل .. بإعطاء كل واحدة منهن ظرفاً أو اثنين على حسب ما كان معي من كمية .. ورأيتهن ينظرن إلي متعجبات والدهشة تفترس وجوههن وكأنني اهنتهن بفعلتي هذه.. فلم أنشغل بذلك وخرجت من العيادة وأنا سعيدة بتكريمي لهن .. ثم أخرجت واحدة من تلك الأظرف العطرية لأضع شيئاً منها على عباءتي .. وبعد مقاومة استطعت فتح طرف الظرف الذي كان بيدي.. لاكتشف بأن ما اعطيتهن لم يكن عطوراً.. بل أظرف صلصة الكاتشاب الخاصة بأحد مطاعم الوجبات السريعة التي كانت تشبه الأظرف العطرية الموجودة في حقيبتي ..

فسقطت على أرضية الغرفة وأنا أمسك بطني لأضحك وأضحك وأضحك وانهمرت الدموع من عيني من شدة الضحك ووالدي المسكين شاركني أيضاً نوبة الضحك تلك على صنيع والدتي البطولي والفكاهي في آخر يوم لنا في بانكوك ..

بينما كنت أغالب النعاس في الطائرة العائدة بنا إلى الدوحة .. وجدت جمعاً من المضيفات والمضيفين ملتمين حولي فجأة ، لتأتي إحداهن حاملة بين يديها قالب حلوى مزيناً بكتابة اسمي عليه.. مغنين لي أغنية عيد الميلاد Happy Birthday to you بصوت أطار النعاس الذي كنت أغالبه وأيقظت مجموعة من المسافرين وأصرت مضيفة من المضيفات على أن تطعمني بنفسها من القالب والتقطوا لي الصور وأنا أقطع قالب الحلوى المعد لي خصيصاً كانت ذلك أجمل عيد ميلاد احتفلت به ، فالمفاجأة أفرجت عن أساريري فرحاً وسروراً ، فلم أتوقعها أبداً فانشغالي بالسفر والعودة انساني تصادف يوم الرجوع بيوم ميلادي ، وبعد أجواء الاحتفال سألت إحدى المضيفات عن كيفية معرفتهن بتاريخ ميلادي .. قالت إن موظفة الحجز لاحظت توافق تاريخ ميلادك مع يوم السفرعلى متن رحلتنا ، فأحببنا أن نفاجئك بالاحتفال به في الجو من دون إعلامك بما أعددناه ، لك فهل جربت ذلك مسبقاً .. قلت لها هذه أجمل هدية تلقيتها من شركتكم ، فلم أتوقع أنني سأحتفل به لضيق الوقت في المطار وقضاء سبع ساعات في الطائرة فلا يوجد متسع من الوقت لتذكره أصلاً.. ونظرت حينها إلى السحب القطنية البيضاء التي تطل عليّ من النافذة مبتسمة ، فقلت في نفسي سبحانك يا رب فمن بعد قمة سعادتي بقفزاتي العالية في حصة التربية الرياضية وحلمي بالطيران عالياً نحو القمر .. استعصى عليّ التخيل بأنني سأحتفل يوماً ما بمناسبة عزيزة على قلبي كهذه وأُولد من جديد كالشمس

بين السحب ..

بعد عودتي واستقراري في الدوحة أخيراً اتصلت بي صديقتي هيا لتطمئن عليّ وعلى وصولي ، وعندما سألتها عن أحوالها وإذا ما نسيت خالداً هذا الذي دوختني به واتبعت نصائحي ، فوجدتها تقول بأن خالد الذي تحاول أن تنساه بأية طريقة شوهد في أحد المطاعم الغربية مع فتاة أجنبية .. ثم قالت بتوجع : هل تصدقين أنه عَز واختار الأجنبية عليّ أنا الحمقاء الغبية التي احترق كل يوم منتظرةً إياه بأن يتحجج بأية حجة ليأتي لرؤيتي .. فقلت لها بأسى هيا اشكري الله .. لكشفك أمره الآن ولا تستبعدي أن يكون خالد على شاكلة الشاب الذي قصت علينا منيرة حكايته وكيف كان يخطط بالتغرير بالبنات الشريفات المحترمات من أجل غرضه الدنيء .. فخالد حبيبك ليس بملاك كما حسبته وقد يكون نسخة عن ذلك الشاب السافل الذي أخبرتنا عنه منيرة .. فالحمدلله إنه ترك العمل معك في البنك قبل أن تتجرعي السم الذي كان ينوي دسه في عسل العشق والهيام الذي غرقتِ فيه للآخر قبل أن يطول منك شعرة .. وكانت حينها الساعة تشير إلى الخامسة عصراً ، فسألتها هيا أين أنتِ الآن ، أود أن أراكِ فقالت : في البنك .. فسألتها وأنا أعرف الإجابة قلت لها : وماذا تفعلين في البنك إلى هذا الوقت ؟ بقيت صامتة ولم ترد .. قلت لها : أعرف يا هيا السبب فلا داعي لأن تبرري مغزى وجودك في البنك في هذا الوقت بالذات فهذا هو موعده أليس كذلك ، فقد

يمر خالد على البنك ويمن عليك بزيارة كي ترتوي بعدها روحك العطشى له .. هيا أنتِ ابتليتِ بداء الانتظار.. فأنتِ ما زلتِ تنتظرينه .. على الرغم من كل ما سمعته مني ومن الناس عنه .. فقد تخلد في قلبك وذاكرتك للأبد وصرتِ تسامحينه بقلب أم عقها ولدها، فتغفر له جرمه العظيم الذي ارتكبه في حقها.. وتنتظرعودته بشوق ولهفة لتحتضنه بين ضلوعها وتزرعهُ وردةً على قبرها ..

فشعرت بأن واقع هيا اليومي هو نفسه الذي شَدت به نجاة الصغيرة بشعر نزار قباني .. لتقول مكابرةً أيظن ..

أَيَـظُـنُّ أنِّـي لُـعبَـةٌ بـيَـدَيْـهِ ؟
أنـا لا أفَـكِّـرُ بـالـرّجـوعِ إلـيـهِ

اليومَ عادَ .. كأنَّ شيئاً لم يكُنْ
وبـراءةُ الأطـفـالِ فـي عَـيْـنـيْـهِ..

لـيـقـولَ لـي : إنِّـي رفـيـقـةُ دربِـهِ
وبـأنّـني الـحـبُّ الـوحـيـدُ لَـدَيْـهِ..

حَمَلَ الزّهورَ إليّ .. كيفَ أرُدُّهُ
وصِبَايَ مرسومٌ على شَـفَـتَيْهِ ؟

أسرار فتاة قطرية

ما عدْتُ أذكُرُ، والحرائقُ في دَمي
كيفَ التجَأْتُ أنا إلى زَنْدَيْهِ

خبَّأتُ رأسي عندَهُ ... وكأنّني
طفلٌ أعادوهُ إلى أبَوَيْهِ..

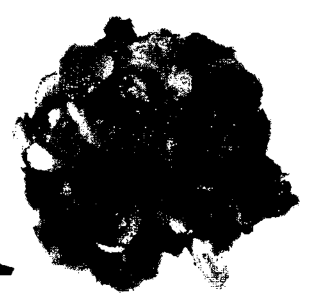
حتّى فساتيني التي أهملتُها
فَرِحَتْ بهِ .. رَقَصَتْ على قَدَمَيْهِ

سامَحتُهُ.. وسألتُ عن أخبارِهِ
وبكيتُ ساعاتٍ على كَتِفَيْهِ

وبدونِ أن أدري تركتُ له يدي
لتنامَ كالعصفورِ بينَ يَدَيهِ..

ونَسيتُ حقدي كُلَّهُ في لَحظَةٍ
مَن قالَ إنّي قد حَقَدْتُ عليهِ؟

كَم قُلتُ إنّي غيرُ عائدَةٍ لهُ
ورَجعتُ.. ما أحلى الرّجوعَ إليهِ



حكاية الزهرة الرابعة عشرة

إن كان لابد لنا من أن نذرف قطرة من دموعنا على شقي في هذه الأرض ، فلنذرفها على فتاة بائسة مسكينة كتب لها شقاؤها أن يَعلَق قلبها بعظيم من عظماء الحياة المدللين بأنفسهم ومكانتهم ، فلا تستطيع الصعود إليه في سمائه ، وليس من شأن مثله أن يهبط إليها على أرضها .. هذه المقدمة اقتبستها من كتاب همسات لصديقتي الكاتبة القطرية الدكتورة آمال الملا .. التي قدمت الوصف الدقيق لبطلة حكايتي هذه والتي أحببت أن أرويها لكم ، فهي حكاية صديقة عزيزة على قلبي وطلبت مني أعيش معها قصتها دون تسمية شخوصها .. كي لا يتجرع اسم آخر وجعها .. فإليكم هذه اللوحة التي رسمتها لكم بعينيّ والتي أسمتها لي (بحنين الروح) ..

... حنين الروح ...

في قاعة انتظار المسافرين وبين آلاف من الجموع هناك وجوهٌ

مألوفة بالنسبة لها وأخرى لا ، وجوه قد يكون لها أشباه في محطات حياتها وأخرى قد نسيتها أو تناستها ، ومن بين هذه الجموع نظرت إليه ونظر إليها دققت النظر في ملامح وجهه ارتعدت فرائصها وتغير لونها ..عرفته .. نعم .. عرفته .. إنه هو.. نعم هو حاولت أن تتهرب بنظراتها ولكن إنها الفرصة التي كانت تحلم ، بها إنها اللحظة التي لطالما تمنت أن تجمعها به إنه هو الشخصية الأرستقراطية البارزة في المجتمع ، ذو المكانة الاجتماعية المرموقة الراقية وهي ..هي لا شيء .. هي من عامة الناس .. الناس البسطاء جداً .. فقلبها يسع العالم بكامله .. طيبتها تخلق لها هالة من نور يسعى بين يديها يجعل من حولها يعشقها بكل بساطة ..

هو بالرغم من مكانته الرفيعة .. متواضع وبسيط جداً .. محب للناس بل يتغلغل بينهم .. حتى بالكاد يميزه أحد من شدة بساطته وتواضعه ..

تجرأ..أقبل نحوها.. تجمدت.. صوته أذابها.. القى عليها السلام .. تلعثمت..

سألها .. أنتِ ..أومأت بنعم وهي خافضة صوتها وبالكاد يُسمع وعيناها صوب الأرض ، قال لها هل تعرفينني .. أخذت تفكر في سؤاله وتسأل نفسها ومن الذي لا يعرفك.. ثم جدد سؤاله .. انتفضت .. فقد ارجعها صوته للواقع .. في البداية شككت في الأمر.. وعندما اقتربت منه أكثر وسمعت خفقات

ك إنه هو..

تشجع .. ليسألها كيف الحياة معكِ ؟

أجابته بكلمة واحدة وهي باسقة كالنخلة .. أكافحها وهي مبتسمة ابتسامة المنتصر من المعركة..

استغرب عزيمتها وقوة بأسها .. رغم احتفاظها بعد هذه السنين الطويلة بجمالها المتوقد ورقتها..

سألها كيف تكافحين ؟؟

هل أنتِ سعيدة إلى ما توصلتِ إليه بعد هذه السنين أم أنكِ مازلتِ تحاولين اللحاق بركب الأمنيات؟؟

وعيناه تتلألآن بانتظار الاجابة..

ردت عليه بعزيمة وهي تحاول إخفاء ابتسامة خجولة وكأنها كانت تتوقع سؤاله..

يبدو لي أنك تتابع أخباري وتريد معرفة رأيي في حياتي دونك..

استعجب حينها .. جرأتها.. ثم سألته.. وأنت.. لقد سَعدتُ كثيراً لسماعي خبر استقرارك..

فاجأها بسؤاله .. أحقاً ؟؟

تتهرب.. بنظرها يمنة ويسرة ، فقد كانت تحاول الهروب من عينيه الشاخصتين بها .. ثم ردت عليه بصوت فيه دفء وحنية.. القلب الذي ينبض بالحب يتمنى الخير لكل البشر.. وأنت أحدهم.. تجرأ وسألها.. هل أحببتني كما أحببتكِ ؟؟

هنا لم تسمع من سؤاله إلا كلمته الأخيرة.. (أحببتكِ)

وسرحت قليلاً .. تذكرت وأنى لها نسيان كل ذلك.. كيف تنسى رسائله التي كان يبعث بها عبر هاتفها الخليوي الذي حصل على رقمه من خلال نفوذه القوي .. فكان يحاول إيقاعها في شَركِه من خلال آهات قلب متوجع يرجو محبوبه للحنو عليه من خلال أبيات شعرية كل بيت منه يُدمي القلب ويوجعه.. ورغم ذلك لم يشفع له ذلك.. تذكرت عدة وسائل ومحاولات كان يحاول الوصول إليها .. إنما في غيرالإطار الذي هي ترتضيه لنفسها ، كانت ترفض الانصياع لهذه المحاولات التي سوف تجعلها يوماً ما خجلة من نفسها ومن ذاتها حتى وإن كان ذلك كله في الخفاء .. كان يحاول الوصول إليها وإنما بالطريقة التي هو يريدها وليس التي هي تريد..

والآن هنا في قاعة انتظار المسافرين (الترانزيت) والجميع أغراب.. إلا هي .. و.. هو..

فكلاهما يعرف الآخر جيداً.. وكلاهما يتمنى الآخر كثيراً.. إنهما روح في جسدين وها قد اجتمعا معاً ، فلا هي .. ولا هو

يعرفان ما الذي يجذبهما لبعض .. إنهما مختلفان في كل شيء واتفقا في شيء واحد.. الحب.. كل منهما أحب الآخر..ولكن بخجل .. كلاهما يخجل من أن يصارح نفسه بهذا الحب المفاجئ وغير المقبول ..

هنا قد نتساءل كيف عرفت أنه هو بالذات الشخص الذي يحبها؟؟

أختها أخبرتها عدة مرات بأنه يحوم حول بيتهم .. كالطير الباحث عن عُشهِ .. في البداية لم تصدقها واعتبرت أن أختها تتخيل ذلك .. ولكن تأبى أن تكذب عينيها عندما رأته في إحدى المرات..

ناداها من جديد .. أين سرحتِ ؟؟

تبسمت وبانت الغمازتان المحفورتان في وجنتيها.. فتوسعت حدقتاه.. لجمالها ومدى جاذبيتها..

تشجع أكثر وسألها ما الذي أعجبكِ فيّ ؟؟

أخفضت رأسها حياءً وأحْمرت خجلاً كأنها تحاول الهروب من الموقف بأكمله.. فأحس بها.. فحاول تدارك الموضوع.. فبدأ بنفسه وعلل سر إعجابه بها..

فقال : أما أنا.. فلا تسأليني ، فهناك شيء ما يجعلني أهيم بالتفكير بكِ قد تتعجبين.. وقد تظنين أنني أبالغ .. ولكنها

الحقيقة .. إننا حتى لم نتكلم .. لم نسمع أصوات بعضنا البعض.. إننا كنا صغاراً جداً على الحب .. قالها باستحياء وفي صوته نبرة خانقة .. مطأطئاً رأسه.. أنتِ تعلمين أنني منذ فترة ليست ببعيدة تعرضت لمرض عُضال ومازلتُ أعاني منه .. وأحاول التكيف معه .. ولكن قلبي العليل لا يطلب إلا هواكِ .. أصبحت لا أفكر في نفسي ولا أهلي ولا العالم بأسره أصبحت نظرة منكِ مبتغاي .. حتى لاحظوا نحول جسدي وتشتت فكري.. فعرفوا دوائي .. نعم .. أنتِ .. دوائي .. ولكن .. أنتِ الدواء الصعب القبول به .. وليس الوصول اليه.. أنتِ الدواء المرفوض..!!

نعم قبلت .. هي كلمة قلتها .. لأحفظ محبة كل من أَحبهم قلبي.. ولكن خسرتكِ أنتِ..

من الذي قال بأنني لم أحاول نسيانكِ وإسدال الستار على هذا الحب الذي كلفني صحتي وأجمل سنين شبابي بل كنتِ الحب الأوحد في حياتي ..

حاولت الرجوع إلى حياتي الاعتيادية ولكن كان هناك دوماً همس في أذني يشعرني بشيء ينقصني .. كنت أحاول محو كل شيء.. بل محو آثارك ولكن بمجرد أن تقع عيناي على أي فراشة.. أتذكركِ !!

إنها تذكرني بحيويتكِ.. بعفويتكِ.. والأجمل شفافيتكِ.. قد

تتساءلين كيف عرفت كل تلك عنكِ ونحن حتى لم نتحدث مع بعضنا البعض أو حتى لم نقف..هذه الوقفة التي هي الآن ..

عرفت كل تلك من خلال تحليلي لتصرفاتك معي .. فقد كنتُ مُصراً على إقامة علاقة صداقة.. والسلام ..

وذلك لمجرد إشباع فضولي وغروري .. كيف وأنا الشاب الذي تتمنى جميع بنات الأرض اشارة أو نظرة مني .. بينما أنتِ تتعففين .. بل وتصدين .. ولا تردين حتى على رسائلي التي تصلك على هاتفكِ الخليوي .. كنت أطلب فيها ودكِ .. وكنت أعدكِ بصداقة وعلاقة لا يشوبها شيء ولكن كنت لا أحصل على اجابة .. وحتى كنتِ لا تنزعجين من هذه الرسائل الغريبة .. وصاحبها اللحوح .. والذي يرغب في أن يدخل حياتكِ عنوة .. كنتِ هادئة .. بل هادئة جداً.. عرفت فيما بعد بأنكِ فتاة عاقلة وواعية جداً لا يغريها كلام معسول .. ووعد كاذب .. لتلويث سمعتها وسمعة أهلها .. وجدتكِ غيرالبنات كلهن .. أنتِ النقاء بعينه.. فبرغم جمالكِ المفعم .. كنتِ تحاولين أن تتعففي وتتواضعي حتى لا يُصدرعليكِ حُكم الغرور.. نقاؤكِ جعلني أتمسك بكِ أكثر.. قوتكِ في المحافظة على نفسكِ .. جعلتني أحبكِ أكثرفأكثر.. أعرف كل الذي حصل لكِ .. فأنتِ كحجر الصوان تزدادين صلابة وقوة بعد كل مُعضلة تمر بكِ .. أنتِ من أردتها أماً لأولادي حتى يرثوا منكِ هذه الصلابة وقوة البأس .. ولكن.. كان القدر لي بالمرصاد.. يبعدنا كلما اقتربنا من بعضنا

البعض .. كان يختلق لنا الأسباب فيبعدنا .. واليوم أوالآن القدر لطف بقلبي المكلوم وجمعنا من جديد.. بعد عشر سنوات كنتُ مُتيماً بكِ وبحبكِ.. وافترقنا.. كلٌ منا كان يحاول نسيان الآخر.. فيُقحم نفسه ويُشغلها بأشياء قد يكون لها معنى .. وقد لا يكون.. فقط لتُشعره بالسعادة المؤقتة.. ثم يعود في المساء ويضع رأسه على الوسادة .. فيتمنى لو كانت سعادته ترقد بجانبه.. تلك هي السعادة الحقيقية التي يبتغيها كلٌ منا.. أليس في كلامي شيء صحيح ؟؟

لماذا أرى علامة الاستغراب والذهول باديةً على ملامحكِ وفي عينيكِ حيرة وحزن .. آه .. لو تعرفين ماذا فعلت بي هاتان العينان الواسعتان .. لم أره جمالاً يضاهي وسعهما.. إنهما فعلاً شلتا تفكيري ..

هي .. كان الذهول والتوتر واضحين على محياها.. تقول في نفسها.. تُراه فعلاً هو .. قد يكون نصفي الآخر.. بل روحي الذي يُحدثني بكل ما كنت أفكر .. أو حتى ما فكرت به.. نعم كنتُ أُلقي بجسدي المنُهك طوال النهار على سريري .. أحتضن وسادتي .. وأتمناه .. بل وصل بي الجنون .. أن أُحدثه عن يومي بل ما أطمح به لغدي .. ولكن عندما أيقن .. بأنه .. ليس بين أحضاني .. إنما في أحضان امرأة أخرى.. أبكي .. لأبلل كل ليلة وسادتي .. بعد أن أصحو على حقيقة مُرة هي وحدتي ووحدته ..

أقرأ لساعات طوال رسائله القديمة والمحفوظة في هاتفي

الخليوي.. بل أشعاره التي توجع قلبي وتأبى نفسي الرد عليها.. حتى استغباؤك عليّ .. كان يُضحكني .. لأتأكد أنكَ لم تكن حلماً.. كنتَ أجمل حب عايشته لعشر سنوات .. كنت الإثارة في حياتي .. دخلت في حياتي وخرجت منها دونما استئذان .. أنتَ الذي أقحمت حبك في قلبي فملكته .. فأنت الأوحد في قلبي .. وأتمنى ألا تظل فيه .. لأن ذلك يؤلمني .. يؤلمني أن أحب شيئاً ليس ملكي بل أصبح لغيري.. قلبك الآن يمتلكه غيري..

فأعتق قلبي من حبك..............................

هذه التمتمات رددتها في نفسها ولم تستطع أن تصارحه بها.. ليس لشيء .. فحياؤها يمنعها من ذلك كله ولا تمتلك شجاعة قول ذلك له ،

استجمعت قواها وسألته بحزم .. كيف كنت تعلم ما كل ما كان يجري عليّ ؟ ولماذا لم تحاول أن تساعدني حتى ولو من دون أن أشعر بك.. هل نفوذك كان يجعلك تعلم ما الذي يحدث لي في البيت؟؟

كان متردداً في إخبارها.. ينظر إلى عينيها الراصدتين لإجابة ..

أرجو لا تفهميني خطأ.. وربي يعلم أنني لم أفعل ذلك إلا لأنني أحبكِ .. ولا أريد أن أضرك.. وأيضاً لكوني لا أستطيع مساعدتكِ حتى ولو من بعيد.. لأنك كما تعلمين جيداً مكانتي

ونفوذ أهلي ومكانتهم .. فلا أريد أن يؤذيكِ أحد وأنا الذي أحميكِ .. إنني أعرف مدى شوقكِ في معرفة كيف استطعت أن أدخل عالمكِ ومعرفة أبسط صفاتكِ وخصوصيتكِ.. إنها.. ويحاول أن يماطل .. فقد أعجبه توترها واضطرابها ونظرة الشوق في عينيها .. إنها ببساطة .. إنها الخادمة .. خادمتكم .. هنا اصفر لونها.. بل تأكدت فالخدم مرصدون جيدون لأخبارالأسرة وفي مرة من المرات وهي تناقش أخاها أخبرها بأن أسهل وسيلة لمعرفة الخاطب صفات زوجة المستقبل .. هي أن يسأل خادمتها عنها فسوف تفضي بكل الأسرار بلا شك وبالحقيقة بلا زيف ، ليس كما يفعلن أمهات العرائس ..

وحتى تتيقن أكثر.. سألته..أي واحدة منهن .. فهن كُثر وكلهن يعملن ويرجعن لبلدانهن ..

جاوبها .. أنتِ تعرفينها جيداً.. بل تحبينها وكنتِ عطوفة وحنونة عليها كما قالت لي .. ولأنها تحبكِ حاولت مساعدتكِ بالخفاء.. هل عرفتها ؟؟

حاولت استيعاب الموضوع .. هل يعقل.. إنه شيء خطير .. بل خطير جداً.. كيف ولماذا لم تخبرني عنك .. كانت مقربة مني كثيراً فقد كانت تنقل لي نوادر الجيران وقصصهم .. بل تحدثني عما يجري في البيت في أثناء انشغالي بالدراسة بالجامعة .. رغم ثرثرتها المعتادة إلا أنها كانت شديدة الاهتمام بنا ، فقد كانت طيبة جداً ..

هل يعقل ، إنها كانت تعرفك ولم تخبرني .. كيف حدث كل ذلك ولم أشعر بها..

كوني على ثقة ، إنها لم تخبرني إلا كل خير عنكِ وعن أسرتكِ وهذا ما زاد من التمسك بكِ يوماً بعد يوم ..

أقعدها هذا الموضوع وزاد همها وذهولها.. وأيقنت صدق كلامه.. فقد كانت الخادمة تبكي بحرقة وهي تحتضنها وتودعها في يوم سفرها وقالت لها : كنت أتمنى أن أراكِ عروساً قبل رحيلي فأنتِ طيبة جداً.. بل أنتِ ملاك ..

صمتت لبرهة.. فهي لا تعرف حقيقة شعورها نحوها..هل تكرهها أم تحبها ؟؟

لا تستطيع تفسير الأمر هل هو فعل خير أم خيانة للثقة ؟

لاحظ ذبولها وانشغال تفكيرها.. جلس بقربها.. لم تحس به.. فقد كانت حزينة.. ولكن لا تعرف على ماذا هي حزينة أصلاً..

بصوت خافت.. همس .. أليس النصيب أحدث لي هذا كسبيل ولم يكن أمامي غير ذلك .. فهي لم تكن سوى سبب ..

فقد كان القدر بي رحيماً.. فقد كنت أهيم بالطرقات.. أحاول أن أصل إلى خيط يُدخلني إلى عالمكِ.. فقد أردتُ أن أعرف هل التي أحببتها من كل قلبي .. هي أهلٌ لهذا الحب ؟؟

هي أعطتني الجواب الشافي .. فلماذا هذا الحزن الذي يغمركِ.. سوف أقول لكِ شيئاً سيفرحكِ..

لقد قررتُ بما أنه مر على زواجي خمس سنوات .. سأطلبكِ للزواج من أهلكِ وسوف أُقنع أهلي بأنني غير سعيد مع زوجتي ويحق لي الزواج بأخرى .. وكما أن زوجتي لا تُنجب إلا بأخذ علاجات طويلة .. وقد أنجبت لي مؤخراً بعد هذه العلاجات طفلة شقية .. شقاوتها تذكرني بكِ .. وحيويتها هي عينهاً أنتِ .. هذه الطفلة بدلت السكون الذي كان يجوب حياتي إلى طاقة وحركة.. فعندما أداعبها أتخيلكِ .. فهي لها ابتسامة تشبه ابتسامتكِ ولكن .. دون غمازات..

هنا أحمرت خجلاً منه مرة أخرى ..

أخذت تفكر بكلامه بجدية .. لتخاطب نفسها قائلة.. يجب أن تكوني قوية حتى في عاطفتكِ.. أو بالأحرى في حبكِ..

كيف يسمح لها ضميرها بأن تُدخل نفسها عنوة في حياة امرأة أخرى .. كيف تدمر أسرة مهما كان كيانها .. ومهما كانت الاسباب فهي لن ترضى إلا أن تكون الأولى والأخيرة لزوجها ..

كيف لها بعد كل تلك السنوات من الجفاء أن ترجع لأحضان بردت ويبست زهورها.. وتعلق بها شذا امرأة أخرى ..لا.. لن تعود.. لن ترضى بهذا الرجوع ..

هل أخذ رأيها عندما تركها .. وهل أخذ رأيها عندما قرر العودة.. إنها ضعيفة في كل شيء إلا حين يُستهان بكرامتها .. نعم إنها تحبه .. بل هوعشقها العُذري.. ولكن كيف لها أن تسرق؟؟

وماذا تسرق أباً من ابنته .. وهي تدرك مدى تعلق البنات بآبائهن.. فهي كانت روح أبيها .. تحبه حباً لا يُوصف.. وتعلم مرارة ذلك ..

رفعت رأسها .. وكأنها تحاول ألا تجرحه أو تخدشه برفضها لقراره..

أخذت تمهد له.. لتسأله قائلة: هل تعرف علاقتي بأبي؟ تعجب سؤالها وأجاب نعم ..

كنتُ أعرف أنكِ كنتِ تحبين أباكِ كثيراً.. وقد ضحيت من أجله الكثير وهويحبكِ أيضاً كما عرفت من مصادري .. ويبتسم فهي الآن تعرف من هي مصادره ..

قالت له : ابنتك تذكرني بنفسي وبما إني لا أحب أن تغزو امرأة أخرى قلب أبي .. لدرجة أنني كنت أغار عليه من أمي في بعض الأحيان.. فأنا الآن لا أحب أن يكرهني أحد.. فما بالك بطفلة لها مثل ابتسامتي .. وهنا تحاول تلطيف الأجواء.. بابتسامة ملأها الخجل وكأنها تعتذر له ..

أنا سعيدة جداً بأنني التقيتك وإن كانت لدقائق معدودة..

ووجهاً لوجه .. بعدما كنت أحاول أن أقنع نفسي بأن السنوات العشر التي مضت من عمري .. لم تكن سراباً .. والشخص المجهول الذي يحاول العبث بحياتي .. هو حقيقة بائنة وإن كانت مُرة فهي في النهاية حقيقة .. والحمدلله إن توقعي كان صادقاً ..

حبيبي .. هذه الكلمة أقولها للمرة الأولى والأخيرة لك .. لأني أحبك وأحب أن تظل الصورة الجميلة التي أحتفظ بها في قلبي لك .. وإن أراد الله أن يجمعنا.. فأتمنى .. أن يكون ذلك في الجنة.. حيث الحياة الأبدية .. هنا نحن في امتحان .. فأتمنى أن أجتاز هذا الامتحان بنجاح لأصبو للحياة معك في جنة خالدة أبدية.. ومن الذي قال بأننا نحيا مرة واحدة .. بل نحن نحياها لنجني من ثمرها في الآخرة ، فهي دار الخلود.. وهذا ما ابتغيه.. حياة خالدة معك ..

ترقرقت الدموع في عينيه .. فقد فهم رفضها بطريقة لبقة .. فرد عليها وهو يتحاشى النظر إليها كي لا تنسكب دموعه : حتى وأنتِ ترفضين تزيدينني حباً وإعجاباً بكِ ..

سمعت حشرجة في صوته فأدركت أنه تألم من طعنة رفضها له..

تمالكت دموعها هي الأخرى .. وأخذت نفساً عميقاً .. محاولةً أن تصمد أمام شخص تعزه .. فكيف إذا كان حبيب

الروح يذرف الدموع أمامها؟؟

ساد الصمت الأجواء .. حينها تراءى لها أن تغير الموضوع .. فلمعت فكرة في ذهنها.. خطر لها أن تهديه ذكرى يشفع لها ..

فتذكرت إنها تلبس قرطين ماسيين .. اشترتهما من أول راتب حصلته من عملها .. فقد أحبت أن تكافىء نفسها على صبرها وصمودها في العمل.. فأشترت هاتين الماستين لتذكراها دوماً بصلابتها..

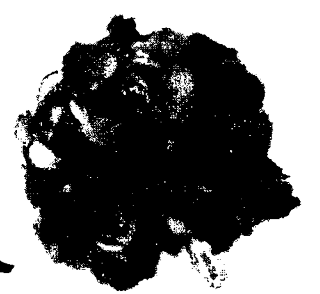
أنتزعت القرط من أذنيها.. وأمسكت بيده .. وهي المرة الأولى التي تمسك بها يد رجل غريب عنها ولكنه مدفون بقلبها.. فبسطت كفه .. ووضعت فيه القرطين وأغلقته وهي تنظر لعينيه.. قائلةً له: إنهما أغلى ما أملك في هذه اللحظة لأهديك إياهما.. إنهما للطفلة التي تحب أباها !!

لملمت أغراضها وهي تحاول أن تكفكف دموعها.. ونهضت من مكانها وابتسامتها تخالط الدمعات التي على خديها..

أما هو فمشدوه لفعلتها..

قالت له جملة أخيرة ووحيدة .. (استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه) وأدارت ظهرها لترحل عنه وهي على يقين بأنها لن تلتقيه مرة أخرى .. إلا في دار الخلود..

(تُرى كيف الجسد ينسى حنان الروح)



حكاية الزهرة الخامسة عشرة

هذه هي حكايتي مع صديقي دودة القز .. وهذا هو الاسم الذي أحب أن أناديه به كلما رأيت صورته المعلقة في مكتبة والدي والتي أُخذت له عندما كان مولوداً حديثاً ملفوفاً بإحكام بغطاء أبيض فيبدو شكله كأنه دودة قز في شرنقة بعد أن لفت نفسها بخيوط الحرير .. فعندما وُلد ابن أخي علي وخرج إلى الدنيا في عام ٢٠٠٣ كنت أنا في رحلتي الأولى لاكتشاف العالم الخارجي في مدينة (نيوكاسل) البريطانية .. وعندما حملته بين ذراعي لأول مرة ُتيم بي وصرت صديقته الطفلة الكبيرة .. التي تشاركه لعبه وحلوياته وحتى المفردات الجديدة التي يتعلمها ، فيأتي إلي ليعلمني كيفية النطق بها.. وصارت تربطنا ببعض صداقة متينة كما بين الفراشة والزهرة ، فيصاحبني في كل مكان اذهب إليه ، ففي زيارة أخي لنا أيام الجمعة.. ما أن تطأ قدماه صالة الجلوس حتى يهم بالصعود إلى غرفتي ليبحث عني ويسرد لي حكايات عن أحداث الأسبوع وعن أصدقائه بالمدرسة .. وأذكر أنه في إحدى المرات سألني منتظراً مني الإجابة بعيون الطفولة البريئة ليقول ماذا أود أن أكون عندما أكبر ويشب

عودي؟؟ حينها تيقنت بأن علي الصغير يراني طفلة شقية بعمره .. فهو يريد أن نتشارك الأحلام والأمنيات أيضاً .. ويدهشني هذا الولد ، فعندما يكتشف معلومة جديدة عليه يأتيني جرياً ليعلمني إياها ويتأكد من صحتها مني .. وكثيراً ما يضحكني هذا الفتى ، فمجرد رؤيته لفتاة جميلة سواء على شاشة التليفزيون أو صورة لغلاف مجلة فيصيح قائلاً إنها هي التي تشبهني ، فعلي الصغير مؤمن بأنني أيقونة الجمال في الكون ولا مثيل لي ، فأنا الأصل وهن الأشباه .. وعندما أخبره بإنني قد أسافرعنه فأراه ينزوي حزيناً لمفارقتي ليتمنى الموت لنفسه قائلاً : إذا أنتِ سافرتِ عني.. سأذهب أنا إلى دبي وبعدها سأذهب إلى الله .. ولدهشتي برده أحتضنه بكل قوتي وأنا ضاحكة .. وأقول له حتى في الموت لازم ترانزيت في دبي يا علي ، فسمع إخواني الحوار الدائر بيننا حتى بدأوا بالضحك لمعرفتهم بتعلق علي الشديد بي .. وشعرت بذلك خصيصاً عندما رجعت من سفرتي الأخيرة لتايلاند ليحتضنني بقوة واضعاً رأسه نحو قلبي ليذوب فيه كطفل عاشق لقطعة حلوى ، فسألته وهو بتلك الوضعية : هل تحبني يا علي ؟ فقال : وهو مغمض عينيه وكأنه لا يود أن يفيق من حلم معانقتي ولقائي .. مجاوباً : أحبكِ «وايد» وهو يمد في الكلمة لثوان ليعني بها كثيراً ..

في أوقات كثيرة يأتيني فرحاً ليعلمني كيف تعمل اللعبة التي اشتراها له أخي ليسمح لي بمشاركته اللعبة ، بينما يمنع بقية

الصغارعن اللعب بها .. لايمكنني نسيان كيف يحاول إغاظة أطفال العائلة الآخرين عندما يحاولون التودد إليّ بتقبيلهم واحتضانهم لي.. فيقول : لهم بصوت مسموع إنه سبقهم كلهم بالفوز بتقبيلي والارتماء في حضني ، مبيناً أنني ملكيته الخاصة .. وفي بعض المرات يدهشني بعقليته التي تبدو كعقلية رجل مسن ناصحاً إياي ومعطياً الحِكم والمواعظ وبالأخص في إحدى المرات عندما كسر صحناً صغيراً وهو يحاول فتح الثلاجة .. فقلت له لا داعي للقلق بعد أن نظفنا المكان من الزجاج المتناثر ونصحته باللعب بعيداً كي لا يجرحه الزجاج .. واستمررنا نلهو ونلعب مع بعضنا البعض ونسيت أنا موضوع كسر الصحن بينما هو لم ينسه وفي خضم ما كنا نلهو به وجدته ناصحاً لي ومقترحاً كي يحاول تبرير خطئه لكسره ذلك الصحن الصغير بسؤاله لي لماذا لا تشترون صحوناً بلاستيكية ، فهي لا تنكسر ، ويا حبذا لو أنكم اشتريتم صحوناً خشبية فهي أفضل بكثير.. فحينها نظرت إليه بغرابة وتعجب لمعرفة سبب الاقتراحات تلك وما دخله كطفل بموضوع الصحون ونوعيتها والمادة التي يجب أن تصنع منها واقتراحه بشراء صحون خشبية على وجه الخصوص.. فأنا لم أر في حياتي صحوناً خشبية وعندها عرفت السبب ، فقد تذكرت أن المسكين كسر صحناً منذ ساعات وضميره يؤنبه لأنه لم يجد المعاتبة أوالتهويل بل العكس تجاهلنا موضوع الكسر بالانغماس باللعب .. وعندها أدركت أن علي الصغير لديه إحساس مرهف وشعور بالمسؤولية تجاه ما يفعله ، لذلك أحياناً

أناديه بالشيخ الكبير لأقول له بلهجتنا العامية «يا الشيبه» ..

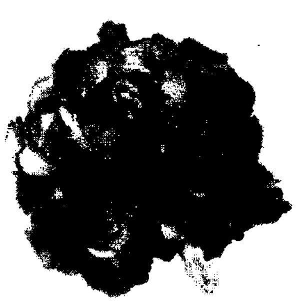
ومن أسئلته التي سألني إياها في أحد الأيام ولم أتوصل للإجابة عنها إلى يومي هذا .. قال لي مستفسراً إذا ما كان النمر الوردي.. ولداً أم بنتاً.. فجاوبته بأنه ولد .. فأدهشني برده البرىء .. قائلاً : لو أنه كذلك فلماذا لونه وردي أليس اللون الوردي لوناً خاصاً بالبنات فقط ؟؟

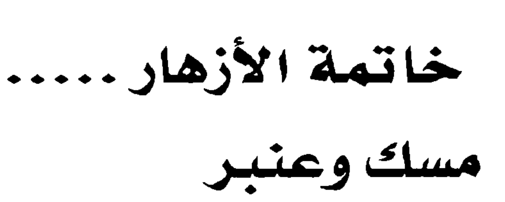
ولو أنه بنت فلماذا له شوارب لأنه يستحيل أن يكون للبنات شوارب .. كان يجعلني أدوخ بحثاً عن جواب لأسئلته واستفساراته الدقيقة حول كل شيء والتي هي بالفعل ذكية جداً ..

وفي إحدى المرات كنت أحمل القرآن بين يدي لأقص عليه سبب نزول سورة الفيل التي يحفظها عن ظهر قلب والتي يقرأها علي الصغير على الدوام ليتباهى بحفظه للقرآن أمام الكل ، مبيناً تفوقه عليّ في العديد من الأشياء.. فقلت له أتدري يا علي أن الرسول عليه الصلاة والسلام ولد في عام الفيل عندما أراد أبرهة الملعون أن يهدم الكعبة المشرفة .. فصاح بأعلى صوت معنفاً الصغار الذين يلهون بالقرب منا بقوله لهم وكأنه شخص بالغ .. «اسكتوا خلونا نسمع».. فقد تشتت ذهن الفتى وانزعج من الصخب الذي حوله ثم أمرني قائلاً : أكملي .. وبينما أكمل له القصة استوقفني بسؤال عقد لساني بعدها وحاولت كتم ضحكتي في وجهه كي لا أكسر كبرياءه واعتزازه بنفسه.. فسألني علي الصغير بكل عفوية : الرسول الكريم في أي شهر ولد ثم

أكمل بإنجليزيته يود توضيح السؤال لي وتوصيل ما يقصده بوسائل مساعدة ليقول هل الرسول مولود في شهر June or July .. فعرفت أن علي الصغير يعتقد أن شهور السنة مكونة من هذين الشهرين فقط .. فالشهرالأول أنا من مواليده والشهرالثاني هو الذي وُلد فيه وبعد ذلك تنتهي السنة الميلادية كلها ..

جاءني علي الصغير في أحد الأيام .. محاولاً استعراض حفظه لحروف الهجاء أمامي .. لينشد لي بصوت مرتفع .. ألف أرنب.. باء بطة .. تاء تمرة .. ثاء ثمرة .. جيم جزرة .. حاء ؟؟ توقف الولد يفكر بعمق يحاول أن يتذكر ما الذي هو بحرف الحاء ثم سألني وهو مدرك بأنني سأفشل في الإجابة .. ما الشيء الذي يبدأ بحرف الحاء .. ودون أي تفكيرأخذت نفساً عميقاً وقلت له بصوت واحد.. حنااااااااااااااااااااااااااااااااااااان .. ذلك هو اسمي فهو يبدأ بالحاءأيضاً .. فنظر إلي بغيرة طفولية وقال ليغيظني بعد أن نزل عليه الالهام .. آه لقد تذكرت حاء حمامة .. فقلت .. تلك هي أنا.. فأنا حمامة الحب والوئام أجوب العالم بجناحين أبيضين أنشر السلام الروحي في قلوب أضناها الدهر وعذبتها دموع حزينة ..





خاتمة الأزهار.....
مسك وعنبر

❖ المسك

﴿قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شي ء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ سورة آل عمران.

كنت أمشي في بلد من البلدان الخليجية في أحد أسواقها الشعبية.. فشدتني واجهة محل من المحلات المزدانة بمجموعة من الأصداف المنقوش عليها اسم الجلالة بدقة فنية وبرونق جمالي رائع .. فلحظتها لم أتردد بالدخول ولكن بمجرد قيامي بذلك واجهتني لوحات قرآنية في منتهى الجمال ، خامتها الأساسية الرقع الجلدية وقد خطت عليها آيات نورانية .. وبالرغم من صغر مساحة المحل فإنه بمجرد دخولي فيه غمرني الشعور بالارتياح التام ولفت انتباهي حوار دائر بين سيدة أجنبية مع

صاحب المحل الفارسي .. وهي تشير بسبابتها إلى إحدى القلائد المحفورة في وسطها بكلمة بالخط الكوفي .. فقد كانت تقول له إنها عندما تنظر إلى تلك القلادة التي هي من الصدف ومكتوب عليها تلك الكلمة تدخل في حالة من الروحانية والتسليم ، ثم سألته عن معنى تلك الكلمة فأجابها قائلاً : سيدتي هذه الكلمة هي لفظ الجلالة (الله) أي الرب في جميع الأديان .. فوجدت السيدة تأثرت فلم تكن أن تتخيل أن كلمة (الله) لها وقع كبير على نفسها وبالرغم من عدم اتقانها قراءة اللغة العربية إلا فإنها طلبت شرائها وإن كانت لا تدين الإسلام ..

عندما استفردت بالرجل الفارسي في المحل أثنيت كثيراً على الأعمال التي خطها بيده وأخبرته بإعجابي بفكرة الزينة بآيات من القرآن الكريم .. فوثق بي وأحس بصدقي وقررأن يبوح لي بسره.. فقال سأخبرك بشيء لا يعرفه أحد .. وأستأمنك عليه لشعوري بأنكِ امرأة فاضلة وسوف تستوعبين الكلمات الربانية التي انطبقت مع حالتي والتي قالها الله في كتابه المحكم ..(وتعز من تشاء وتذل من تشاء) حتى تعرفي قدرة الله في قلب الموازين رأساً على عقب وخاصةً عندما يسلم الإنسان نفسه له بالتصديق به وبعجائب صنعه.. هل تصدقينني لو قلت لكِ بأنني لم أكن أمتهن مهنة الخطاط إلا مؤخراً فقد كانت بالنسبة لي هواية .. كنت أحب ممارستها في صباي في المدرسة وتعلمت حرفيتها كهاوٍ ليس أكثر .. وعندما ضاق بي الحال في بلدي جئت إلى هنا

لأبحث عن مصدر رزق آخر أحسن به حياة أسرتي المكونة من زوجتي وابنتيّ .. فقبلت بأبسط المهن من أجل تدبير معيشة عائلتي .. ووافقت على العمل كسائق بإحدى الشركات.. وصار صاحب الشركة يستغل حاجتي للعمل بتكليفي بمهمات أكثر وضاعة كي أتذمر وأترك العمل.. وكنت راضياً بالمردود المالي البسيط الذي أعتاش منه وأُعيش به عائلتي وفي يوم من الأيام جاءني الخبر باستغنائهم عن خدماتي في الشركة وعليّ البحث عن مكان آخر أعمل فيه فلا يريدون البقاء معهم كسائق في الشركة .. ففوجئت بذلك القرار وقررت العودة للبيت بعد سماعي لهذا الخبرغير السار أبداً وفي طريق عودتي توقفت السيارة عند الإشارة لكونها حمراء ومن شدة تفكيري وحزني لم أتمالك دموعي وانهرت باكياً وأنا أشكو إلى الله عجزي عن اعاشة نفسي وعيالي بالرغم من أنه خلق لي هاتين اليدين اللتين أبطش بهما .. فكيف استطيع الآن أن أستجلب قوت أسرتي في هذا العالم الواسع .. وعندما رجعت إلى البيت منهاراً .. جاءت إليّ ابنتي ذات العشر سنوات منكسة الرأس لتخبرني بأني مصدراحراج لها بعملي كسائق فهي تخجل من أن تعرف زميلاتها في المدرسة بأن أباها يعمل سائقاً بسيطاً في إحدى الشركات .. وبكلمات ابنتي هذه أضافت هماً جديداً إلى همي.. ومع الأيام وفي رحلة بحثي المتواصل عن أي فرصة عمل ضاقت بي زوجتي وساءتها الحالة التي وصلنا، إليها فأخذت تعنفني بشدة وتلومني على فكرة السفر والاغتراب والاتيان بهم إلى هنا

ليذوقوا شظف العيش لا رغده ، فبدلاً من تحسين أوضاعنا المعيشية وجدوا عكس ما وعدتهم به .. وفي إحدى الليالي ألهمني الله بفكرة احتراف هوايتي واتخاذها مهنة .. فاشتريت أدوات بسيطة كي تساعدني على مزاولتي للمهنة الجديدة .. وبينما كان الجميع نياماً في سكون الليل كنت أخط على الرقع الجلدية بكل همة وثقة بالله وكانت عيناي تذرفان الدموع لتختلط بمحبرتي التي كنت أخط منها .. وكانت زوجتي كثيراً ما تهبط من عزيمتي ساخرة بقولها:هل تعتقد بأن الناس أصابهم الجنون كي يشتروا هذه اللوحات والرقع البالية التي لا فائدة منها.. نم ليلتك وقم في الصباح لتتوجه للبحث عن عمل يسد رمقنا ويدر علينا دخلاً محترماً بدلاً من الخط على هذه الرقع والجلود التي لا تجلب نفعاً إلينا .. كنت أصم أذني عنها ولا أدير لها بالاً واستمررت بالتركيز فيما كان بين يدي من عمل .. واقترح عليّ أحد الأصدقاء عرض أعمالي تلك على الجمهور في معرض دولي مشهور يقام بشكل دوري من سنة لأخرى .. وهناك فوجئت بزيارة إحدى الشخصيات المرموقة للمعرض الذي أقمته هناك وذاع صيتي في الأرجاء وقامت وسائل الإعلام سواء المكتوبة أوالمرئية لتتسابق بأخذ المواعيد من أجل إجرائها لمقابلات معي .. وسمع عني صاحب المجمع الذي خصص ركناً للأعمال الحرفية والذي تقفين فيه الآن .. وأهداني هذا المحل لأسترزق منه وأعرض فيه لوحاتي وكل ما خطه يميني من أعمال فنية محفور فيها ذكر الله .. ثم سالت دمعة ساخنة على

خده بعدما أحسست بمشاعر فياضة بدأت تدب في عروقه ليقول لي بصوت خانق بالكاد يخرج : أتتذكرين تلك البنت التي أتتني ذات يوم ناكسة رأسها خجلاً مني .. جاءتني هذه المرة مبتسمة فرحة ممسكة بالجريدة التي فيها صورتي والموضوع الذي يتناول حرفتي الجديدة لتقول لي : والدي العزيز أنا فخورة بك كثيراً .. وأتكلم عنك باعتزاز وفخر أمام زميلاتي في المدرسة .. ثم قام من مكانه فجأة مناولاً إياي مفكرة جلدية فاخرة وفتحها لي ليظهر فيها بطاقات بها أسماء وعناوين لشخصيات من الطبقة المخملية الراقية .. ثم قال لقد أعزني الله بأنه قدمني إلى هؤلاء الذين قرأتِ أسماءهم فهم شخصيات لها وزنها في المجتمع، إضافة إلى ذلك معرفتي بسفراء من شتى دول العالم .. فأصبح لي معارف وأصدقاء في جميع أنحاء العالم وكان بيده مجسم صغيرللكرة الأرضية فقال لي : تستطيعين أن تشيري لي بسبابتك إلى أي بقعة على وجه هذه الكرة الأرضية التي بيدي وسأذكرلك اسم الشخص الذي أعرفه فيها .. ثم أردف مكملاً حديثه قائلاً : هل تتذكرين صاحب الشركة التي طردني من عملي واستغنى عن خدماتي ذات يوم .. دخل عليّ المحل في إحدى المرات مصطحباً معه وفداً من أصدقائه يستأذنني بأخذهم صور معي ويريد مني تحديد موعد معه لأقابله هو وأحد عملائه الأجانب .. هل رأيت كيف هي عظمة رب العالمين .. الذي أعزني بعدما كنت ذليلاً وأذل من كان عزيزاً .. وتلا عليّ الآية (قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز

من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) ..

❖ العنبر

(لقد سعد الذين يعمرون في الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم زمناً أطول مما عاشوا..) بهذه الكلمات جسدت صديقتي الكاتبة الدكتورة آمال الملا .. فيها كتابها همسات .. العطر الثاني الذي ستشمون عبق أريجه معي ..

في كل صباح و أثناء توجهي نحو المكتب .. كان يشدني منظر سيدة عجوزقطرية بعباءة سوداء تقليدية وعلى وجهها برقع ذهبي لامع تمشي على جانب الطريق بتثاقل حاملة بيدها جالوناً أبيض اللون بلاستيكياً كبيراً معبأ على آخره بالماء .. ومتجهة به صوب المسجد الموجود في آخر الشارع وأحياناً كثيرة كانت عباءتها تتبلل بالماء الذي كانت تحمله في كل صباح .. وكان هذا المنظر يتكرر أمامي يومياً .. فكنت أتساءل مع نفسي ما الذي يجعل سيدة عجوزاً مثلها توجد في الصباح الباكر في شارع طويل ممدود على جانبيه بيوت صغيرة وتنتهي بمسجد صغيرعند مفرق الشارع .. فتراءى لي أنها ربما سيدة محتاجة تعول أبنائها وليس لديهم ثلاجة تبرد لهم الماء .. فتذهب في كل صباح إلى

المسجد الموجود في آخر الشارع لتعبئ الجالون الذي بيدها من صنبور ماء السبيل التابع للمسجد وتحمله بثقله إلى أبنائها العطاشى لتروي ظمأهم بماء بارد في يوم مبشر بحرارة الملتهبة في صيفنا القائظ .. تُرى هل هذا هوالسبب .. ثم تنبهت بتحليلي إلى أن السيدة العجوز تكون ذاهبة في الطريق باتجاه المسجد وهي حاملة معها جالون الماء الثقيل وليست آتية منه وهذا يعني الماء المعبأ بالجالون ليس مصدره صنبورماء السبيل التابع بالمسجد .. ولكن أحببت تصديق الفرضية الأولى وكذبت ما رأته عيني .. فوضعت مبلغاً من المال الذي يكفي لشراء ثلاجة .. ثم وضعته في ظرف صغير لأعطيها إياه عندما ألمحها في الصباح وأنا متجهة للمكتب .. ومرت أيام وزاد قلقي عليها فلم الاحظها تمشي كما في السابق وخفت أن يكون قد حدث لها مكروه.. أو إنني أتأخر وهي تبكرعن الموعد الذي أراها فيه.. وفي أحد الأيام وجدتها تمشى والجالون الذي معها فارغ .. فتوقفت بسيارتي إلى جانبها لأسألها .. وناديتها .. يالوالدة .. فنظرت إليّ محدقة.. فسألتها باستحياء هل عندكم ثلاجة يا والدتي ؟؟ فرمقتني بغرابة قائلة بصوت حنون : نعم يا ابنتي .. فقلت لها هل أنتِ متأكدة .. أكدت قائلة : نعم والحمدلله .. فأحببت أستفسر أكثر منها فقلت لها .. هل أنتِ قطرية .. فضحكت قائلة : نعم أنا قطرية ونسماتِ عطر وهي تمازحني .. فمددت يدي إليها بالظرف وأنا أقول لها .. هذا مبلغ لك كي تشتري به ثلاجة .. ردت عليّ باعتزاز قائلة : أنا لست بمحتاجة أو فقيرة فلماذا تمدين

إليّ هذا الظرف صدقيني يا ابنتي لا أحتاجه .. فقلت لها : ولكني في كل صباح أراكِ تمشين متثاقلة بحمل هذا الجالون الذي هوالآن فارغ بيدك .. بينما يكون معبأ لآخره بالماء في بعض الأوقات .. فهزت رأسها قائلة : الآن عرفت ماذا تقصدين .. أنا لا أعبئ الجالون من صنبور السبيل التابع للمسجد .. إنما أنا آتي بالماء من بيتي .. فقاطعتها بسؤالي لمعرفة السبب الذي يجعلها تقطع مسافة طويلة وهي تحمل بيد واحدة جالوناً ثقيلاً معبأ بالماء.. فأقول لها : ولمن تأخذين الماء من بيتك ، بينما ماء المسجد متاح للجميع .. فقالت: لشجرة اللوز.. فاندهشت من إجابتها ولم أصدق ما سمعت .. فقلت لها: شجرة لوز .. قالت: نعم لقد زرعت البذرة بيدي في التربة الموجودة في ساحة المسجد ونبتت عن تلك البذرة الصغيرة شجرة لوز يانعة تظل المصلين في أوقات الظهيرة .. وأنا في كل صباح أقطع تلك المسافة لكي أسقيها ولأطمئن عليها لأنني أخاف أن يقتلعها أحد الصبية الأشقياء أو يطمع بها أحد المارة ليزرعها في بيته .. فقلت لها ولماذا تتحملين عناء حمل الجالون الثقيل بينما ماء صنبور السبيل التابع للمسجد موجود وقريب ، فلماذا هذا العناء كله؟؟ أسقي الشجرة من ذلك الماء .. قالت لي: يا ابنتي أشعر بالذنب إذا ما فعلت ذلك لأن ماء السبيل خصص للشرب وليس لسقي المزروعات .. فحرام عليّ أن أغش لأسقي شجرتي .. وبينما الماء وفير ببيتي ولله الحمد .. فلماذا أعرض نفسي للمسائلة يوم الحساب .. وإذا كان التعب والعناء الذي أجنيه في

كل صباح سيكون له مردود طيباً لي ولعباد الله حتى بعد مماتي.. وأسأل الله حسن الخاتمة في الدنيا والفردوس الأعلى في الآخرة..

فأصبحت في كل صباح وأنا متوجهة للمكتب لا أبحث عن السيدة العجوزالتي أراها كل يوم في الطريق بل أبحث عن شجرة اللوز اليانعة التي روتها بحنانها واعتنت بها كطفلتها لتبقى ذكرى لها .. وبالفعل بعد عدة محاولات وجدتها في زاوية أحد البيوت المقابلة للمسجد .. فكلما أمر في ذلك الشارع ألقي نظرة على شجرة السيدة الطيبة وأطمئن مثلها على شجرة اللوز التي زرعتها بيدها..

وأتمنى أن يظل كتابي هذا كشجرة اللوز تلك التي زرعتها السيدة قريباً من ساحة المسجد .. لتبقى في وجداننا رمزاً.. باقية بقاء الحياة .. ليستظل الناس بأوراقها وإن فنت هي من الدنيا ورحلت عنها ..



الخاتمة

يحكى أن مجموعة من الضفادع كانت تقفز مسافرة بين الغابات، وفجأة وقعت ضفدعتان في بئر عميقة ..

تجمع جمهور الضفادع حول البئر، ولما شاهدوا مدى عمقها صاح الجمهور بالضفدعتين اللتين في الأسفل أن حالتهما ميئوس منها وأنه لا فائدة من المحاولة ..

تجاهلت الضفدعتان تلك التعليقات ، وحاولتا الخروج من تلك البئر بكل ما أوتيتا من قوة وطاقة .. بينما استمر جمهور الضفادع بالصياح بهما أن تتوقفا عن المحاولة لأنهما ميتتان لا محالة.. وانصاعت إحدى الضفدعتين لما كان يقوله الجمهور .. وحل بها الإرهاق واعتراها اليأس .. فسقطت إلى أسفل البئر ميتة .. أما الضفدعة الأخرى فقد استمرت في القفز بكل قوتها .. واستمر جمهور الضفادع في الصياح بها طالبين منها أن تضع حداً للألم وتستسلم لقضائها ، ولكنها أخذت تقفز بشكل أسرع وأقوى حتى وصلت إلى الحافة ومنها إلى الخارج وسط دهشة الجميع .. عند ذلك سألها جمهورالضفادع .. كيف استطعت

تجاهل صياحهم واستمرار المحاولة بالقفز دون كلل أو ملل .. فشرحت لهم الضفدعة أنها مصابة بصمم جزئي جعلها تظن وهي في عمق البئر أنهم يشجعونها على انجاز المهمة الخطيرة طوال الوقت ..

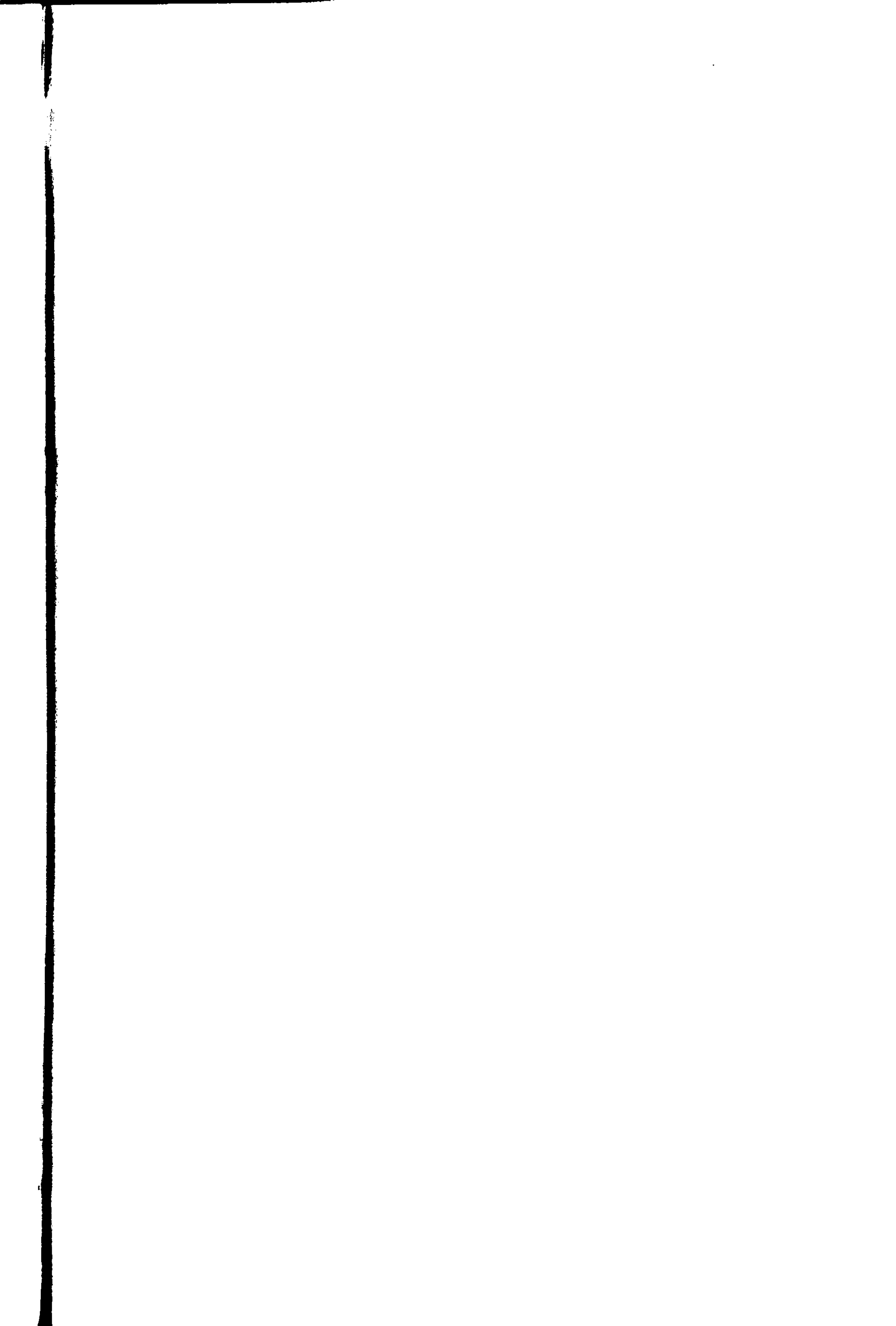
وبهذه الحكاية أحببت أن أختم لكم بعض الأسرار التي سردتها في كتابي هذا والذي تعرضت فيه للاحباط ذاته كما تعرضت الضفدعة تلك في الحكاية السابقة وفعلت الشيء ذاته ولكنني بإرادتي صممت أذني عن الاستماع للمحبطين من حولي وركزت سمعي على صوت واحد كانت يبث فيّ الروح بتحفيزه وتشجيعه لي وهو صوت صديقتي الكاتبة القطرية الدكتورة آمال الملا والتي حثتني على الاستمرار بالقفز بعيداً عن اليأس واكتساب الوقت بتوثيق الحقيقة كتابةً.. فلها مني جزيل الشكر.. لولادة هذا الكتاب على يديها وخروجه للنور.. فقد تحديت الجميع بالقفزة الأخيرة التي غيرت مجرى حياتي كلها ..

واضعة نصب عيني هذه اللوحة .. كلما شرعت بالكتابة لتنهمر الأسرار من قلبي والأفكار من عقلي .. فشكراً للوحة التحدي التي هي آخر ما رسمه الفنان القطري الراحل يوسف الشريف ..

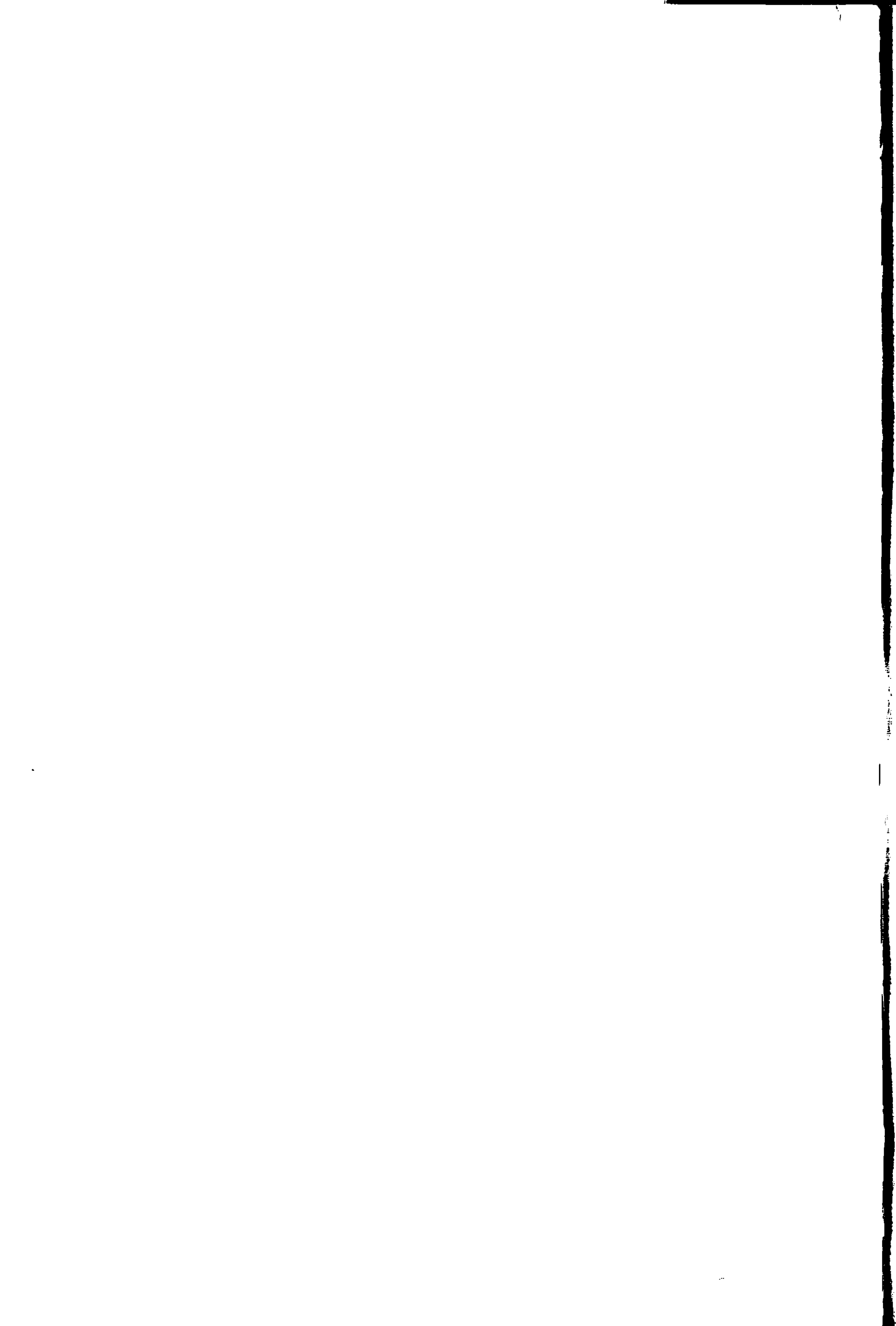
فالوجه الذي اختاره الراحل ليبثه ويختم به حياته ومشواره الفني لم يكن وجهاً ناعماً باسماً مجللاً بسيماء الملوك بل كان وجه بحار لفحت حرارة الشمس بشرته حتى أحالتها إلى جمرة

متقدة .. فنجح يوسف الشريف نقل أحاسيس الرجل التي لم تكن أقل حرارة من لهيب الشمس المسلطة عليه بالنظر إليها بتحدٍ واضح ..

وهي ما أردت أن أختم بها أسراري التي ألهبت أحاسيسي وتفكيري بالنظر إلى قرص الحقيقة والبوح بالأسرار بتحدٍ ..



الفهرس..



في قلب كل واحد منّا... الكثير من
الخفايا والأسرار... ولأنني كشهرزاد في
جعبتي الكثير من الحكايا... تمنيت أن
تشاركوني أسراري وحكاياتي... فقد
تكونون أحد أبطالها وأنتم لا تعلمون
بأنني قد مررت بحياتكم كالشهاب
في لمعته وسرعته...

فوصيتي لكم أن تقرؤوا أسراري
وتحفظوها في مكان آمن وفي
أغوار قلوبكم العميقة...

حنان علي علي الشرشني


ISBN 978-9953-542-68-3
9 789953 542683